

العثمانيون

تفكيك الصور

أنـدرو ويتكروفت

This is an authorized translation of *The Ottomans*, by Andrew Wheatcroft, published in 1993 by Penguin Group, England. The ECSSR is indebted to the author and publisher for permitting the translation, publication and distribution of this work under its name.

الطبعة الأولى 2014

النسخة العادية ISBN 978-9948-14-993-4
النسخة الفاخرة ISBN 978-9948-14-994-1
النسخة الإلكترونية ISBN 978-9948-14-924-8

توجه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:
مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567
أبوظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: +9712-4044541
فاكس: +9712-4044542

E-mail: pubdis@ecssr.ae
Website: http://www.ecssr.ae

مركـز الإمـارات للدراسـات والبحـوث الاستـراتيجيـة



دراسات مترجمة 73

العثمانيون: تفكيك الصور

تأليف: أندرو ويتكروفت

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/ مارس 1994، بهدف إعداد البحوث والدراسات الأكاديمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج والعالم العربي. ويسعى المركز لتوفير الوسط الملائم لتبادل الآراء العلمية حول هذه الموضوعات؛ من خلال قيامه بنشر الكتب والبحوث وعقد المؤتمرات والندوات. كما يأمل مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أن يسهم بشكل فعّال في دفع العملية التنموية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

يعمل المركز في إطار ثلاثة مجالات هي مجال البحوث والدراسات، ومجال إعداد الكوادر البحثية وتدريبها، ومجال خدمة المجتمع؛ وذلك من أجل تحقيق أهدافه المتمثلة في تشجيع البحث العلمي النابع من تطلعات المجتمع واحتياجاته، وتنظيم الملتقيات الفكرية، ومتابعة التطورات العلمية ودراسة انعكاساتها، وإعداد الدراسات المستقبلية، وتبني البرامج التي تدعم تطوير الكوادر البحثية المواطنة، والاهتمام بجمع البيانات والمعلومات وتوثيقها وتخزينها وتحليلها بالطرق العلمية الحديثة، والتعاون مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة في مجالات الدراسات والبحوث العلمية.

المحتويات

شكر وتقدير

على مدى الأعوام الكثيرة التي جمعت خلالها مواد هذا الكتاب، أصبحت مَديناً للكثيرين بالشكر والعرفان. ومن دواعي شكري وامتناني أن مؤسسات كثيرة بذلت جهداً كبيراً لإشباع فضولي، وغالباً في مجالات بعيدة عن اهتماماتها الرئيسية. ولكن بالنظر إلى المنطق الغامض الذي يجري على أساسه تكديس المكتبات والأرشيف، فقد انتهى الأمر بالمؤسسات إلى أن تقتني بعض المواد غير المتوقعة، وأحياناً أكون أنا الوحيد الذي طلب رؤيتها خلال قرن من الزمان أو أكثر. ولا يسعني إلا أن أذكر بعميق الشكر والامتنان تلك المؤسسات التي فعلت أكثر من الواجب المطلوب منها؛ فأشكر العاملين في أرشيف القصص التركية الشفوية بالمكتبة التقنية في جامعة تكساس، وأرشيف قصر الحمراء، وأرشيف ريال شانسيليريا Real Chancilleria في غرناطة، ومكتبة باينيكي التابعة لجامعة ييل في الولايات المتحدة الأمريكية، ومكتبة بايزيد الحكومية في إسطنبول، ودار الكتب الوطنية، والمكتبة البريطانية، ومكتبة جامعة إدنبرة، وإسبيس ألبرت خان في بولونيا-بيلانكورت بفرنسا، ومركز بحوث الإنسانيات بجامعة تكساس في أوستن بولاية تكساس، وأرشيف هاوس وهوف أند ستاتسارشيف Haus-, Hof-und Stsstsarchiv في فيينا، ومتحف هيريسجيشيكتليشز Heeresgeschictliches في فيينا، ومكتبة هنري وايدنر بجامعة هارفارد، ومكتبة مكتب الهند في لندن، ومعهد العالم العربي في باريس، وأرشيف كريجسارشيف Kriegsarchiv في فيينا، ومكتبة الكونجرس بواشنطن، ومكتبة جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، ومركز الشرق الأوسط التابع لكلية سانت أنطوني في أكسفورد، والأرشيف الوطني بواشنطن، ومكتبة اسكتلندا الوطنية، ومركز أبحاث التاريخ والفن والثقافة الإسلامية في إسطنبول، والمتحف السامي التابع لجامعة هارفارد، ومكتبة لندن، ومكتبة الجامعة في كامبردج، ومكتبة جامعة ستيرلنج، ومتحف فيكتوريا وألبرت: قسم المطبوعات والرسومات.

وأود أن أتقدم بالشكر أيضاً بصفة فردية إلى جميع الذين أوضحوا التحديات الثقافية أو النقد (البنّاء عادةً) أو قدموا كرم الضيافة أو مجرد الدعم المعنوي. وقد استثمرت من دون هوادة أي شخص استطاع أن يجلب المعلومات أو يقدمها لي أو يفحصها، أو يترجم أو - ببساطة - يفسر لي بصبر الأمور التي أدى جهلي بها أو افتقاري إلى المهارة اللغوية فيها إلى عدم استيعابي لها، وفي بعض الحالات ظلوا ينتظرون عقوداً من الزمان ليروا هذه النتيجة الصغيرة لجهدهم. وأقتصر هنا على إيراد قائمة مرتبة أبجدياً بأسمائهم [بحسب الأبجدية الإنجليزية للاسم الثاني]؛ لأن أي شكل آخر للترتيب سيكون مبعث استياء.

أقول شكراً لنور التينيلدز، ودون جيسوس برموديز باريجا، وصالح باي، وجون برور، وكريستيان كرانمر، وديفيد دامانت، وروي دوجلاس، وكريستوفر ديوفي، وحسن دومان، وجاري وميريام إدسون، وروي فلوكنجر، ورجاء فوزية، ود. إيريك جبرائيل، وكارني جافين، وجيليان جرانت، وبروفيسور روبرت هيلنبراند، وبيتر هوبكنز، وبروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلو، وجون كيجان، ورسا أ. مورينو، وروزماري مورجان، وريتشارد بيرس موس، وعبدالرحمن مسامح، وكاوري أو كونور، وفارول أوزكوجاك، وسوزان بيترز، وسايمون شاما، وفيكتوريا سميث، وكارول ستاب، وجوناثان ستاينبيرج، وجيل فيرهيجي، وباربارا ووكر، ووارين هـ. وكر، وم. ك. يلماظ.

أود أيضاً أن أشكر، تحديداً، تشارلز نيوتن من قسم المطبوعات والرسومات في متحف فيكتوريا وألبرت؛ للعون الذي قدمه لي؛ فقد أسهمت خبرته التي شملت مجموعة مذهلة من المواد البصرية حول العالم الإسلامي، مقرونة بموارد مجموعة سيرايت في المتحف، في تسهيل العثور على صور توضيحية، كنت أحتاج إليها للموضوعات التي نوقشت في الكتاب بسرعة وكفاءة ملحوظتين.

ولم أكن لأستطيع متابعة اهتمامي بالعثمانيين والاستمرار طوال هذه المدة في البحث، لولا التشجيع المبدئي من فيرنون باري الذي استمع إلى أفكاري وأبدى ملاحظاته عليها،

وأجاب على استفسارات لا نهاية لها. وقد أحزنت وفاته المفاجئة أصدقاءه الكثر، وحرمت حقل دراسة العثمانيين أحد أكثر عقوله مرونة واستقصاء.

ومن المتعارف عليه أن يشكر المؤلفون ناشريهم، ويكون الشكر عادة بصيغة «ولولاهم لما قدر لهذا الكتاب أن يؤلف». وهذا ينطبق تماماً على إيليو جوردون؛ إذ تميزت بقدرة أسطورية في انتقاء مؤلفين قد قعدت بهم الهمة عن اللحظات الكئيبة المحتومة، فتزيل عن عزيمتهم الغبار، ثم تطلقهم للعمل من جديد بلطف (ولكنه لطف معقول). وفي حالتي، فأنا أدرك طاقتها ومهاراتها المهنية، ولكن قبل ذلك كله كان هناك الدفء والحماسة التامان اللذان تتمتع بهما شخصيتها. وأود أيضاً أن أعبر عن امتناني لبوب دافنبورت الذي أسهمت قراءته للنص في إنقاذي من كثير من الأخطاء والسقطات، وما بقي منها فهو راجع إما إلى جهلي وإما إلى عنادي في رفض التعديلات المقترحة.

لكنني مدين حتماً ببالغ الفضل لجانيت ويتكروفت التي تجشمت عناء أذونات الغياب في تركيا وأماكن أخرى، وإمطارها بوابل من مسودات بعض النصوص الشاقة والمملة، والتي تحمّلتها بروح مرحة، وإلى ذلك كله صبرها الذي لا حدود له. وإهدائي الكتاب لها هو أقل القليل الذي يمكنني فعله.

ملاحظة بخصوص التحرير

إن قدراً كبيراً من الثقافة العثمانية مقيد بلغتها، حتى إنني استخدمت عدداً من المصطلحات بالتركية العثمانية الأصلية. وغالباً ما كانت تصعب ترجمة أسلوب التعبير؛ ومن ثم، المفاهيم التي ينطوي عليها إلى اللغة الإنجليزية، أو كون هذه المفاهيم تأتي في عدد من الصيغ. ومثال ذلك، الافتتاحية التشريفية لإعلان السلطان عبدالحميد الذي يقول: «بعناية الله وبموجب رمز الخير [طغراء* أو خاتم] سلطان السلاطين، وبموجب الخاتم الساطع للخان الكبير الذي يحمي العالم». ببساطة وقد يبدو هذا نوع من الإطناب عديم المعنى للقارئ الناطق بالإنجليزية، ولكن دقة اللغة تكمن في الرسم اللفظي. فالتركية العثمانية خلطت بين التركية والعربية الفصحى والفارسية، مشوهة كلاً من هذه العناصر لتستوعب الخصوصيات اللغوية لغيرها ضمن إطار نص بحروف عربية، أما اللفظ فهو أقل المشكلات.

تستخدم اللغة التركية بعض الحروف والنبرات غير الموجودة في اللغة الإنجليزية. ولأغراض هذا الكتاب [بالنسبة إلى النسخة الإنجليزية]، ينبغي أن يلاحظ القراء أن حرف c – على سبيل المثال – يلفظ مثل j في كلمة joint. وإن كان ثمة صيغة إنجليزية مقابلة للكلمة العثمانية فقد استعملتها؛ مثل كلمة باشا pasha، وإن كنت أوافق على أن هذا نوع من التطابق المنطوي على تباين. وبالروح نفسها استخدمت صيغ الجمع الإنجليزية بدلاً من الصيغ التركية الصحيحة، وذلك مراعاة للوضوح. وعلى الرغم من أن بعض الأسماء الشخصية تظهر بالصيغ التي تستخدم فيها عادة، فقد قررت استخدام أسماء السلاطين بوضع حرف d محل حرف t الذي يأتي في نهاية الاسم، وعرضت أسماءهم بطريقة تجعلها أسهل على القارئ الناطق بالإنجليزية.

---

* الطغراء tuğra: الختم السلطاني، وهو ختم أو توقيع استعمله السلاطين العثمانيون عند توقيع الفَرمانات والرسائل؛ واتخذ الختم أو الطغراء شكلاً محدداً ممزوجاً من خطَّي الديواني والإجازة. (المترجم)

وهناك دليل مختصـر مفيد للغة التركية هو التركية العامية من تأليف يوسف ماردين، منشور كالآتي:

Yusef Mardin, *Colloquial Turkish* (Routlegde & Kegan Paul, 1961).

قائمة بالسلاطين العثمانيين بعد فتح القسطنطينية

محمد الثاني "الفاتح" 1444–1446، 1451–1481

بايزيد الثاني 1481–1512

سليم الأول 1512–1520

سليمان الأول "القانوني" 1520–1566

سليم الثاني 1566–1574

مراد الثالث 1574–1595

محمد الثالث 1595–1603

أحمد الأول 1603–1617

مصطفى الأول 1617–1618، 1622–1623

عثمان الثاني 1618–1622

مراد الرابع 1623–1640

إبراهيم 1640–1648

محمد الرابع 1648–1687

سليمان الثاني 1687–1691

أحمد الثاني 1691–1695

مصطفى الثاني 1695–1703

أحمد الثالث 1703–1730

محمود الأول 1730–1754

عثمان الثالث 1754–1757

مصطفى الثالث 1757–1774

عبدالحميد الأول 1774–1789

سليم الثالث 1789–1807

مصطفى الرابع 1807–1808

محمود الثاني 1808–1839

عبدالمجيد 1839–1861

عبدالعزيز 1861–1876

مراد الخامس 1876

عبدالحميد الثاني 1876–1909

محمد الخامس 1909–1918

محمد السادس 1918-1922

خريطة الإمبراطورية العثمانية

PAX OTTOMANICA

The furthest extent of the Ottoman cultural & political zone

تمهيد

ليس هذا الكتاب تأريخاً عاماً للإمبراطورية العثمانية؛ فقد قام بكتابة هذا التاريخ على نحو شامل اللورد كينروس Lord Kinross وألان بالمر Alan Palmer اللذان تم ذكر كتبهما ضمن مراجع هذا الكتاب. ولحسن الحظ فإنني لم أقم بمهمة عرض تعقيدات الدبلوماسية ودهاليز السياسة الدولية والعثمانية، أو الاستفاضة في الوضع الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية، بل يدور هذا الكتاب حول فكرة العثمانيين، وكيف أنها أصبحت في الغرب للأسف! مفصولة عن الواقع. ولعله سيكون من الممكن تأليف نوع مماثل من الكتب يبحث في سوء فهم الغرب للعثمانيين، كما فعل برنارد لويس في كتابه **اكتشاف المسلمين لأوروبا** *The Muslim Discovery of Europe*.

وقد سعيت أيضاً لتجنّب الرسومات المبالغ في استخدامها، واللوحات المرسومة بالألوان المائية، واللوحات الزيتية للمواكب والمراسم والمناسبات العامة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، وهي التي تسود معظم الكتب حول العثمانيين. ولا ترجع أسباب هذا إلى أن هذه الأشياء غير مهمة، بل لأنها تشوه صورة العالم العثماني في القرن التاسع عشر. لكن الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر كانوا بالفعل يتوقعون أن يجدوا الغرائب التي وصفها الفنانون المستشرقون، ولهذا يظهر بعض اللوحات في هذا الكتاب. وقد استخدمتُ الرسومات الكاريكاتيرية والصور الشعبية أيضاً؛ لأنها تكشف الميول والتحيزات. وقد اتبعت إلى حد ما، اهتمامات الغربيين وليس اهتمامات العثمانيين أنفسهم. ولا يصدر هذا عن أي شعور بتفوق الغرب على الشرق، بل هو في جانب منه مشكلة المصادر المشار إليها في المقدمة. وباعتبار أنني لست تركياً، فإنني أعالج الموضوع عن بعد أيضاً زمانياً وثقافياً؛ ما يعني أن ثمة "عنصرين حاجبين" حالا دون ذلك. ولكنني أُقدِم على الموضوع بإحساس بالدهشة والإعجاب، عبَّر عنهما أفضل تعبير ديفيد أوركوهارت David Urquhart، وقد تم إيضاح ذلك في الخاتمة.

ومنذ فراغي من العمل في هذا الكتاب، أدركت أن هناك إضافتين مختلفتين تدعو الحاجة إلى إدراجهما فيه؛ أولاهما تتعلق بكتاب بيلي ميلمان Billie Melman **توجهات النساء: النساء الإنجليزيات والشرق الأوسط**، الذي حصلت عليه في وقت متأخر جعلني لا أستطيع إلا أن أتصفحه؛ ومن ثم أن أضيف ملاحظة بشأنه، وأذكره ضمن المصادر والمراجع. ومنذ ذلك الوقت، أتيحت لي الفرصة لقراءته بمزيد من العناية، وأود أن أشير إلى أن أي شخص مهتم بالأفكار الواردة في الفصل السابع من هذا الكتاب ربما يجد الجزء الثاني من ذلك الكتاب مثمراً، مثلما وجدته أنا. والكاتبة تنظر إلى الأمور من منظور مختلف، وتحلل عدداً كبيراً من المصادر، والنتيجة أنه كتاب يتمتع بأهمية حقيقية.

أما الإضافة الثانية فتتعلق بانبعاث الإبادة الجماعية في أوروبا. عندما كتبت في الخاتمة أنه «لا توجد نهاية؛ أي أن العلاقة بين العثمانيين وأوروبا؛ (بين الأتراك والغرب)، تشهد تغيراً وإصلاحاً مستمرين»، كان من المستحيل الاعتقاد أن الأحقاد البلقانية الداخلية القديمة ستعود إلى الظهور كما حدث في البوسنة والهرسك، أو تخيل أن عائلات الأتراك الوافدين سيتم حرقها حتى الموت من النازيين الجدد، في مدينة ألمانية تقليدية هادئة؛ مثل سولنجن. وعلى خلفية هذه الفظائع، يبدو أن ما يلتمسه هذا الكتاب بشكل رئيسي؛ وهو قبول الاختلافات الإنسانية، لا يمثل للأسف استجابة كافية! ولكنه الأمر الوحيد الذي يمكنني فعله. وإن الإيحاء - كما يفعل بعض الناس الآن - بأن ما حدث تحت الحكم العثماني منذ قرن أو أكثر "يسوغ" الفظائع الحالية، إنما هو من محاكمات التاريخ الزائفة.

مقدمة

لم تكن الإمبراطورية التي تتربع على جانبي الطريق البرية الطويلة بين آسيا الصغرى وأوروبا تنتسب تماماً إلى أي منهما. فهي بالنسبة إلى الأوروبيين كانت تتجلى فيها كل الصفات السلبية التي كانوا يلصقونها بالمشرق؛ من غرابة وفجور جنسي وقسوة وخداع. كما مثلت الدولة العثمانية بالنسبة إلى جيرانها المباشرين شرقاً وجنوباً قوة غريبة وضعت سلطتها وسيطرتها المركزيتين في مواجهة الطموحات والرغبات المحلية؛ بهدف إقامة "سلام عثماني" ليحل محل سلطة روما السابقة (صلة تاريخية أقامها الحكام العثمانيون لأنفسهم). ومنذ قدوم العثمانيين إلى القسطنطينية - وهو منطلق هذا الكتاب - كان للعثمانيين وجهان، وجه للشرق وآخر للغرب.[1] وإن شغلي الشاغل هو هذا الغموض الملاحظ الذي صبغ الفهم الغربي على مدى القرون التي وُجدت فيها الإمبراطورية تقريباً، وهو بالفعل مستمر حتى وقتنا الحاضر.

مَنْ العثمانيون؟ الإجابة الصحيحة والدقيقة، هي: العدد الكبير من أفراد أسرة آل عثمان وأولئك الذين ينحدرون من سلالتهم. وثمة إجابة أكثر عملية تتمثل في تعداد جميع الذين شاركوا في إدارة الإمبراطورية: طبقة حاكمة من المسؤولين والجنود والإداريين. ولكن عبر القرون، وحتماً بحلول القرن التاسع عشر، أصبحت العثمانية اتجاهاً عقلياً تجلى في أسلوب الحياة؛ من خلال اللباس واللغة والعادات الاجتماعية. وكما أصبحت إمبراطورية روما نظام حياة؛ حيث صاغت المواقف والعلاقات بين البريطانيين أو المصريين الذين لم يروا المدينة الخالدة، فكذلك أصبحت كلمة "عثماني" أيضاً ذات طابع ثقافي أكثر منها ذات طابع سياسي أو طابع عرقي.

لقد أدت هذه الحقيقة المحورية، حول "العالمية" العثمانية، إلى إحداث نفور شديد في أوساط القوميين الأتراك الذين أسسوا الجمهورية التركية من بقايا الإمبراطورية القديمة.

فعلى أيديهم، وعلى مدى خمسين عاماً، ذوَت الثقافة العثمانية، والآن فقط، وبعد ثلاثة أرباع القرن تقريباً من نهاية الإمبراطورية الفعلية سياسياً، تنظر تركيا الجمهورية بمزيد من الاحترام (والحنين أحياناً) إلى أسلافها.

لكن مرسوماً حكومياً لا يدمر العالم النفسي الداخلي؛ فقد استمرت المواقف العثمانية منذ عشرينيات القرن العشرين، بطابعها المحض تقريباً. واكتسب العثمانيون السابقون عادات جديدة في الكلام، وسمّوا أنفسهم الأتراك، وتخلّوا عن الطربوش والجبة الإسطنبولية ليرتدوا القبعة الأوروبية (البرنيطة) وبدلة الاستعمال اليومي، غير أنهم ظلوا عثمانيين في قلوبهم وبيوتهم. وفي صميم مقاومتهم للتغيير كانت ثمة مفارقة؛ صلابةٌ لينة.

على مدى قرون أظهر العثمانيون وجهاً يمثل عدم التغيير إلى درجة تجعل من الصعب القول إذا ما كانت صورة ما تمثل مشهداً من القرن الثامن عشر أو السادس عشر. ومع ذلك، فقد تغيروا بالفعل، استجابة لأوامر حكومية عالية أشد فظاظة من تلك التي كانت تصدر عن الجمهوريين المتحمسين في عشرينيات القرن العشرين. أما ظاهرياً، وليس من داخلهم، فكانوا هادئين في وجه القوة الخارجية، مذعنين للسلطة، ولكنهم يتصفون بالصلابة من كل ناحية.

هذه هي الصفات التي ورثتها تركيا الحديثة، وهي - كما أرى - عثمانية حتماً. ومن خلال فهم الحقائق الأساسية للحكم العثماني على مدى خمسة قرون تقريباً، نجد أن العقلية غالباً ما تكون أكثر أهمية من الأحداث السياسية العابرة. غير أن الفهم قد يكون مهمة مستحيلة؛ لأن العثمانيين غامضون ويستعصون على الفهم، ولاسيما عندما يجري التركيز عليهم. وقد كان ذلك الغموض وعدم الشفافية أمراً عاماً؛ فلا توجد سجلات للتحقيق تسجل الحقيقة بإخلاص حول الزنادقة والمبتدعين والمنحرفين الخطرين عن العرف الاجتماعي؛ لتجعل من الممكن إلقاء ضوء على الحياة السرية للأوروبيين. كما لا

يوجد الكثير من الرسائل أو مذكرات الاعتراف والوثائق التي كتبها أو لفقها - إن جاز القول - عثماني، كدليل إن ظن أنه على وشك أن يخضع لعدالة السلطان.

وهناك من هم أكثر صمتاً أيضاً، وهم أولئك الذين عاشوا في العالم الآخر للعثمانيين، من نساء خلف الحجاب؛ أي خلف أبواب الحريم، ولسن في القصور فحسب، بل في بيوت متواضعة: "الحرملك"؛ أي جناح النساء، و"السلاملك"؛ أي جناح الرجال أو الاستقبال والمضافة، وهما نقيضان لا يكادان يجتمعان.

ومع هذا فالأدلة متوافرة بكثرة، إلا إذا لم تكن من نوع الأدلة التي يرى مؤرخ تدرب على التقاليد الغربية الأوروبية أنها كافية. ولكنها حينئذٍ، حتى في المجالات التي توجد فيها وثائق معتمدة ومقبولة، تكون قيمة تلك المعرفة محدودة. كانت قيمة النص المكتوب في العالم العثماني أكبر وأقل في آنٍ واحدٍ، مما كانت عليه في المجتمع الأوروبي. ففي ثقافة وصلت إليها المطبعة بعد ثلاثة قرون تقريباً من تجذرها في أوروبا، كانت النصوص المكتوبة ذات معنى خاص؛ ففي المجتمع العثماني كان النص المكتوب يعد أولاً، عملاً مقدساً يشترك في القيم البصرية والشخصية نفسها التي يحظى بها القرآن الكريم، ويعد ثانياً، عملاً من أعمال فن الخط. ولكي نجد موازياً لهذا في المجتمع الأوروبي، فإننا نحتاج إلى العودة إلى ما قبل انتشار الطباعة؛ أي إلى مرحلة كانت الوثيقة - بمجرد وجودها وبحقيقة كونها مكتوبة - تعد صحيحة بمعزل تماماً عن مضمونها. ومثلما هو الأمر بالنسبة إلى البقايا الكثيرة لـ "الصليب الحقيقي"؛ [أي ما تبقى من أجزاء الصليب عند معتنقي المسيحية]، فإن كون وثيقة ما، حقيقية أو زائفة يعد أقل أهمية من كونها موجودة، وكانت تحظى بالاحترام لقدمها أو جمالها أو مهارة تأليفها أو إنشائها. لقد كانت أي وثيقة في الإمبراطورية العثمانية، حتى بعد اختراع الطباعة، مشحونة بالمعنى بغض النظر عن محتواها.

وفي هذا المجال من الكلمة المكتوبة تكمن بؤرة مركزية[2] لسوء التفاهم بين الشرق والغرب، ودلالة على النهج المعتمد في هذا الكتاب. بين فترة وأخرى، وفي أدب الرحلات

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للإمبراطورية العثمانية، كان الغربيون يؤكدون الحاجة إلى التوثيق المثير للإعجاب بصرياً. وهم يشيرون إلى أن ما تقوله الوثيقة أقل أهمية من مظهرها. ففي أسوأ الأحوال، ما عليك إلا أن تلوّح بأي ورقة تبدو من منظرها أنها موثوق بها، فإذا بسبيلك تغدو ميسرة. وفي أحسن الأحوال انظر إن كنت تستطيع إقناع باشا محلياً بتذييلها بتوقيعه. إن عدم الاهتمام هذا بالمحتوى لم يكن له معنى في نظر الغربيين.

بالطبع، تعد - جزئياً - هذه قضية تتعلق بالقراءة والكتابة، وهؤلاء الكتّاب الغربيون يسخرون من "التركي الأمي" بسبب جهله. ولكنهم بفعلهم هذا، فإنه يفوتهم الجوهر الخفي للوثيقة بالنسبة إلى العثماني؛ إذ لم يكن من السهل الحصول على تفويضات خطية، ولم يكن هذا ممكناً في الأغلب إلا من خلال الإقناع أو الصفقات أو الرشوة. إن المظهر الخارجي يعكس أهمية مضمون الوثيقة، كما قد يظهر من تفصيل أمرٍ عالٍ للسلطان، وكان وضع أحد الموظفين توقيعه على وثيقة يعني إلزام نفسه نهائياً، بل على نحو مُهلك؛ فكثيرون كان مصيرهم حبل المشنقة؛ نتيجة "طغراء" تم وضعه بصورة تفتقر إلى الحكمة. ولهذا نجد أن جوهر الوثيقة لدى الغربيين هو مضمونها، ولدى العثمانيين الوثيقة نفسها؛ بوصفها نصاً منظماً بعناية يرمز للسلطة والصلاحية.

يمكننا أحياناً أن نلمح هذه القراءة الحذرة للنصوص المتضمنة للسلطة في أوروبا، في الأدب والسجلات التاريخية معاً. فقد تضمنت مسرحية الكاتب جوجول Gogol **المفتش العام** *The Government Inspector* هجاءً ساخراً من الموظفين في بلدة صغيرة في روسيا القيصرية؛ حيث افترضوا أن شخصاً بغيض المظهر كان في الواقع المفتش العام الذي طال انتظاره (والخوف منه). وقد تحولت هذه القصة الخيالية إلى واقع في ألمانيا القيصرية؛ حيث كان هناك رجل عاطل عن العمل في بلدة كوبينيك الصغيرة قرب برلين، قبيل الحرب العالمية الأولى، أقنع الجميع أنه نقيب في الجيش. وفي العالم العثماني، كان مغزى مثل هذه السذاجة الظاهرة أمراً مفهوماً على الفور. ألم يكن السلاطين يتخفّون ويتجولون بين شعبهم؟ ولذلك كنْ حريصاً مع الشخص الغريب؛ خشية أن يكون يمتلك سلطة خفية،

(أو حتى أن تكون امرأة، كما اكتشفت جرترود بل Gertrude Bell في العراق). كانت النجاة والبقاء في العالم العثماني الملتوي والمعقد، والخطير على الدوام، تتطلب مهارات تأويلية عالية المستوى. إن قرأت الحروف والرموز القديمة بشكل خاطئ، فاعلم أن الموت أو كارثة بانتظارك أنت وعائلتك على الفور.

ولذا، إن كتبتَ عن العثمانيين، فإن الأمر يستدعي فحص كل دليل، ليس ظاهرياً فحسب، بل من خلال علم الآثار، وذلك بالنظر في سياقه ومعانيه الأوسع نطاقاً. وتعد هذه المهمة شاقة جداً، وهذا الكتاب معني بوضع نهج لا بتقديم إجابة حاسمة. واستجابة لطلب مسوغ؛ كأمر قضائي يستصدر ضد من زاول عملاً بغير حق - فبأي حق لي، أنا الغريب الضعيف العدة لغوياً، أسعى للقيام بمثل هذه المهمة - أستطيع فقط الإجابة؛ فاللغة وحدها ليست المفتاح، أضف إلى ذلك أننا غرباء في عالم العثمانيين. وثمة حاجة إلى أسلوب جديد للتفسير التاريخي، ومع بدء حكومة تركيا بفتح ثروات محفوظاتها وأرشيفها المعقد والمذهل للتمحيص العام، فلعله آن الأوان لأن نفكر بمدى أفضلية أن نتولى المهمة التي لا حدود لها، وهي فهم العثمانيين.

إن العنوان الفرعي لهذا الكتاب - "تفكيك الصور" - ليس ببساطة تلاعباً بالألفاظ، وإنما يدل على المشكلة وعلى النهج الذي أخذتُ به معاً. لقد تلاشت الحقائق الأصلية التي بدأت بها هذا الكتاب، حينما تحققت من أن صورتي الأصلية عن العثمانيين لم تصمد تحت ثقل الأدلة. واستمرت العملية - وماتزال - فكل زيادة في المعرفة - من إنتاج مجموعة صغيرة من العلماء الغزيري الإنتاج الذين كانوا يستخرجون مكنونات سجلات الأرشيف العثماني خلال العقود الثلاثة الماضية - تسهم في إحداث تغييرات دقيقة في الصورة. وبصورة خاصة، أسهم العمل على طرفي نقيض الموضوع في المكان والزمان؛ أي في الأرشيف الإسباني بالقرن السابع عشر الذي يعالج مشكلات السكان المسلمين في الدولة، وفي سجلات الأرشيف التي تتناول الخليج العربي في القرن التاسع عشر، في تزويدنا بمنظور خارجي غير عادي عن العثمانيين.

لا يُعنى هذا الكتاب بالحديث عن العثمانيين بقدر ما هو معنيٌّ بـ "صورة" العثمانيين، وكيف أن الصورة تلاشت وتشكلت من جديد على مدى أربعة قرون. ويمكنني أن أضيف أنها ماتزال تتحلل وتعود إلى التشكل؛ لأن العلاقة بين تركيا الحديثة وأوروبا الغربية ماتزال أسيرة مخاض مواقف القرن التاسع عشر. والسؤال المركزي، هو: كيف يمكننا استخدام العدد الكبير من الآراء حول العثمانيين في ظل التناقض بين وجهات النظر الداخلية والخارجية؟ يتمثل أحد الأساليب والمقاربات ببساطة في تهميش جميع هذه المواد والاعتماد على المصادر العثمانية الأولية والثانوية. ولكن هذه - كما أشرت من قبل - لا يمكن أن تعطي كل الأجوبة. والواقع أن وجهة النظر الخارجية يمكن أن تكون أكثر حدة واستجواباً، ويعد تحقيق ريتشارد فورد الذي لم يملّ أو يكلّ حول إسبانيا في بداية القرن التاسع عشر حالةً تقليدية.[3] وفي حالة الإمبراطورية العثمانية، قلما كان الموظف العثماني يسافر أكثر مما كان يطلب منه، وعندما فعل ذلك، فقد كان يفعله عندما يسير مع حاشية السلطان. كان قليل من هؤلاء الموظفين من يقوم بالتجوال، كما كان يفعل بعض الزوار الأجانب، في مناطق بعيدة وظروف قاسية. وبالفعل، فقد كان الكثير من الشكوك بالأجانب ناتجاً من عدم فهم سبب رغبتهم في السفر إلى مناطق موحشة من البلاد. قد يكون التجسس هو الجواب الوحيد، وقد استجاب الموظفون على هذا الأساس. وهناك قيمة فريدة لمعلومات شهود العيان الأجانب هؤلاء.

ولكن بأي عيون كان هؤلاء الشهود ينظرون؟ والجواب الوحيد يمكن أن يكون: من خلال نظرة استشراقية؛ فتقارير المستشرقين تنتقل من الملاحظة إلى تحامل متشائم، ونعود فنقول مرة أخرى: لقد استطاع الزوار الأوروبيون في القرن التاسع عشر أن يكونوا في الوقت نفسه مراقبين صادقين ودقيقين، ومعلقين متحيزين. وحيث تنتهي الملاحظة ويبدأ التعليق تجد من الصعب دائماً الفصل، ولكن إدوارد سعيد في كتابه **الاستشراق**،[4] أورد العناصر التي يمكن أن يبدأ منها مثل هذا التفسير. فهي تجربة صعبة تماماً مع النصوص، ولكنها تغدو أكثر صعوبة إلى درجة لا حد لها إن توسع فيها المرء - كما حاولت أنا أن أفعل - إلى حل الشيفرة أو الرموز في الوثائق البصرية.

وتحديداً، أرى أنه بحلول القرن التاسع عشر، وبعد خمسة وسبعين عاماً من الاتصال الوثيق دوماً، كوّن الغرب آراء نمطية حول العثمانيين تندرج في موقفين، الأول هو "التركي الشهواني"، وهو عنوان رواية إباحية واسعة الانتشار، نشرت أول مرة عام 1828، وبقيت مشتهرة طوال القرن التاسع عشر؛ وهي ترمز إلى الخيال الشهواني الذي أشرب العثمانيين بهذه الرذائل، ما مكن الغربيين من عزلهم بوصفهم لا قيمة لهم. والرأي الثاني هو "التركي الرهيب"، وهي قصة الشجاعة الشريرة، أو كيف أنه، في المجتمع الشرير، حتى الصفات الفاضلة يتم الحط من قدرها. وهكذا، نجد أن التركي يمكن أن يكون شجاعاً ومحترماً، أما في قلبه فهو "وحش"؛ الأمر الذي يرجح كل شيء آخر. لقد أوضح جلادستون[5] العلاقة بين الجنس والوحشية، وبين «بوابات تدفق الشهوة» المفتوحة، و«أشكال التفنن الرهيبة في القسوة».

وتكاد تجد هذه الصفات في جميع النصوص والصور الغربية المعنية بالعثمانيين، وقد تؤدي إلى إدانة هذه المصادر؛ بوصفها لا قيمة لها. وأنا أرى أنه من الممكن تصفية النصوص، وإزالة التحريفات الجسيمة، بحيث يتم التخلي (من دون شك) عن التحريف الماكر وغير الظاهر، ولكن دونما إنكار لقيمة الأدلة التي تنطوي عليها. وبالنسبة إلى الصور؛ حيث تكون قوة الإقناع أكثر اعتماداً على التلميح الضمني، فقد سعيت للتواصل مع الإطار النصي الذي أخذت منه. وهذا ليس بالأمر السهل؛ فالترابط بين الصورة والنص مايزال فناً غير مؤكد، ونحن نتعلمه ببطء.

الفصل الأول

نهاية العالم

سقوط الإمبراطورية البيزنطية

قبل الفجر بوقت غير قليل، شرع الرهبان رؤساء كنيسة القديس ثيودوسيا بأداء شعيرة يرجع تاريخها إلى قرون مضت. فقد أسهم نفخ البخور من مبخرة في إضفاء حلاوة "مسكرة" على الحجرة الضيقة بينما كانوا يدخلون إلى المعبد. وهناك رفع الرهبان تابوتاً ذهبياً صغيراً من المكان الذي استقر فيه، وبدأوا ترتيلة بصوت منخفض حينما استداروا واتجهوا ببطء نحو المذبح العالي، وغادر الحشد الكبير من خلال ممر ضيق ليكتظ بهم صحن الكنيسة. وعلى الشرفات تدافعت النساء إلى السياج الحديدي ليشاهدن بشكل أفضل المشهد في الأسفل؛ فقد كانت ثيودوسيا ذات أهمية خاصة بالنسبة إليهن، بحياتها وطريقة استشهادها. وضع الرهبان التابوت على منصة منخفضة أمام المذبح، بحيث يرى الجميع محتوياته التي كانت عبارة عن جمجمة وكومة صغيرة من العظام الموجودة من دون ترتيب، كما بدت، في وعاء ثمين صُنع لشيء ذي قيمة عالية. ولكن هذه هي التي جاء الحشد الكبير ليراها؛ فقد كان الجثمان الميت لثيودوسيا الشهيدة أقوى رفات في القسطنطينية كلها والأكثر تأثيراً.

لقد وهبت ثيودوسيا حياتها لحماية التقاليد المسيحية في المدينة. ففي عام 729 ميلادية، عندما قام الإمبراطور البغيض ليو الإيسوري، المحطم للتماثيل الدينية، بإصدار الأوامر بتدمير تمثال المسيح المنصوب فوق البوابة البرونزية الكبرى، قادت ثيودوسيا نساء المدينة لمهاجمة الجنود الذين نفذوا أوامره؛ حيث تم قتل الضابط الذي أزال التمثال المقدس على يد النساء الغاضبات، وأُخذت ثيودوسيا سجينة. وتم سحبها إلى الساحة العامة وقتلها

بقرن كبش تم طعنها به بقوة في رقبتها. لقد كان موتاً بطيئاً وأليماً، ومهيناً عن قصد، وله مغزاه الرمزي العميق. ومع ذلك، إن كان قصد مقاومي تقديس التماثيل الدينية إذلال ثيودوسيا، فقد أخفقت المحاولة؛ إذ كتب المؤلف المجهول لسيرة حياة القديسة يقول: «إن قرن الكبش الذي قتلك يا ثيودوسيا ظهر لك مجدداً في شكل قرن أمالثيا Amalthea». كان الاستدلال واضحاً لقرائه، فقد كانت أمالثيا ممرضة الإله زيوس. ولأسباب غير موضحة في الأسطورة ولكن يمكن تخيلها بسهولة، اتخذت الممرضة شكل ماعز، وعندما كُسر قرنها من غير قصد، انسكب الرحيق ودم الآلهة؛ وهو الشراب الذي كان يمد الآلهة بأسباب الحياة، كما انسكب السائل الذي يشبه السيل والذي كان يجري في عروقهم من حافته المثلومة. وبالطريقة نفسها، كما أشار كاتب سير القديسين، غذّى موت ثيودوسيا حياة مدينتها.[1]

سرعان ما غدت ثيودوسيا رمزاً للتضحية والأنوثة الشهيدة. لقد ضحت بحياتها دفاعاً عن المدينة في وجه الرجال الشريرين، وتزايد عدد أتباعها بسرعة (غالباً بين صفوف فقراء المدينة). وقد أصبحت كنيستها التي كانت على بعد بضع ياردات فقط من القرن الذهبي Golden Horn، وهو ميناء المدينة الذي لا مثيل له، مركزاً للحج. ونسبت إليها معجزات في الشفاء، وما لبث جثمانها أن غدا موضع تبجيل ومقصد الحجاج من بلاد بعيدة. وقد نُسبت معجزات كثيرة إلى قوتها الروحية الغامضة. وبعد حادثة شفاء عجيبة عام 1306، عندما شفي شخص أصم وأخرس من مرضه، قدِم الإمبراطور أندرونيكوس الثاني وحاشيته قاطبة إلى الضريح وقضوا الليلة بكاملها أمام عظام القديسة وهم يصلون ويقدمون الشكر. وبعد ذلك، تم تكريم ثيودوسيا من جانب الأغنياء والفقراء معاً. وقد كان يتكرر تقديم الطقوس للرفات نحو أربع مرات خلال الأسبوع، وبحسب قول أحد الحجاج، وهو ستيفن من نوفجورود Stephen of Novgorod:

> كانت تلك أيام احتفالات سامية؛ فكل الطرق الموصلة إلى الكنيسة كانت مزدحمة بالرجال والنساء المتشوقين لمشاهدة الأعاجيب التي تجري. وقد عجت الباحة بمرضى يمثلون تقريباً كل شكوى يصاب بها جسم الإنسان. وتدفقت هدايا الزيت والنقود على الخزينة، وتوهجت

الكنيسة بالشموع المضاءة، وكانت الصلوات طويلة، والترنيمات مرتفعة. وفي تلك الأثناء، كان المرضى يُحملون واحداً تلو الآخر إلى الرفات المقدس، وقد شفي كل من كان مريضاً.

كان يجري إحياء ذكرى شهادة القديسة كل عام في 29 مايو، وكان عيدها يمثل مناسبة للاحتفالات العامة في سائر أنحاء المدينة. فبحلول 29 مايو، يكون الشتاء القارس الطويل قد انتهى أخيراً، والربيع قد أزهر، وأصبح بإمكان أهل المدينة الآن تقديم أنواع الثناء والإجلال للقديسة بخيرات الطبيعة، فكانت أكاليل الورد تحيط بالأعمدة العظيمة الأربعة التي كانت ترتفع إلى سقف قبة كنيستها، وتحولها إلى أعمدة شجرة خضراء ضخمة. وكانت الأزهار البرية تتدلى كالشلالات على أسيجة الأروقة. وفي صباح 28 مايو، تحولت الكنيسة على شواطئ القرن الذهبي إلى معبد من الأزهار. وفي أمسية يوم القديسة بدأت جوقات المرتلين المكونة من الأولاد والرهبان الإنشاد عند الغروب، واستمروا إلى الليل وفي أثناء يوم العيد نفسه. وقد غدا الجو داخل الكنيسة عابقاً برائحة البخور من حاملي المباخر الرائحين جيئة وذهاباً على طول صحن الكنيسة، واختلطت بها رائحة الزهور التي لا تحصى. لقد كان وقت الفرح والبهجة.

تسربت الأصوات والروائح العطرة من خلال أبواب الكنيسة إلى الشوارع، وكانت التراتيل الطنانة من الطقوس الدينية تسمع بشكل ضعيف حتى على الشاطئ البعيد للقرن الذهبي. وكان كل من يسمع، داخل الكنيسة وخارجها، يشارك في الاحتفاء بحياة ثيودوسيا. كان الناس يقبلون عليها في أوقات الشدة؛ فقد كانت قديستهم التي تحميهم دائماً في وقت الحاجة. وفي عام 1453، اشتدت حاجتهم بالفعل؛ ففي ذلك اليوم خاصة تم اقتحام المدينة والاستيلاء عليها. وفي المساء كانت الكنيسة خالية من المصلين، وتم تجريدها من أثاثها الفاخر وتماثيلها وكنوزها من المجوهرات. وأصبحت المدينة وكل ما هو داخل أسوارها غنائم حرب. وتمت إزالة عظام القديسة، التي ظلت موضع تعظيم على مدى قرون سبعة، من تابوتها الذهبي، وأودعت في التراب خارج الكنيسة، وتصارعت عليها الكلاب الضارية.

كان الصليب رمز القسطنطينية لمدة سبعة عشر جيلاً. وكان إمبراطور روما المسيحي، قسطنطين، قد جعل عاصمته في مدينة بيزنطة اليونانية القديمة على شواطئ البوسفور، وفي 11 مايو 330، خصص "روما الجديدة التي هي القسطنطينية" للثالوث المقدس ومريم. وقد دانت المدينة الجديدة بالقليل لروما القديمة وبالكثير لليونان؛ لأن الإمبراطورية لم تكن رومية إلا بنسبها السياسي الذي يعود إلى سلالة القياصرة. لقد كانت إمبراطورية إغريقية جمعت كل بقايا الهيلينية أو الحضارة الإغريقية في آسيا الصغرى. وعلى مدى 700 عام تقريباً حكمت هذه الإمبراطورية الإغريقية حتى لبنان جنوباً ومنابع الرافدين العظيمين؛ دجلة والفرات. لقد وقفت الجيوش الإغريقية (البيزنطية) في وجه تقدم العرب من الجنوب وقبائل الرحل الأولى التركية من الشرق. وتم كبح قوة البيزنطيين في معركة "ملاذكرد" (مانزيكرت Manzikert) عام 1071 عندما هزم المحاربون الأتراك الرحل فرسان القسطنطينية المحصنين بالدروع الثقيلة، وأخذوا الإمبراطور رومانوس الرابع أسيراً. ولكن الضربة المدمرة جاءت من رفاق مسيحيين؛ ففي عام 1204 انقلبت الجيوش المسيحية في الحملة الصليبية الرابعة على مضيفيهم البيزنطيين ونهبوا المدينة، وانفصلت الأقاليم التي كانت تشكل جسد الإمبراطورية القديمة عن مملكة القسطنطينية اللاتينية التي أقامها الصليبيون، مخلفة بقايا دولة تحكمها المدينة العظيمة. وفي عام 1261 تمت استعادة المملكة الإغريقية على يد الباليولوجيين Paleologues، وهم إحدى الأسر القيادية في القسطنطينية، ولكن لم تجرِ استعادة الإمبراطورية القديمة.

تم التهام الإمبراطورية تدريجياً؛ فالمحاربون الأتراك الذين هزم أسلافهم رومانوس الرابع في ملاذكرد ملأوا الفراغ الذي خلفه البيزنطيون. مَنْ هؤلاء السكان "المتوحشون" القاطنون على الحدود والذين هيمن اسمهم على نحو متزايد على صفحات المؤرخين؟ يأتي اسم "الأتراك" Turk من اللغة التي كانت تنطقها شعوب متنقلة كثيرة في آسيا الوسطى، وهو مصطلح كان مفهوماً من الصين إلى حدود أوروبا. وقد مثل هؤلاء الأتراك جنوداً مرتزقة للكثير من الحكام الشرقيين، حتى إن البيزنطيين استخدموهم. لقد كانوا جنوداً

مخيفين، تميزوا بمرونة الحركة والسرعة التي جعلت هذه القبائل الرحل فتاكة في الحرب، ولكنهم كانوا أيضاً يملكون انضباطاً ونظاماً داخلياً. وقد جاء الأتراك من السهول القاحلة الخالية في آسيا الوسطى ليفتحوا أراضي الأناضول الغنية. وهم بدورهم تم غزوهم من قبل موجات جديدة من القبائل الرحل الأخرى، أولاً من قبل المغول في القرن الثالث عشر، ثم من التتار في القرن الخامس عشر. ولكن هذه الجيوش جاءت وذهبت، أما القبائل التركية فقد تجذّرت في آسيا الصغرى، وقامت بتهجير السكان السابقين، وتخلوا عن نظام حياتهم المتنقل السابق. وقد بنى الأتراك البلدات والمدن وزرعوا الحقول والبساتين التي استصلحوها من أراضي الأناضول الصعبة. وفي الوقت الذي كانت فيه السلطنات والإمارات تسقط أمام موجات الغزاة، بقي الأتراك مسيطرين على المدن والقرى؛ فقد تجمعوا على شكل مجموعات من محاربي الحدود (وتسمى الغازي Gazi)، وعاشوا بالإغارة بعضهم على بعض أو على بقية الأراضي البيزنطية إلى الشمال. وكانت من أنجح هذه القبائل الحدودية: العثمانيون أو آل عثمان، التي حملت اسم مؤسسها عثمان. ومن الوقت الذي استولى فيه عثمان على مدينة بورصة القديمة في شمال غرب الأناضول عام 1326 (بعد حصار عشر سنوات)، أصبح هؤلاء الأتراك قوة قوية وثابتة على تخوم العالم المسيحي. وبعد ذلك بعشرين عاماً؛ أي في عهد ابن عثمان وهو أورخان، عبر العثمانيون البحر الضيق [بحر مرمرة] إلى أوروبا. وفي عام 1361، استولى العثمانيون على أدريانوبل (أدرنة)، المدينة الثانية في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وجعلوها عاصمتهم الجديدة.

تعثر التقدم المطرد للعثمانيين - مؤقتاً - بسبب غزوهم من الشرق؛ فقد هزم التتار بقيادة تيمورلنك - نصف تركي ونصف مغولي - الأتراك العثمانيين في معركة بأنقرة عام 1402. وثبت أن كون العثمانيين قوة لا تقهر عبارة عن خرافة عندما أسر تيمور سلطانهم بايزيد الأول، وحمل هذا التركي المغرور وتجول به في قفص (بعض المصادر تقول في محفة أو حمّالة) ليراه الجميع في حالة من المهانة. ولكن جحافل التتار المنتصرة عادت إلى الشرق من دون قائد؛ بعد موت تيمور عام 1405، وازدهر العثمانيون من جديد.

لم يكن النصر التتري الجديد إلا مهلة قصيرة للبيزنطيين المحاصرين؛ فقد استمر التقدم العثماني من دون توقف. وبحلول عام 1453 كان كل ما تبقى من المُلك البيزنطي الذي كان مترامي الأطراف في الماضي هو مدينة القسطنطينية نفسها؛ وهي ملاذ مسيحي في أرض يحكمها أتراك مسلمون. ولو أن الإمبراطور الشاب قسطنطين الحادي عشر، بالايولوجوس دراجاسيس، وهو الحاكم الخامس والتسعين الذي جلس على عرش قسطنطين، نظر خارج أسوار مدينته في مايو 1453، فإنه لم يكن ليرى إلا أعداء يتقاطرون من كل حدب وصوب.

لكن الأتراك حاولوا من قبل وأخفقوا في الاستيلاء على المدينة. ففي عام 1422 حاصر الجيش التركي القسطنطينية، ولكن جميع هجماته تحطمت على دفاعات المدينة المنيعة. وفي عام 1453، وجد المتفائلون في المدينة تشجيعاً في هذا "النصر"، واحتجوا بأن القسطنطينية، ملكة المدائن، تستطيع الصمود إلى الأبد، ولاسيما بعد تحصين الأسوار المحيطة. أضف إلى ذلك أنه كانت هناك وعود بأن أوروبا المسيحية ستهرع للدفاع عن إخوتها في الدين. وقد تجاهل هؤلاء المتفائلون أشهر صفة للأتراك: عنادهم. فقد استغرق الأمر عشر سنوات مع عثمان لكي يستولي على بورصة، ولكنه انتصر في النهاية. ولم يسلّم الأتراك مطلقاً بالهزيمة؛ فقد أخفقوا مرة ضد القسطنطينية، ولكنهم عادوا مرة أخرى. وإن كانوا يفتقرون إلى آلات الحصار لدك الأسوار، فإنهم كانوا يصنعونها، وإن احتاجوا إلى السفن للسيطرة على بحر مرمرة الضيق، الذي يعد شريان الحياة للمدينة من الغرب، فإنهم كانوا يبنونها. وقد سقطت المدينة بمجرد أن صمم الأتراك على الاستيلاء عليها.

في عام 1453، حاصر المدينة رجل كان أشد تصميماً من أي من أسلافه على تحقيق الفتح الذي طال انتظاره. كان محمد الثاني في الثانية والعشرين من عمره، «مربوع القامة، ولكنه ممتلئ الجسم قوي العضلات. وكان يهيمن على وجهه عينان ثاقبتان تحت حاجبين مقوسين، وأنف دقيق معقوف انحنى فوق فم ممتلئ الشفتين. وفي أواخر حياته كانت ملامحه تذكر الناس ببغاء على وشك أن تأكل كرزاً ناضجاً».[2] كان محمد هو الابن الثالث

للسلطان مراد الثاني، ولم يكن متوقعاً أن يرقى العرش. ولكنّ أخويه الأكبر منه، أحمد وعلي، توفيا على نحو غير متوقع، وأصبح محمد الوريث. وفي عام 1444 تنازل والده عن العرش، وخلفه الابن الشاب لفترة قصيرة ليتم عزله بإصرار من كبار وجهاء الأناضول. ويقال إنهم كانوا يعارضون خطته للهجوم على القسطنطينية. وتمت إعادة مراد إلى العرش، وبدأ وريثه حياة مخيفة في مانيسا، بعيداً عن العاصمة، متوقعاً في كل يوم زيارة من سياف القصر. وغدا موقف محمد أكثر خطورة عام 1450عندما ولدت إحدى جواري أبيه ولداً ذكراً. ولكن في عام 1451، بعد وفاة مراد بسبب سكتة دماغية في أدرنة، تولى محمد العرش من دون معارضة من أولئك الذين عزلوه من قبل. ولكنه احتاط لأمره بالترتيب لخنق أخيه الطفل غير الشقيق لكي لا تكون هناك أي بؤرة للتمرد.

كان محمد يتمتع بصفتين رئيسيتين: الأولى هي الصبر، والثانية القسوة. لم يكن ينسى أي إهانة أو ازدراء، ولكنه ينتظر أعواماً ليقوم بالانتقام، فقد علمته طفولته قيمة الحذر. وقد أسهمت هذه الصفات في تكييف الطريقة التي تحرك بها ضد القسطنطينية. فبعد شهور من تبادل اللطف مع البلاط البيزنطي، وجد في خريف عام 1451 ذريعة لقطع العلاقات. وقام في فصل الشتاء بجمع آلاف البنائين والعمال، وهيأهم لبناء قلعة على الشاطئ الأوروبي لمضيق البوسفور (المسماة روملي حصار)، تقابل مباشرة القلعة التركية القديمة في "أناضولو حصار" [في الجانب الآسيوي]. وكانت نيته واضحة؛ بمجرد أن تصبح القلعة الحصينة الجديدة جاهزة، وبعد أن يتم تركيب المدافع في كلتا القلعتين، فسوف يسيطر الأتراك على حركة المرور إلى أعلى المضايق وأسفلها. فكتب الإمبراطور قسطنطين محتجاً. وفي رد مهين له، قام السلطان محمد بقطع رؤوس الرسل البيزنطيين. لقد كانت العلامات كلها تنذر بالحرب.

بحلول أغسطس 1452 تم تثبيت ثلاثة مدافع ضخمة على أسوار قلعة روملي حصار، وأغلق الأتراك المضيقين أمام جميع السفن التي لم تطلب إذناً بالمرور. وكانت جميع السفن المارة خلال المضيقين من جنوة والبندقية. كانت لجنوة مستعمرة في غالاطا

Galata، على الشاطئ البعيد من القرن الذهبي، بينما مازالت البندقية قوة كبرى في بحر إيجة وعلى البر الإغريقي. اخترق بضعة قادة جريئين الحصار، ولكن أخيراً غرقت سفينة فينيقية بنيران المدفعية وتم أسر ملاحيها. وعانى البحارون المصير الأليم نفسه الذي لقيه الرسل البيزنطيون، غير أن الأسوأ كان مخبأً لقبطانهم الذي تم إعدامه بالخازوق. وكان القصد من هذه الميتة الفظيعة أن تكون بمنزلة رسالة إلى مدينة القسطنطينية، وإلى قاضي البندقية الأول ومجلسها في منطقة بعيدة إلى الغرب. لقد بعث محمد بذلك رسالة مؤداها أنها ستكون حرباً من دون رحمة.

في يناير 1453، أخبر السلطان قادته ووزراءه أن الوقت قد حان لفتح المدينة، وعلى الفور بدأت آلات الحرب العثمانية المتقنة والدقيقة عملها. وفجأة ظهرت أساطيل السفن التركية في بحر مرمرة في أثناء مارس 1453، وفي تلك الأثناء كان الجيش العثماني يحتشد قرب أدرنة. وبالمقاييس الأوروبية، كانت قوة ضخمة: نحو 100 ألف إجمالاً. ولكن كان خُمس هذه القوة من الباش بوزوق* (وهم الجيش غير النظامي المعروف بشراسته) الذين تركزت فائدتهم في إضعاف دفاعات العدو بالتضحية بحياتهم. وكان رأس الحربة في الهجوم النهائي قوات النخبة لدى السلطان، وهي الإنكشارية. فقد كان لديه 12000 من هؤلاء الجنود المشاة الذين لا مثيل لهم، وهم من المدججين بالسلاح، والمدربين، والمجهزين بحسب مقاييس استثنائية. لم يكن هؤلاء الإنكشارية أتراكاً، بل كانوا أولاد المسيحيين الذين أخذوا من أبويهم ودُرّبوا للخدمة في جيوش السلطان. فهؤلاء الذين تم فصلهم عن أصولهم المسيحية وهدايتهم إلى الإسلام، وأصبحوا موالي للسلطان، أظهروا بأساً في القتال أرعب جميع أعدائهم.

كان السواد الأعظم في الجيش مكوناً من المجندين الإقطاعيين، ومعظمهم فرسان سباهيون [الفرسان الذين كانوا يحصلون على إقطاعات مقابل الخدمة العسكرية]، وكانوا

* الباش بوزوق Bashi-bazouk: عساكر خيالة أو مشاة غير نظاميين يتطوعون في أثناء الحرب ثم يلحقون بالجيش النظامي العثماني، وهم من دون تعليم، وأصل المصطلح فارسي. (المترجم)

محاربين مخيفين في الميدان المفتوح، ولكنهم ضاعوا في حصار لم يكن بإمكانهم أن يخدموا فيه إلا بوصفهم مشاة. وفضلاً عن الإنكشاريين، كان مفتاح نصر العثمانيين هو المدفعية، فقد كانت المدافع ماتزال جديدة نسبياً في أوروبا، ولكن محمد كان سريعاً في تقدير إمكاناتها. وقد أسهمت المدفعية في جعل ميزان الفائدة يتغير من مصلحة المدافعين عن المدينة المسورة إلى المهاجمين. وكان قد وظف لديه شخصاً مجرياً يسمى أوروبان، لم يجد عملاً له في العالم المسيحي، ليصب المدافع في مسبك بأدرنة لأجل قلعة روملي حصار. وقد وجهه الآن لصنع مدفع لا يستخدم ضد السفن الداخلة والخارجة من القرن الذهبي، بل ضد المدينة نفسها، فلم يخيب أوروبان أمله، فصنع له سلاحاً عجيباً، كان أضخم من أي شيء موجود لدى الغرب؛ إذ كان طول سبطانته يزيد على خمس وعشرين قدماً، وكان يطلق قذيفة على هيئة كرة من الحجارة وزنها ربع طن لمسافة ميل، لكي يحدث أثراً بقوته المخيفة. ولم تكن حتى الأسوار العظيمة للقسطنطينية لتقوى على مقاومة مثل هذا الوحش.

في الخامس من إبريل انضم محمد إلى جيشه العرمرم أمام أسوار ملكة المدائن (القسطنطينية). كانت المهمة التي واجهته فريدة من نوعها في تاريخ الحروب؛ فقد تم قبل ذلك محاصرة القسطنطينية أكثر من عشرين مرة، ولكن لم يتم الاستيلاء عليها بالقوة إلا مرة واحدة، من قبل الجيوش الصليبية عام 1204، التي استولت على المدينة عن طريق الخيانة؛ حيث تسلقوا الأسوار المنخفضة من جانب ميناء المدينة من سفنهم الراسية في القرن الذهبي، وكان هذا الجزء هو الأضعف في الدفاعات. كان قسطنطين يعرف كيف خضعت المدينة عام 1204، ولذلك وضع سلسلة حديدية ضخمة محمولة على طوف عائم لكي يسد القرن الذهبي ضد أي هجوم. وكانت السلسلة تبعد الأتراك، على حين يوجد قسم يمكن خفضه للسماح للسفن المسيحية بحرية الحركة. أما الجانبان الآخران من شبه الجزيرة المثلثة التي بنيت عليها المدينة فكانت تمثل صعوبات كبرى للمهاجمين. وعلى الجناح البحري الآخر كانت الجدران مبنية على أرض شديدة الانحدار؛ الأمر الذي جعل أي هجوم صعباً وخطيراً. وإلى الشمال؛ أي أمام المعسكر التركي، كانت الأسوار الرئيسية، روعة في الهندسة العسكرية.

وحتى في هذه الأيام، إذا ما نظرنا إلى التحصينات، بل إلى جزء محطم من قوتها الغابرة، فإن أسوار القسطنطينية الثلاثية الطبقات تبعث في النفس الرهبة. وقد بنيت في القرن الخامس، في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، وتمتد من بحر مرمرة لمسافة نحو أربعة أميال، وتتوقف قبيل القرن الذهبي. وقد جسدت الدفاعات كل المهارات التي كانت روما قد اكتسبتها خلال ألف سنة من الحروب. وعلى جانب المدينة كان هناك سور عالٍ بارتفاع أربعين قدماً تقريباً، له متراس أو حاجز على طول أعلى السور خلف أبراج وكُوى رماية عميقة. وعلى مسافات منتظمة توجد أبراج عالية، إما مربعة وإما ثُمانية الأضلاع، كان المدافعون يستخدمونها تحصيناتٍ. وأمام السور العظيم وأبراجه كانت توجد مساحة من الأرض المنبسطة التي تفصل السور العظيم عن السور الخارجي. كانت النظرية هي أن أي غزاة يستطيعون عبور السور الخارجي سيقعون في شرك منطقة الموت هذه؛ حيث يقوم المدافعون بإمطارهم بالحجارة والرماح والزيت المغلي من فوقهم.

كان السور الخارجي أقل ضخامة، فقد كان ارتفاعه نحو خمس وعشرين قدماً، وكانت تفصل بين أبراجه مسافة تتراوح بين خمسين ومائة من الياردات، ولكن الوصول إليها يتطلب من المهاجم أن يجتاز سلسلة من العقبات، أولاها خندق عميق عرضه ستون قدماً وعمقه نحو خمس عشرة قدماً، يمكن غمر أقسام منه بالمياه ليتحول إلى خندق مائي. وبمجرد أن يعبر المهاجم الخندق، فإنه يتعين عليه أن يتسلق أسواراً حجرية واقية يفوق ارتفاعها عشرين قدماً فوق قاع الخندق، ويتم الدفاع عنها بشدة. وبمجرد أن يستولي أي غازٍ على خط الدفاع الأول هذا يجد نفسه واقفاً على أرض مكشوفة أمام السور الخارجي حيث يتم رميه بوابل من السهام والقذائف الأخرى من كلا السورين والأبراج. لم تكن أي مدينة أخرى تتمتع بمثل هذه الحماية الشاملة.

لكن كانت هناك ثلاث نقاط ضعف في دفاعات المدينة، اثنتان منها كانتا واضحتين لمحمد حينما قام بعملية مسح للأسوار. فخط التحصينات الثلاثي لم يصل حتى القرن الذهبي؛ فقد بني قصر ملكي، وحيّ بلاشيرينيا السكني الأنيق، بين الأسوار العظيمة

والميناء. وكان القصر والمباني الأخرى محمية بخندق مائي وسور وحيد، ولكن هذه الزاوية كانت نقطة ضعف في المحيط الدفاعي. وحينما ركب السلطان محمد بمحاذاة خط الأسوار الثلاثية، شاهد أيضاً أن الأسوار (التي كانت تتبع معالم الأرض الطبيعية) كانت هي الأخفض في النقطة التي كان يجري تحتها نهر، وهو نهر ليكوس. وقد تم وضع أثقل مدافعه بحيث يمكنه ضرب هذه النقطة.

تم إخفاء أكبر نقطة ضعف في القسطنطينية عن السلطان. فقد كان عدد القوات المسيحية 7000 مقاتل فقط، وهم مكلفون بالدفاع عن أربعة عشر ميلاً من الأبراج والأسوار. وقد جاء جنود من البندقية وجنوة لنجدة المدينة، بينما أرسل البابا المال والسلاح والغذاء. وكانت أفضل إضافة إلى صفوف المدافعين 700 رجل مسلح جاء بهم الجندي الجنوي جيوفاني جستنياني لونجو الذي ما لبث أن غدا شخصية رئيسية في مجلس الإمبراطور العسكري. كما أقبل عدد من الأفراد المناصرين، مثل الإسباني دون فرانسيسكو دو توليدو، إلى القسطنطينية للقتال في حملة صليبية شخصية. ولكن الجودة النوعية العالية لهؤلاء الجنود لم تستطع أن تعوض قلة عددهم، فالأسوار الثلاثية لم تكن فعالة إلا إن كانت محمية بعدد كافٍ من الرجال، وبقوات واقفة كالبنيان المرصوص على طولها. لم يكن في القسطنطينية إلا عدد من الجنود يكفي لواحد من الأسوار، وحتى هذا التركيز الأدنى للقوات لم يتم إلا على حساب تجريد الأسوار البحرية من المدافعين عنها. تم إخفاء نقص القوات لدى الإمبراطور عن الأتراك بحيلة مدروسة. فقد كان الرجال باستمرار يتراجعون ويتقدمون على طول السور العظيم لإعطاء انطباع بأنه يعج بالرجال. تم تفتيش القوات ونفخت الأبواق، وتم رفع الأعلام التي رفرفت فوق الأبراج، وتم إشعال النيران، وكل ذلك لإعطاء انطباع بوجود حامية ضخمة تستعد لمقاومة جيوش الإسلام.

بحلول 7 إبريل أحاط الأتراك بالمدينة من البحر والبر. وكانت خطة السلطان تقضي بأن يغزو القسطنطينية من كل جانب. وفي 12 إبريل كان قد تم جر مدافع

العثمانيين إلى حافة الخندق، وبدأت عملية قذف بالمدفعية استمرت من دون توقف يوماً بعد آخر. كانت المدافع الكبرى ثقيلة جداً، وكان من الصعب توجيهها إلى الهدف؛ ومن ثم، لم يكن بالإمكان إطلاقها إلا سبع مرات يومياً، ولكنها تمكنت ببطء من تدمير الأسوار الموجودة أمامها. وبعد خمسة أيام أصبح السور الخارجي واثنان من الأبراج المواجهة لوادي ليكوس خراباً. وحاول المدافعون تخفيف تأثير التحطيم الذي أحدثته كرات المدفع الحجرية الضخمة بتعليق رزم من الصوف وحزم من الخشب فوق الأسوار لكي تمتص تأثير الصدمات، وبالسرعة التي دمرت بها مدافع الأتراك الأسوار، قام المسيحيون ببناء حواجز من الخشب والتراب في الفتحات المتزايدة في الجدران الحجرية. وبقي خط الدفاع غير محطم. لم تكن الحواجز مثيرة للإعجاب عندما تراها، ولكنها صدت جميع الهجمات التركية.

في ليلة 18 إبريل، شن السلطان أول هجوم واسع النطاق على نقاط الضعف في الأسوار. كان القتال صعباً جداً، ولكن المدافعين ردوا كل الهجمات. لم يعبر تركي واحد الحواجز الترابية المنخفضة التي كانت تسد الثغرات في الأسوار العظيمة. وصمم السلطان على طريقة أخرى. وفي اليوم اللاحق للهجوم على الأسوار البرية، حاول الأسطول التركي كسر السلاسل الحديدية التي كانت تحمي القرن الذهبي، فأخفق. وبعد يومين مرت سفينتان من جنوة خلال الحصار بأمان في القرن الذهبي. احتشد المشاهدون على الأسوار البحرية للمدينة لمشاهدة هذا القتال الاستعراضي بين السفن الأربع العالية التي تحمل الصليب المزخرف على أشرعتها، ومئات الزوارق التركية الأصغر حجماً التي تدور حولها. ركب السلطان بمحاذاة الشاطئ قرب القرن الذهبي ليشاهد سفنه وهي تنتصر على المسيحيين، وحينما أصبحت المعركة في غير مصلحة الأتراك، أصبح بالإمكان رؤيته من أسوار المدينة وهو يدفع حصانه باتجاه الماء، فينطلق رشاش الماء إلى أن تبللت ثيابه تماماً بالماء. وتحولت صيحات التشجيع التي أطلقها إلى تهديدات وشتائم حينما أخفق بحارته أمام عينيه.

أدرك محمد من إخفاق الهجمات البحرية والبرية الأولى أن المدينة لن تستسلم بسهولة. وبعد أن صد المسيحيون الهجمات الأولى كان هناك همس في المعسكر التركي بأنه لن يتم الاستيلاء على القسطنطينية أبداً، فرد السلطان بإحكام قبضته حول المدينة. وكانت السلسلة الحديدية ماتزال تحمي فتحة القرن الذهبي، ولذلك قرر محمد اجتيازها. وقام بسرية بالغة بصنع مزلقة خشنة من البوسفور عبر مرتفعات غالاطا المنحدرة إلى القرن الذهبي، وذلك لمسافة نحو سبع مراحل (1400 ياردة). وقد تم صنع تلك المزلقة من ألواح الخشب وأغصان الأشجار التي تم مدها جنباً إلى جنب، وكانت أحياناً مربوطة بعضها بعضاً بالحبال في الأماكن الشديدة الانحدار. وتم تشحيم ألواح الخشب جميعاً بشحم الغنم والزيوت. وفي الوقت نفسه صنع له النجارون زلاجات كبيرة تشبه المهد تستقر عليها عارضة قعر السفينة. وفي صباح 23 إبريل تم جر ثمانين سفينة خارج الماء إلى المهاد، ثم تم جرها إلى نهاية المزلقة المشحمة بمئات الجنود ومجموعات من الثيران التي شدت الحبال المثبتة بالزوايا الأمامية للزلاجات. وحينما تم حمل السفن بقوة كبيرة إلى أعلى المنحدر، جلس ملاحوها عند مجاذفها وتم بسط أشرعتها، للإيحاء بأنها كانت تبحر إلى أعلى الهضبة ومن ثم إلى سطح الهضبة في الأعلى، حتى إن القادة كانوا يجرون بين صفوف المجذفين يضربونهم بالسياط ويصرخون فيهم ليجتهدوا في التجذيف. وكما أفاد المؤرخ، «فقد كان مشهداً غريباً ولا يصدقه من سمعه إلا الذين رأوه: منظر السفن محمولة على طول البر الرئيسي كما لو كانت تبحر في البحر».[3] ولكنه كان أمراً حقيقياً بدرجة كافية. وفي غضون بضع ساعات كان ثمة أسطول تركي ينزلق إلى سفح الهضبة في مياه القرن الذهبي. وأصبح بإمكان الأتراك الآن مهاجمة المدينة من كل جانب.

في نهاية الأسبوع الثاني من الحصار حدث جمود في الوضع بين المهاجمين والمدافعين. فقد راحت المدفعية تطلق القذائف على الأسوار، وسعى المدافعون لإصلاح الثغرات. وحدثت مناوشات غير حاسمة بين السفن المسيحية والتركية في مياه القرن الذهبي الضيقة. وحاول كلا الجانبين تقويض معنويات خصمه. فقد قام الأتراك بوضع بعض البحارة الأسرى على "خازوق" على مرأى من الأسوار الثلاثة، فرد المسيحيون بشنق

جميع أسراهم الأتراك، وتدليتهم من الأبراج المقابلة للمكان الذي ألقيت فيه جثث البحارة منتفخة في الحر. وقد عمت رائحة النتن من اللحم المتعفن من مئات الجثث في المدينة والمعسكر التركي معاً.

كانت هناك أخطار على كلا الجانبين في هذا المأزق. فقد شكلت الخلافات تهديداً للمسيحيين. كانت الحامية مكونة من الكثير من الجنسيات المتنافرة، ومع استمرار الحصار وازدياد قساوة الأوضاع، نشبت توترات عنيفة بين الإغريق والإيطاليين، وبين الأعداء التقليديين مثل الفينيقيين والجنويين. كذلك كان الجانب التركي عرضة للتمزق بسبب النزاعات الحزبية؛ إذ واجه السلطان وأقرب أنصاره معارضة علنية من الأسر الكبرى في الأناضول. كانت إرادة السلطان مطلقة مادام يحقق الفوز والنجاح، أما إن أخفق في الاستيلاء على المدينة فسوف يتم خلعه، وبعد خلعه فسوف يتوقع زيارته من الجلاد الذي سيجندله بالأسلوب التركي القديم.

مع انتهاء شهر إبريل ودخول مايو، جرّب كلا الجانبين جميع الخدع لكسر الجمود. فقد هاجم الأتراك المرفأ وشنوا هجمات متكررة على الأسوار. وفي منتصف ليلة 12 مايو، تدفق 50000 تركي نحو ثغرة فُتحت في السور في الجانب الشمالي الأضعف من التحصينات. وبدا الوضع ميئوساً منه للمسيحيين، وقد كتب الجراح الفينيقي، نيقولو باربارو، في مذكراته يقول: «كان معظمنا يعتقد أنهم سيستولون على المدينة». ولكن حدث أمر خارق وهو أنه تم صد الهجوم التركي، وكذلك جميع هجمات الأتراك الأخرى من البر والبحر. وعندما سعى الأتراك لحفر الأنفاق تحت الأسوار، قام المسيحيون بالحفر لتدمير الأنفاق، وحدثت أربع عشرة محاولة لحفر الأنفاق، وتم إحباطها جميعاً، واستمر المأزق.

بدأ الأتراك والمسيحيون البحث عن بشائر تشير إلى تدخل سماوي. وأصيب المسيحيون بالذعر عندما سقط تمثال للعذراء على الأرض في أثناء موكب خلال الشوارع. واستقرت سحابة من الضباب في غير موسمها فوق المدينة، وفهمت على الفور بأنها نذير بأن الرب قد سحب نوره من شعبه. وأصيب السلطان محمد بالجزع أيضاً لما رأى عموداً

غامضاً من ضوء الشمس بدا أنه يغمر كنيسة القديسة صوفيا (أيا صوفيا) العظيمة بوهج ذهبي، ففسر ذلك بأنه علامة على التدخل الرباني إلى جانب المدينة. وحينما امتد الحصار حتى أسبوعه السادس، دونما علامة على قدوم أسطول مسيحي من الغرب، راح المدافعون يتكلون أكثر فأكثر على حدوث معجزة. وأدركوا أنه مع انقضاء كل يوم كانت احتياطياتهم من البارود والطلقات، وكذلك الغذاء والمؤن الأخرى، تتضاءل. وكانت ثقتهم كذلك تتراجع. كان الانطباع داخل القسطنطينية حول عمود النور الذي أقلق السلطان بأن المدينة ستنهار في عمود من نار؛ حيث تخلى الرب عن شعبه.

قرأ قسطنطين والقائد الجنوي جستنياني علامات أخرى وهما يستطلعان المعسكر التركي من أسوار المدينة. كانت هناك أدلة كبرى على وجود نشاط في المعسكر التركي وعلى ظهر السفن في القرن الذهبي. فقد تمت المناورة بالمدافع لكي يتم تركيز نيرانها على خطوط الدفاع والتحصينات المؤقتة التي ملأ بها جنود جستنياني الثغرات الواسعة في الأسوار. وشوهد الجنود الأتراك غير النظاميين وهم يجمعون الأغصان والنباتات المتسلقة، وتم استخدامها جميعاً لصنع سلالم وحزم قضبان متشابكة (حزم كبيرة من الأشجار الصغيرة) للتسلق عليها. وقد تم تجميع حزم الأشجار الصغيرة فوق بعضها على الأسوار والحواجز لإتاحة موطئ قدم للقوات المهاجمة. ولاحظ القادة المسيحيون المتيقظون أيضاً السلطان في فجر يوم الاثنين الموافق 28 مايو حينما تجول راكباً ببطء حول الأسوار وفي محاذاة خط القرن الذهبي، مستطلعاً المدينة لمعرفة نقاط ضعف جديدة. وقد أشارت جميع الأدلة إلى هجوم كبير وشيك. وقبل الظهر أكد جواسيس قسطنطين في المعسكر التركي حدسه، فقد أخبروه بأن محمداً قد دعا جميع قادته إلى خيمته عند الغروب، واستنتج مجلس الحرب المسيحي أن الهجوم الكبير لن يتأخر كثيراً.

كانت الخطة التركية تقضي بالهجوم على طول خط الأسوار، براً وبحراً في آنٍ واحد؛ حيث يذهب الجيش غير النظامي (الباش بوزوق) أولاً، ثم يقوم الفلاحون المجندون لدى الإقطاع بمهاجمة القطاع الجنوبي من الأسوار البرية، بينما يقوم الإنكشاريون بالتجمع في

الوسط مقابل أكثر الأجزاء تضرراً من التحصينات، وهي نقطة الضعف في الدفاعات المسيحية. وكان المقرر أن تشن السفن التركية هجوماً منسقاً على طول الأسوار البحرية، وأن يمطر الأسطول الصغير الموجود في القرن الذهبي المدافعين بالرماح والسهام لمنع سحب أي إمدادات عسكرية من الأسوار البحرية إلى المعركة الرئيسية. وتم تحميل السفن التركية التي تتجول باستمرار جيئة وذهاباً في بحر مرمرة بالجنود وسلالم التسلق الجاهزة لاستغلال أي ضعف في الدفاعات المسيحية.

بعد غروب شمس 28 مايو خيم صمت غير عادي على المعسكر التركي، لم تقاطعه إلا أصوات صلاة العشاء. ورأى باربارو الفينيقي كيف أن الأتراك والمسيحيين معاً وضعوا ثقتهم بالله، «حيث صلى كل منهم لربه، نحن لربنا وهم لربهم، فقد قرر الرب القدير أن ينتقم منهم في هذه المعركة في الغد على كل الآثام التي جنوها». في القسطنطينية كانت الآن أمسية القديسة ثيودوسيا. وقد سادت كنيستها في القرن الذهبي أجواء طبيعية واضحة. كانت الكنيسة ملأى، كما هي الحال منذ قرون مضت، بكمية وفيرة من الورود والأزهار البرية. وبدأ المصلون يتجمعون كالعادة، على الرغم من أنه لوحظ أن معظمهم من النساء؛ ذلك أن معظم الرجال كانوا يرابطون على الأسوار. ولكن في هذا العام كان هناك أسطول تركي يرسو في حدود مسافة النداء من الكنيسة، وواضح أنها كانت تستعد للمعركة.

كانت الصلوات الجماعية الآن من أجل إنقاذ المدينة. وطوال النهار كان يتم إخراج التماثيل والرفات المقدس في المدينة من أماكنها ومزاراتها، ويتم السير بها في مواكب خلال الشوارع نحو الأسوار طلباً للعون من الرب وقديسيه. وراحت الكنائس تقرع أجراسها، وانطلقت الأصوات تشدو ترنيمات كيري إليسون Kyrie Eleison من دون توقف. وعند مغيب الشمس شكل الإمبراطور والوجهاء موكباً طويلاً إلى كنيسة القديسة صوفيا العظيمة. وقبل دخول الإمبراطور قسطنطين من خلال أبواب الكنيسة البرونزية العالية، التفت وتحدث إلى شعبه لآخر مرة قائلاً: «لدى الأتراك مدافعهم وفرسانهم وحشودهم من الجند، ونحن لدينا ربنا ومخلصنا».

حينما خيم الليل دبت الحياة في المعسكر التركي؛ فقد تم جر المدافع وآلات الحرب الضخمة قريباً من الأسوار. وتم توجيه أهداف نيرانهم نحو نقاط الضعف. وتقدمت أرتال طويلة من قوات الباش بوزوق نحو الأمام حاملين حزم الأشجار الصغيرة لملء الخندق أمام الأسوار والمتاريس. وقد تم قتل عدد كبير من هؤلاء الجنود غير النظاميين من قبل الجنود المسيحيين الذين يطلقون النيران من الأسوار، ولكن تقدم المزيد منهم ليحلوا محلهم، ويبدو أنهم جميعاً كانوا غافلين عن وابل القذائف حولهم. وفي نحو الساعة الواحدة والنصف صباحاً أمر السلطان - الذي كان آنذاك راضياً عن الاستعدادات - بنشر راية الحرب. وعند هذه الإشارة انطلق الأمر على طول الخط: ابدأوا الهجوم.

في وسط الخط كان جستنياني وجنوده قد وافقوا على تزويد خط الدفاع والسور الخارجي بالجند، وقد أقفلت خلفهم البوابات المؤدية إلى المدينة. احتجز جستنياني ورجاله بين تحصيناتهم والأتراك المتقدمين، وكان لا مفر لهم من النصر أو الموت. وخلال الظلام وصل إلى مسامعهم اندلاع أصوات الطبول تقرع، وجلبة الصنج، وصرخات "الله، الله"، حينما اندفع حنود الباش بوزوق إلى الأمام في حشد غير منتظم. وتم إشعال النيران، فانبعث منها ضوء متراقص على الحشود التركية النابضة تحتهم. صب المسيحيون نيرانهم المدمرة على الجنود غير النظاميين الذين كانوا يقذفون الأسوار. وجاء أشرس الهجمات على طول وادي ليكوس. وكما هي الحال بالنسبة إلى جستنياني ورجاله، فقد علق جنود الباش بوزوق ولم يتمكنوا من الانسحاب؛ لأن محمداً وضع إنكشاريته خلفهم وأصدر أوامره بقتل كل من يتراجع عن الأسوار. وبعد ساعتين رأى السلطان أن الجنود غير النظاميين قد أضعفوا الدفاعات، فسمح لهم بالانسحاب.

اندفع الأناضوليون والإنكشاريون فوق أجساد عساكر الباش بوزوق الذين سقطوا. وحيث تجندل الجنود غير النظاميين تحت النيران كان الإنكشاريون يتقدمون صفاً صفاً في كتل مرصوصة ومنضبطة، وعندما كان يسقط أحد كان يحل آخر مكانه. ولكنهم لم يجدوا أي صدع في الدفاعات المسيحية. وقد نجح بعضهم في تثبيت سلالمهم للتسلق عليها إلى

أعلى السور، حتى إن عدداً منهم وصل إلى الأعلى، ولكن لم ينجُ أحد منهم إلا بضع ثوانٍ. أما السلطان الذي قاد قوات النخبة إلى حافة الخندق فقد أمرهم أخيراً بالانسحاب. وحينما تراجعوا بدأت المدافع التركية بقصف الدفاعات من جديد حتى إنها غطت على صوت أجراس الكنيسة التي كانت تقرع فوق المدينة. ولمدة أربع ساعات، إلى قبل الفجر بقليل، كان يبدو كأن معجزة يمكن أن تتحقق. وقد تبين أن الحواجز الخشبية والترابية كانت حاجزاً فعالاً ويشبه في فاعليته السور نفسه. ولكن ضغط الهجوم المستمر كشف في نهاية المطاف نقطة ضعف. ففي الطرف الشمالي للأسوار، قرب القرن الذهبي والقصر الإمبراطوري، كان هناك باب جانبي صغير يسمى كيركوبورتا Kerkoporta (بالتركية: جنباز خانه) تم استخدامه لشن هجمات ليلية على الخطوط التركية. وبعد الغارة الأخيرة لم يتم تأمينه تماماً. وفي ذروة القتال، لاحظ أحد الأتراك اليقظين أنه كان مفتوحاً، فاندفعوا من خلاله، فقتلوا أخيراً وتم إغلاق الباب، ولكنهم كانوا قد قاموا بإنزال الأعلام المسيحية من الأبراج ورفعوا الرايات التركية مكانها. وفي الوقت نفسه تقريباً، وفي غمار المعركة، أصيب جستنياني بجرح نتيجة طلقة بندقية "مسكيت" قديمة، فقرر مغادرة المعركة. ورجاه الإمبراطور أن يبقى؛ لأنه كان مصدر إلهام للدفاع، ولكنه رفض، فقام قسطنطين على مضض بفتح الباب خلال السور العظيم، وقام رفاق جستنياني في السلاح بحمله إلى سفينة جنوية في القرن الذهبي.

أصيب المسيحيون الباقون على قيد الحياة بالذعر بسبب فقدانهم قائدهم وبعض خيرة جنودهم، فصرخ بعضهم بأن الأتراك قد استولوا على المدينة؛ لأنهم رأوا راية العدو ترفرف فوق الأبراج قرب باب كيركوبورتا، وهرول قسطنطين على طول الفراغ بين الأسوار للم شمل القوات في الجناح الشمالي. وانتشرت الشائعات بأن الأتراك قد نفذوا خلال الأسوار، وضعف القتال حول الحواجز، فلاحظ السلطان هذا الضعف المفاجئ في القتال؛ إذ كان آنذاك قريباً من أشرس موقع في المعركة، فأعاد الجنود الإنكشارية إلى الهجوم، واعداً أول رجل يدخل المدينة بالثروة والجاه. في ذلك الوقت تسلق إنكشاري ضخم، اسمه حسن، السور وصد المدافعين، على حين انضم إليه مزيد من الجنود الأتراك.

وفي النهاية جندله المسيحيون، غير أن خط الدفاع كان قد تم كسره الآن. فبعد أن حصل الإنكشاريون على موطئ قدم في الجانب المسيحي من السور بدأ انضباطهم العسكري يتغلب على المدافعين المنهكين؛ إذ أجبروا المسيحيين على التقهقر إلى السور العظيم. وهناك كانت أسياف الإنكشاريين ترتفع وتهوي من دون توقف، وسرعان ما تكومت جثث الموتى والجرحى من المسيحيين على ارتفاع الكتف أسفل السور العظيم.

ما لبث أن تغير مسار المعركة؛ إذ تسلق الأتراك السور العظيم من دون موانع، وفتحوا باب القديس رومانوس العسكري، وتقدمت أرتال طويلة من الإنكشاريين من خلاله إلى داخل المدينة التي لم يعد ثمة من يدافع عنها. ولم تمض بضع دقائق حتى اخترق الأتراك موضعين آخرين وتدفقوا إلى داخل المدينة خلف الأسوار. كان الفجر قد بزغ، ورأى الأتراك أعلامهم على طول الأسوار المطلة على البحر تحل محل الرايات المسيحية على الأبراج والمباني العالية إلى الشمال، فتقدموا في هجومهم بحماسة متزايدة. وبدأ المدافعون يتخلون عن مواقعهم، وأسرعوا إلى بيوتهم لحماية عوائلهم، ولم يعد أحد يدفع سلالم التسلق التركية بعيداً عن الأسوار، وانتصر الهجوم في كل القطاعات.

كان الإمبراطور قسطنطين يفضل الموت مع مدينته على البقاء حياً في الأسر، فألقى بخوذته وعليها النسر الإمبراطوري، ومعطفه المجيد، وسعى لأن يموت من دون أن يُعرف في قلب المعركة. وأخيراً سقطت المدينة: حسب تعبير إدوارد جيبون، «بعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوماً، تلك القسطنطينية التي استعصت على قوة الأكاسرة (الفرس) والشاجان (الأفارز) والخلفاء (العرب)، تم إخضاعها من دون رجعة بأسلحة محمد الثاني».[4]

كانت عواقب الانتصار التركي رهيبة؛ ففي إبريل احتشد جيش السلطان أمام الأسوار، ودعا السلطان المدينة إلى الاستسلام، وكان قد أمّن جميع مَن في داخلها على أرواحهم وممتلكاتهم. وعندما تم رفض العرض وعد جنوده، بحسب غنائم الحرب، بأن يبيح لهم المدينة ثلاثة أيام بعد فتحها. فالتهبت عواطفهم بالفعل، بفرصة الحصول على الغنائم، وبرغبتهم في الانتقام. فقد عانت القوات التركية من الحصار الطويل بقدر ما

عانى المدافعون المسيحيون تقريباً، ولم ينسوا الأسرى الأتراك الذين عُلقت جثامينهم من الأبراج والشرفات. يحكي المؤرخ كريتوفولوس كيف كان الإنكشاريون وبقية الجنود يَقتلون «من غير نظام أو منطق»؛ لأن «السخريات والشتائم» التي انهالت عليهم من الأسوار خلال الحصار استفزتهم. وبمجرد دخولهم المدينة «قاموا بالقتل لكي يلقوا الرعب في نفوس أهل المدينة ويرهبوا الجميع ويستعبدوهم بعمليات القتل».[5]

يعد كريتوفولوس الأكثر توازناً بين المؤلفين المسيحيين وأكثرهم استعداداً لرؤية وجهة النظر التركية. ولعله كان من الأيسر عليه أن يبقى مؤرخاً غير متحيز؛ لأنه قضى أيام المدينة الأخيرة بعيداً عن المعركة في موطنه جزيرة إمبروز. وحتى هو، فقد أربكه واستحوذ على انتباهه مصير المدينة. ولعل الملاحظات الجانبية هي أفضل ما يدل على مدى كثرة القتل. وقد ذكر أحد الكتّاب كيف أن الدم جرى في البالوعات نحو القرن الذهبي، ملوناً مياه الميناء. وقد شاهد باربارو الفينيقي مئات الرؤوس المقطوعة ووجوهها نحو الأعلى أو الأسفل قرب الشاطئ؛ حيث ذكّرته بالبطيخ الفاسد الذي كان أحياناً يسد قنوات مدينته.

وتم نهب الكنائس، وكانت أول كنيسة تعرضت لذلك هي مزار ثيودوسيا في آخر يوم من مهرجانها. سجل المؤرخ دوكاس كيف أن (كنيسة القديسة ثيودوسيا، متوهجة بالشموع المضاءة، أومضت مثل منارة الأمل. وقد ملأ المبنى حشد هائل، وصعدت الصلوات إلى السماء بشغف غير معتاد... في "الظلام الرهيب" لتلك الليلة الأخيرة). ولكن حتى مخلّصة ملكة المدائن لم تستطع تحقيق أي معجزة أخيرة. هل سقطت المدينة؟ لقد أزال دخول القوات التركية في الكنيسة كل الشكوك، وتم أخذ الرجال والنساء الذين تجمعوا للصلاة من أجل الخلاص أسرى حرب.[6]

أما الجيش التركي الذي كان أفراده قد تلقوا وعوداً بالحصول على ثروات القسطنطينية، «فقد تدفقوا على المدينة منذ بزوغ الفجر أو قبله وحتى المساء، وسرقوها ونهبوها، حاملين الغنائم إلى المعسكر وإلى السفن... وهكذا تم هجران المدينة ونهبها واسودت كما لو أنها تعرضت لحريق. ولعل المرء لا يصدق أنها كانت سكناً لأي بشر».

الفصل الثاني

عند باب السعادة: تشكيل القوة العثمانية

في اليوم التاسع من يونيو عام 1453، أبحرت ثلاث سفن صغيرة إلى داخل ميناء كانديا في جزيرة كريت، وكانت مكتظة بالناس، وحينما مروا بقلعة البندقية التي تتولى حراسة المرسى، صرخ أحد الملاحين بالحراس على الأسوار قائلاً: إن ملكة المدائن قد سقطت في أيدي الأتراك أعداء المسيح، وكان المسيحيون القلة على ظهر السفن هم كل من بقي على قيد الحياة بعد المجزرة. وفي ذلك المساء نفسه، سمع أحد الرهبان في دير أغاراثوس Agarathos اللاجئين يصفون الفظائع التي شاهدوها، فكتب في يأس: «لم يحدث – ولن يحدث – شيء أسوأ من هذا». وعلى شواطئ البحر الأسود البعيدة حدث مشهد مماثل؛ حيث تذكر راهب جورجي، وهو يستمع إلى قصة اليوم الأخير، كيف «أظلمت الشمس في اليوم الذي استولى فيه الأتراك على القسطنطينية».[1]

وفي مكان بعيد من أوروبا الغربية علم القاضي الأول ومجلس الشيوخ في البندقية «بأشد الأيام ظلاماً في تاريخ العالم». وفي 29 يونيو وصل رسل من مدن البندقية إلى الأراضي الإغريقية وحكوا لهم قصص المذبحة والاسترقاق الرهيبة التي رواها اللاجئون المسيحيون. وفي اليوم نفسه، بعث الفينيقيون برسائل إلى البابا نيقولا الخامس في روما وشبكة عملائهم المنتشرين في أنحاء أوروبا. وفي نهاية يوليو وصلت القصة المحزنة إلى قصور إسكندنافيا واسكتلندا، فتحدث الكهنة عن الكارثة من منابرهم، وتمت إقامة قداسات للذين استشهدوا دفاعاً عن المدينة.

تمثل رد الفعل الغربي الأول في الغضب، ثم تحول إلى الحيلة في أعقاب ذلك. فقد سعى أولئك الأقرب صلة وارتباطاً بالقسطنطينية للتفاوض مع العثمانيين المنتصرين. وفي غضون شهر من الاستيلاء على المدينة، أرسل القاضي الأول سفيراً لاستعادة 300

ألف دوكات ducate [عملة فضية] استثمرتها البندقية في المدينة. أما جنوة، التي كان لها أكثر من هذا المبلغ وهو عرضة للخطر في القرية التجارية في غالاطا، فقد ربحت كثيراً من اتفاق معقول مع الأتراك. وكذلك امتنعت دول أخرى عن العمل لاستعادة المدينة. وعندما دعا البابا نيقولا الخامس إلى حرب مقدسة في سبتمبر 1453، تمت إجابة دعوته على الفور بإعلانات عن الدعم. حتى إن دوق برجندي، أغنى أمير في أوروبا، أخرج مسرحية قصيرة للجمهور (يضع الممثلون فيها أقنعة) اتسمت بالبذخ، قام فيها رجل ضخم الجثة يرتدي لباس الأتراك بتهديد فتى يافع متنكر بثياب فتاة لا حول لها ولا قوة، كانت تمثل تمثيلاً صامتاً لأحزان الكنيسة. فوقف الضيوف وأقسموا يمين الصليبيين، ولكنها كانت مجرد بادرة رمزية؛ إذ لم تقدم أي أمة دعماً ملموساً، فانهارت الحملة الصليبية المزمعة.

كانت هذه الاستجابات المتناقضة تجاه سقوط القسطنطينية نذيراً بالعلاقة المتضاربة بين الإمبراطورية العثمانية وأوروبا الغربية. فقد كان المسيحيون يكرهون الأتراك ويعتقدون أن السلطان العثماني كان «عدو الرب المتوحش، [بمنزلة النبي] محمد الجديد، المنتهك لحرمة الصليب والكنيسة، المستخف بقانون الرب، وأمير جيش الشيطان».[2] ومع هذا فقد اضطروا إلى احترام قوة العدو وكفاءته. كانت الجيوش التركية أفضل تدريباً وتجهيزاً من أي شيء بإمكان أوروبا مواجهتها به. لقد منحت "حقبة السلام العثمانية"، المفروضة بالقوة والمدعومة بالعقوبات الهمجية، مواطنيها أكثر سلاماً وأمناً مما يستطيع الكثير من الدول المسيحية منحه لهم. كتب أحد الرحالة الفرنسيين في الأراضي التركية يقول: «البلاد آمنة، ولا توجد تقارير عن لصوص أو قطاع طرق... فالإمبراطور لا يتسامح مع قطاع الطرق أو اللصوص». لقد كان أكثر ما يمكن قوله عن بعض مناطق إيطاليا وكثير من مناطق إسبانيا. وقد حل بعض علماء اللاهوت الالتباس الأخلاقي في غلبة الشر على الخير بتفسير الانتصار العثماني على القسطنطينية على أنه عقاب إلهي على خطايا عباده: «لا يجوز أن نستغرب إن عاقب الرب المسيحيين الآن عن طريق الأتراك كما عاقب اليهود في الماضي عندما تخلوا عن إيمانهم... لأن الأتراك اليوم هم الآشوريون

والبابليون بالنسبة إلى المسيحيين والعصا والسوط من قبل الرب».[3] لقد كان الأتراك عذاباً يشبه العاصفة والطاعون أرسلهم الله لامتحان الذين اختارهم.

منذ اللحظة التي سقطت فيها القسطنطينية، صار الأوروبيون ينظرون إلى الأتراك بمزيج من الرعب والإعجاب، لقد كانوا خارج حدود المجتمع، وربما خارج نطاق الإنسانية. كتب جون ليلي John Lily في كتابه يوفيوس، **تشريح العقل** (1578) يصف الأتراك بأنهم «كريهون ومتوحشون».[4] وركز مؤلفون آخرون على إدمان الأتراك المزعوم على رذيلة غير طبيعية: «باشوات القصر، على رفعة قدرهم... ينغمسون في جميع أنواع الشهوات والملذات، ويطيبون خاطرهم في حمأة الملذات القذرة؛ إذ يسعون وراءها في طريق غير سوية ويطلبون من الطبيعة ما لا تملكه».[5] قلة هم المؤلفون والرحالة الذين لم ينظروا إلى الأتراك على أنهم بشر خارقون أو ما دون مستوى البشر. هناك شاب من البندقية، كان يسمى جياكومو دي لانغوشي، التقى محمداً بعد أيام فقط من فتح القسطنطينية؛ فعرض صورة بديلة عن "التركي الفظيع" الذي كان يأكل الأطفال وهم أحياء؛ وهذه صورة نمطية سرعان ما أصبحت شائعة في الغرب، وكانت الأمهات يجدنها مفيدة في تخويف الأولاد الأشقياء. وصف هذا البندقي السلطان بعبارات لو أنها استخدمت في وصف ملك غربي لكانت وصفاً لأحد الفرسان. لقد وصف محمداً بأنه:

> نبيل يمتشق السلاح، ذو مظهر يبعث الخوف بدلاً من الهيبة، قليل الضحك، يسعى وراء المعرفة، مطبوع على سخاء الأمراء، متشبث بهدفه، جريء في كل شيء، تواق إلى المجد مثل الإسكندر المقدوني. وفي كل يوم كان يستمع إلى من يقرأ عليه تاريخ الروم أو غيره من كتب التاريخ... تواريخ البابوات، والأباطرة، وملوك فرنسا، واللومبارديين. وكان يتحدث بثلاث لغات، هي: التركية والإغريقية والسلافية. وكان يسعى وراء المعلومات بجد ومثابرة... حول البابا، والإمبراطور، وكم مملكة توجد في أوروبا، ولديه خريطة لها توضح الدول والأقاليم. ولا شيء يبعث في نفسه السرور أكثر من دراسة حالة العالم وعلم الحرب. لقد كان مستطلعاً فطناً للشؤون، ويتحرق رغبة في الحكم. إن مثل هذا الرجل هو من ينبغي لنا نحن المسيحيين أن نتعامل معه.[6]

ولكنْ سواء كان الأتراك وحوشاً أو مثاليين، فالواقع أنهم كانوا ينوون فتح العالم للإسلام. وكان محمد الثاني يرى أن الاستيلاء على القسطنطينية كان البداية وليس نهاية تقدمه. وكما قال لـ"دي لانغوشي" de' Languschi «إنه سيمضي من الشرق إلى الغرب كما جاء الغربيون إلى الشرق. ويقول إن إمبراطورية العالم يجب أن تكون واحدة، عقيدة واحدة، ومملكة واحدة. ولتحقيق هذه الوحدة فليس هناك من مكان أجدر من القسطنطينية».[7]

كان تحكم الإمبراطورية العثمانية - تاريخياً - من «حيثما نصب السلطان خيمته». وكان محمد الثاني ينوي أن يصنع مركزاً أكثر دواماً لإمبراطوريته، فبنى قصره الأول في قلب المدينة. ولم يكن إسكي سراي Eski Saray (القصر القديم) مبنى واحداً، بل مباني كثيرة قائمة وسط الأشجار والحدائق في متنزه واسع محاط بسور مرتفع. ولكن السلطان وجد أنه من المستحيل الإقامة هناك، فقد كان يفضل الآفاق الأوسع والهدوء الأعظم في قصره بالعاصمة القديمة "أدرنة"، أما في إسكي سراي، فقد كان ثمة حضور دائم للشوارع الفوضوية الصاخبة في الجزء الخارجي من المدينة.

خطط السلطان لبناء قصر جديد؛ قصر يكون عالماً مثالياً مصغراً. ذكر المؤرخ كريتوفولوس في سجله لعام 1459 ما يأتي: «أصدر أوامر بإقامة قصر على نقطة في بيزنطة القديمة تمتد إلى داخل البحر؛ قصر يفوق بريقه كل ما سواه ويكون أكثر روعة من القصور السابقة من حيث المظهر والحجم والتكلفة والجمال».[8] وقد اختار محمد "لقصره الجديد" أو "يني سراي" Yeni Saray، الذي صار يعرف فيما بعد بدار النعيم أو دار السعادة، أراضي الغابات المنعزلة في أكروبول* بيزنطة، إلى الجنوب من أيا صوفيا التي كانت أول جزء من المدينة يتم الاستقرار فيه قبل ألف عام تقريباً. سار العمل بسرعة مذهلة، وبصرف النظر عن التكلفة؛ لأن السلطان كان مصمماً على أن يذهل الذين قالوا

---

* الأكروبول Acropolis: تعني هذه الكلمة المنطقة العالية؛ فقد اعتادت المدن الإغريقية القديمة إقامة قلعة حصينة في أعلى منطقة من المدينة، وتكون مركزاً دينياً وعسكرياً لها. (المترجم)

إن بناء القصر الذي يفكر فيه سيستغرق خمسة وعشرين عاماً. وبحلول عام 1465 استطاع المؤرخ كريتوفولوس أن يكتب عن إنجازه:

> اشتغل السلطان الذي كان يمضي فصل الشتاء في بيزنطة، إلى جانب اهتمامات أخرى، بإعادة إسكان المدينة وبنائها. كما أتم أيضاً بناء القصر، الذي كان يعد أجمل المباني، من حيث المنظر والفائدة والمتعة والزخارف معاً، ولم ينقصه شيء مما تشتهيه النفس مقارنة حتى بأقدم الصروح في العالم وأكثرها روعة... وكان هناك أيضاً سور عظيم جداً يحيط بالقصر. وقد بني بكامله كما قلت من قبل بحيث جمع بين التنوع والجمال والفخامة والعظمة، وكان يشع ويلمع في كل جانب في الداخل والخارج الذهب والفضة وزينة الأحجار الكريمة واللآلئ بكميات وفيرة...
>
> امتدت على كل جانب حدائق واسعة وجميلة جداً، كان ينمو فيها كل نوع يمكن تصوره من أنواع النباتات والفاكهة، وكان الماء العذب الصافي والصالح للشرب يتدفق بغزارة على كل جانب، وكانت أسراب الطيور، من الأنواع المغردة منها والشهية للأكل معاً، تزقزق وتغرد، بينما كانت الحيوانات الأهلية منها والبرية ترعى هناك.[9]

كان هذا الفردوس الأرضي يعج بالمتناقضات؛ فمحمد كان بستانياً [نستخدم لاحقاً الكلمة العثمانية "بستنجي"] متحمساً، وتتحدث عنه تقارير كثيرة وهو يعمل في التخطيط والحفر وغرس النباتات في حدائقه. وكان يجد متعة خاصة في صوت خرير الماء الجاري تحت الأشجار ورائحته، ممتزجة بعبير الزهور والثمار. وقد أرسلت نباتات نادرة بأمر منه إلى حدائق القصر من أماكن نائية في مملكته، لصنع حديقة وصفها أحد الزوار في ما بعد بأنها «أروع خليط من أشجار الزينة وأشجار الفواكه وغيرها، مع جميع أنواع الأزهار والأعشاب».[10] ومع ذلك فغالباً ما كان يشوه هذه الرؤية البسيطة الوادعة لحظات من الوحشية. وكان لهؤلاء البستنجية دور آخر أشد شؤماً؛ فعندما لا يقومون بالعناية بالنباتات والحدائق كانوا يقومون بدور السيافين داخل أسوار القصر. وكانت زيارة من كبير البستنجية ومساعديه الضخام الأجسام وهو يحمل سيفاً أو حبلاً حريرياً تعد علامة على موت محقق.

كان الشعور الغالب هو شعور بالعزلة والانفصال عن المدينة في الخارج. وكان القصر - أو بالأحرى - القصور، مخبأة خلف السور الضخم البالغ ارتفاعه نحو خمس وثلاثين قدماً. وكان الجنود الإنكشاريون يقومون بدوريات حراسة على طول الأبراج أو شرفات الحصن، وعند كل محرس للأبواب كان هناك حرس قوي. وعلى الجانب المشرف على البر كانت هناك أربعة أبواب ضخمة، ولكن الباب الأوسط أو الإمبراطوري (باب الهمايون) كان نقطة الدخول الوحيدة. وكان يسمح للزوار بالدخول بحرية، «رجالاً ونساء، يهوداً ومسيحيين، فقراء وأغنياء معاً»،[11] وكانت الساحة الرباعية عامرة بنشاطات مختلفة. وجميع الخدمات التي كانت تستخدم من قبل القصر كانت لها مراكزها حول محيط الباحة الكبرى الأولى التي كانت تشغل نحو 500 ألف قدم مربعة. وكانت توجد اصطبلات للخيول السلطانية وللفرسان، وثكنات للحرس والبوابين. وكان نحو 1000 بستنجي يتعهدون الأراضي المزروعة في القصر، بينما كان -يعمل نحو 600 حرفي - من حدادين وعاملين في العنبر وصناع الدروع والفخار ومنجّدين وصانعي سيوف ونساجين وكثيرين غيرهم - لدعم هذا الرمز للعظمة العثمانية. وحتى في الباحة الأولى، وعلى الرغم من الآلاف الذين كانوا يعيشون داخل أسواره أو الذين كانوا يجيئون زواراً وملتمسين، فقد كان هناك هدوء غير طبيعي يشبه هدوء الأماكن الدينية، ولاحظ الغربيون الذين كانوا يزورون معسكرات الحرب التركية الصمت المفاجئ نفسه، وذلك خلافاً للهرج والمرج في المعسكرات المؤقتة الأوروبية. وقد وجد الفنان نيكولاس دي نيقولاي، الذي رافق السفير الفرنسي عام 1551، ذلك الجو الثقيل الوطأة: «على الرغم من ضخامة عدد الناس المقبلين معاً من جميع الأنحاء فقد استمر ذلك الصمت، بحيث لا تكاد يمكنك القول إن الحاضرين كانوا يصفقون أو يسعلون».[12] وبعد ذلك بأكثر من قرن جاءت الملاحظة نفسها بشكل أكثر تأكيداً: «بإمكان أي شخص دخول الحرملك... ولكن كل شيء ساكن، حتى إن حركة الذبابة يمكن سماعها إلى حد ما..، بل يبدو أن الخيول ذاتها تعرف أين هي، ولا ريب في أنه تم تعليمها أن تطأ الأرض بهدوء أكثر مما في الشارع».[13]

في الوقت الذي كانت فيه الجوامع التي تزدحم كل يوم في أوقات الصلاة البؤرة الظاهرة لحياة المدينة، كان القصر قلبها المستور. كان الجزء العام الخارجي من القصر مفتوحاً مثل المساجد. وفي العطل أو في اليوم الذي كان السلطان يعقد فيه ديوانه أو مجلسه كان عشرة آلاف شخص أو أكثر يحتشدون خلال الأبواب وحتى الفناء الأول. وكانت هناك مظاهر واضحة أخرى. فقد كانت عمليات الإعدام الرسمية العلنية تتم بجوار نافورة السياف، قرب الباب المحصن الموصل إلى القصر الداخلي في الجانب الأقصى من الفناء الكبير. وكانت الرؤوس المقطوعة من التعساء السيِّئي الحظ تعرض على عمودين رخاميين بجوار النافورة، أو توضع على قضبان معدنية أو مسامير ضخمة فوق الباب، بينما يتم التخلص من الرؤوس الأخرى بشكل أقل علانية داخل الحرم الداخلي. وفي كل يوم جمعة وأعياد الإسلام الكبرى كان السلطان يخرج راكباً في موكب تحت أعين الحشد الكبير المتجمهر في الساحة الأولى، لكي يصلي في المساجد السلطانية في المدينة أو جامع أيوب [نسبة إلى أبي أيوب الأنصاري] خارج الأسوار.

ولكن بعد اجتيازه بيت الحارس تغير المزاج تماماً، وتلاشى أي انطباع مرتبط بالقلعة. وقف الزائر تحت مظلة خشبية واسعة، مخرمة ومزركشة، محمولة على عشرة أعمدة ضخمة. ومن باب الدخول امتد رواق عريض يرتكز على أعمدة نحيفة يميناً وشمالاً حول الساحة المفتوحة الكبرى. وكانت الأبواب توصل من هذا الرواق المسقوف إلى الأجزاء المحجوبة في داخل القصر. كان الانطباع عنه لدى الزوار أنه خيام منصوبة في متنزه أو حديقة أكثر من كونه مجموعة من المباني المصمتة. وقد علق أحد الزوار على «مساحات معينة من المروج يمثل العشب فيها مرعى لعدد من الغزلان التي كانت تربى هناك وتسر الناظرين».[14] وكانت الممرات المرصوفة بالحجارة تلمع من الباب، محاطة بمروج مرصعة بنوافير وبأشجار السرو والدلب [أشجار معمرة متساقطة الأوراق]. وكان في مواجهة الباب الأكبر مدخل آخر أصغر تعلوه قبة مغطاة بالبلاط تتلألأ في أشعة الشمس. وكان هذا الباب الذي يسمى باب السعادة هو المدخل إلى الأندرون أو القسم الداخلي للقصر؛

وهو حجرات السلطان نفسه. ولكن كان برج الديوان المتألق يطل على باب السعادة والأجنحة أو "الأكشاك" التي كانت تنقّط الفناء المربع.

كانت قاعة الديوان تمثل الوجه الخارجي العام للنظام العثماني، وكانت رسالتها الظاهرة تعبّر عن غنى السلاطين وقوتهم. كانت الأرض مطلية بالذهب، ومغطاة بسجاد من النسيج المذهب. وكانت المنصة التي ارتكز عليها العرش مغطاة بالقماش المذهب المطرز تطريزاً فاخراً، وقد ازدانت الجدران بالجواهر التي رصعتها على شكل زخرفة دقيقة متشابكة من الخطوط الذهبية، وتألق المشهد المترف بكامله تحت أشعة الشمس القوية المتدفقة من النوافذ العالية والألواح الزجاجية تحت القبة. لقد كان كرسي الجلالة.

على مدى 300 عام كانت الطقوس المستمرة نفسها تُتّبع. فبُعيد بزوغ الفجر من أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، كان جميع أعضاء الديوان الإمبراطوري – كبار المسؤولين والقضاة ورجال الدين الذين كانوا بمنزلة مستشارين للسلطان – يتجمعون في الفناء الأول للقصر. ويتقدمون ببطء واحداً بعد الآخر، مصحوبين بحاشية من الحرس والكتبة، عبر الفناء الأول إلى باب السلام. وبعد أن يتجمع أعضاء الديوان أمام الباب يسيرون مثل الجسد الواحد إلى الفناء الثاني، يحرسهم من الأروقة يميناً وشمالاً آلاف الجنود الإنكشاريين وحراس الأبواب والفرسان السباهيين. وفي بعض المناسبات كان يقف متفرجون يحيطون الفناء بصمت، ويمكن أن يصل عددهم إلى عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً. وعندما يصل الصدر الأعظم* كان الموظفون يشكلون رتلاً مزدوجاً طويلاً خارج القاعة الذهبية، ويقف كل منهم ويداه متشابكتان وقد حول بصره كرمز للخضوع والطاعة.

قد يكون السلطان حاضراً بشخصه ليكون قاضي القضاة لرعيته، ولكنه غالباً ما كان يستمع من وراء «شبك من الخيزران، مع ستارة من قماش الكريب أو التفتا الأسود

* الصدر الأعظم؛ أي صاحب المقام الأول في الحكومة العثمانية أو رئيس الوزراء. (المترجم)

[قماش برّاق]، وتسمى "النافذة الخطيرة"؛ لأن الأمير يمكنه أن... يستمع ويرى كل ما يحدث من دون أن يُرى».[15] وبعد عام 1475، نادراً ما كان محمد الثاني يحضر اجتماعاً للديوان؛ حيث كان يفضل السيطرة السرية التي منحته إياها "النافذة الخطيرة".

كانت قاعة الديوان هي منطقة التقاطع الأخيرة بين العالمين الداخلي والخارجي. لقد وجد القصر بكامله – من الأسوار الخارجية والأبواب، مروراً بالباحتين الكبيرتين، بمطابخه الواسعة واصطبلاته الواسعة وآلاف الحراس والبستنجية والصناع – لدعم البلاط؛ الحرم الداخلي. قلما دخل أحد أبعد من ياردات عدة داخل باب السعادة. ولكن في ما وراء الباب كان هناك عالم منفصل آخر، يمضي فيه أكثر من 3000 شخص حياتهم في سن الرشد. هذا القصر داخل القصر كان دار السعادة، البلاط الثالث وهو الحرملك؛ حيث مقر سعادة السلطان وانسجامه. إن كان القصر الخارجي استبعد صخب المدينة وروائح العفن فيها، فإن القصر الداخلي كان منفصلاً تماماً عن وقائع الحياة. فالمنطقة بكاملها، من حجر المدخل التي كان يقبلها كل من مر بها، إلى الأسوار البحرية التي أحاطت بالقصر في جناحه الجنوبي، كانت "حرماً" أو محرمة. لقد كانت منطقة حراماً؛ لأنها كانت مفعمة بروح الجلالة.

كان محمد الفاتح في البداية يرى في دار السعادة معتكَفاً صيفياً في العاصفة، ولكنه ما لبث أن أصبح المركز السياسي لإمبراطوريته. وكان دقيقاً تماماً في ما يتعلق بأي من أقسام إسكي سراي التي سيتم تحويلها إلى القصر الجديد. والأمر الأجدر بالملاحظة أن حرمه الكبير، وهو يضم جواريه وخادماته، اللائي تركن في إسكي سراي، وقد انتقل مع السلطان خزينته وأسلحته، والرجال المقربون منه وبضع نساء. لقد كان في غالبه عالم ذكور.

وكان الغلمان بين أوائل من انتقلوا من إسكي سراي إلى يني سراي. كان هؤلاء الشباب الخدم والحرس الشخصي للسلطان، ومعظمهم تم اختيارهم من بين الرعايا المسيحيين في الإمبراطورية. وكانوا جزءاً من نظام دوفشرمة devsirme [وتعني الجمع أو

القطف]، وهو نظام ضريبة الخمس في الأطفال الذي فرضه العثمانيون لملء فرقة الإنكشارية. وقد تم اختيار هؤلاء الغلمان واختبارهم لتنفيذ دور أسمى. كان البلاط مدرستهم وجامعتهم؛ كانت واجباتهم الحقيقية الخضوع لتدريب شاق يؤهلهم لأن يكونوا حكاماً مستقبليين أو جنوداً أو إداريين في الإمبراطورية. وقد أصبحوا جميعاً "كول" kul؛ أي مماليك أو خدماً للسلطان، وتم ختانهم جميعاً واعتنقوا الإسلام. لم يكن ينطوي كون الشخص مملوكاً على أي عبودية؛ لأن أعظم الرجال في الإمبراطورية بدأوا حياتهم مماليك. وكما وصفهم كاتب إيطالي عام 1537، كان المملوك «شخصاً يطيع أمر السلطان طاعة عمياء».

كان نظام المماليك مصدر قوة كبرى للأتراك؛ ففي القرون التي تلت الفتح تم التخلي عن ضريبة النفوس، كما تم تجفيف منابع الضريبة على الأولاد الجدد. وبعد ذلك انتقل النظام المملوكي من الوالد إلى الولد كوسام شرف؛ فقد كانت العبودية للسلطان ميزة وفرصة. فقد سعى كثير من المسلمين الأحرار المحظور عليهم نظرياً وضعية "مملوك" أن يشقوا طريقهم إلى بيوت السلطان عن طريق الرشوة أو التملق؛ حيث يصبحون من خلال قبول حالة العبودية عثمانيين؛ أي من قبيلة عثمان ونسبه. أن تكون عثمانياً كان يعني قبول واجبات الطبقة الاجتماعية؛ الولاء والطاعة التامين. وفي المقابل، كان السلطان يضمن حياة مهنية ومكانة وراتباً مدى الحياة.

كان جيا ماريا أنجيوليلو Gia Maria Angiolello شاباً من البندقية، تم أسره في حصار نيغروبونتي عام 1470، وقد عمل مترجماً في القصر في الفترة 1473-1481، ووصف النظام كما كان يتم تطبيقه في عهد محمد الفاتح، وكتب عن الفتيان بأنهم:

> أولاد مسيحيون، تم أسر بعضهم في أثناء الحملات على دول أجنبية، وتم أخذ بعضهم من بين رعيته... وبناء على تصرف الفتيان يتم تعيينهم في وظائف في العائلة السلطانية لخدمة عظيم الترك، وبعد أن كانوا يمضون في خدمته زمناً معيناً، فإذا رأى أنه يستطيع أن يثق بهم كان يرسلهم خارج القصر برواتب يتم زيادتها حسبما يراه مناسباً... وهكذا فإن الجزء الأكبر من السادة والرؤساء والعظماء في خدمة عظيم الترك يتلقون تعليمهم في القصر السلطاني...

وهناك قلة لا تنجز واجباتها؛ لأنهم تمت مكافأتهم على أصغر خدمة لسيدهم، وأيضاً لأنهم عوقبوا على أصغر خطيئة.[16]

كان تدريب الفتيان يقوم به الخصيان أو الطواشية* البيض. وكان يتم شراؤهم على الأغلب من التجار في أوروبا المسيحية وشركاسيا (كانت فيان في فرنسا المركز الرئيسي للخصيان)؛ لأن الشريعة الإسلامية حرمت الخصاء. وكان الخصيان يحرسون باب السعادة، ويقومون بتنظيم الحياة اليومية للبلاط الثالث. وقد قام العثمانيون الأوائل بحماسة بتبني العادة البيزنطية باستخدام الطواشية لحراسة نسائهم، وسرعان ما امتدت نشاطات الطواشية البيض (يسمون هكذا للتفريق بينهم وبين الأفارقة السود الذين جاؤوا لاحقاً إلى القصر) إلى الإدارة. وشأنهم شأن الغلمان والعبيد الآخرين في بيوت السلطان، فقد تم فصلهم عن المجتمع التركي، وبما أنهم كانوا يتم تجنبهم والخوف منهم؛ لأن خصاءهم فصلهم نهائياً عن العلاقات الاجتماعية الطبيعية، فقد كانوا بالضرورة مخلصي الولاء لسيدهم. لم يحظَ الطواشية في المجتمع العثماني بالسلطة التي حصلوا عليها في بيزنطة التي كان يتم فيها تعيين البطاركة والجنرالات والكثير من الموظفين الأقل رتبة من بين صفوفهم، ويتم الاحتفاظ ببعض مناصب الدولة لهم وحدهم. في الخدمة المدنية البيزنطية «كان حامل اللقب المخصي له الأفضلية على نده غير المخصي».[17] كانت سلطتهم في يني سراي خفية إلى حد كبير، كما كان كذلك انتقال السلطة من البيض إلى السود في عهد سليمان (1520-1566).

كانت حراسة الحريم في إسكي سراي تتم تقليدياً بواسطة الطواشية السود الذين عانوا أشد أشكال الخصاء تطرفاً، وكان هناك اعتقاد بأنهم الأكثر ملاءمة للعمل في عالم النساء. وقد أصبحوا نقطة اتصال بين الحريم السلطاني والعالم الخارجي، وقاموا بإدارة العقارات والممتلكات التي كانت تعود ملكيتها إلى أم السلطان وأمهات أولاده. وقد تعززت سلطتهم كثيراً عندما قام سليمان، بعد حريق في إسكي سراي عام 1541، بالتخلي

* الاسم الذي كان يطلق على هؤلاء هو "طواشي"، لذا تم استخدامه في الكتاب؛ وهم خدم حريم السلطان أو الباشا. (المترجم)

عن التقاليد وسمح لجاريته المفضلة (وزوجته الشرعية فيما بعد) روكسلانا [وتسمى خُرَّم سلطان] بدخول الأكشاك في حدائق يني سراي. وبعد ذلك تم تدريجياً انتقال الحريم من إسكي سراي إلى يني سراي. ولكن ابتداءً من الوقت الذي جاءت فيه روكسلانا من إسكي سراي - مع 100 سيدة في خدمتها، وحرس من الطواشية السود، وطباخين، وخياطين للسيدات، وجميع خدمها الخاص - تغيّرت طبيعة القصر تماماً؛ إذ تحوّل يني سراي من مركز للحكومة إلى مركز لحياة السلطان الشخصية، وبمجرد أن انتقل الحريم من إسكي سراي إلى يني سراي احتكر الأفارقة مراكز السلطة الرئيسية. وقد أصبح قيزلر آغاسي (كبير الطواشية السود) أكثر خدم السلطان ثقة، وأصبح له كرسي في الديوان السلطاني، وحصل على صلاحيات واسعة داخل القصر؛ لأنه كان يتمتع بحق الدخول على سيده دونما قيود. وفي عام 1595 تم الاعتراف بتفوق الأفارقة، وانتقل الحق لإدارة الحرمين الشريفين في مكة والمدينة (والعائدات الكبيرة التي ذهبت معهم) من كبير الطواشية الأبيض إلى منافسه الأسود.

أحضر سليمان وخلفاؤه المباشرون جواريهم المفضلات للعيش في دار السعادة. ولكن في منتصف القرن السابع عشر تمت إقامة جميع حريم السلطان في سراي السلطان أو قصره، بينما تم تحويل أرامل السلاطين السابقين ليعشن بقية أيامهن في الحرملك القديم خلف أسوار إسكي سراي. كان هناك سوء فهم لدى الغرب المسيحي للحرملك؛ إذ كانوا يتصورون أنه ليس إلا مكاناً للشهوة يشبع السلاطين فيه رغباتهم، وكانت النساء يشبعن شهوات بعضهن بعضاً. والواقع أن منشأ الحرملك يعود إلى اهتمام الإسلام بطهارة المرأة؛ الأمر الذي يعني فصل النساء عن الرجال إلا عن أزواجهن وعن الأبناء الصغار. كان عالم النساء "حراماً" على جميع الذكور الآخرين. وقد غدا نظام العزل هذا على أيدي العثمانيين مؤسسة سياسية واجتماعية كذلك.

كان جناح الحريم السلطاني معداً لإشباع رغبات السلطان الجنسية، ولكنه أيضاً كان بمنزلة مدرسة للتدريب، موازية للمؤسسة التي قامت بتعليم الوصفاء الملكيين. والواقع

أنه بعد أن ينهي الوصيف تدريبه ويتم إرساله إلى أول منصب إداري له، كان يعطى زوجة من بين نساء الحريم تكون مثله من إماء السلطان. وكان لدى كل منهما تجربة مشتركة في حياة القصر، وحتى اللهجة المميزة التي يتم التحدث بها في دار السعادة.

وما لبث العالم الأنثوي في جناح الحريم أن غدا المركز الجديد لحياة القصر، ولكن وضعه المنعزل والدوني كان جلياً في المباني التي تم إنشاؤها لإيوائه. وقد استغرب أحد أوائل زوار جناح الحريم في القرن العشرين، وهو الدكتور بارنيت ميلر Barnette Miller لأن «جناح الحريم الكبير ليس صرحاً فسيحاً وفخماً على الإطلاق كما يتوقع المرء عادة، بل هو مجموعة من المباني المنفصلة والملاحق والأجنحة والغرف المجموعة مع بعضها، وهي التي تعد، تقريباً ومن دون استثناء، صغيرة ومظلمة».[18] لقد كان منطقة مكتظة بالممرات الضيقة والمغلقة، وغالباً ما كان من المستحيل التواصل بشكل مباشر بين الغرف المتجاورة، إلا بواسطة ممر ملتوٍ تحت أعين الطواشية السود ومراقبتهم؛ حيث كانوا يشرفون على كل جانب من جوانب حياة النساء. وحتى دخول المتنزه الرائع الواقع بين الفناء الثالث والبحر كان محظوراً، إلا في مناسبات الاحتفالات الخاصة، علماً أنه كان للنساء حدائقهن الصغيرة الخاصة بهن.

كان ثمة تباين مروع مع قسم الرجال في القصر، سواء الغرف العامة والسكن الخاص. ففي غرف الذكور أو الاستقبال (السلاملك) كانت الغرف مهوّاة ومفتوحة؛ حيث توصل كل غرفة إلى الغرفة مباشرة. وكان الخارج يلفت النظر؛ حيث الحدائق والعالم ما وراء الأسوار. وحتى الوصفاء كانوا يعيشون في مهاجع فسيحة مزودة بنوافذ كثيرة وأسقف عالية، كانت تطل على الفناء أو حدائق القصر. أما عالم النساء فكان محصوراً ويصيب المرء برهاب الاحتجاز. والسلطانة الشرعية (أم السلطان)، والنساء اللواتي حالفهن ما يكفي من الحظ لأن يلدن له أولاداً، كن يعشن في شيء من الترف ولديهن إطلالة على العالم خارج الحرملك.

كان نقل الحريم من إسكي سراي وراء تغيير ميزان القوى داخل القصر؛ فقد أوجد هرمية موازية تمركزت حول شخص السلطانة الأم؛ حيث بدأت كفتاة في الحريم، ولكن حالفها الحظ من خلال ولادة وريث للعرش فتحققت لها مكانة رفيعة. وعندما أصبح ابنها سلطاناً أصبحت صلاحيتها ونفوذها كبيرين. ولم يكن إلا أشد السلاطين عزماً وتصميماً على استعداد لتحدي أمه، وربما لسجنها أو إعدامها. وقد أقامت السلطانة الأم تحالف مصالح مع كبير الطواشية السود، وعندما كان السلطان صغيراً أو ضعيفاً كانت السلطة الحقيقة داخل القصر تستقر في يد أمه وحاشيتها. وفي المقابل كان الصدر الأعظم وموظفو الدولة غالباً من دون سلطة، ما لم يقوموا برشوة السياسيات بين الحريم، أو يدخلوا بأنفسهم في عالم الصراع الحزبي المظلم.

قلما كان هناك من هو أقدر من السلطان إبراهيم على التلاعب والمناورة بشدة. فبعد نجاته من أوامر أخيه مراد الرابع (1623-1640) بإعدامه، شجعته أمه ووزراؤه على إشباع رغباته، ولكن عندما شكّل انغماسه في الشهوات تهديداً لميزان القوى داخل القصر تم اتخاذ إجراء واسع النطاق لإصلاحه:

> ذات مرة بينما كان راكباً قرب سكوتاري، قرر أن درجة المتعة الحسية يجب أن تكون متناسبة مع حجم الجسم، فتم إرسال الرسل فوراً إلى الخارج للعثور على أكبر وأسمن امرأة ممكنة، ووجدوا امرأة أرمنية عملاقة... وازدادت حظوة الجارية الجديدة بسرعة كبيرة لدى السلطان حتى إنها سبقت منافساتها... ولكن السلطانة الأم غارت من النفوذ المتنامي للأرمنية، فدعتها إلى وليمة وجعلتها تموت خنقاً.[19]

تم إنهاء سيرة إبراهيم القائمة على الإفراط في الملذات بتحالف جديد بين الفرقاء، فقد نفى أمه بتوصية من جواريه، أما أمه فقد استغلت دعم الإنكشاريين لعزله. تقضي الشريعة الإسلامية بأن قوة السلطان ونفوذه يبقيان مادام يحكم وفقاً لمبادئ الدين؛ ومن ثم حصلت أمه على فتوى من قضاة الإسلام بأنه لا يحق للمجنون أن يحكم، وأن جنونه هو «تخريب إمبراطوريته من خلال القتل والعار والفساد»، وقد تم عزل إبراهيم، وما لبث بعد ذلك أن قُتل، ونصّبت أمه حفيدها البالغ عمره ثماني سنوات مكانه.

لقد تم صنع السلطان إبراهيم وتدميره بواسطة سياسة الحريم. كانت أمه قد أنقذته من الإعدام، ولكنها قامت بعد ثماني سنوات بعزله وأحلت مكانه طفلاً غضاً لين العريكة عندما خرج على سيطرتها. كانت هيمنة الحريم بمنزلة سرطان داخل النظام العثماني. وقد احتفظت السلطانة الأم بسلطتها في الوقت الذي كان فيه ابنها (أو حفيدها) عاجزين عن فرض إرادتهما، أو لم يكن لهما مصلحة في الحكم. وقد حرصت أمهات السلاطين على إطالة فترة الطفولة هذه، وشجعن أولادهن على الفسوق والسكر، وثبطنهم عن أي نشاطات خارج حدود القصر.

ومنذ بداية القرن السابع عشر لم يقتصر الأمر على النساء المحصورات خلف باب السعادة. فبينما كان السلاطين في السابق يخرجون في الحملات، أصبحوا الآن يتخلون عن العالم الخارجي لوزرائهم وقادتهم. وأصبح الأمر عرضة للسخرية والتعليق عندما أظهر سلطان مثل مراد الرابع (1632–1640) أو مصطفى الثاني (1695–1703) أي طموح لقيادة جيشه في المعركة. لقد نشأ الأمراء العثمانيون داخل الحرملك، وعاشوا في أجنحة صغيرة من غرف سميت "القفص"، وكانت معزولة تماماً عن بقية القصر. وعندما كان أحدهم يصبح سلطاناً كان يتم إطلاق سراحه ليدخل بقية أقسام القصر أول مرة. كان هذا بمنزلة أداة لمنع الأمراء الشباب من أن يصبحوا هدفاً للمؤامرات، وهو بديل إنساني للعرف الذي أوجده محمد الفاتح والذي بواسطته كان يتم قتل جميع إخوة السلطان وأبناء عمه عند صعود سلطان جديد للعرش. ولكن سواء كان هذا العرف إنسانياً أو لا، فقد جعل وراثة الحكم في الإمبراطورية العثمانية لحكام لم تكن لديهم أي خبرة بالعالم خارج أسوار القصر.

وعندما بنى الفاتح دار السعادة في منطقة سراي بورنو* أوجد أكثر من مبنى. كان القصر هو قمة المجتمع العثماني؛ حيث كانت السلطات كلها تخرج منه، ويقوم بتنفيذها خدم السلطان الذين يرسلهم ليحكموا باسمه. وفي أقاليمهم البعيدة كانوا يصوغون عائلاتهم على

* منطقة سيراجلو Seraglio point أو سراي بورنو Sarayburnu بالتركية، هي أرض مرتفعة ناتئة داخل البحر، وتقع في بداية مضيق البوسفور، من جهة بحر مرمرة وتفصل الأخير عن القرن الذهبي. وتقع فيها القصور التاريخية؛ مثل طوب قابي وأيا صوفيا، وتشير أيضاً إلى الحرملك أو الجناح الخاص بالنساء؛ لأنه كان يقع فيها. (المترجم)

نمط الحرملك، ويتبعون قوانين تضمنت جميع الإجراءات والمراسيم المتبعة داخل القصر، وحددت أدوار الموظفين وواجباتهم، كما حددت اللباس والتجهيزات لكل فرد من أفراد الطبقة الحاكمة. وكان يتم تحديد لون أرديتهم وقَصّة أكمامهم وشكل العمامة، كل ذلك بأوسع تفصيل. وكان طول اللحية ولون البدلة بمنزلة تعريف لكل مسؤول؛ إذ كان الوزراء يلبسون اللون الأخضر، والحجّاب اللون القرمزي. كان رجالات الدين (العلماء) متألقين بثيابهم البنفسجية، بينما ارتدى أئمة المساجد الأزرق الفاتح، ولم يكن يرتدي اللون الأخضر الغامق من قمة رأسه إلى أخمص قدمه إلا سايس الخيل. وحتى الأحذية كانت تمثل مجموعة من علامات التمييز الرمزية؛ فضباط الباب العالي - مكاتب الصدر الأعظم خارج أسوار القصر مباشرة - كانوا يلبسون أحذية صفراء، بينما كان ضباط البلاط جميعاً ينتعلون أحذية حمراً فاتحة اللون. وكانت العلامات المميزة الصارمة نفسها تنطبق على غير المسلمين؛ فاليونانيون كانوا ينتعلون أحذية سوداً، والأرمنيون بنفسجية اللون، واليهود نعالاً زرقاء.[20]

في غمرة هدوء القصر كان للون والشكل بلاغتهما الخاصة، وكانت للبدلة قواعد دقيقة. وكان الأوروبيون المتابعون للأمور المشرقية الغريبة يستمتعون بالتنوع "الغريب" في نظام اللباس العثماني؛ حيث كان بعض الناس يفهم الدرجات الاجتماعية والسياسية المعقدة التي كانت كامنة وراء مظاهر الترف، ولكن عبر القرون ضاعت المعاني الأعمق حتى بين العثمانيين أنفسهم، فلم يعد بالإمكان حل لغز هذه الرموز. وما بقي - وإن كان أكثر من مجرد بقايا - هو لغة مشتركة من الزينة والمظاهر، لم يتم التعبير عنها بشكل تام ولكنها ماتزال معبرة. وعندما كان السلاطين يرغبون في إعادة تأكيد سلطتهم كانوا يظهرون عزمهم على تنفيذ مراسيم عليا قديمة حول اللباس والزينة. فقد طبق المجدد العظيم محمود الثاني (1808-1839) القوانين القديمة بمنتهى الصرامة. وعندما سعى محمود لنقل الإمبراطورية العثمانية من ماضيها الشرقي القديم نحو مستقبلها الغربي الحديث، قام بتغيير أشكال الأزياء والبدلات للشعب، واختفت أردية الماضي وعمائمه ليحل محلها المعطف الأسود (الإسطنبولي stambouline) والطربوش المخروطي الأحمر المصنوع من اللباد، وهو الذي تميز به عثمانيو القرن التاسع عشر. وتجلت قوة التغيير

الرمزية بعيداً خارج أسوار القصر، فقد اندلعت أحداث شغب ومظاهرات ضد التخلي عن الزي "الإسلامي" لمصلحة عادات الغرب الكافرة. ولم يسمح إلا لرجال الدين بالاحتفاظ بجلابيبهم المسدلة القديمة وعمائمهم الضخمة؛ الأمر الذي دل على وجود حدود لسلطة حتى أشد الإصلاحيين تصميماً.

ترك سلاطين القرن التاسع عشر قصور أسلافهم وانتقلوا إلى مساكن أكثر عصرية وأكثر فخامة، مصممة على الطراز الغربي، ولكنهم أدخلوا معهم نظام إسكي سراي في قاعات الرخام الباردة الجديدة. وقد تم أخذ ثيوفيل جوتييه Theophile Gautier في جولة حول قصر دولما باهتشة (أو قصر البهجة) Dolmabahce، في الوقت الذي كان يجري فيه بناء القصر في خمسينيات القرن التاسع عشر. وقد زار جناح القصر المخصص للحريم السلطاني: «تتلو الغرف بعضها بعضاً بشكل متراصف، أو تكون مفتوحة على الممرات. وقد اعتمد الحرملك، وغيره، أسلوب الترتيب الأخير. وتكون شقة كل سيدة مفتوحة من خلال باب واحد على قاعة أو ممر واسع، كما هي الحال بالنسبة إلى صوامع راهبة في دير. وفي كل طرف من نهاية هذا الممر توجد شقة للحرس المؤلف من الطواشية أو البستنجية».[21] وبعد أربعين عاماً، قام ضابط في البحرية البريطانية، هو وليام سبراي William Spry، بزيارة تركيا على ظهر سفينته HMS Antelope. وتم أخذه برفقة الأميرالات والدبلوماسيين في جولة رسمية في قصر دولما باهتشة الجديد، وإلى القصرين الجديدين الآخرين تشيراجان Çırağan وبيلارباي Beylerbey. وفي ذلك الوقت، كان الحرملك في قصر دولما باهتشة مستخدماً، وأوضح دليل تركي له أن الباب الكبير المغلق، الذي وصفه بأنه "باب السعادة" يمثل حدود "دار السعادة"، كما أن مجموعة سبراي من زوار مرموقين لم يسمح لهم بتجاوزه، مع أنهم تجولوا بحرية في بقية أقسام القصر. والواقع أن الحرملك كان فارغاً، وكان السلطان ونساؤه يقيمون في مكان آخر. ولكن سكن النساء السابق غدا "حراماً"؛ فلم يكن بإمكان رجل غريب المرور خلال الغرف التي كان جوتييه قد شاهدها في الماضي. كانت هندسة العمارة جديدة وغربية، ولكن الغرائز والمواقف كانت تلك التي كانت موجودة في قصر يني سراي، قبل ذلك بأربعة قرون.

الفصل الثالث

شنق بحبل من حرير!

قيود العثمانية

وراء أسوار القسطنطينية، قرب الحي الفقير في المدينة المسمى داود باشا كان يوجد مرعى عشبي يابس. وخلال معظم العام كان مرج تشايرجي Cyrpyci أرضاً قفراء؛ حيث كان البدو يرعون غنمهم وماعزهم. ولكن طوال الفترة من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، كان الحقل يتحول فجأة إلى مدينة مؤقتة بمجرد أن ينتهي صيام رمضان. وكان جيش صغير من البستنجية وصناع الخيام والمنجدين والخياطات وصناع السجاد يعملون ليل نهار، يمهدون الأرض، ويصنعون الطرق والمسالك، ثم يتجمعون ببطء في الشوارع والساحات التي تمثل المعسكر الحربي للسلطان والمكون من الخيام.

إن كلمة "خيام" توحي بشيء مؤقت، وبديل وقتي، ومنفصل عن الواقع المترف. وقد وصف التاجر بول رايكوت Paul Rycaut المعسكر الحربي بأنه «بالأحرى... قصور وليس خياماً، لكونها ضخمة وفخمة من الداخل... وفي رأيي [أنها] تتجاوز كثيراً فخامة أفضل المباني». كانت جدران الأجنحة مصنوعة من القنب أو الصوف الثقيل، ومعلقة بحبال حريرية متعددة الألوان من الأعمدة الضخمة، وسميكة بسماكة خصر الرجل. ومن الخارج تم إخفاء القماش الخشن بستائر حريرية زاهية الألوان، ومطرزة بزخارف الأرابيسك والأزهار أو بتقليمات وشرائط، ومن الداخل كانت الأرضية مغطاة بالسجاد، أما الجدران فمغطاة بستائر رائعة أو سجاد الكليم التركي اليدوي. وقد اتبع المعسكر نظام مدينة عثمانية، مع جعل حجم كل خيمة وموقعها ينسجم بدقة مع مكانة الذين سيعيشون داخلها وأهميتهم. وتم تقليد النظام الهرمي المعقد للحرملك، وإن لمدة بضعة أيام فقط، داخل سياج من الحرير الأحمر، يرمز إلى سور القلعة.

وأخيراً غادر صناع الخيام، وانتصبت المدينة الجديدة فارغة، ونصب الإنكشاريون عموداً مذهباً قوياً أمام مدخل جناح السلطان، تم وضع هلال ذهبي ضخم في قمته يحمل راية الحرب السلطانية، وهي عبارة عن مجموعة مؤلفة من ستة ذيول خيل سوداء بدت وهي تتراقص في نسيم الربيع المعتدل، وقد تدلت تحتها مجموعة من الأجراس التي كانت تصدر أصواتها باستمرار؛ مثل موسيقا الرياح. وقد شبهها زوار المعسكر بصوت خرير المياه في حدائق القصر. وفيما وراء السرادق الإمبراطوري، كانت هناك مدينة أخرى (ضاحية مزدحمة) تتنامى بسرعة. وبعد رفع راية الحرب، بدأت الفرق تتجمع من جميع أجزاء الإمبراطورية العثمانية، متبعة الأوامر والطلبات المرسلة قبل ذلك بشهور كثيرة، طالبة منهم إرسال جندهم ليلتقوا بعد الصيام في السهل المجاور لحي داود باشا.

حينما ذابت الثلوج في شعاب الأناضول ومن جبال أوروبا، كان كل حاكم من حكام الأقاليم يجند فرقة من السباهية، وهم الجنود المسلحون الذين يحصلون على إقطاعات مقابل خدمتهم العسكرية. وكان كل سباهي يقدم فرسه وتجهيزاته، وكان عدد كبير منهم يحملون أسلحة ورثوها عن الآباء أو الأجداد. وفي المعركة كان يتم استخدامهم قوةَ صدام، وقد حمل معظمهم سيف مبارزة وسيفاً طويلاً مستقيماً، وكان سباهية القرن الثامن عشر مايزالون يرتدون درع الصدر الفولاذية فوق الدرع الطويلة، ويضعون خوذة فولاذية عليها ريشة. وعلى مدى أسابيع كثيرة تجمعت أرتال طويلة من الفرسان - بعض السباهية وبعض الفرسان المغاوير - في العاصمة. وفي طريقهم مروا بسرايا من الرماة الماهرين المسلحين بقربينات (بنادق فتيل صغيرة) وسيوف قصيرة، وبمسكيتيين (جنود مسلحين ببنادق قديمة الطراز)، من السهل التعرف إليهم من معاطفهم القصيرة ذات اللون الأحمر وقبعاتهم المخروطية الحمر. وقامت فرق كبيرة من الفرسان التتار - كل واحد منهم يقود رتلاً من الخيل، وهو مسلح بالقوس القوية الصغيرة التي يستخدمها فرسان السهول - بالإسراع إلى أسفل الهضاب نحو القرن الذهبي ليلحقوا بصفوف جند السلطان.

كان معسكر الحرب في آنٍ واحدٍ رمزاً للحرب - أي هو حشد رمزي لجيش الإسلام المستعد لخوض الحرب - وعمليةَ تجنيدٍ معروفة لدى القائد في أي جيش. وكان يتم إدراج اسم كل كتيبة والتحقق منها من خلال الأدوار بحسب التجنيد، كما كان يتم تفتيش كل سباهي للتأكد من أنه قد أحضر معه كل التجهيزات والمجندين الذين كانت إقطاعيته تتطلبها. كذلك كان يتم إجراء فحص دقيق لكل مدفع وبندقية، ويتم ختم كل الحصص التموينية والإمدادات وتصديقها من موظفي السلطان. ولكن الطقوس التي كانت ترافق معسكر الحرب كانت أكثر قدماً، وهي مراسم يرجع تاريخها حتى إلى ما قبل دخول الأتراك في الإسلام. وحينما تم حمل راية السلطان خلال الشوارع ركعت الحشود في طريقها، كما كانوا يفعلون عندما كانت الجيوش الوثنية تحتشد لخوض المعركة. ولكن تقدم الإسلام كان مهمة مقدسة، ولذلك أسهم حضور رموز الدين في تعظيم الاستدعاء القديم لذيول الخيل. وعندما تم إخراج راية النبي المشرفة من أغطيتها الحريرية الأربعين في حجرتها بقلب القصر، وتم حملها ببطء خلال الساحات الخارجية، فركع الرجال أمامها كما يركعون في الصلاة وهم يذكرون اسم الله. وكما حمل بنو إسرائيل تابوت العهد أمامهم في المعركة، كذلك جعلت رموز الإسلام معسكر الحرب مكاناً مقدساً، وأصبحت الحرب التي كانت هدفاً له أقدس الواجبات حتى بالنسبة إلى أقصى مناطق الإمبراطورية.

كان معسكر الحرب يتنامى يومياً، وسرعان ما أصبحت أحياؤه وأقسامه تعكس صورة العناصر الكثيرة في الإمبراطورية. جاء أولاً الحي الإنكشاري ممثلاً قلب المؤسسة العثمانية. وكان الإنكشاريون وقوات السلطان الخاصة يحيطون بالسرادق الإمبراطوري، وكان معسكرهم أنيقاً ومنتظماً وهادئاً ومرتباً. وكانوا يتدربون في ساعات محددة كل يوم، ليس بالمناورات المقررة لحاملي الرماح أو الجنود الذين يحملون بنادق المسكيت، بل بتصميم من عقل واحد يكتسح العقبات ويطلقون رصاص بنادقهم العتيقة على "العدو". وقد قال مراقبون أوروبيون عنهم إنهم كانوا يتصرفون وكأنهم جسد واحد. وقام سفير البندقية، جيانفرانسيسكو موروسيني Gianfrancisco Morosini، بزيارة معسكر حرب عثماني عام 1585، وكتب إلى القاضي يقول: «مشيت من خلال الجيش بكامله ولاحظت

كل تفصيل يتعلق بمستوى رجالهم وأسلحتهم وطريقة تنظيم معسكرهم وتحصينه. وأعتقد واثقاً بأن بإمكاني تقديم الاستنتاج الآتي: إنهم أكثر اعتماداً على كثرة العدد والطاعة من اعتمادهم على التنظيم والشجاعة». وتابع القول: إن «10000 مسيحي بإمكانهم دحر 30000 تركي، ولكن حكم 2000 مسيحي أصعب من حكم 100000 تركي، ويكون الأمر أصعب من ذلك لو كان المسيحيون إيطاليين».[1]

قام كل فوج بنصب خيامه على هيئة شبكة حول قائدها، وهو انعكاس لهيئة مخيم السلطان، وفي قلب كل فوج كانت توجد حلة الطبخ الخاصة به. وكان لكل فوج شارته المميزة له، فأحياناً تكون زهرة أو نبتة، وكانت راياته وبنادقه مكدسة في أكوام بجوار كل خيمة. وهذا يتباين مع انتشار الفوضى والقذارة المعتاد في أي مخيم عسكري أوروبي. وقد استمر الشعور نفسه بالهدوء والنظام لدى فرسان أسرة السلطان؛ حيث كانوا جميعاً يرتدون الدروع الثقيلة، ويمتطون خيولاً مميزة، ومجهزين تجهيزاً جيداً بشكل يلفت الأنظار، وكل ذلك على نفقة السلطان. وكانوا يتمتعون بمهارات متساوية في استعمال الرمح أو السيف أو القوس، ودروعهم الحديدية تصل إلى جانبي الحصان، وعماماتهم ملفوفة حول خوذاتهم الفولاذية الطويلة المدببة؛ ومن ثم، فقد بدوا لمن ينظر إليهم وهم يتمرنون وكأنهم أمواج مدرعة تتدفق في مد وجزر حول "عدوهم". وقد أعجب السفير الإمبراطوري غسلين دي بوسبك Ghislain de Busbeq بشدة «بتروسهم ورماحهم المطلية بألوان زاهية، وسيوفهم المعقوفة المرصعة بالجواهر، وأرياشهم الزاهية الألوان، وعماماتهم الناصعة البياض، وأثوابهم، وأكثر ما أعجبه منها اللونان المائل إلى القرنفلي والأخضر المائل إلى الزرقة، وخيلهم الرائعة وأغطية السروج المزركشة؟».[2]

في ميدان المعركة، كان الأتراك يقاتلون بالحيوية والنشاط اللذين أظهروهما أمام السفير بوسبك، وفي المواطن التي كان الفرسان الغربيون يعتمدون فيها أسلوب الصدمة والحشد، كان الأتراك يستخدمون السرعة والدقة في الهجوم: سيف مسيحي عريض النصل مثلمه، مقابل سيف معقوف حاد النصل قاطعه. وكان سباهية السلطان المدربون

يندفعون بقوة إلى الأمام، وكأنهم أناس غوغاء كثيرو الرؤوس دونها توجيه، ثم في اللحظة الحاسمة، وبأقصى سرعة الخيل وهي تعدو، يشنون رشقات قاتلة من السهام التي تفتح فجوات في صف المشاة المقابل. كان بعض الأوروبيين المتطورين يرفضون الدروع والرماح والأقواس والسهام. ولنأخذ، على سبيل المثال، مبعوثاً نمساوياً هو الكونت ألبرتو كابرارا Count Alberto Caprara، الذي أُرسل إلى إسطنبول في ربيع 1682، فقد وصف في رسائله إلى الأتراك «الضعف والفوضى والأسلحة الداعية للسخرية». وصب سخريته على الفكرة القائلة إن بإمكان العثمانيين شن هجوم: «لا يمكنني أن أصدق أن الوزير ينوي أن يذهب إلى فيينا، وأن تصميماً طموحاً كهذا يمكن أن يعتمد على قوات عادية كهذه. من الممكن أن تكون قرارات وحشية كهذه أن تكون من إيحاءات الغطرسة المحضة، ولكن قضاء الله سيقع عليهم».[3]

لعل السفير كابرارا، وهو بروفيسور كهل للفلسفة الأخلاقية في جامعة بولونيا، لم يكن في وضع يؤهله لإصدار آراء عسكرية محترفة. وثمة شخص هو الأمير يوجين من سافوي Eugene of Savoy الذي حقق النصر في الكثير من المعارك ضد الأتراك، كان معجباً بشجاعة أعدائه ومهارتهم وتصميمهم الشجاع. وكان هو الذي أصر - بعد أن تخلت القوات الغربية الأخرى بالفعل عن استعمال الدروع في ميادين المعارك - على أن تبقى القوات النمساوية تقعقع بدروعها ودرع الساق، وهو حذرٌ تَوَلّد من تجربة مُرّة مع أسلوب الحرب العثماني.

قبل كل شيء، كان العثمانيون جيش فرسان؛ إذ كان يستخدم أكثر من 100000 حصان في بعض الحملات في أواخر القرن السادس عشر، غير أن عدداً قليلاً من هذه الخيول كانت الحيوانات الممتازة لفرسان أسرة السلطان؛ لقد كانت حقيقة الجيش العثماني موجودة خلف خيام الإنكشارية وصفوف الخيل الأنيقة لسلاح الفرسان. وهنا يتحطم الانطباع عن النظام؛ حيث نجد مجموعات من الخيول الشعث مقيدة بأرسانها بجوار نيران المعسكر التي لا تحصى، وهو مشهد بانورامي مؤلف من 25000 خيمة، وهو يبدو وكأنه

مخيم بدو واسع. لقد استجاب الجيش للدعوة إلى السلاح؛ مثل أسلافهم المحاربين، من بلاد المغرب على شواطئ المحيط الأطلسي إلى جبال اليمن المطلة على البحر الأحمر. وكان المسيحيون يزعمون دائماً أن الاستجابة السريعة كانت لأن جنة المسلمين مأهولة بالحوريات الفاتنات اللواتي سيمتعن الحياة الأبدية للمقاتلين الذين ماتوا في أرض المعركة، بحيث لا تعرف أجسادهم التي لا تكل ولا تمل نهاية للملذات. ولكن التركيز لدى المسلمين كان على الواجب وليس على الملذات. وحتى أدنى بدوي قيمةً كان يساوي قيمة السلطان عند الله، وكان يشارك السلطان نفسه المسؤولية عن توسيع حدود الدين إلى أن يؤمن العالم كله بالله. وكان المجاهدون، وهم جند الإيمان الصحيح، الذين اجتمعوا في مرج تشايرجي الذي هو موضع إجلال وإكرام من الجميع.

حاول الضباط العثمانيون فرض بعض الانضباط على المجاهدين، وعلى جيش السباهية الإقطاعيين، وعلى مجنديهم من الفرسان والمشاة معاً، وعلى الفرسان غير النظاميين، والمغاوير، وعلى جموع جنود المشاة المزود بعضهم برماح أو بنادق، وحتى بدروع، وآخرون غلاظ ودراويش شبه عراة. وقد سعوا عبثاً لإيجاد وحدة من أطياف مختلفة من الأزياء والعادات واللغات والأسلحة، ومن أعراق تتراوح من فرسان لونهم أشقر قادمين من البلقان وهنغاريا، إلى مقاتلين صحراويين من الجزيرة العربية وشمال إفريقيا. وقد عكس الجيش الذي احتشد خلف راية ذيل الفرس، الواقع الفوضوي المتعدد الجنسيات في الإمبراطورية.

لم تستطع أغلبية الأوروبيين فهم كيف كانت الجيوش العثمانية تعمل، ولم تكن ثمة رتب بالمعنى الهرمي المتسلسل الدقيق الذي كانوا يعرفونه، ولم يتم تشجيع الخبرة العسكرية، فقد يكون القائد موظفاً في القصر، أو الصدر الأعظم، وخبرته قليلة في الحرب. لم يكن مجلس الحرب يخطط معركة أو حملة بالطريقة نفسها التي كانت تمارسها الجيوش الغربية المحترفة المتطورة بحلول أواخر القرن الثامن عشر. ولم تكن هناك مدرسة للمعارف أو العلوم العسكرية، ولا وعي بالتاريخ العسكري؛ بوصفه وسيلة

يمكن من خلالها فهم الحقائق الأزلية للحرب. وفي الوقت الذي كان فيه القادة الغربيون يعرفون، على أقل تقدير، عن حملات يوليوس قيصر، وربما بعض المعارك الحديثة، كان العثمانيون لا يعرفون إلا أساطير أبطالهم، وقصائد المديح والتمجيد لشجاعتهم وحصافتهم وبسالتهم، وحيث كانت تتم قيادة الجيش الأوروبي من القمة من القائد العام كان الجيش العثماني متناسق الأجزاء. وكان السردار، أو القائد، يحدد هدفه - وهو دحر العدو أو الاستيلاء على مدينة - ومن ثم يطلق قواته المتحمسة. وبالطبع، لم يكن الواقع بهذا الشكل البطولي، وفي كثير من الأحيان كانت القوات العثمانية تساق رغماً عنها إلى المعركة من ضباطها. ولكن عملية الإطلاق كانت تنطوي على فقدان السيطرة؛ مثل السهم المنطلق إلى هدفه، خارج نفوذ رامي السهام. كان الجنود العثمانيون يعرفون كيف يقاتلون، ولم يكونوا بحاجة إلى تدريب إلا في مهارات محددة في الأسلحة، ولكنهم لم يكونوا يناورون، بل كانوا يهجمون بجرأة وبصورة مباشرة على العدو، وفي الدفاع كانوا يثبتون على الأرض حتى الموت.

كانت الاستثناءات هي فيلق المحترفين؛ أي فيلق المهندسين العسكريين، ورجال المدفعية، وزارعي الألغام، والمدفعيين، وجنود الإمداد والمؤن. فقد كان هؤلاء مهرة في تقنيات معينة ضمن مهنهم. وهناك كثيرون - أقل عدداً من الفرسان أو الإنكشاريين، ونادراً ما زاد عددهم عن 5000 رجل - لعلهم كانوا مفتاح نجاح العثمانيين في الحروب التي انطوت على الكثير من عمليات الحصار، وهم فيلق المدفعية (الطوبجية) الذين أوجدهم محمد الفاتح وقام بتعزيزهم ابنه بايزيد ثم سليمان. وقد اصطفت مدفعية الميدان، العجلة حذو العجلة، بجوار السرادق الإمبراطوري، وكان جنود المدفعية، الذين يعرفون من قبعاتهم الطويلة، واقفين أمامها. وعلى مدى قرن تقريباً بعد الفتح، لم يستطع جيش في أوروبا أن يضاهي القوة النارية العثمانية في ميدان المعركة. كانت مدفعية الميدان أخف وزناً وأكثر قدرة على المناورة من مدفعية الغرب، وكانت قادرة على مواكبة تقدم الإنكشارية والفرسان. ولم يتم عرض القطع الأثقل، من مدفعية ومدافع قديمة وهاونات مصممة

لتدمير أسوار المدن. فقد كان بعضها منصوباً عند حافة المعسكر، وسبطاناتها وعرباتها موجودة في عربات أو حافلات يجرها فريق من الخيل أو الثيران، وكان بعضها الآخر من قبل ذلك، بعيداً في قلاع على التخوم، مع طاقم الطوبجية في انتظار زحف الجيش.

كانت هذه الترتيبات السنوية في مرج تشايرجي (أو على الشاطئ الآسيوي الآخر فوق أسكودار "سكوتاري" إن كان سيتم إرسال الجيش ضد إيران، أو إلى مصر أو شبه الجزيرة العربية) هي الرمز المطلق للقوة العثمانية والاحتياطي الذي يبدو أنه لا حدود له. وكانت كل مرحلة من المراسم حبلى برمزية سياسية؛ ففي يوم أُعلن أنه ملائم للحرب، غادر السلطان قلب يني سراي وسار في موكب خلال المدينة ليقيم في معسكره الحربي. ومن القرن السادس عشر، كان يحمل معه أكثر الآثار قداسة في الإسلام والموجودة في خزينة القصر؛ إذ يأمل من خلال بركتها أن تكلل حملته بالنجاح. وكانت راية النبي وسيف عمر بن الخطاب بمنزلة حضّ لكل مسلم صالح أن ينصر قضية الدين الحق بالنور والسيف. وكانوا يذكّرون المؤمنين بأن النبي نفسه حارب الكفر، وبأن الجنة مأوى الذين يستشهدون؛ إذ يدخلونها مباشرة ومن دون حساب.

دهش الأجانب وهم يشاهدون الموكب في أثناء تنظيمه أمامهم، وحجم القوة الكبرى وحسن تنظيمها. ولكن قوة العثمانيين الحقيقية (والفريدة) لم تكن ظاهرة هناك. ومع احترامنا لما قاله سفير البندقية موروسيني، فإن الثقل المجرد للأرقام لم يكن هو المفتاح لنجاحهم في الحرب، بل لم تباشر أي أمة معاصرة أخرى عملية الفتح (ربما باستثناء الصين في عهد أسرة مانشو) بهذا الشكل النظامي. كانت الحروب في الغرب قبل القرن السابع عشر عشوائية وفوضوية، وكانت مناورة من أجل السلطة والمنفعة بين خصوم متساوين تقريباً. لم يكن القول المأثور لكارل فون كلاوزفيتس، بأن الحرب هي متابعة للسياسة بوسائل أخرى، ينطبق تماماً على العثمانيين؛ لأن الحرب في إمبراطوريتهم لم تكن نتاج السياسة وإنما هي نتاج الدين؛ فقد مثل الإيمان المشترك اللحمة التي حافظت على تماسك الجيش العثماني. لقد كان من واجب كل مسلم أن يعمل على توسيع "دار

الإسلام"، وهي البلاد التي حكم فيها الإسلام من دون منازع، إلى "دار الحرب" التـي لا يتم فيها تعظيم الله وعبادته حقاً. إن وجود الشعائر المقدسة في بداية الحملة جعل الواجـب الديني بسيطاً على كل جندي ابتداء من أبسط عـمال التنظيفـات إلى أرقـى القـادة. وبـما أن الحروب كانت توجهها مطالب نشـر الـدين، فقـد كـان العـدو واضـحاً أيضـاً وثابتـاً. في الغرب وفي البحر كان هناك العالم المسيحي، وإلى الشـرق كانت هناك إمبراطوريـة الشـيعة الزنادقة في إيران، الذين اعتبروا "أسوأ من الكفار"؛ ومن ثم، كانت رعيتها أجدر بـالموت من أي من المسيحيين. وكانت دعوى توسيع حدود الإسـلام مرنـة بدرجـة تكفـي لتبنـي أهداف سياسية أشد صـرامة، كـما حـدث عنـدما قـام العثمانيـون في عهـد سـليم الأول، المعروف باسم "العابس" [أو القاطع لدى الأتراك]، بضم مصـر والمشـرق، وانتزاعها من سيطرة مماليك مصـر السنة.

لقد تعرض زحف الإسلام إلى حالات تأخير وانتكاسات متكررة؛ فقد كانت هنـاك هزائم ساحقة، كما حدث في يوليو 1456، عندما أخفـق محمـد الفـاتح في الاسـتيلاء عـلى بلغراد، آخر معقل مسيحي رئيـسي قبـل سـهل هنغاريـا الكبـير، والطريـق الرئيـسي إلى الغرب. كان المسيحيون يرون في نصـرهم في بلغراد علامة من الله. فقـد قـام سـتون ألـف تركي بحصار المدينة، وكما حدث في القسطنطينية، فقد حولت المدافع العثمانية أسوارها إلى ركام. وقاتل المدافعون بشجاعة برغم الصـعوبات، ولكـن الإنكشـارية اقتحمـوا المدينـة أخيراً بعد معركة امتدت أكثر من سبعة أيام. وقد كلفتهم الهجمات المتكررة عدداً كبيراً من الأرواح، وأقسموا على الانتقام من أهالي بلغراد.

كان الجنود والمدنيون المسيحيون جميعاً يدركون تماماً المصير المروع الذي كان ينتظرهم جميعاً إن انتصـر الأتراك، ولذلك فإنهم، حتى بعد تدمير الجيش العثماني الأسـوار، واصـل المدافعون القتال بيأس من بيت إلى آخر. وأخيراً تعثر الإنكشارية وضغط المدافعون عليهم بضـراوة أكبر. وتدريجياً ردوا الأتراك على أعقابهم في الشوارع نحو فتحات الأسـوار، ثـم من أعلى الأسوار المحطمة قذف المسيحيون حزماً ملتهبة من العصي والأغصان المغموسـة

بالكبريت والزيت على الإنكشاريين المتراجعين في الأسفل. وقد وصف شهود العيان جداراً طويلاً من النار قد سقط على الأتراك، فتراجع الجيش التركي في حالة من الفوضى، مخلفاً وراءه آلافاً من الأجسام المتفحمة في الخندق تحت الأسوار. وفي اليوم اللاحق المصادف 22 يوليو، وهو يوم القديسة مريم المجدلية، قام الجيش المجري بقيادة الوصي على العرش جون هنيادي John Hunyadi بمهاجمة المعسكر التركي وطرد الأتراك بعيداً في حالة فوضى. وقد أصيب محمد نفسه بجرح بليغ في أثناء الالتحام في القتال الضاري. وكان هذا النصر انتقاماً لإخضاع ملكة المدائن (القسطنطينية).

عمت البهجة العالم المسيحي. وقد وصفه البابا كاليستوس الثالث Calixtus III بأنه أسعد يوم في حياته. وقرعت أجراس الكنائس في روما كلها معاً، بينما دوت الكاتدرائيات بالاحتفالات. وامتلأت الكنائس في إنجلترا البعيدة؛ حيث أقيم قداس ديني في أكسفورد. وقد كتب الأديب الإنجليزي توماس جاسكوين Thomas Gascoigne عن المعركة بأن محمداً «الذي خطط لإزالة اسم المسيح عن وجه الأرض» قد هُزم في يوم القديسة مريم المجدلية، على يد جيش الرب بقيادة جون كابيسترانو John Capistrano [الراهب الفرانسيسكاني الذي قاد المدافعين] الذي كان يحمل صليباً ضخماً ويصرخ: «يسوع، يسوع، يسوع». حمل جيش هنيادي المدفع الضخم الذي تركه الأتراك وعادوا به منتصرين إلى القصر الملكي في بودابست.

ولكنْ، إذا خسر الأتراك المعركة فقد عادوا ليربحوا الحرب؛ ذلك أن الحرب لم تكن حملة واحدة، بل هي حالة مستمرة إلى أن يتم ضم "دار الحرب" بكاملها إلى "دار السلام". لقد كانت الحرب موسماً في العام؛ مثل الشتاء أو الصيف. ولذلك فإنه على الرغم من إخفاق محمد في الاستيلاء على بلغراد فقد نجح حفيده سليمان في ذلك بعد خمسة وستين عاماً. وقد قاومت جزيرة رودوس محمداً، ولكنها استسلمت لسليمان عام 1522. وقد عانى العثمانيون على مدى خمسة عشر عاماً غارات شنها الإيرانيون ومماليك مصر في داخل الأناضول، ثم في عام 1515 انتقل سليم، حفيد محمد، إلى الهجوم فحوّل الجيوش

العثمانية نحو الجنوب. ففي سنتين نجح في وقف زحف الإمبراطورية الإيرانية في معركة جالدران (1515)، وسحق المماليك في مرج دابق إلى الشمال من حلب في سوريا. وفي غضون ستة شهور عبر جيش سليم صحراء سيناء من غزة، وفي 25 يناير 1517 استولى على القاهرة. وفي العاصمة المصرية، شنق سليم القائد المملوكي طومان باي على أبواب المدينة ومالبثت المقاومة المملوكية أن تلاشت. وقد تلقى السلطان خضوع الحكام المحليين، ومن بينهم زعماء القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية وشريف مكة، حامي الحرمين الشريفين.

كان من نتائج هذا الفتح المباشر أن كسب سليم وخلفاؤه هيبة بالغة ومكانة رفيعة؛ بوصفه "خادم وحامي الحرمين الشريفين"، حتى إنه جرت محاولات لتدعيم حقوق الفتح من خلال إنشاء شجرة نسب "أثبتت" أن السلطان - التركي بالولادة - كان من الأشراف الذين يعود نسبهم إلى النبي. وتسلم مفاتيح الكعبة المشرفة في مكة وآثار النبي وآل بيته؛ وهي العباءة والبيرق وسيف عمر بن الخطاب، فأرسلها على الفور إلى القصر في إسطنبول. وقد أسهم ذاك اللقب وهذه الرموز الإسلامية في تمكين السلاطين العثمانين من تولي زعامة العالم الإسلامي من دون منازع. وقد كانت الشرعية في نهاية المطاف أقل أهمية من القدرة على الدفاع عن دار الإسلام وتوسيع حدودها.

وهكذا، نجد أن الحرب كانت سبب وجود الدولة العثمانية؛ فقد خطط العثمانيون بشكل منهجي لكل حملة، وأقاموا حاميات عسكرية في جميع المدن الاستراتيجية، مع كتائب من الإنكشاريين وقوات خاصة بالحصون؛ للسيطرة على الأرياف من ناحية، ولكن بصورة رئيسية لتأمين مراكز تجمع للجيش المتقدم. وعاماً بعد آخر، كان الجيش يسلك الطريق نفسه، عندما يذهب من العاصمة نحو الشمال الغربي إلى أدرنة، من خلال جبال البلقان إلى صوفيا، ثم يمضي قدماً في داخل صربيا. وبعد أن استولى سليمان على بلغراد عام 1521 أصبحت تلك المدينة آخر معاقل العثمانيين، قبل أن ينطلق الجيش على طول خط الدانوب إلى دار الحرب، عن طريق أراضي المجر التي هي محل النزاع، نحو فيينا

والغرب. ولو أن السلطان قرر شن حملته في الشرق لانعكست العملية. وبعد ذلك، تجمع الجيش في المرتفعات فوق أسكودار، على شاطئ البوسفور المقابل لقصر يني سراي. وقد تحول الموكب الطويل - وهو الذي دار خلال المدينة نحو مرج تشايرجي من أجل الحرب ضد العالم المسيحي - إلى طابور من المراكب والسفن المتجهة من القرن الذهبي إلى الشاطئ المقابل. وبعد التوقف لأداء الصلاة في المصلى المجاور للمسجد كان يظهر السلطان أمام جيشه ويطلق مسيرهم نحو الشرق. وبعد ذلك توجه الجيش نحو أرضروم وفان ودياربكر التي كانت منطلقات تقليدية للحملة ضد إيران، أو يمكن أن يلتقي الجيش بالأسطول (وإمداداته) عند حلب، أو يركز قواته بعد ذلك جنوباً في الموصل. ولكن سواء في الشمال أو الشرق فقد كان ثمة حد لنطاق أي حملة ومدتها. فالعثمانيون لم يكونوا يقضون الشتاء في ميدان الحرب؛ لأن ذلك كان شبه مستحيل في بوادي الأناضول القاسية، وصعباً جداً في أعماق أوروبا الشرقية؛ ولذلك فإن جيش النور الإلهي الذي غادر مرج تشايرجي في الربيع، عاد في أواخر الخريف. وهناك مثل تركي يقال في هذا السياق: «تأخر في المغادرة، وستموت كل الخيول؟».

لكن لم يستطع أي قدر من التخطيط، أن يتغلب على قوى الطبيعة الشريرة، والمشكلة اللوجستية المتمثلة في نقل أعداد كبيرة من الرجال في الشرق والغرب معاً. جاءت الصعوبة الأولى مع حجم القوات المشاركة والمسافات المطلوب قطعها. ينبغي عدم المبالغة في حجم الجيش العثماني. فعلى الرغم من الحسابات العشوائية للمراقبين الغربيين، نادراً ما تجاوز عدد الجيوش العثمانية من 60000 إلى 70000 رجل. وكانت القوة الهائلة التي فاقت 100000 التي قادها الصدر الأعظم قره مصطفى إلى فيينا عام 1683 استثنائية تماماً. ومن باب المقارنة، فإن الجيش الإسباني في فلاندرز في أواخر القرن السادس عشر، كان يصل عادة إلى 65000 من الرجال المقاتلين المدربين، ومعظمهم من حاملي الرماح والبنادق، أما في الجيش التركي، بالمقابل، كان الثلثان أو أكثر فرساناً، سواء قوات أسرة السلطان النظامية أو السباهيون الذين كانوا يؤدون الخدمة العسكرية كواجب إقطاعي. أما القوات غير النظامية فلم يتم إدخالها في الحساب. ولكن الجيش بكامله كان يحتاج إلى التموين

المناسب، وهو أمر كان من المعروف أن الغربيين كانوا يميلون إلى تركه للمصادفة. كانت الخيل تستهلك كميات ضخمة من العلف، حتى لو حاول الفرسان البحث عن كلأ لها في أثناء التحرك. ولم يكن بإمكان الجيش التقدم إلا بحسب سير قطار المدافع الضخمة. في عام 1526 غادر سليمان العاصمة ومعه أكثر من 300 مدفع، ثم جمع المزيد في طريقه من المستودعات القريبة من الحدود.

كانت المدافع كذلك - العنصر الحيوي في خطة الحرب العثمانية - تمثل أيضاً مشكلة لوجستية لا يمكن التغلب عليها؛ فالطرق والجسور في البلقان الذي احتله الأتراك تمت المحافظة عليها في حالة جيدة نسبياً، وكان من مسؤوليات الحاكم الإقليمي تجنيد الفلاحين لتحضير سطح الطريق لتقدم الجيش، وإزالة حركة المرور الأخرى من طريق الجيش الزاحف. ولكن في ما بعد بلغراد - في المنطقة المتنازع عليها في المجر - لم تكن ثمة طرق قادرة على تحمل ثقل عربات المدافع الثقيلة، ولم تكن توجد جسور فوق الأنهار الكبرى؛ مثل نهري درافا وسافا. وكان لا بد من إيجاد طرق أخرى للعبور. وعندما دخل سليمان المجر عام 1526، قام حاكم بلغراد بجمع أسطول من 800 عبّارة أنهار لحمل المعدات الثقيلة ومستودعات الجيش. ولكن هطلت أمطار غزيرة في أثناء شهري إبريل ومايو حتى إن الطرق أصبحت مستنقعات، وكان من تأثير التيارات المائية في نهر الدانوب (الذي غمرته السيول وارتفعت فيه)، أن أصبح من المستحيل على أسطول السفن السير إلى أعالي النهر. وفي الأماكن التي بنى فيها المهندسون العثمانيون جسوراً مؤقتة عبر السيول، كانت المياه المتدفقة تحطمها. لكن من المدهش قليلاً أن مذكرات سليمان عن الحملة تهيمن عليها ملاحظات حول الأمطار المتواصلة والريح الصرصر الباردة.

وصل الجيش العثماني إلى الجبهة بكل ما استطاع حمله. وقد شبهه القائد النمساوي مونتيكوكولي Montecuccoli بقلعة متنقلة، «يتنقل حاملاً معه كل شيء يمكّنه من العيش والقتال». كان الأتراك عادة يسلكون طريقاً معروفة ومجربة، بحيث تكون أحوال الأرض على الأقل معروفة، وأيضاً لأن الجيش لا يستطيع التكيف مع التغيرات السريعة. وعندما

غادر الجيش بلغراد عام 1526 سلك طريق الضفة الجنوبية لنهر الدانوب؛ لـئلا يضـطر إلى عبور النهر مرة أخرى في عمق أراضي العدو. وتركت بعض المعدات وراءهـم عنـد معـبر نهر سافا، وقد ابتلعت المستنقعات التي يجري فيها نهر درافا عدداً كبيراً مـن المـدافع، إلى أن سمح جسـر خشبي متقن الصنع بطول 6000 ياردة تقريباً بعبور الجيش من دون أن تبتـل أقدام أفراده. وإلى شمال المعبر مباشـرة قـام الملـك المجـري لـويس بوقـف تقـدمهم نحـو عاصمته بودا، وذلك بواسطة جيش جمعه على عجل. وتقابل الجيشان في معركة حاسمة في 29 أغسطس في سهل موهاكس، وهو شـريط من الأرض محصور بين مستنقعات الدانوب في جانب وسلسلة من جبال منخفضة مكسوة بالغابات في الجانب الآخر.

كان الجيش المجري - مثل خصومه - يملك عدداً كبيراً مـن الفرسـان في دروعهـم، ولكنهم كانوا فرساناً ثقيلي التدريع. وقف المشاة في ثلاث كتائب متراصـة، ومـن ورائهـم مدينة موهاكس، ووضعوا أمام الصف الأمامي نحو عشــرين مـدفعاً. وقـد بـدا الجـيش العثماني - في دروعه وأرديته الطويلة - هشاً بالمقارنة بهم.

خرج الأتراك من بين الأشجار وبدأوا النزول إلى السهل في الأسـفل. وهنـاك رسـم معاصـر يصف ما حدث بدقة بالغة. وكانت الصفوف الأمامية للجيش التركي قد امتلأت بالباش بوزوق أو الجنود غير النظاميين. وعندما همز المجريـون خـيلهم للتقـدم، امتصـت أجسام أولئك التعساء في الصـفوف الأماميـة صـدمة الهجـوم. وعـلى الـرغم مـن نجـاح المجريين في الاندفاع بعنف خلالهم ليصلوا إلى صف المدفعية المربوطـة عجلاتهـا ببعضـها بعضاً بالسلاسل أمام صفوف الإنكشاريين (وخلفهم السلطان نفسه)، فقد تبدد عند ذاك زخم هجومهم. وأخيراً، تعثر الهجوم، وتم قتل الفرسان المجريين واحداً تلـو الآخـر مـن على ظهور أحصنتهم، أو وقعوا عن السـرج. وحينما انسـحب البقيـة بـبطء، تـم قصـفهم بنيران متواصلة من مدفعية الميدان الخفيفة التركية المتجمعة عنـد حافـة الغابـة، وبطلقـات بنادق الإنكشاريين الذين تقدموا عندئذٍ ببطء ككتلة واحدة إلى السهل. ومن الصف المقابـل نزل السباهية بسـرعة إلى مشـاة الجنـود المجـريين المنهـارة معنويـاتهم، فتراجعـوا بشـكل

فوضوي، ثم - بحسب وصف المؤرخ العثماني - «قام الإنكشاريون المسلحون بأوامر من السلطان، بغارات وبتوجيه ضربانهم نحو النمور القساة الذين قابلونا، جاعلين مئات، أو بالأحرى آلافاً منهم، في غضون لحظة، يهوون في دركات جهنم».[4]

لم يكن لمدافع المجريين وحملة بنادقهم أي دور على الإطلاق تقريباً، بعد وابل الطلقات النارية في البداية. وقد تم توزيعهم على نحو دفاعي، ولم يكن بالإمكان تحريكها لمواكبة التقدم المجري. وقد أسهمت مرونة التكتيكات العثمانية واستغلالهم السريع لنقاط ضعف العدو في جعل المدفعية المجرية عديمة الفائدة. كان رجال المدفعية؛ مثل جميع المجريين الآخرين، يدفعون حياتهم ثمناً لإخفاق ملكهم. لم يأخذ الأتراك أسرى، وقد سجل سليمان في مفكرته في 31 أغسطس أنه «بينما كان جالساً على عرشه الذهبي» تلقى تصفيق جيشه في غمرة المطر الغزير. في ذلك اليوم تم قتل 2000 أسير، وبعد يومين دفن الأتراك جثامين 20000 جندي من المشاة و4000 من الفرسان، أما الذين بقوا أحياء بعد المعركة فقد تم إعدامهم بأمر السلطان.

كانت معركة موهاكس كارثة على النبلاء المجريين؛ فهي "قبر الأمة" كما وصفها أحد المؤرخين.[5] وقد تم تصوير المعركة في سائر أنحاء أوروبا على أنها تدمير لجماعة صغيرة من الفرسان المسيحيين بواسطة جيوش الإسلام الكاسحة. والحقيقة كانت مختلفة. كانت القوى الفعالة للجيشين متشابهة جداً؛ لأن معظم المجندين والمغاوير وقوات الاستطلاع الذين شكلوا معظم الجيش العثماني كانوا قليلي القيمة. كان العثمانيون أيضاً متعبين بعد ثمانين يوماً من المسير قبل أن يخوضوا المعركة في موهاكس، بينما كان المجريون في حيويتهم ومتحمسين للقتال. والواقع أنه ظهر للأتراك، في اليوم اللاحق للمعركة، أنه كان نصراً باهظ الثمن؛ لأن أكوام القتلى في كلا الجانبين كانت متساوية تقريباً. كانت معظم معارك العثمانيين على هذه الشاكلة؛ حيث يبدون مستوى متدنياً من المهارة التكتيكية أو الاستراتيجية، ولكن مع قوة تحمل مذهلة.

بعد المعركة استولى العثمانيون على العاصمة، بودا، ثـم تراجعـوا بـبطء بعـد السـلب والنهب. وبحلول نوفمبر 1526 عاد سليمان إلى القسطنطينية، وعرض المـدفعين التركيـين العظيمين اللذين حملهما المجريون عندما انتصـروا بقيادة هنيادي على العثمانيين. واسـتمتع بشكل خاص بالمكتبة المرموقة التي جمعها العالم الملك ماثياس كورفينـوس في قلعـة بـودا. وقد ترك سليمان خلفه الفوضى على طول نهر الـدانوب في أعقـاب الـتخلص الفعـلي مـن النخبة المجرية. وقد ملأ هذا الفراغ بشكل بطيء انتصار مرشح آل هابسـبورج، فرديناند إمبراطور النمسا، لتولي العرشين الفارغين في المجر وبوهيميا.

اتحدت النمسا والمجر وبوهيميا وشكلت تهديداً لمركز الأتراك، وبحلول بداية خريف عام 1528 كان السلطان يخطط حملة جديدة للشمال، وكـان هدفـه في هـذه المـرة فـيما وراء بودا: مدينة فيينا نفسـها.

في 10 مايو 1529 تم حمل راية ذيل الحصان من داود باشا وتحرك الجيش نحو الشمال. وفي 16 أغسطس وصل إلى بودا؛ حيث استقبل سليمان خصوم هابسـبورج مـن المجـريين الذين احتشدوا لينضموا إلى الجيش العثماني المتجه إلى فيينا. وكما كانت الحـال قبـل ثـلاث سنوات، كان الطقس سيِّئاً جداً، والنهر قد فاض، والطرق شبه معدومة. وكان لا بد مـن ترك الكثير من مدافع الحصار الثقيلة وراءهم؛ الأمر الذي تبين أنه نقطـة ضـعف قاتلـة في قدرة العثمانيين على الاستيلاء على مدينة محصنة. تقدم الجيش ببطء، فإما أن يجبر الحصـون الخاضعة لهابسبورج على الاستسلام وإما أن يتجاوزها. وبعد شهر من وصول الأتراك إلى بودا، عبرت الفرق الأولى من المغاوير حدود النمسا ونهبوا مدينة بيرجنلاند حتـى أسـوار فيينا نفسـها. وفي 27 سبتمبر نصب سليمان معسكره قبالة المدينة، وفي نهاية الشـهر كان قـد عزلها عن العالم الخارجي.

كانت معدات الحصار لدى العثمانيين متقدمة كثيراً على مهاراتهم التكتيكية في القتـال المفتوح. كانت جيوش السلطان قد نجحت في محاصـرة مـدينتين كبيرتـين بالفعـل، همـا: بلغراد عام 1521 وقلعة جزيرة رودوس في العام اللاحق، ولكن لم يتم الدفاع عن أي مـن

المدينتين كما كان الأمر في الدفاع عن فيينا؛ حيث كانت أسوار القرون الوسطى للمدينة قد أعيد بناؤها (على الرغم من أنه كانت هناك بعض نقاط الضعف)، وكانت هناك حامية تضم أكثر من 20000 رجل، تحتشد في المدينة. كان هناك نشاط محموم؛ إذ أخلى سكان فيينا الأرض المحيطة بأسوار المدينة، ودمروا المباني الآيلة إلى السقوط، التي تنامت مقابل الأسوار والتي كان يمكن أن تمثل غطاء للأتراك المتقدمين. كما تم تعزيز فتحات المدافع القليلة الموجودة في أسوار القرون الوسطى وتوسعتها، وقام أهالي فيينا - بإحساس شديد بالواقعية - بحفر خندق داخل الأسوار لتأخير تقدم الإنكشارية إن اخترقوا السور. تنامى الشعور بالذعر حينما بدأ كتّاب النشرات ينشرون قصصاً رهيبة عن الفظائع العثمانية، ويقارنون الحصار الوشيك بحصار القسطنطينية قبل ذلك بثلاثة أرباع قرن. ولكن الأوضاع لم تكن نفسها. ففي عام 1453 حاصر السلطان محمد الثاني موقعاً معزولاً في قلب أراضيه، أما سليمان فكان يعمل عند نهاية خطوط مواصلاته. أضف إلى ذلك، أن أسوار ملكة المدائن تم تدميرها بشكل منهجي بواسطة المدفعية الخفيفة والمدفعية المتوسطة اللتين قام محمد بصنعهما خصيصاً لهذا الهدف. ولا يمكن المدافع الخفيفة والمتوسطة التي ركزها سليمان مقابل فيينا أن تكتسح الأسوار إلا بوابل مستمر من النيران، وأن تحطم البيوت داخل الأسوار.

عندما كان أحد الجيوش العثمانية يطوق مدينة، كان بإمكان المدافعين رؤية خطة الأتراك الكاملة تتكشف أمامهم. في البداية كانوا يلاحظون حفريات ضخمة تبدأ عن بعد خارج خط القذائف. فقد أصبحت أعمال الحفر والسدود الترابية متقنة جداً؛ إذ تم حفر خنادق وأنفاق بواسطة الفلاحين المجندين من دون أي حماية، وقد اقتربوا من الأسوار، ومات المجندون بالآلاف بطلقات المدفعية وبالرماح وبالسهام من المدافعين، غير أنهم كانوا غير نظاميين ومن السهل تعويضهم. وكما ورد في ملاحظة قائد شرطة مدينة تافان Marshal de Tavannes «تعب المدافعون وكلّوا من القتل ولم تعد بنادقهم صالحة للاستعمال بسبب الإفراط في الرمي، والحق أن الأتراك تعلموا كيف يطفئون النيران بالدم». في بعض الحصارات كانت المذبحة مثيرة للاشمئزاز. ففي حصار رودوس عام

1522، كان فرسان القديس يوحنا المدافعون يتوقعون الهجوم، فقاموا بقياس المسافة إلى جميع النقاط التي توقعوا أن يهاجمها الأتراك؛ وذلك لكي يتمكنوا من إطلاق نيران موجهة بدقة على أهداف مقيسة ومعروفة. كان القتل متواصلاً بينما كان المجندون يتقدمون بخنادقهم ببطء في الأرض الصخرية. كان المهندسون العسكريون الأوروبيون يجعلون خنادقهم متعرجة، بحيث لا يستطيع المدافعون إطلاق النار على الحفارين؛ ولكن بالنتيجة، كان العمل في الحفر يستغرق وقتاً أطول؛ لأن الأمر تطلب مزيداً من أعمال الحفر. عمل العثمانيون على الإسراع في الحفر على حساب التكلفة البشرية؛ إذ حفروا خندقاً مستقيماً وعريضاً باتجاه سور القلعة مباشرة. وكان يمكن للعدو أن يصب النار في هذا الخندق بتصميم، وكان الحفارون يقومون أحياناً برمي عدد كبير من جثث القتلى والمحتضرين خارج الخندق؛ حتى إنهم بدوا مثل ركام الحفر. كان التقدم متواصلاً من دون هوادة. وفي الوقت الذي كان الفلاحون المجندون يحفرون، كانت المدافع التركية تدك الأسوار والمعاقل في المدينة، فقد تم إطلاق أكثر من 3000 قذيفة حجرية خلال شهر واحد.

مع اقتراب شبكة الأنفاق من السور تغير المزاج، فقد اختفى المجندون، وتم تشكيل الخطوط النهائية بشكل أكثر إحكاماً في موازاة السور، بحماية دعامات وتحصينات ميدانية. وقد وصف راصد كان يراقب من الأسوار كيف «كانت الخنادق والمخابئ كثيرة العدد، وجيدة التنظيم، حتى إنه كان بإمكان الجيش بكامله الاختباء فيها، وعلى الرغم من أنها كان قريبة جداً من المدينة، فقد كان كل رجل محتمياً بغطاء وكأنه مدفون تحت هذه الاستحكامات الترابية».[6] لقد توقف رتل الزحف المكشوف للعيان، ولكن الحفر استمر. والآن تحركت شبكة من الأنفاق باتجاه الأسوار وتحتها؛ حيث تم تنفيذ العمل بصمت من قبل عمال تلغيم أتراك مهرة (هم اللغمجية)، بينما قام المدافعون في الأعلى بشكل مستميت بحفر أنفاق مضادة في محاولة حفر نفق أخير للمحافظة على خطهم الدفاعي. حتماً نجحت بعض هذه الهجمات المضادة وتم تدمير الأنفاق التركية، ولكن النظام التركي اعتمد على الهجمات المتعددة، مع عدد كبير من الأنفاق والهجمات المفاجئة؛ على أمل أن ينجح بعضها

على الأقل. وفي مقابل كل خندق تم اعتراضه وتدميره في رودس كانت خنادق أخرى عدة تبلغ هدفها. وعندما قام حفارو الخنادق بهجماتهم وفجروا خنادقهم تداعى جزء كبير من سور المدينة في لحظة.

كان هجوم سليمان على فيينا يتوقف على نجاح عمليات التلغيم هذه؛ لأن مدفعية الحصار التي كانت ستحول الأسوار القديمة بسرعة إلى أنقاض كانت قد فقدت إلى الأبد في المستنقعات. وقام الجواسيس داخل المدينة - الذين لاحظوا التدعيم الشديد للتحصينات - بإرسال رسائل إلى السلطان لإعلامه بأن أضعف نقطة هي قطاع من السور في الجانب الجنوبي بجوار الباب الكارينثي Carinthian Gate. وأسهمت الخنادق التركية التي تقدمت نحو السور بخنق المدينة ببطء؛ وذلك بالضغط المستمر على نقطة الضعف تلك. كان الأمل الوحيد للمدافعين يكمن في تخفيف الضغط، ولو للحظة واحدة. وفي كل يوم كانت مجموعة من المشاة وبضعة فرسان يحتشدون داخل أحد الأبواب، ثم يتم فتح الأبواب الثقيلة؛ لينـدفعوا نحو خطوط العدو، ويصبوا النار في الخنادق ويقطعوا المهندسين المجندين إرباً إرباً الذين كان عرقهم يسيل. كانت النتائج للأسف غير وافية بالمراد؛ ففي أحد الأيام عادوا بثلاثين رأساً تركياً وعشرة أسرى. أما هجماتهم البطولية من الباب الكارينثي ومن البوابة المحصنة الضيقة بجوار قصر هوفبيرج فلم تكد تحقق شيئاً. وبما أن الأتراك الذين كان يتم نقل الأخبار إليهم بانتظام بواسطة عيونهم من الجواسيس قد تعرفوا على أضعف القطاعات فكان بإمكانهم حشد هجومهم على هذا الأساس. لم يكن في وسع قادة فيينا إلا المراقبة بيأس متزايد وقد بدأت الخنادق المجاورة للباب الكارينثي تمتلئ بمعدات هجوم رئيسي كبير؛ من سلالم تتكدس فوق بعضها بعضاً في أسفل الأسوار، وحينما راحت القبعات المخروطية التي لا يخطئها النظر، والمزودة بأغطية للعنق من الإنكشاريين تهيمن بين الأشخاص الذين كانوا مثل النمل في أسفل الأسوار، أدركوا أن هجوماً وشيكاً قد أزف أوانه. وفي عصر التاسع من أكتوبر فجر لغم تركي ضخم الدفاعات، تاركاً فجوة كان بإمكان أكثر من عشرين رجلاً المسير من خلالها في صف جنباً إلى جنب.

ولكن الهجوم لم يأتِ كما كان متوقعاً، وقام النمساويون طول النهار والليلة اللاحقة بتجميع الأنقاض من الجدران المحطمة لصنع خط دفاعي هش ولكنه متواصل. زحف الإنكشاريون في أيام متعاقبة، ولكن بدلاً من شن هجوم على نقاط كثيرة لإجبار المدافعين على نشر مواردهم وإمكاناتهم الهزيلة، قاموا بكل ثقة بتركيز كل آمالهم على الفتحة الواسعة في السور بجوار الباب الكارينثي. ولكن تقنية الأسلحة النارية كانت قد تطورت بعد الأيام التي استولى فيها محمد على القسطنطينية؛ حيث استخدم تكتيكات مشابهة جداً. حشد النمساويون بنادقهم ومدافعهم الخفيفة كلها حول الثغرة، وعندما صعد الإنكشاريون من الخنادق وتدفقوا من خلال الثغرة تمت مهاجمتهم بنيران مدمرة، ليس من الأسوار الباقية في الأعلى، بل من الاستحكامات الموجودة أمامهم. وقد احتشدت لافتات الإنكشاريين المميزة - شعارات الكلاب وقدور الطبخ والمكانس والفيلة والشموع - مثل زهور الخزامى المتجاورة المتراصة، في الثغرة، ثم سقطت مثلما تسقط سيقان الخزامى الكثيرة إذا كسرت. وفي اليوم اللاحق، قاموا بشن هجوم آخر في المكان نفسه وبالنتيجة غير الحاسمة نفسها. وفي 12 أكتوبر شنوا هجوماً ثالثاً. وفي كل مرة كان خط الدفاع النمساوي يتماسك، على الرغم من أن الوضع بدا مستحيلاً في اليوم الثالث؛ فقبل خروج الأتراك من خنادقهم انفجر لغم ضخم آخر هوى بسببه الجانب الأكبر مما تبقى من السور. ولكن بما يشبه المعجزة أخفق الهجوم من جديد، على الرغم من أن المدافعين كانوا يخشون ألا يستطيعوا الصمود أمام هجوم آخر.

لم يكن النمساويون يعلمون أن الأتراك كانوا أيضاً في وضع يائس. وفي مجلس الحرب الذي تم عقده أمام سليمان في ذلك المساء، تم منح القوات 1000 أسبر* نقداً، وأُعلن في المعسكر بكامله أن أول جندي يمر من خلال الأسوار سيتم منحه 30000 أسبر وترفيعاً فورياً. وفي مسعى من السلطان لحث جنوده واستجماع قوتهم، اقترب بنفسه من الأسوار لتفحص الثغرة، ثم أعلن أن الثغرة واسعة بدرجة تكفي للقيام بهجوم حاسم وناجح. وفي

* أسبر aspre: عملة تركية قديمة تسمى "الجديد" وتساوي 120/1 من القرش. (المترجم)

صباح 14 أكتوبر انـدفعت ثلاثـة أرتـال ضـخمة نحـو الـدفاعات المـدمرة، برفقـة جميـع المجموعات التركية، بينما ترفرف فـوقهم رايـة السـلطان نفـسه، وخلـف القـوات تقـدم ضباطهم، وقد أشهروا سيوفهم لمنع حدوث أي تراجع. ولكن بعـد هجـوم فـاتر ارتـدت القوات وهربت، وهم يصـرخون بأنهم يفضلون الموت على أيدي أغواتهم من أن يواجهوا أسلحة "الهركوبة" النارية النمساوية مرة أخرى.

أمر السلطان بتفجير لغم آخر، وأمر القوات المنهارة المعنويـات بشـن هجـوم أخـير. وتم رد هذا الهجوم أيضاً، وقرر سليمان أن ينهي المحاولة. عند نحـو منتصـف الليـل أزال الإنكشاريون خيامهم وأحرقوا كل ما لم يستطيعوا حمله معهم. وقد قوطع الظلام في أنحاء المدينة بمشاعل لا تحصى، وفي الصباح انطفأت المشاعل، وكان الجيش التركي الضخم قد ذهب. استيقظت المدينة على انتصـار. وبعـد ذلـك اكتشـف أهـل فيينـا جثـث الأسـرى المتفحمة التي تم قذفها في النيران، بينما تم قتل أكثر من ألف امرأة وطفل وتراكمت جثثهم في مجموعات وقد جزت رقابهم؛ لأنهم لا يستحقون الحمل والاسترقاق.

تم وصف حصار عام 1529 بشيء من التفصيل؛ لأنه صوّر المشـكلة الجوهريـة التـي كانت تواجه العثمانيين في القرن السادس عشـر؛ أي في ذروة نجـاحهم، ولـيس في القـرن السابع عشـر أو الثامن عشـر. لقد كان «أولى مغامرات سليمان التي لم تكلـل بالنجـاح»،[7] كـما ذكـر ذلـك مـؤرخ العهـد العـثماني جوزيـف فـون همـر-بيرجسـتول Joseph von Hammer-Purgstall. لقد حـدد معظـم المـؤرخين الغـربيين نقطـة التحـول في الحظـوظ العثمانية بالنقطة التي أصبحت فيها الهزيمة معتادة، بمحاولة الصدر الأعظم قره مصـطفى الاستيلاء على فيينا في سبتمبر 1683. وكانت هزيمته الكارثية على يد جيش إنقاذ مسـيحي بقيادة ملك بولونيا، جون سوبيسكي John Sobieski، أول دخول في قائمـة المحنـة التـي استمرت خلال القرن الثامن عشـر وجانب من القرن التاسع عشـر.

وبدءاً من عام 1683 كان عجز العثمانيين عن استيعاب التقنية الغربيـة مسـؤولاً عـن إخفاق العثمانيين. وقد اعتبرت كل هزيمة على أيدي النمساويين أو الروس دلـيلاً جديـداً

على تخلفهم. ويئس الخبراء الأجانب من قناعة العثمانيين بالوضع الراهن. وقد ذكرت بعثة فرنسية أرسلت إلى تركيا لتحسين التحصينات في المقاطعات الأوروبية في تقريرها ما يأتي:

> اقترح لافيت كلافييه Lafitte Clavier زراعة الأسوار بأعمدة وأسيجة بالطراز الأوروبي. ولكن المهندس التركي الذي استبدلها... والذي كان رئيس المزارعين في سراي بورنو فحسب، لم تكن لديه فكرة مطلقاً عن التحصينات. وقد وجد كميات كبيرة من جميع أعمدة الأسيجة في المستودع، ولم يكن بإمكانه التفكير بشيء يفعله بها من أن نصبها في وسط الشرفة، بدلاً من غرسها، بحيث يكون رأسها على الجانب الخارجي؛ الأمر الذي جعل تسلق الأسوار يكاد يكون مستحيلاً.

إن الإشارة المزدرية "لكبير البستنجية" تعكس سوء الفهم الأوروبي فيما يتعلق بتوزيع السلطة في الدولة العثمانية؛ فالبستنجية كانوا بالفعل يعتنون بحدائق السلطان، ولكنهم كانوا أيضاً يقودون القوات والشرطة في المدينة، وكانوا ينفذون أحكام الإعدام، ولكن الحادثة تكشف أيضاً انعدام الفضول أو الاهتمام لدى العثمانيين بشؤون الأجانب. فقد كان المهندس التركي يتعاون مع الفرنسي؛ لأنه تلقى أمراً بذلك، ولكنه كان يجد أوامر لافيت كلافييه وأغراضه تافهة ومن دون معنى، كما هي حال رتبة العثماني وواجباته في نظر لافيت كلافييه. فإن طلب إلى المهندس إعداد تحصين بالطراز العثماني، فإنه لم يكن ليظهر عدم كفاءة كهذه، وإن طلب إليه أن يتعلم من أوروبي فإن عقله ينغلق. وغالباً ما كان الأسلم في الإمبراطورية العثمانية ألا تمارس اتخاذ زمام المبادرة.

لم تكن الهزيمة أمام فيينا حصيلة تخلف التقنية فحسب، بل نتيجة نقطة ضعف أكثر جوهرية؛ وهي عدم استعداد العثمانيين للتعلم أو التغير. فقد كانوا متفوقين في بعض المجالات؛ وقد دهش النمساويون من دقة النيران التركية وسرعتها. كما لم تكن أوروبا مواكبة للحداثة. فجيش الإنقاذ الذي انحدر من الهضاب المطلة على العاصمة النمساوية لينقضّ على السباهية والإنكشارية السيِّئي الحظ في الأسفل، كان يقودهم "الحصارية"؛ وهم الفرسان البولونيون النخبة المدرعون تدريعاً ثقيلاً:

كان كل فارس يضع على رأسه خوذة مزينة بالريش، ودرع الصدر مطعّم بالذهب والجواهر، ويرتدي معطفاً مصنوعاً من جلد النمور، ومزود بجناحين من ريش النسور على شكل قوسين كبيرتين يرتفعان فوق رأسه، وقد امتطى جواداً مهيباً مغطى سرجه بالحرير والمخمل المزخرف بالذهب. كان كل فارس حصاري يحمل سيف مبارزة، ومسدساً مقبضه مرصع بالجواهر، ورمحاً طوله عشرون قدماً عليه علم خفاق مثلث الشكل. وحينما كانوا يسيرون بالخيول عدْواً ويخفضون رماحهم كانت الأعلام والأجنحة على ظهورهم تصدر فحيحاً ينذر بالشؤم، بينما كانت الأرض تهتز تحت وقع خمسة عشر ألف حافر.[8]

ومهما تكن الآراء، فإن هؤلاء الفرسان الحصارية كانوا بمنزلة مفارقة تاريخية، وهم أولى بهذا الوصف من الفرسان السباهية الذين قام هؤلاء بطردهم من الميدان، ولكنهم كانوا معروفين بأنهم بقايا ماضٍ بطولي، ولم يعودوا مؤشراً إلى المستقبل. وبالمقابل، لم يكن لدى العثمانيين إدراك لأن أسلوبهم في الحرب كان كذلك قد فات أوانه. كان المصلحون يرغبون في تنقية نظام الإنكشارية القديم، وتجهيزهم بأسلحة جديدة، وشراء مدفعية جديدة، وبناء سفن جديدة أيضاً، ولكنهم لم يكونوا يطلبون التغيير.

لم يتم التعرف إلى نتائج هذه المحافظة إلا ببطء؛ فالمعارك الكبرى ضد النمساويين، وفيما بعد ضد الروس، وهي التي نتج منها تقلص مطّرد للإمبراطورية، لم تكن انتصارات بسيطة لمعدات غربية متفوقة، كما كان يحلو للعثمانيين أن يعتقدوا؛ فبعد هذه الهزيمة الأخيرة أمام أبواب فيينا، بدأ مجال السلام يتقلص. وفي القرن اللاحق خسر العثمانيون المجر وكرواتيا وترانسلفانيا؛ إذ استولى النمساويون عليها، بينما استولى البولنديون على بادوليا، واستولت البندقية على أجزاء من اليونان، والروس على بيسارابيا والقرم، بينما استولت قوة إيران المنبعثة من جديد في الشرق على إقليمي أذربيجان وداغستان. كانت هناك انتصارات بين الحين والآخر؛ إذ اضطر الروس إلى الاستسلام للعثمانيين عند نهر بروث عام 1711، وتمت استعادة الأقاليم اليونانية من البندقية عام 1715، ولكن كلما تقابل الجيش العثماني مع جيش أوروبي في شروط وظروف متساوية كانت النتيجة دائماً هي هزيمة الأتراك؛ فالأسلوب العثماني في الحرب، وهو الذي كان فيما مضى متقدماً جداً على أسلوب أوروبا المسيحية، لم يعد يضاهي التدريب والتقنية والتكتيك المتطور لدى

الغرب، وفي نهاية القرن الثامن عشر لم يكن جنود السلطان قد شهدوا تغييراً في تجهيزاتهم أو أساليبهم في الحرب على مدى أكثر من مائتي عام.

لم يكن السبب في ذلك عدم قابلية النظام للتغيير. ففي الحرب - كما هو الأمر في جوانب الحكم الأخرى - كان العثمانيون يمزجون التصلب والجمود بالقدرة على التكيف. وعندما كانت تواجههم أسوار المدن كانوا يستخدمون المدفعية و"عصر البارود" بصورة أكثر منهجية من أي من المسيحيين. وسرعان ما أتقنوا صناعة الألغام والقذائف؛ حيث تعلموا جانباً منها من المغول وجانباً آخر من الخبراء الأوروبيين. ولكن بعد أن فهموا الجانبين النظري والتطبيقي قاموا بصناعة نظامهم الخاص. وفي نظر الأوروبيين قد تبدو تقنياتهم جامحة وتؤدي إلى إزهاق كثير من الأرواح، ولكنها يمكن أن تكون بالغة الفاعلية والتدمير. وقد تجلت قدرتهم على اعتماد تقنيات وأساليب جديدة كأوضح ما تكون في بناء قوتهم البحرية.

وبما أن أصول العثمانيين من حيث هم شعب ترجع إلى سهوب آسيا الوسطى، فإنه لم يكن لديهم تراث في الحروب البحرية. ولكن حينما كبرت إمبراطوريتهم في أثناء القرن الخامس عشر واجهوا قوى بحرية قوية؛ مثل: البندقية وجنوة، وقد لعبت السفن التركية دوراً مهماً في الاستيلاء على القسطنطينية. والواقع أن هجومهم من البحر هو الذي زرع الرعب الأكبر في جميع أرجاء البحرين الأبيض المتوسط والأدرياتيكي. وكما أن سكان إقليم ستيريا النمساوي دوّخوا أطفالهم بقصص الحرامية الأتراك الذين يخطفونهم في الليل، وكانت هناك على طول سواحل البحر الأبيض المتوسط حكايات عن الهجوم المباغت من "الأتراك أو المور المسلمين المغاربة". وتزخر سجلات قصر الحمراء في غرناطة بروايات عن الأتراك الذين يرشدهم جواسيس محليون إلى الشواطئ، وتخبر عن الغارات التي قادها "المور المسلمون" الذين فروا من إسبانيا المسيحية إلى شواطئ المغرب الأكثر ترحيباً بهم. في البداية، استخدم العثمانيون قراصنة من الساحل البربري في شمال

إفريقيا، وبالفعل فقد كان أكبر قادتهم، خير الدين، المعروف بـ "بربروس"* قرصاناً سابقاً، ولكنهم ما لبثوا أن بدأوا يبنون سفنهم الخاصة بهم. وعلى الرغم من أن أحواض بناء السفن في ملكة المدائن لم تكن تضاهي قط ترسانة البندقية، فقد كانت تنتج السفن بسرعة عالية على نحو ملحوظ. وقد تم تعويض الخسائر الكارثية التي حدثت في ليبانتو في خليج كورينث في أكتوبر 1571 - أكثر من 300 سفينة - في غضون عامين. وكلما تم الاستيلاء على نموذج جديد لسفينة مسيحية كان يؤخذ إلى العاصمة ويتم إصلاحه وفحصه بدقة لكي يتعلم المصممون الدروس الجديدة في تصميم السفن.

كانت ليبانتو في الميثولوجيا السياسية الإسبانية، ترمز إلى تحول حاسم في القوة في الصراع على السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. وقد تعزز هذا الابتهاج بالنصر بالربط الوثيق بين آل هابسبورج وليبانتو. فقد كان دون جون القائد النمساوي أخاً غير شقيق لملك إسبانيا فيليب الثاني، وقد تم وصف انتصاره - في الكراسات والصور - على أنه جزء من التمجيد لآل هابسبورج. ولكن النصر كان أقل جلاءً، شأنه شأن التعافي الإسباني بعد دمار أسطول الأرمادا العظيم على يد الإنجليز عام 1588. وقد استمرت القوتان العثمانية والإسبانية كلتاهما، غير أن تقدم التوسع الهجومي توقف.[9]

ولكن بحلول نهاية القرن السابع عشر، اختفت ميزة مبكرة من ميزات الريادة والتفوق، في التصميم البحري وفي تقنية الأسلحة النارية معاً. سمح الإسلام للمسلم الصالح أن يستخدم أسلحة العدو ليرفع لواء الدين. كانت أسلحة العثمانيين التقليدية عبارة عن سيوف وأقواس ورماح؛ مثل أسلحة محمد الفاتح المعروضة حالياً في متحف قصر طوب قابي [يني سراي سابقاً]. ولكن عندما تزايدت أهمية المسدسات

---

* خير الدين بربروس (1467-1546) كان قائد أساطيل عثمانية ومجاهداً بحرياً. ولد في جزيرة لسبوس في اليونان وتوفي في إسطنبول. عُرف لدى الأوروبيين بارباروسا (ذي اللحية الحمراء). (المترجم)

(الطبنجات) تزايد دور الأسلحة النارية في جيوش السلطان، وأسهمت في وجود أعداد كبرى من القوات المتخصصة، من البنادق البوسنية panduks and eflaks والقناصين والجنود المسلحين. ولكن تم إدماج كل هذه التغيرات في نظام السيطرة والتحكم التقليدي؛ إذ كان يتم استخدام الكتائب الجديدة في الطريقة نفسها تماماً التي كانت الكتائب الجديدة تستخدم بها. فبدلاً من استخدام البنادق بالجملة، كما كان يحدث في الغرب، أو الاستعانة بحاملي الرماح المحتشدين معاً، كان العثمانيون يعدون كل جندي حامل للبندقية أو قناص، محارباً يخاطر بحياته ليحظى بمكان في الجنة. كانت الشجاعة والبطولة الفرديان أعلى الصفات قيمة؛ فقد كان الإنكشاريون وغيرهم يتنافسون على أوسمة الشجاعة التي استطاعوا وضعها على عمائمهم. وكان عدم الانضباط يعد مجرد جريمة فساد، بشرط أن يكون نابعاً من عمل من أعمال البسالة.

خذ في اعتبارك إحدى المعارك الأخيرة التي تغلب فيها الجيش العثماني على قوة غربية في الميدان، عند نهر بروث، عام 1711، فقد تحقق النصر بأسلوب قديم وتقليدي جداً:

> ثمة جندي إنكشاري جاء أمام خيام الوزير صارخاً: «هل سنبقى هنا لنموت من المرض والألم؟ ليتبعني كل مسلم حق لنهاجم الكفار». وحمل إحدى الرايات من أمام إحدى الخيام وتقدم، وتبعه على الفور آخرون يحملون رايات أخرى. وبهذه الطريقة العنيفة اجتمع الإنكشاريون والسردنغيستيون Serdenghesties والديليون* معاً وتقدموا بصرخاتهم المعهودة في اتجاه العدو، وتم صدهم ثلاث مرات مع فقدهم نحو 8000 رجل واضطرارهم إلى التقهقر إلى بعض المسافة؛ حيث حفروا خندقاً.[10]

ما أغفله العثمانيون هو الشجاعة الفائقة للإنكشاريين وغيرهم ممن وهبوا حياتهم عبثاً؛ فالروس الذين أنهكهم المرض كانوا على وشك الاستسلام:

---

* الديلي deli: هي الأقسام الكشفية أو طلائع القوات الخفيفة غير النظامية، فعندما أدمجت قوات الغازي ghazis التركية السابقة مع الجيش الإمبراطوري العثماني، أصبحت تعرف باسم "آقنجي"Akıncı، وكانت تتمركز في العادة في المناطق الحدودية، وهي معروفة ببراعتها في المعركة. (المترجم)

لقد كتب إلي أحد الأصدقاء، وهو الآن في الجيش، أنه فهم من أشخاص حكماء، كانوا حاضرين ورأوا المعركة، أن الأتراك كانوا سيهزمون من دون ريب لو أن المسكوفيين (الروس) كانوا قد علموا بالذعر الذي كانوا فيه، ولاستغلوا الوضع بمتابعة إطلاق النار والاندفاع خارج المعسكر نحوهم. وفي صباح اليوم اللاحق، عندما بدأ الأتراك إطلاق مدافعهم أخرج لهم القيصر ضباطاً براية بيضاء... ويقال إن الروس لم يفقدوا 800 رجل في الهجمات، ولكن المرض كان مستفحلاً في صفوفهم، وكان يموت 300 أو 400 رجل يومياً.[11]

وكما هو شأن رجال القبائل في جبال اسكتلندا - وهو مجتمع آخر من المحاربين المشهورين الذين سقطوا قبل أن يصبح وابل القصف المنظم والحراب المحشودة في الجيوش الأوروبية الحديثة مبنية على العلوم العسكرية والانضباط الثابت - لم يكن إخفاق العثمانيين ناجماً بصورة رئيسية عن المعدات القديمة المهجورة، وإنما لأنهم كانوا لا يثقون إلا بالطرق التقليدية لخوض الحرب. ولم يكونوا يؤمنون في أعماقهم بأن عليهم أن يتعلموا شيئاً من أوروبا في هذا الجانب.

ولكن اليقين بشأن تفوق "الأسلوب العثماني" خالطته الشكوك. وكان هذا يمثل الغموض المحوري (الذي لم يتم الكشف عنه)، والذي شاب العثمانيين في موقفهم من الغرب. كانت حكومات السلاطين في كثير من الأحيان طوال القرن الثامن عشر، تستخدم جنوداً غربيين لتعليم جيشهم الأنظمة الحديثة. وفي عام 1729 تولى ضابط فرنسي، هو الكونت أليكساندر دي بونيفال Count Alexanderde Bonneval، تحديث سلاح المهندسين العسكري العثماني، ولكن بعد مغادرته عام 1742 تلاشت تدريجياً جميع إصلاحاته على يد العثمانيين المعرضين للتغيير. وفي الوقت الذي وصل فيه أكثر المعلمين الأجانب فاعلية وتأثيراً، وهو البارون فرانسوا دي توت Baron Francois de Tott، وذلك عام 1768، اختفت جميع أدلة عمل بونيفال تقريباً؛[12] ومن ثم، فإن دي توت لم يحرز إلا نجاحاً جزئياً. فقد أوضح للمسؤولين وبعض قواته بأن التنظيم والجرأة وروح المبادرة يمكن أن تتغلب على سائر العقبات تقريباً. وبنى مدافع جديدة، وشيد قلاعاً جديدة أيضاً ودرب الجنود، ولكن ذلك كان من دون طائل في نهاية المطاف؛ فقد شعر الجنود أن علومه

العسكرية حولتهم (كما حصل بالفعل) إلى بشر آليين؛ مخلوقات مجردة من الكرامة والشجاعة. وعبر المسؤولون عن الحماسة ويبدو أنهم تقبلوا ظاهرياً الأعمال المرتجلة العجيبة، ولكنهم مع ذلك نبذوا مطالبه حيال المعدات المناسبة والدعم. وفي النهاية تحطمت مبادراته؛ بسبب التبني السهل للتقاليد العثمانية؛ إذ كان المسؤولون العسكريون وقادة الجيش يفضلون الأساليب القديمة.

وثمة حادثة واحدة مسجلة في مذكرات دي توت يبدو أنها تلخص التجربة الكاملة المتمثلة في السعي لبناء جيش عصري ضمن السياق العثماني. فذات مرة، وبعد تأخير متكرر، رتب دي توت اجتماعاً للتخطيط للدفاع من جهة البحر عن القسطنطينية ضد الأسطول الروسي الذي كان يهددها. وقد تمت تحيته بأدب وطمأنته بأنه ستتم تلبية كل حاجاته بشكل كامل وعلى الفور. لكنه عندما تكلم بدا المسؤول العثماني يتعامل معه مشغولاً تماماً بمشكلة العثور على طائرين من طيور الكناري يغردان بنغم واحد.

وبطبيعة الحال، كان قوانين الشريعة الإسلامية غير قابلة للمساس، كما أن الحكم العثماني الذي كان يمثل التعبير السياسي لتلك القوانين كان أيضاً غير قابل للتغيير. ولم يكن ذلك يعني أن النظام كان جامداً، وإنما كان يضع قيوداً على أي إصلاحات. وكان ثمة وسيلة لتحقيق التغيير، من خلال "استعادة" أي مؤسسة فاسدة لنقائها القديم. كان هذا هو التكتيك الذي اتبعه مراد الرابع عندما اتهم إنكشارييه والفرسان السباهيين بالفساد: «لقد زاد فخ الوظيفة من عدد الساخطين بين ظهرانيكم، الذين يرفضون الاستماع إلى كلام الكبار والحكماء بين الجنود؛ ومن ثم يقضون أوقاتهم مثلكم في اضطهاد الناس، ويبتلعون الأوقاف الدينية، ويعطونكم سمعة سيئة كارثية تتمثل في الجور والطغيان». ولم يكن بوسع الجنود أن يردوا على هذه التهمة بصيغة قديمة: «نحن عبيد الباديشاه (السلطان). إننا لا نحمي المتمردين، وأعداؤه هم أعداؤنا».

وبما أن الدولة العثمانية كانت جزءاً من نظام السماء – فوق النقص البشري وبعيداً عن الحاجة إلى الابتداع والتجديد – فقد كان من المنطقي أن يستتبع ذلك نتائج معينة؛ فإذا

أخفقت الدولة في أي وجه من الوجوه (كما حدث أمام فيينا)، فإن ذلك يمكن أن يكون بسبب خطأ وخيانة بشريين. وإن بدت القوة العثمانية متراجعة عن أيام سليمان العظيمة (برغم أنه تبين أنه غير معصوم، كما في فيينا)، فقد كان ذلك بسبب الفساد الذي أحدثه الأشرار. وهذه العقيدة يمكن أن تكون خطيرة على الحكام كما هي خطيرة على الرعية. ولو تم خلع السلطان - وهذا حدث تكرر في أحوال الاضطراب في القرن السابع عشر - لكان ذلك من قبيل أنه مقدر له أن يتم خلعه. وقد كتب كثير من المعلقين عن الحاجة إلى إصلاح النظام العثماني، غير أن الهدف عموماً كان استعادة تماسك الدولة كما تصوروا وجودها في عهد محمد الفاتح أو سليمان. ولعل أولئك الذين كانوا يرغبون في تغيير النظام، حتى الأيام الأخيرة للإمبراطورية في القرن العشرين، كانوا يعودون بنظرهم إلى عصر ذهبي ما.

بالطبع، لم تكن فكرة "الأيام الطيبة الأولى" تُقصَر على الإمبراطورية العثمانية، ومن الملاحظ مدى تشابه الشكاوى والتهم من الناقدين العثمانيين للنظام مع تلك التي أبداها أولئك الإصلاحيون الذين هاجموا بعنف انحطاط إسبانيا الإمبراطورية في القرن السابع عشر. ولكن كراهية التجديد - والكلمة التركية المعبرة عنه هي البدع -كانت تحمل معنى «حدث يجب تجنبه إن أمكن على الإطلاق»، وهي قريبة من البدعة؛ إذ كان هناك حديث [يفهم على نحو خاطئ]، يروى عن النبي بأن «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار».[13] لقد بولغ في صفة الخلود لدى العثمانيين، بحيث لا يتغير شيء عبر العقود أو القرون، ولكنها كانت قريبة من الحقيقة. وعندما بدأ العثمانيون يسافرون إلى الغرب، كما فعلوا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، صدموا من الإحساس بالتغير والتحول الذي بدا مهيمناً على كل جانب من جوانب الحياة. فقد تم ابتعاث الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، المدرس في جامعة الأزهر، من القاهرة إلى باريس عام 1826، وتعلم الفرنسية، وأخيراً قضى خمس سنوات في العاصمة الفرنسية. وقد فهم الغرب وكان معجباً به، لكنه وجد من الصعب

الانسجام مع انعدام جذور الحياة الأوروبية: «من ميزات الفرنسيين حبهم الشديد للاطلاع على كل شيء جديد وحبهم للتغيير والتنوع في جميع الأمور، ولاسيما في مسألة اللباس. فهذا الأمر ليس ثابتاً لديهم على الإطلاق، ولم يبقوا على زي واحد أو زينة واحدة حتى الآن». وبالنسبة إلى العثماني المتجذر في مجتمع يعد فيه اللباس تعبيراً ثابتاً عن المرتبة والمكانة، وقد ظل دونها تغيير - موضوع الضوابط الصارمة وحتى عقوبة الإعدام جزاء إساءة الاستخدام - كان مفهوم الزي غريباً تماماً. كان الغربيون أشد فضولاً ومن دون حدود؛ ومن ثم فهم أكثر معرفة بالإمبراطورية من معرفة العثمانيين بالعالم خارج حدودهم. ولم يكن يظهر عدم اهتمام مماثل بأي شيء يحدث خارج "المناطق التي تحميها السماء" إلا الصينيين (كما اكتشفت أول سفارة بريطانية).

وبحلول أواخر القرن الثامن عشر أصبح لدى الغرب تصور واضح، إن لم يكن دقيقاً تماماً، عن مواطن القوة والضعف لدى الأتراك. فقد رأوا أن الجيش العثماني الذي احتشد في القسطنطينية كان في الواقع أوضح دليل على ضخامة الموارد التي كانت تحت قيادة السلطان. وكما ذكر أهل البندقية ببديهة حاضرة، «يعتمد أمن البلاد التركية في المقام الأول على الوفرة التي تملكها من ضروريات الحياة».[14] فقد كان يتدفق عليها، من أقصى المناطق في آسيا وأوروبا وشمال إفريقيا، سيل من السلع والبضائع؛ من صوف وجلود وفرو وقماش الكمبريكي الناعم من خلال القسطنطينية، وأغذية وتوابل من المشرق، وأقمشة من اليونان، وحديد من الأناضول، وذهب وأحجار كريمة من الهند والشرق الأقصى. كانت الإمبراطورية تحتضن جميع طرق التجارة التقليدية من الشرق إلى الغرب، وتسيطر على شريط ساحلي طوله أكثر من 3000 ميل، ويضم بعض أكبر موانئ البحر الأبيض المتوسط، كالإسكندرية وطرابلس. والمراكز المسيحية الكبرى - راجوسا (دوبروفنيك) وجنوة والبندقية - على الرغم من تجاوزها مرحلة أوج مجدها، فقد كانت تمارس التبادل التجاري مع العثمانيين بصورة أكثر انتظاماً من اقتتالها ضدهم، وتم دمجها في شبكة التجارة العثمانية.

كان السلطان يحكم أكثر من ثلاثين مملكة، وتجبى له الضرائب منها جميعاً. ولم تكن الإمبراطورية العثمانية تتدخل في العادات والتقاليد لرعاياها، بل كانت تفرض عليهم الضرائب بصرامة وكفاءة متزايدتين. ومما هو معروف الجزية على المسيحيين التي كانت تسمح لهم بامتيازات ممارسة دينهم، والمحافظة على أشكال السلطة لديهم (الأساقفة والبطاركة والمجمعات الكنسية)، لكنها كانت جزءاً من نموذج أوسع. في الوقت الذي كان غير المسلمين يدفعون فيه ضريبة الرؤوس،* فقد كان المسلمون يدفعون الزكاة، وهي في الأصل الصدقة التي أمر بها النبي، ولكنها استخدمت ببساطة مصدراً من مصادر الدخل العام في عهد العثمانيين. وبالإضافة إلى هاتين الضريبتين الفرديتين كانت كل معاملة تجارية تقريباً تنتج المال للدولة، وكانت تفرض الضرائب على كل بيت، وتؤخذ الرسوم من كل مزارع (في أصقاع كثيرة من الإمبراطورية). وحتى البدو الرحل كانت تفرض عليهم الضرائب، وذلك بحسب حجم قطعانهم والوقت الذي كانوا يقضونه في المراعي. وكانت الضرائب والرسوم تفرض على كل شيء، من الضريبة على الزواج، إلى الدفعات التي تفرض مقابل استعادة الحيوانات الضالة.

كان الكثير من هذه الضرائب "عرفياً"، وكانت تجبى على مدى أجيال كثيرة، وقد هيأت الإدارة العثمانية قناة كان يمكن من خلالها تدفق الأموال على خزينة السلطان. وكان يتم إرسال الموظفين من العاصمة إلى جميع المدن الكبرى والأسواق الرئيسية لإدارة جباية الضرائب. وكانت تدفع لهم رواتب حكومية (ولكن أضافوا إلى رواتبهم الإكرامية أو ما يسمى "البقشيش"، وهو الدفعة التقليدية التي يقدمها المتوسلون الذين يطلبون خدمات حكومية). وكان المفوضون (الأمناء) يجمعون معظم الإيرادات في المراكز الرئيسية. ولكن لم يكن مجدياً اقتصادياً تحصيل الإيرادات من الأرياف مباشرة؛ ولذلك كان يتم تأجير حقوق تحصيل الضرائب إلى صاحب أعلى العروض. وهذا هو النظام الذي يسمى

---

* ضريبة الرؤوس capitation tax: ضريبة تفرض بالتساوي على كل المواطنين في المجتمع في بعض الدول غير المسلمة. وقيمة الضريبة التي تفرض على الفقير هي نفسها التي تفرض على الغني. (المترجم)

"الالتزام"، والذي يضمن مجموعة من عائدات رأس المال لخزينة الدولة. وكان هذا نظاماً فعالاً تم تطبيقه في أوروبا حتى وقت متأخر تماماً في القرن التاسع عشر.

كان العثمانيون أكثر عقلانية في التعامل مع رعيتهم من معاصريهم الأوروبيين. فجميع الرعية الذين لم يتمتعوا بعضوية الطبقة الحاكمة كانوا يسمون "رعايا". وبما أن العثمانيين كانوا من سلالة رعاة رحّل، فقد كانوا يعلمون أنه ينبغي المحافظة على الماشية واستغلالها. وفي كل عام يتم فرز نسبة مئوية (الضعيفة وغير المنتجة)، بينما يتم جز البقية، ولكن لم يكن ثمة كسب من ذبح القطيع. في المقابل، كان الأوروبيون مشغولين بالنفس الإنسانية. فقد سعت الكنيسة المسيحية في القرون الوسطى بالقضاء على الانشقاق بالأسلحة النارية وبالسيف. وقد تم تأجيج الحروب الدينية التي عصفت بأوروبا، خلال جزء كبير من القرن السادس عشر والجزء الأول من القرن السابع عشر، بسبب المطالبة بأن يكون الحكام والمحكومون يعتنقون الدين نفسه؛ حيث يقرر الحاكم دين شعبه. وفي أواخر القرن السابع عشر قامت فرنسا الكاثوليكية، التي كانت أغنى دولة في أوروبا، بطرد الهوجونوتيين؛ أي البروتستانت الفرنسيين، الذين كانوا أكثر المواطنين جداً ومهارة؛ لأنهم لم يتقيدوا بهذا المبدأ. وهذا في نظر الأتراك كان مرادفاً لذبح أكثر النعاج خصباً.

كان النهج العثماني براجماتياً؛ إذ كان يسمح لليهود والمسيحيين داخل الإمبراطورية بحرية ممارسة دينهم، ولكنهم كانوا مطالبين بدفع ضريبة خاصة مقابل هذه الميزة. ولكنهم بدفع هذه الضريبة كان يتم إعفاؤهم من التجنيد العسكري الذي كان يتحمله الرعية المسلمون. وقد تم التخلي عن تجنيد الأطفال المسيحيين في البلقان ضمن نظام الدوفشرمة وذلك في النصف الأول من القرن السابع عشر، عندما وجدوا أنه ليس ضرورياً؛ إذ كان يمكن العثور على أكثر من الكفاية من المتطوعين لتعيين موظفي القصر وسلاح الإنكشارية.

وعلى الرغم من إعفاء المسيحيين من الخدمة العسكرية الإلزامية، خدم عدد كبير منهم في صفوف الجيش الإسلامي؛ فقد تم تجنيد الرومانيين والألبان والبوسنيين قواتٍ

احتياط أجنبية ضمن الجيوش التركية منذ الأيام الأولى للاحتلال العثماني للبلقان. واعتنق عدد كبير من السلاف الإسلام، ولكن تم قبول الذين لم يعتنقوا الإسلام معاً. وكذلك كان كثيرون من أفراد فيلق حملة البنادق من المسيحيين، أو قرويين من الأناضول أصبحوا مرتزقة يتلقون أجوراً يومية؛ مثل الإنكشارية (بدلاً من الاعتماد على السلب والنهب؛ مثل الديليين والكثير من الجنود الغربيين). كان الحكم العثماني في البداية يرفض تشكيل هذه القوات غير النظامية خشية أن يصبحوا بؤرة للتمرد، ولكن في أواسط القرن السابع عشر تم دمجهم في جيش السلطان وتم تخصيص رواتب لهم وتجهيزهم من الخزينة. وكان الجنود غير المسلمين يعدون موثوقاً بهم بقدر ما كان الإنكشارية يعدون كذلك قبل أن يشعروا بسلطتهم السياسية في الدولة. ولكن الإنكشارية كانوا يمثلون خطراً على الدولة منذ تشكيلهم. فقد واجه محمد الفاتح ثورات إنكشارية، وتنامى لديهم الإحساس بالقوة والأهمية بدرجة كبيرة لا حدود لها عندما أصبحوا شكلاً من أشكال الحرس الإمبراطوري للسلطان بعد إصلاحات محمد وسليمان. ولم تكن تكبح جماحهم وتضبطهم إلا الحرب المستمرة، ولعلهم أصبحوا لا يستجيبون بحماسة للدعوة إلى حمل السلاح؛ لأنهم ألفوا رفاهية الحياة الحضرية.

ومن غير المستغرب أن القوة العسكرية للحكومة المركزية في إسطنبول تراجعت في أثناء القرن السابع عشر، كما ضعفت قدرتها كثيراً على فرض إرادتها على الأقاليم البعيدة. ومع ذلك فقد استمرت الإمبراطورية العثمانية في توفير إحساس بالشرعية والنظام الحقيقي. كان جزء كبير من آسيا الصغرى يخضع لهيمنة المتمردين وقطاع الطرق وغيرهم من الخارجين على سيطرة الدولة. وكانت القدرة على إنفاذ أوامر السلطان تعتمد في الغالب على مصالح الوجهاء المحليين (بصورة رئيسية في سوريا وولاية الروملي)، بقدر ما كانت تعتمد على أي قوة مسلحة يمكن إرسالها لتنفيذ تلك الأوامر. ولكن القوة النهائية والتي لا نزاع فيها كانت تكمن في إطاعة السلطان. وإن أخفقت السلطات في إنفاذ أمر السلطان فإن حقه في القيادة لم يحدث أبداً أن تم إنكاره، وهناك الكثير من السجلات حول قطاع طريق خضعوا للسلطة وأصبحوا موظفين عثمانيين مخلصين. وكان القبول

الفعال المدعوم بقوة الإسلام يمثل جذور العثمانية، وحتى الرعايا الأقوياء - وبعضهم أقوى من السلطان نفسه؛ مثل حاكم مصر محمد علي 1805-1849 - حافظ على فرضية السيطرة الإمبراطورية. لقد قدم العثمانيون للرعية نظام عدالة مدوناً ونزيها نسبياً، وإن كانت تشوبه بعض العيوب، وهيكلية للحياة التجارية والاقتصادية، برغم ازدحامه بالإداريين المرتشين وممارسات الفساد. وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتصاعد فيها الأحقاد الاجتماعية والدينية، كانت الإمبراطورية العثمانية توفر ملاذاً آمناً للمضطهدين، سواء كانوا يهوداً إسبانيين أو من الهوجونوتيين البروتستانت الفرنسيين، أو حتى (كما يقال) من الاسكتلنديين الثوار الفارين من القضاء الإنجليزي بعد ثورة عام 1745. (ثمة شخص اسمه "كامبل" غدا مستشاراً عسكرياً مهماً؛ حيث اعتنق الإسلام وأصبح معروفاً باسم "إنجليز مصطفى"). وهكذا نجد أنه على الرغم من عيوب المناطق التي تحميها السماء، فقد استمرت في توفير ملجأ للمضطهدين.

كانت عبارة "أصبح تركياً" مصطلحاً يدل على الازدراء في أوروبا، ويفيد التخلي عن جميع القيم والأعراف الاجتماعية لدى الغرب. ولكنه يدل أيضاً على السهولة التي أصبح بها التحول ممكناً، فكم يمكن بعض الذين كانوا يعيشون على هامش مجتمعاتهم أن يكسبوا بهذا التحول؛ كان التحول إلى تركي يعني دخول عالم مختلف جوهرياً عن أي مجتمع في أوروبا الغربية. وقد لاحظ مراقبون أجانب كيف أن ثقل العرف والتقاليد كان شديداً على الجميع. فكون المرء عثمانياً يعني التمتع بامتياز خاص ظاهر للعالم الخارجي في مجالات التميز الكثيرة للمكانة الرسمية. فحياة الموظف الحكومي، سواء كان عسكرياً أو مدنياً، كانت من دون ريب أكثر راحة من حياة الذين كانوا خارج هذه الدائرة السحرية. ومع ذلك، فإن المنافع محفوفة بالأعباء، الخفيفة الوطأة في كثير من الأوقات، ولكنها تكاد تكون بمنزلة حبال من حرير.

كان "الحبل الحريري" يحمل معنى محفوفاً بالشؤم بالنسبة إلى الموظف؛ لأن هذا (أو حبل القوس) كان أداة للموت يحملها جلاد السلطان الذي يرسله لإنهاء حياة الوزراء أو

القادة الفاشلين. كان هذا علامة احترام أيضاً، تماماً مثل حبل الحرير الذي حظي نبيل إنجليزي مدان بحق الشنق به. فقد وفر على الضحية عار الإعدام العلني، مع أنه سيتم قطع رأسه بعد الموت ويتم عرضه تحذيراً للآخرين. هذا قره مصطفى، بعد أن أخفقت جيوشه في الاستيلاء على فيينا عام 1683، أصبح نموذجاً للفضائل العثمانية القديمة. فقد استقبل جلاديه بلطف، وعندما أروه الحبال أثنى على مقام السلطان وكرمه، وصلى صلاة سريعة، واستسلم لمصيره بصمت، ثم - بحسب وصف مؤرخ عثماني - «تدحرج رأسه عند قدمي السلطان». وكذلك أيضاً - بعد أكثر من قرنين من الزمان - حدث مع المصلح العثماني الكبير، مدحت باشا، المنفي في الجزيرة العربية؛ حيث زاره جلادو السلطان وقطعوا رأسه. مع أن بعض الناس قالوا إن مدحت صارع ضد مصيره بشراسة، وقاوم عبدالحميد الثاني حتى لحظاته الأخيرة.

وعلى مدى أربعة قرون أو أكثر، بقيت فضائل المواطن العثماني عموماً دونما تغيير؛ فقد كان يتعين عليه أن يكون مطيعاً، ولكن ليس ذليلاً، متفانياً لأجل من حوله ولأسرته الرسمية التي اعتمدت على رعايته، (أو ما يسمى "الانتساب")، وكذلك لأجل السلطان. وكان ثمة واجب مماثل تمثل في ضرورة السعي لجمع الثروة والقوة، ولكن ينبغي عليه أن يقبل تجريده من الرتبة، أو حتى الموت باستسلام. وعلى الرغم من أن قوانين سليمان كانت تحرّم ذلك بصراحة، فقد كان مقبولاً أيضاً أن يعمل لمصلحة سلالته، ويسعى بصورة خاصة لتحسين حظوظ أولاده. ويجب عليه أن يتصرف مع مرؤوسيه بعدل وتحفظ، من دون طمع مفرط في الهدايا والبقشيش. ولم تكن هذه الممارسات المالية وغيرها تعد من مظاهر الفساد داخل المجتمع العثماني، ولا في أوروبا - (ربما باستثناء بروسيا) - حتى موجات الإصلاح الكبرى في القرن التاسع عشر.

ولكن يكمن تحت الهدوء ورباطة الجأش اللذين واجه العثمانيون بهما العالم، كان يكمن الخوف. فالنجاح أو الإخفاق لم تكن تحكمهما الجدارة، بل الحظ؛ مثل الحظ الجيد المتمثل في أن يكون لديك أعداء عاجزون أو منقسمون، أو فرصة تحقيق نجاح متواضع.

فالنصر العظيم يمكن أن يكون بمثل خطورة الهزيمة؛ كما حدث مع القادة الذين هزموا الروس في معركة نهر بروث عام 1711. وقد كشف السير روبرت ساتون Sir Robert Sutton، السفير الإنجليزي لدى الباب العالي، عن المنطق الغامض للقصر العثماني عندما كتب في رسالته بتاريخ 21 نوفمبر 1711:

> بعد عزل الصدر الأعظم محمد باشا... تم إلقاء جماعة الوزير وخاصته - وهم الوزير عمر أفندي (كبير أمناء سره)، وأمين سر فيلق الإنكشارية، وقائد السباهية، ومراسله - في السجن... بعد ثلاثة أيام من اعتقال عثمان آغا الذي كان رئيس ديوانه. ويعتقد أنه لم تتم معاقبة أي منهم بالإعدام، بل تم الاقتصار على سحب مخصصاتهم السلطانية منهم.[15]

وبعد شهر من ذلك، كتب بشيء من الدهشة يقول: «بعد ظهيرة اليوم الرابع عشر تم ضرب عنق عثمان آغا الذي كان رئيس ديوان الصدر الأعظم الراحل عند إبرام معاهدة السلام، وعمر أفندي، كبير أمناء سره، أمام الباب الكبير لجناح الحريم، وتركت الجثامين معروضة».[16] وكان من سوء حظهم أن خدموا السلطان الذي وصل إلى العرش عن طريق إطاحة أخيه، وكان يخشى الجيش المنتصر أكثر مما يخشى الجيش المهزوم.

كان الموظفون الحكوميون يوازنون بين الفرص والمخاطر؛ ذلك أن العثمانيين غالباً ما كانوا طماعين؛ لأنهم كانوا يخشون أن تختفي فجأة فرص مكاسبهم، وكانوا يسعون لحماية أسرهم بتوريث ممتلكاتهم للأوقاف التي كانت محصنة ضد المصادرة من السلطان. وعلى الرغم من أن خدم الإمبراطورية بدأوا بصفتهم مماليك للسلطان، فقد سعى الكثير منهم في الخارج لاقتسام المنافع التي كان يدرها النظام. وبعد مرور فترة طويلة على انتهاء نظام الدوفشرمة في القرن السابع عشر، راح الآباء يسعون لإدخال أبنائهم في أسرة مماليك السلطان. وفي بداية القرن العشرين تم إرسال عدد كبير من الصبايا المقدمات إلى الحريم الإمبراطوري، أو إلى حريم الوزراء وكبار الموظفين الآخرين، من أسرهن، طمعاً في المشاركة ولو في أدنى مستوى في المنافع التي يعود بها عليهم كونهم عثمانيين. (تم أسر الأخريات في الحرب، وتم اختطاف بضع فتيات منهن، بينما تم شراء بعضهن الآخر.

وكان يتم إرسالهن إلى القصر من الموظفين العثمانيين الساعين للحصول على الحظوة، أو من تجار الرقيق؛ بهدف ترويج أعمالهم). كان هذا الدخول للغرباء في الصفوف المغلقة للنظام العثماني أحد أكثر الشكاوى شيوعاً من المصلحين العثمانيين من بداية الإمبراطورية. كان المسلمون - وهم الموجودون رسمياً خارج النطاقات الضيقة لدخول النظام - يتبنون في البداية أساليب الحياة العثمانية في اللباس والسلوك، ثم يتسللون تدريجياً كموظفين محليين أو قرويين داخل صفوف النخبة المفضلين. وفي الأقاليم البعيدة عن السيطرة الفعالة على المركز، في سوريا ومصر، سرعان ما تشبهت الأسر المحلية القوية بالطبقة الحاكمة الجديدة، أما في أوروبا المفتوحة فلم يتم منع العملية بشكل فعال أو نشيط قط.

وهكذا، نجد أنه على حين كانت الأشكال الخارجية للحكم العثماني غير قابلة للتغيير من الناحية القانونية، ولا شيء كان يبدو أنه سيتغير، كان الجوهر وراءها متغيراً. ذلك أنه كان ثمة وجهان للعالم العثماني. وغالباً ما كان العالمان، العام والخاص، غير متكافئين؛ فما كان يحدث في الساحة الرسمية كان يخضع لقوانين صارمة، بينما كان للعالم الداخلي حدوده وقيوده المختلفة تماماً. كان مبدأ الفصل - الرسمي عن الخاص، والذكر عن الأنثى، والعثماني عن الرعية - يلقى الدعم الفعال، ليس من القانون (على الرغم من سن قوانين محكمة وإدخال تحسينات عليها)، بل من خلال إحساس بالملاءمة ومراعاة الأصول والتقاليد. كان العثمانيون جميعاً قادرين على حل مواطن الغموض الظاهرة التي أضفت الغموض على النظام. كان نموذج الفضيلة هو سليمان القانوني الذي لطّف الشدةَ بالعدالة، والإنجاز الحربي بحب الثقافة. لكن الهياكل المحكمة التي أنشأها محمد الثاني وسليمان ما لبثت أن تآكلت. وبالفعل، فإنها لم تكن لتنجح مطلقاً كما كانا ينويان؛ لأن الانقسامات بين الحكم المدني والعسكري، وقصر المناصب الحكومية الرسمية على المماليك المسيحيين سابقاً في بيوتات السلطان، والمراسيم الكثيرة التي تحكم الإنكشاريين، تم تقويضها حتى في أوج "العثمانية" في عهد سليمان. ولكن النظام ظل باقياً.

وفي العقدين اللاحقين لإخفاق الأتراك في فيينا، تقلصت المناطق العثمانية في البلقان تدريجياً؛ بسبب زحف النمساويين. ولكن العثمانيين رأوا في انتصارهم على الروس عام 1711، واستعادة أجزاء من اليونان كانت البندقية قد استولت عليها، علامة عل تبرئة الأساليب القديمة في الحرب، فشنوا هجوماً جديداً في داخل المجر، بجيش تعداده 100000 رجل زحفوا شمالاً في صيف عام 1715. ولكن الجيش العظيم اندحر عند قلعة بيتروارادين على نهر الدانوب، وفر من بقي منهم نحو الوطن، كما فعلوا عام 1683. وقد وصلت حظوظ العثمانيين إلى الحضيض باستيلاء النمساويين على بلغراد عام 1717. وبدا أن ذلك يسوغ الشعار المذهب المنقوش فوق باب هوفبريج Hofburg في فيينا؛ حيث مر خلاله الأمير المنتصر يوجين مبتهجاً بالنصر: «خيول القوة التركية... الرب دائماً يفعل المعجزات ضد الأتراك».

وبعد عام 1717 غدا السلام هو الحالة الطبيعية، بدلاً من الحرب. فقد سعى أحمد الثالث ووزيره الأعظم، داماد [صهر السلطان] إبراهيم باشا، لتفادي الصراع. وما جعل هذا ممكناً جزئياً عمليات التطهير المستمرة لفيلق الإنكشارية (وهي التي تم من خلالها خلع مصطفى أخو أحمد الثاني عام 1703، وجلس أحمد على العرش). كان أحمد يشتهر بأنه رجل يحب السلام والملذات، ولكن سياسته كانت مبنية على النموذج العثماني التقليدي: الشنق وسيف الجلاد. تم إدامة "حقبة الخزامى" على يد سلطان نشيط - أو بشكل أدق، على يد السلطان ووزيره الأعظم - يستعيد السلطة في يديه.

أوجدت "حقبة الخزامى"، التي سميت تبعاً لحب السلطان لزهرة الخزامى أو التوليب، مراسمها وطقوسها الخاصة بها، وهي صدى (واعٍ أو غير واعٍ) للدعوة إلى داود باشا، التي استمرت مثل كل المراسم العثمانية مدة طويلة، بعد أن غدا هدفها الأصلي شيئاً من الماضي. وقد وصف زائر فرنسي كيف أنه في عام 1766؛ أي بعد سنوات من موت أحمد، تمت دعوة البلاط إلى مشاهدة أزهار الخزامى والتمشي في حدائق القصر.

وهي تحدث في إبريل؛ حيث يتم نصب أروقة خشبية في أحد أفنية القصر الجديد. ويتم وضع نباتات الخزامى على كلا جانبي هذه الصفوف على شكل مدرّج. كما تتدلى المصابيح، وأقفاص الكناري من أعلى الرفوف، مع كرات زجاجية مملوءة بالماء الملون، بشكل متناوب مع الأزهار. ويشكل انعكاس الضوء منظراً جميلاً في النهار كما في الليل، أما الهياكل الخشبية المحيطة بالأفنية والعرائش والأبراج والأهرام فهي مكسوة بزخارف جميلة وتمثل متعة للناظرين.[17]

كان السلطان "يخيم" في كشك واسع قام بإعداده فريق الخيام في الفناء الثالث؛ حيث كان يستقبل الثناءات والسلامات من حاشيته ومن الشخصيات الأجنبية.

في فترة حكمه الطويلة، خلال الفترة 1703-1730، قام سلطان الخزامى وحاشيته ببناء أكشاك وحدائق للمتعة على طول ضفاف القرن الذهبي، متخلياً عن شدائد ميدان المعركة من أجل لوائح الحب والجري وراء المتع الحسية. وبعث بسفارات لاكتشاف أسرار الغرب؛ إلى موسكو وفيينا وبولندا وقبل كل شيء آخر إلى فرنسا. حتى إنه سمح بإدخال مطبعة يمكنها إنتاج نصوص باللغة العربية، وهي آلة شبيهة بالبدعة. وقد لقيت روح حقبة الخزامى تعبيراً شعرياً عنها فيما كتبه أحمد نديم، وهو من كبار المقربين لدى السلطان: «لنضحك ونلعب، ولنستمتع بلذائذ الدنيا». وأول مرة لم تعد "لذائذ الدنيا" مقصورة على من يعيش داخل دار الإسلام، فقد أدرك الكثير من العثمانيين بسرعة أن اللذائذ موجودة في أوروبا وما وراءها، بينما لم يفهم آخرون ذلك، واستمروا في العودة بنظرهم إلى التقاليد القديمة وسيلة لاسترداد المجد العثماني. وفي عام 1774 كتب "شيخ عثماني"، جنكيلي علي باشا، مذكرة طويلة يندب فيها الهزيمة على يد الروس، ولكنه يقول إن السبيل للتقدم إلى الأمام هي من خلال العودة إلى الوراء، إلى تقاليد الماضي المجربة والمختبرة، ونبذ البدع الغريبة.[18]

لكن السلطان أحمد أخفق أخيراً في السيطرة على قوى العرف والتقاليد. وفي سبتمبر 1730 وقف إنكشاري ألباني، هو باترونا هاليل، في فناء مسجد بايزيد في العاصمة، وأعلن أن السلطان والصدر الأعظم قد خالفا الشريعة الإسلامية بتسليمه جزءاً من دار الإسلام إلى الكفار. ووجد جمهوراً مستعداً للسماع في ثكنات الإنكشارية في "إيت ميدان" Et

Meydan؛ (أي ميدان اللحم)، وأصبح التمرد موضع تركيز بالنسبة إلى جميع من عـارض الأفكار الجديدة لحقبة الخزامى. ولما أدرك أحمد أن هناك تمرداً يواجهه قام بتقديم تنـازلات للحشد الذي أحاط بالقصـر، حتى إنه تخلى عن صدره الأعظم إبراهيم باشا. لكنه اعترافاً بخدمته الطويلة ووفائه بعث له بحبل من حرير ثم سـلم الجثـة فقـط إلى المتمـردين. وقـد كلفته هذه البادرة عرشه.

وقد استغرق خلفه، محمود الأول، عاماً تقريباً للتخلص من الأحوال المضطربة التـي جاءت به إلى الســلطة. وفي نهاية المطـاف، قـام الإنـكشـــارية المتمـردون الـذين أرهبـوا المدينة - بأعمال الشغب وإشعال الحرائق وإلحاق الدمار بعدد كبـير مـن القصـور والمبـاني الجديدة التي شيدها الأثرياء، بالإضافة إلى طلب الحماية مـن التجـار - بتنفـير الكثـير مـن التجار الذين كانوا يدعمونهم في السابق. وكان هناك شـعور عـام بالارتيـاح عنـدما دعـا السلطان الجديد الإنكشاري الألباني باترونا هاليل والقادة الآخرين إلى مؤتمر في القصـــر، وقام بتقييدهم وخنقهم. وتم عرض رؤوسـهم المبتـورة في الفنـاء الأول في اليـوم نفـــسه. تصـرف محمود مثل سلطان حقيقي، وكان يتمتع بالدهاء في خداع أعدائـه وتهـدئتهم، ثـم يتصـرف بسـرعة، ومن دون هوادة أو رحمة، ولم يكن ثمة خطأ في ممارسة السلطان منتهـى القسوة في العقوبة التي يسمح بها العرف.

وخلال بقية القرن الثامن عشـر، كان سلسلة من الســلاطين والصـدور العظـام إمـا أنهم لا يقومون بأي محاولة لوقف الانفتاح على الغرب، وإما أنهم يشجعونه بشكل فعـال. وكانوا جميعاً يريدون تقوية الجيش والبحرية، مع تطعيم الهياكل العثمانية بالتقنيات الغربية، وإصلاح فيلق هنا وآخر هناك، وبناء أحواض جديدة لصناعة السفن أو مصانع للمدفعية. ولكن - كما اكتشف معظم الفنيين الغربيين - كان هناك التزام عميق بالتغيير. عندما كـان الصدر الأعظم يدعم التجديد ازدهر التجديد في الوقت الـذي كـان فيـه دعمـه واضـحاً وفعالاً، وعندما تم سحب الدعم أو خفض فحسب، تباطأت عجلة الإصلاح ثم توقفت. وبالنظر إلى اضطراب السياسة العثمانية، فإن كثيراً من الوزراء فقدوا رؤوسهم. لقد وجـد

التغيير والتقاليد على نحو متوازٍ؛ حيث يوجد الأول ثم يصعد الآخر؛ ومن ثم، لم يكن لأي موظف يشعر بقيمة رأسه أن يلتزم التزاماً ثابتاً بقضية أو بأخرى.

كانت هذه الثنائية، أو المؤسسات المتوازية، تبدو تطوراً طبيعياً لكثير من العثمانيين؛ لأنها كانت تعكس مفهوم الفصل في صميم الإسلام والنظام العثماني. وكانت تجد تعبيراً عنها بأقصى وضوح في كل أسرة عثمانية. كان سيد البيت يتمتع بحقوق مطلقة على الجميع داخل أسرته - أرقاء وأحراراً - ولا يخضع إلا للشريعة الإلهية. ومع ذلك، فإنه كان يعد من غير اللائق لأي رجل أن يتدخل مباشرة في شؤون النصف المؤنث من أسرته؛ فذلك كان من مسؤولية أمه وزوجه. كان التقسيم إلى السلاملك، وهو عام للذكور أو الاستقبال، والحرملك وهو خاص للإناث، أمراً مطلقاً وغير قابل للتعديل أو التنازل. بالطبع لم يكونا متساويين؛ لأن السلطة والمظهر الخارجي - من أفضل الأثاث وأرقى الديكورات - كانت تتركز في غرف السلاملك العامة. وبالطبع كان التقسيم إلى عام وخاص يظهر أيضاً في البيوت الغربية؛ حيث كانت "غرف العرض" تعكس صفات الذكورة من قوة وهيبة، ولكن كان قليلون من الزوار الإنجليز في القرن التاسع عشر، المنتقدين للفصل بين البيئتين في البلاد العثمانية، يعقدون أي قياس أو مقارنة مع تجربتهم هم؛ حيث كان «البيت ينقسم إلى أسرة وضيوف وخدم، وكان الخدم ينقسمون إلى خدم من الطبقة العليا وآخرين من الطبقة الدنيا، والأسرة إلى أطفال وبالغين، والأطفال إلى صف مدرسي وحضانة. وكان يعد من غير المرغوب فيه للأطفال والخدم والآباء أن يرى كل منهم الآخر أو يسمعه إلا في أوقات معينة معروفة».[19]

ولم تكتسب الحواجز في الغرب صفة رسمية على أسس تتعلق بالجنس، كما كان الأمر في ظل الإسلام. ولم يكن العثمانيون في الفترة نفسها، وهم المعتادون على علاقات أيسر داخل الأسرة، يستبعدون الأطفال بالطريقة الغربية، ومن المؤكد أن المماليك العثمانيين كانوا يتمتعون بمكانة أكثر ضماناً داخل الأسرة من الخدم الإنجليز. وبحلول بداية القرن التاسع عشر، لم يكن القانون والإحساس بالعرف والأصول، هو الذي يسيطر على طريقة

تنظيم الأسـر، وكان يجري تحول مماثل في العالم الخارجي. كانـت الحبـال الحريريـة ناعمـة ومرنة؛ شـرط ألا يكون - كما يبدو للذين في الخارج - ثمة قيود أو كوابح عـلى الإطـلاق. وعلى الصعيد العملي، كان العثمانيون جميعاً، في السـر والعلـن، ومـن السـلطان فـما دون، مقيدين بهذه الشبكة الناعمة التي خاطروا بتفجيرها. لقد أصـبحت العلاقـة بـين النظريـة والتطبيق لدى العثمانيين مرنة على نحو متزايد. وكانت القيود أو الحدود الواضحة المحددة في أنظمة سليمان في طريقها إلى الاختفاء، وتحولت الصـرامة في القانون إلى قيود أكثر مرونة (ولكنها مازالت ملزمة)، تمثلت في العرف والتقاليد.

الفصل الرابع

"الواقعة الخيرية"

استئصال الإنكشاريين

هبت الرياح السائدة في القسطنطينية من الشرق، إلى نهاية مضيق البوسفور من جهة البحر الأسود. في الشتاء كانت تأتي معها بالمطر والثلوج، وفي أشد السنوات برداً كانت تدفع بالأطواف الجليدية إلى آخر المضيق الضيق فتسد القرن الذهبي، أما في الصيف، فكان الهواء الرطب يملأ المدينة بالضباب الصباحي، وفي أشد ساعات النهار حرارة، كان ينفث نسائم مطردة ومعتدلة البرودة تجعل الشوارع الكريهة الرائحة مقبولة نوعاً ما. كان شهر يونيو معروفاً بتغيراته المفاجئة في الرياح والحرارة، وكان - من ثم - فترة في العام تكون الأمزجة فيها ضيقة، وتغدو جرائم العنف والغضب الجامح أكثر شيوعاً. وفي منتصف الصيف كان يكفي حدوث تغير في الرياح لتبديل أمزجة الناس من حدة الطبع إلى فورة من الغيظ والغضب الشديدين.

كانت الرياح القادمة من جهة الغرب، سواء من البر أو من البحر الأبيض المتوسط، حارة وجافة، وقد حملت معها رائحة كريهة. ففي الأيام التي كانت تهب فيها نسمات قوية من الشمال الغربي، كانت الأنوف تزكم بسبب الرائحة الكريهة القادمة من المدابغ خارج الأسوار. وعندما كانت تهب عبر المدينة من بحر مرمرة، كانت تحمل معها رائحة كريهة أخرى؛ ليست رائحة المدابغ المنتنة، بل رائحة الدم الحلوة المتخمة. كان مصدرها في قلب المدينة، قرب مسجد الفاتح. وكان بإمكان المؤذن الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة من مآذن المسجد أن يطل على منطقة واسعة مفتوحة تحيط بها مبانٍ خشبية عالية، وقد بنيت مقابل جدرانها مجموعة من الحظائر والأكواخ ذات الأسطح المائلة. ولو كان ثمة مسافر يتمشى في الصباح الباكر لقابلته قطعان الغنم التي يتم رعيها نحو الميدان، وحينما يقترب يدله

الثغاء الممتزج بالخوف والروائح الدافئة الصادرة من الجزارة على وجود مسلخ. كان ذاك هو "إيت ميدان" Et Meydan؛ أي ميدان اللحم.

لم تكن "إيت ميدان" ميداناً بالمعنى الأوروبي، مع أنه كان يعرف عموماً بميدان اللحم (وكثيراً ما كان يتم الخلط بينه وبين "أت ميدان" At Meydan؛ أي ميدان سباق الخيل البيزنطي القديم قرب قصر يني سراي). كانت الأرض الفضاء الترابية الممتدة تبدو منقطة بمجموعات من الناس والخيام والخيول ومواقد الطبخ. وكانت دكاكين الجزارين المتجمعة في وسط الميدان تبيع مقادم البقر والخراف، علاوة على مجموعات من الدجاج المربوطة من سوقها. وفي رواق تحت بيوت السكن العالية كانت الحوانيت تعرض الأحذية العادية والطويلة، ورزم الملابس، وجميع أنواع السلع الكثيرة التي توجد في الأسواق الأخرى في المدينة. ولكن إيت ميدان لم يكن سوقاً عادية. فقد كان يدعى ميدان اللحم؛ لأن جنود السلطان النظاميين (الإنكشارية) كانوا يستلمون هنا حصصهم من التموين، مطبوخة في القدور الضخمة التي كانت رمز الفخَار لكل فوج. لقد كانت مركز حي الإنكشارية في المدينة. كانت ثكناتهم وبيوتهم ومساكب خضراواتهم تغطي المنحدر الغربي من الهضبة الرابعة نزولاً حتى المياه شبه الراكدة في نهر ليكوس.

لم يكن "إيت ميدان" ثكنة فحسب، بل كان أيضاً مكاناً للأعمال؛ فقد كان عدد كبير من الجنود من الحرفيين، يعملون إسكافيين ونجارين عاديين أو نجاري خزائن أو حدادين أو سراجين، وكانوا يمارسون حرفهم في دكاكين صغيرة في الشوارع المحيطة بهذا الميدان أو في الأزقة المزدحمة التي تؤدي إلى القرن الذهبي. وكانوا يبدون مختلفين قليلاً عن جميع الحرفيين في ورشهم، ولكن عملهم الحقيقي تمثل في مهنة العنف. وكان إنكشاريون آخرون في سراويل فضفاضة وصدريات قصيرة وعمائم بيض، يختالون في الطرقات، وقد حملوا سكاكين طويلة ومسدسات في أحزمتهم. لم يكن أحد يعرف تماماً عددهم في المدينة؛ لأن الذين كانوا يطالبون بحصتهم اليومية في "إيت ميدان"، ورواتبهم ربع السنوية في الفناء الثاني من القصر، فاقت أعدادهم كثيراً الإجمالي المتوقع لأعداد الجنود الفعليين. وعندما تم

استدعاؤهم للمشاركة في الحرب عام 1811، تم استعراض 13000 منهم. ولكن عندما بدأ الطابور مسيرته شمالاً إلى الحرب تضاءل العدد إلى 1600. ولعل الرقم الشائع بأنه كان هناك 20000 إنكشاري في العاصمة لم يكن خاطئاً تماماً؛ لأنه كان يتضمن أولادهم وأسرهم، علاوة على الجنود الكبار السن المتقاعدين بمعاشات تقاعدية سخية.

كانت التسمية العثمانية لفيلق الإنكشارية "أوجاك" ocak التي كانت تعني الطباخ العام للمعسكر، وكانت رمزية الطبخ والأكل متأصلة وعميقة الجذور في تقاليدهم. وكان الضباط يمنحون ألقاباً مثل شوربجي(طابخ الحساء)، وتعادل رتبة العقيد؛ حيث كانت ترتبط بالتموين وطبخ الطعام. كانت قدور الشوربة أو مراجل الحساء أغلى ما يمتلكه الإنكشارية، وكانت رمز حياتهم المؤسسية؛ إذ كان العار الدائم يصيب أي فرقة تفقد قدور الحساء ويستولي عليها الأعداء. وعندما كان يقوم الإنكشارية بأعمال شغب أو تمرد كانوا يقومون رسمياً بقلب القدور النحاسية الضخمة ليشيروا بذلك إلى أنهم لم يعودوا يقبلون إعاشات السلطان وأنهم يتخلون عن طاعته.

من التقاليد الشائعة لدى الشرقيين أن المشاركة في الطعام يومياً والأكل جماعياً من القِدر نفسه يربط الفرد ويلزمه بالمجتمع. وكانت الدعوات إلى تناول الطعام في مطاعم الإنكشارية أمراً مرغوباً فيه بشدة؛ لأن ذلك يجعل الضيف تحت حماية فيلق الإنكشارية (الأوجاك). وكان بعض الناس يتم تجنيدهم رسمياً بصفة طباخين مساعدين "اليمق" yamaks؛ أي إنكشاريين مساعدين مسؤولين عن إشغال القلاع المحاذية لمضيق البوسفور [كما أنهم أصحاب الحرف في الإنكشارية]، على حين كان عدد كبير من الحمالين والباعة المتجولين والنشالين يتجندون في إحدى الفرق العسكرية ليطالبوا بامتيازاتها.

في عام 1821 وصف الأب روبرت والش Robert Walsh الإنكشارية والمتطفلين عليهم بأنهم:

> مجموعة متنوعة من الشباب وكبار السن، من دون أي بدلة ثابتة باستثناء قبعة أو قلنسوة من اللباد كبيرة وزيتية المظهر، وغريبة الشكل... وكانت تقع باستمرار بسبب ضخامتها. وكان

العقداء يتميزون بخوذاتهم المميزة التي كانت طويلة وثقيلة جداً؛ حتى إنهم كانوا يضطرون أحياناً إلى إمساكها بكلتا اليدين لكي تبقى على رؤوسهم. والواقع أن كل غطاء للرأس لدى الأتراك كان يبدو غير مريح على نحو يلفت النظر. فالعمامة في أحسن حالاتها لم تكن طيّعة، وكانت بعض العمائم تشبه الأكياس الصوفية، متوازنة دائماً على الرأس؛ مثل دلاء الحليب.[1]

وقد عكس والش أيضاً الرأي العام في أوساط الأوروبيين، ورأياً حمله على نطاق واسع كثير من العثمانيين؛ وهو أن الإنكشارية أصبحوا فاسدين وخطيرين، وأصبحوا يمثلون تهديداً لسلامة الدولة. فهم لم يعودوا الجنود الذين كانوا في الماضي وهم المعروفون بانضباطهم في المعركة، ورصانتهم في وقت السلم. وحتى القرن السابع عشر كان المجندون أولاد الدفشرمة الذين قدموا إلى إسطنبول بصفتهم المماليك الجدد للسلطان؛ وبوصفهم مختونين ومعتنقين للإسلام وقد بلغوا سن الرجولة عمالاً في المزارع بالأناضول. وعند بلوغهم سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة يصبحون أقوياء ويتمتعون باللياقة، ويعدون مادة "خاماً" مثالية لدى ضباط التجنيد في الكتائب، ويصبح فيلق الإنكشارية (الأوجاك) أسرتهم الجديدة.

كانت تبدو خدمة السلطان بمنزلة فردوس لفتيان المزارع، فقد أعطيت لهم بدلات أنيقة، مكونة من قفطان طويل فوق معطف قصير وسراويل تركية، وجزماً أو صنادل ثقيلة. لقد أصبحوا خدماً وحشماً لدى السلطان؛ جنوداً مملوكين للسلطان. تم تمرين بعضهم ليكونوا فرساناً، ولكن معظمهم أصبحوا مشاة إنكشاريين، وتم فرزهم إلى واحدة من 150 فرقة عسكرية. وكان لكل فرقة شارتها المميزة التي رسمت على أبواب ثكناتها، وتم تطريزها على رايات الكتائب الحريرية البيض، وعلى الخيام الدائرية التي كان يعيش في كل منها جماعة من الجنود الشبان في أثناء الحملات. وفي غضون بضعة أسابيع من القبول يكون معظم الإنكشاريين الشباب قد مرغوا أذرعهم أو وجوههم بالبارود ووشموا أنفسهم بالشعار نفسه كعلامة خارجية ظاهرة على نسبتهم إلى نظام الإنكشارية الذي يحظى بالاحترام والمكانة. وكانت قبعة الإنكشارية الطويلة، بوشاح الرقبة الناعم فيها، كوسام الامتياز.

وفي الحرب كان الإنكشاري يقاتل من أجل شرف السلاطين ونظامهم. وقد تدربوا ليصبحوا جنوداً شجعاناً وليسوا مهرة. وكان كل إنكشاري شاب يختار سلاحه المفضل؛ كان مستودع الأسلحة في كنيسة القديسة آيرين السابقة محشواً بالسياط والمداريس والفؤوس وقضبان الصولجان الشائكة والمطارد والمناجل، وكمية وافرة من السيوف والخناجر والسيوف المعقوفة الخفيفة. ولكن كان من المتوقع أن يكونوا على معرفة بجميع أنواع القذائف وأسلحة الالتحام. وفي أثناء القرن السادس عشر تم تدريب الفرق على استخدام الأسلحة النارية. لقد تغيرت الأسلحة، وكذلك البدلات التقليدية، ولكن أسلوب الإنكشارية في الحرب بقي كما هو. فقد كانوا يستخدمون الأسلحة البعيدة المدى - من أقواس ونشابيات أو بنادقهم القديمة الطويلة - لمواصلة إطلاق النار على العدو، وإن كان ذلك بشكل غير متقن، إلى أن يصدر إليهم أمر بالتوقف، ثم يتم وضع البنادق جانباً، ويشهر الإنكشارية سيوفهم المعقوفة أو يمتشقون يطقاناتهم (سيوف قصيرة ثقيلة محدبة). وكان أقوى الجنود يرفعون قضبانهم الشائكة أو بلطاتهم (فؤوس قصيرة المقابض هلالية الرؤوس مدعمة بشوكة أو مسمار معدني قوي). ويقوم الضباط بتسوية الصفوف ويأخذون أماكنهم إلى جانب رجالهم. ومن الخلف تقوم الفرقة الموسيقية العسكرية بعزف إيقاع قوي على المزامير والطبول والأبواق.

كان الهجوم الإنكشاري من دون هوادة، وكأنه مد قادم. كانت الصفوف الزاحفة ترفع أصواتها بصرخات الحرب، وتدعو الله أن يمن عليها بالنصر. وقد لاحظ القادة المسيحيون أن الإنكشارية كانوا يتقدمون في جحيم من النيران؛ إذ كانوا يتسلقون أكواماً من جثث قتلاهم، ويستثمرون على الفور أي نقطة ضعف في الدفاعات، وإن أخفق الهجوم الأول فيتبعه ثانٍ وثالث. في القرن الثامن عشر كانت أسلحة الإنكشارية وتكتيكاتهم بدائية بحسب معايير أوروبا الغربية، غير أن ثباتهم في الهجوم والدفاع معاً كان مايزال يرعب خصومهم. وقد كتب المارشال النمساوي إيرنست لاودون Ernest Laudon بإعجاب عن دفاع الإنكشارية عن إحدى القلاع ضد هجومه في حملة عام 1788:

> إن ما يفوق تصور قوة الفهم البشري تصور مدى قوة بناء هذه الأماكن، ومدى عناد الأتراك في الدفاع عنها. وما إن يتم تدمير أحد التحصينات حتى يقوموا ببساطة بحفر غيره. من السهل التعامل مع أي قلعة تقليدية ومع أي جيش إلا الأتراك عندما يدافعون عن أحد المعاقل.[2]

كان الإنكشارية جميعاً ينظرون بازدراء إلى الصفوف المنضبطة للجيوش الغربية التي كانت تلقم بنادقها وتطلقها مثل البنادق الآلية، وكانوا يكرهون التمرينات والمناورات المعقدة التي كان يتسم بها أسلوب الحرب الغربي، فهم كانوا يقاتلون، من حيث هم أفراد، ويتدربون بقذف سيوفهم على قبعات من اللباد مركوزة على أعمدة، وبقصف أهداف كبيرة الحجم ببنادقهم. إنهم لم يكونوا يرون شرفاً أو شجاعة في أساليب الغرب. وعلى الرغم من الهزيمة في ميدان المعركة فقد ظلوا على اقتناع بأن أسلوبهم في الحرب، وهو الالتحام مع العدو، كان صحيحاً، وأنه الطريق الإسلامية القويمة. كان هذا المبدأ يمثل الأساس الوطيد الكامن وراء مساعيهم للمحافظة على مركزهم المتميز مهما كانت التكاليف. لم يكن بالإمكان تحويل الإنكشارية إلى جنود يتبعون الأسلوب الغربي، إلا إذا تخلوا عن العادات والتقاليد التي شبوا عليها طوال قرنين وغدت في صميم هوية فرقهم. وقد أيد العلماء رفضهم تبني أساليب الحرب النصرانية، وأشاروا إلى أن على المجاهدين أن يقاتلوا – كما كانوا يفعلون دائماً – بأسلحة أسلافهم وتكتيكاتهم، وأصبحت التقاليد واجباً دينياً.

وأدى الاعتزاز بالفرقة والتصميم الثابت الذي جعل الإنكشارية مرعبين إلى هذا الحد، إلى جعلهم أيضاً يمثلون تهديداً حتى في أوقات السلم. فقد أسهمت متطلبات الحرب في تضخيم فيلق الإنكشارية (الأوجاك) فوق حدودها الأصلية؛ إذ إنها حتى عام 1574 نادراً ما تجاوز عدد أفرادها 20000؛ حيث حد من حجمها عدد الفتيان الذين تم إحضارهم بواسطة الدوفشرمة. ولكن تم التساهل في شروط إحضارهم في ثمانينيات القرن السادس عشر؛ حيث سمح لأبناء الإنكشارية السابقين وذراريهم بالالتحاق بالفرق العسكرية (لم يعد التحريم الأصلي لزواج الإنكشارية فعالاً وذلك منذ أمد بعيد).

وبحلول عام 1591، ازداد عدد أفراد هذه الفرق إلى 50000 تقريباً. وقام الوزراء الإصلاحيون والسلاطين النشيطون؛ مثل: مراد الرابع بتطهير صفوفهم، ولكن العدد الإجمالي ارتفع على نحو ثابت. وتم التخلي عن الدوفشرمة، وتم فتح الصفوف للمتطوعين؛ حيث أصبح 30000 فرد إنكشارية بهذه الطريقة في أثناء الحرب ضد النمسا في الفترة 1687-1698. وبحلول عام 1826، كانت الحكومة تعطي إعاشات وأجوراً لـ 135000 إنكشاري كل شهر.

لكن لم يكن هناك 135000 جندي متطوع من المتاحين للخدمة الفعلية في الميدان. وقد تضخمت أدوار التعبئة والاستقطاب كثيراً، إما نتيجة استمرار الضباط في جمع رواتب الإنكشارية الموتى، وإما من زوجات هؤلاء الموتى وأولادهم الذين كانوا يعيشون على الإعاشات الأسبوعية المكونة من ضأن وخبز. وفي عام 1805 أصبح العدد في السجل 112000، ولم يعد هناك جنود متوافرون للخدمة عام 1826 إلا من كان موجوداً قبل ذلك بواحد وعشرين عاماً. كان جنود فيلق الإنكشارية (الأوجاك) يتمتعون بفوائد كبرى حُرم منها المدني العادي. وكان يتم إعفاء الإنكشارية؛ بوصفهم جنوداً، من الضرائب التي كانت ثقيلة الوطأة على الفلاحين وسكان المدن؛ إذ كان وضعهم المتميز يمنحهم ميزة في جميع معاملاتهم التجارية. وعلى الرغم من أن سلطتهم كانت أوضح ما يكون في العاصمة؛ حيث كان الإنكشارية يقومون بعزل السلاطين وتنصيبهم كما يشاؤون، أو كانوا يقتلون الضباط والموظفين المعارضين لهم، فقد كانوا يسيطرون على المدن الريفية كذلك. وقد اتخذت معظم الكتائب المائة والخمسين مواقعها في الأقاليم أو على الجبهات. وقد تم وضعهم هناك أصلاً في أواخر القرن السادس عشر؛ لحماية الإمبراطورية من المتمردين في الداخل أو الغزاة من الخارج، ولكن بمجرد أن استقر الإنكشارية في بيوت مريحة، فإنهم رفضوا العودة إلى الجيش في الميدان. لقد بقوا في المنطقة نفسها على مدى عشرات السنين، يبنون روابط عائلية ويقيمون أعمالاً مزدهرة. وبحلول بداية القرن التاسع عشر أصبحوا لا يقاتلون إلا دفاعاً عن مدنهم أو امتيازاتهم.

لقد كانت تقاليد "الأوجاك" تربط أفراد الإنكشارية ببعضهم بعضاً. وبحلول عام 1800 حلت هذه الولاءات العشائرية محل الولاء للسلطان أو الدولة العثمانية. وقد كتب أدولفوس سليد Adolphus Slade، وهو ضابط بحرية بريطاني، يقول: إنه «لا أحد ممن لم يكن منهم، ولا ممتلكات لم تكن لهم، كانت في مأمن. وبما أنهم كانوا معتادين على المبالغة في عدم الخضوع للقوانين، فإنهم لم يكونوا يعرفون جريمة إلا ما كان يستهدف امتيازاتهم».[3] وكانت الفرق العسكرية التي تمركزت في العاصمة أقل حرصاً على القتال من الإنكشارية الموجودين في الأرياف، واضطر السلطان إلى الاعتماد على مرتزقة أو جنود غير نظاميين لملء الشواغر في جيوشه. كان هناك تدفق لا ينقطع للمتطوعين الذين جاؤوا بمسميات مختلفة؛ ففي القرن السابع عشر كان يطلق عليهم التُّفَكجية tufekcis (أي البواردية أو رماة بنادق المسكيت)، وكان يطلق على جماعات أخرى - وبعضهم مسيحيون وبعضهم مسلمون - السجبانية segmens والسريجية saricas [ميليشيا الأقاليم]. وفي القرن الثامن عشر أصبحوا يعرفون باليمق. كانت الحياة العسكرية بالنسبة إليهم تعني الرواتب والتموينات المنتظمة والمركز ذا الامتيازات التي كان يتمتع بها الإنكشاريون، أما في الحرب فكانوا لا يتعدون كونهم مجرد غوغاء؛ لأنهم لم يتلقوا أي تدريب ولم يكن لديهم إلا حافز ضعيف للقتال.

لقد كانت مشكلة قديمة، تعود إلى نشأة الدولة العثمانية. فقد تم إنشاء الإنكشارية "القوات الجديدة" yeniceri في القرن الرابع عشر لإيجاد بديلٍ منضبطٍ وموالٍ ومضحٍ للمجندين غير النظاميين. وبعد أربعة قرون اتضح أنه على الرغم من أن الإنكشاريين كانوا يقاتلون كالنمور للدفاع عن بيوتهم وأسرهم - كما اكتشف الروس والنمساويون - فإنهم لم يعودوا يجازفون بأرواحهم في المعركة ضد القوة النارية والتكتيكات المتفوقة للدول الغربية.

وبحلول عام 1800 أصبح الإنكشاريون - وكانوا في ما مضى حماة القسطنطينية - لصوصاً ينهبونها. ففي كل يوم كانت فرق تنطلق مرتين أو ثلاث مرات من "إيت ميدان" في دوريات بالمدينة، وكانوا مسلحين بهراوات ثقيلة وسيوف قصيرة، ولكنهم نادراً ما

اضطروا إلى استعمالها؛ فالخوف من الإنكشارية كان كافياً لقمع معظم الاضطرابات. وقد وصف والش كيف كانت الحشود تتفرق عند اقترابهم.[4] وكانت الدوريات تحمل أدوات العقاب، وهي "الفلقا" feleke؛ أي الجلد بالعصا على أخمص القدمين، وذلك لتطبيق العدالة الجزئية أو المستعجلة. وكانت الفلقا تبدو مثل القوس الثقيلة المربوطة بخيط أو حبل غير مشدود. وكان يتم ربط الحبل حول ساقي الضحية العاريتين ويتم إحكام ربطه مثل الإعدام بالخنق. كان الألم لا يطاق، ولكن الهدف الحقيقي من الفلقا كان شل حركة المجرم في الوقت الذي كان فيه إنكشاري يقوم بضرب أسفل قدميه بعَصاً غليظة، هي عصا الفلقا. كان هذا يتم بحرية ودونما قيود لمعظم الجرائم التافهة، وكانت الرشوة السخية هي السبيل الوحيدة لتفادي الألم والإذلال. كتب أدولفوس سليد عن الإنكشارية:

> سادة الوقت الحاضر، لقد حكموا بمنتهى الغطرسة في القسطنطينية؛ حيث يصور مظهرهم الفجور المفرط؛ فلغتهم البذيئة، وسلوكهم الفظ، وعمائمهم الضخمة، وستراتهم المفتوحة، وأحزمتهم الضخمة المملوءة بالأسلحة، وعصيهم الثقيلة، كل ذلك جعلهم مصدراً للفزع والاشمئزاز. وهم مثل الأعمدة المتحركة، يدفعون الجميع بعيداً عن طريقهم دونما أي اعتبار لسن أو جنس، ويخلفون وراءهم مراراً وتكراراً علامات دائمة على الغضب أو الازدراء.[5]

كان الأمن متوافراً لمن يستطيع الدفع، وكانت جميع السفارات الأوروبية تستخدم حرساً من الإنكشارية، كما كان يفعل أي إسطنبولي يستطيع تحمل أجورهم وبقشيشهم. وكان الإنكشارية أيضاً مسؤولين عن مكافحة الحرائق؛ الأمر الذي كان يعني في حالات ازدحام البيوت في العاصمة، إيجاد حاجز للنار من خلال تدمير البيوت الخشبية الملاصقة لمكان اندلاع الحريق. وكان هذا أيضاً مجالاً للابتزاز ينطوي على الربح؛ حيث يدفع أصحاب البيوت "كثيراً"؛ لكي تبقى ممتلكاتهم من دون أن يمسها أذى.[6] وكان من المعروف جيداً أن الإنكشارية في فترات الهدوء كانوا يشعلون الحرائق في المباني؛ ما لم يدفع أصحابها أموالاً لحمايتها. وفي عهد عبدالحميد الأول (1774-1789) تم إشعال أكثر من 140 حريقاً بهذه الطريقة.

كانت وطأة ظلم الإنكشارية تقع أشد ما تقع على كاهل المسيحيين واليهود الذين يعيشون داخل المدينة، فقد اضطروا إلى تنظيف القاذورات والنفايات من الشوارع المحيطة بـ "إيت ميدان"، علماً أنه كان من واجب الإنكشارية تكنيس منطقة ثكناتهم. وكان اضطهاد غير المسلمين يمثل متعة وواجباً معاً. فقد ذكر بارون دي توت أن «متعة صرع المسيحي وضربه كانا مصدر سرور للأتراك».[7]

كان خدم السلطان وحشمه مسلمين متعصبين، وكان ثمة تحالف صامت وغير رسمي تقليدياً بين المسجد والثكنات؛ إذ كانت الهيئات الدينية ترى في الإنكشارية حماة للدين الحق. وقد نُقشت لافتات الحرب الحريرية للفرق العسكرية بآيات من القرآن الكريم، وكانت صيحاتهم في المعركة تمجد الله وتسبح باسمه. ولكن حتى هذا التحالف الوثيق للمصالح قُوِّض؛ ففي عام 1811 قامت عصابة من الإنكشارية بمهاجمة إمام كبير السن، ثم أطبق فيلق الإنكشارية صفوفه حول المجرمين عندما طالبت السلطات الدينية بعقوبة تكون عبرة لمن بعدهم. وفي الأعوام اللاحقة حدثت معارك متكررة في الشوارع بين الإنكشارية و"طلبة الدين" softas الملازمين للمساجد السلطانية. وبعد ذلك تم إعدام الطلبة بأوامر من قائد الإنكشارية، أما الجنود فنجوا من دون عقاب.

بدأ بعض العلماء تأكيد أن الإنكشارية قد تلوثت سمعتهم بالبدعة بسبب صلاتهم الوثيقة مع الطريقة البكتاشية. فمنذ تأسيسهم في القرن الرابع عشر، اتصل الإنكشارية بالبكتاشية، وكانت تكايا الدراويش تتجمع حول ثكنات الإنكشارية ومعسكراتهم في الميدان. واتخذ الصوفية موقفاً متساهلاً تجاه بعض المحرمات التقليدية في الإسلام؛ حيث سمحوا بشرب الخمور، وللنساء بالاختلاط بالرجال بحرية. وقد وجد الإنكشارية ذلك عقيدة مناسبة. وقام الدراويش البكتاشيون بمرافقة كتائب الإنكشارية في الحملات، وكان ذلك في الغالب استبعاداً للمشايخ الرسميين الذين كان يزودهم العلماء بهم.

كانت الكتائب خارجة على السيطرة. فقد كان آغا الإنكشارية يقود فيلقهم، وكان هذا الآغا أحد كبار ضباط الدولة، وكان يتم تعيينه مباشرة من السلطان أو الصدر الأعظم،

ولكن أوامرهما كان يتم تجاهلها ببساطة. ولم يحالف النجاح أياً من الضباط الكبار الآخرين الحاملين لألقاب مدوية؛ مثل مدرب كلاب الصيد، ومدرب طائر الكركي. ولم يكن إلا القائم مقام - الذي كان ينتخبه الإنكشاريون أنفسهم ويقوم بدور الناطق باسمهم - يفهم كيف يدير قواته الصعبة والخطيرة. وكان يتم تعيين صغار الضباط من قبل أصحاب الرتب العليا في الإنكشارية، وحتى العقداء كانوا يألفون رجالهم بشكل أوثق من ألفتهم لقادتهم. وقد خدم كثير من كبار الضباط فترة قصيرة؛ ففي عهد محمود الثاني استمر معظم أغوات الإنكشارية بضعة شهور فقط؛ لأنهم أخفقوا، واحداً تلو الآخر، في إجبارهم على الطاعة. وهناك ضباط رفيعو الرتب كانوا قد اشتروا مناصبهم؛ حيث سمح لهم أن يفعلوا ذلك بعد عام 1740، وكان لا يهمهم إلا تحقيق عائدات من استثمارهم الضخم.

كانت فرص الفساد كثيرة؛ فالآغا وكبار ضباطه كانوا يتلقون نسبة من الرواتب والبدلات للفيلق بكامله. وكانت الهدايا والرشاوى متوقعة في المستويات كافة. وكان العقداء أو الزعماء بصورة خاصة متورطين بشدة في الكثير من عمليات الاحتيال التي كانت تضخّم الرواتب. وقد اخترعوا مسميات للمجندين الجدد أو نسوا رفع تقارير عن موت الإنكشارية القدماء، وكانت عقارات من يموت من الإنكشارية عرضة للمصادرة ما لم تتفق الأسر على المشاركة في الريع. وكان العقداء مسؤولين عن توريد الرز والزبدة والخضراوات إلى رجالهم، وكان يتم تنظيم الكثير من الصفقات المربحة مع أمناء الإمدادات والتموين وتجار المدينة على حساب الخزينة العثمانية. ولكن الكتائب كانت تعتني بصفقاتها. وكان يتم دفع رواتب تقاعدية إلى أرامل الجنود الموالين وأسرهم، بينما كان يتم منح مهنة تاجر لأولاد الإنكشارية الذين لم يلتحقوا بفيلق الإنكشارية. وكان يتم العثور على أزواج للفتيان، وإعطاء الجنود المعاقين وظائف من دون أداء أصحابها أي عمل لتزويدهم بدخل صغير.

قام المعاصرون بشجب الإنكشارية ووصفهم بالجبناء والمتغطرسين والأنذال. كان الوضع غريباً؛ فالجنود ببساطة كانوا يرفضون الاستجابة للدعوة إلى حمل السلاح،

واضطرت الدولة العثمانية إلى وضع أصبحت فيه تستأجر القوات، على حين كان جنودها النظاميون المرتفعو الرواتب يرفضون الخروج من ثكناتهم. وفي أوقات الحرب كان السلطان يضطر إلى استجداء الدعم من الباشوات في الأرياف (الحكام) الذين كانوا يجندون قواتهم الخاصة بهم ويسلحونها؛ وهكذا، كان يفعل الوجهاء المحليون الأقوياء (الديرباي derebey ومعناها الحرفي "أمير الوادي")، الذين كانوا يقدمون الرجال ولكن بثمن باهظ. وقد تزايدت قوة الزعماء المحليين بينما تراجعت سلطة الحكومة المركزية. وكان مسؤولون مثل علي، وهو باشا منطقة جانينا شمال اليونان، يتجاهلون ببساطة أي أمر حكومي لم يحظَ بموافقتهم. وكي يتمكن السلطان من قيادة جيش يقاتل برغبة ضد جميع أعدائه الداخليين والخارجيين، فإنه كان من دون حول ولا قوة.

كان كل مسعى لإنشاء جيش مقاتل يصطدم بمقاومة عنيدة من جانب الإنكشارية. وطوال القرن الثامن عشر، كان السلاطين والصدور العظام يسعون لإقناع الإنكشارية بأن طبيعة الحرب قد تغيرت. وقد قدموا لهم أسلحة جيدة كتلك التي كان يمتلكها أعداؤهم الأوروبيون، ووفروا لهم مدربين يدربونهم على استعمالها، وأمروهم باستخدام الحربة التي ثبت أنها مدمرة في أيدي الروس والنمساويين. كان الإنكشارية يقبلون الرشاوى والإغراءات، ولكنهم رفضوا استخدام أسلحة "الكفار" الجديدة. وكان لرفضهم تفسير بسيط: كانت الأسلحة الأفضل تعني أن يحاربوا، بينما لم تكن لديهم مصلحة في الموت في ساحة المعركة. ولكن عنادهم كان ذا جذور أشد عمقاً.

لقد كانوا جنود الإسلام "المحاربين أحباب الله"، كما كانت المراسيم العثمانية تصفهم. وأسهمت مهاراتهم في الحرب في اتساع رقعة دار الإسلام من آسيا إلى قلب أوروبا: «لقد خضع الأعداء الذين كانوا يواجهون صفوف كتائبنا المرصوصة لمدة طويلة للصولجان، وحُق لأبطال الإسلام المحملين بالغنائم أن يباهوا بأنفسهم على حلبة المجد». كان كل إنكشاري يحارب من أجل دينه، مطمئناً - شأنه شأن أي غازٍ كان يسقط في المعركة - إلى أنه سيدخل الجنة مباشرة. فقد كان يقاتل من أجل السلطان

الذي كان يخدمه كمملوك له. ولكن بأسرع ما يكون كان يقاتل من أجل فوجه وشرف فيلق الإنكشارية.

لقد كانوا مجتمعاً موحداً ضد العالم الخارجي. كان كل فوج يجتمع حول القدر النحاسي الكبير الذي كان يرمز لحياته المشتركة، وفي المجلس كان لكل فرد إنكشاري رأي في شؤون الفوج. كان كثيراً ما يتم اتخاذ قرارات خطيرة بهذه الطريقة الديمقراطية، كما حدث عندما قرروا التمرد على أوامر السلطان، أو الانتقام من بعض الأعداء. وفي مثل هذه المداولات كان غالباً ما يتولى زمام القيادة جنود عاديون، أو محاربون يحظون بالاحترام، بينما كان الضباط شهوداً لا قوة بأيديهم. وكان الضابط الذي يحترمونه فقط ذا نفوذ لديهم، أما الرتبة وحدها فلم يكن لها أي سحر.

كان الفوج وطناً مدى الحياة، حتى إن الإنكشاري المتقاعد يبقى عضواً في فرقته العسكرية. وكانت السبيل الوحيدة للخروج منها عن طريق الفرار أو الموت، أو تولي قيادة فرقة أخرى بالنسبة إلى العقيد. كان حي الإنكشارية - الممتلئ بزوجات الإنكشارية وأطفالهم، وكذلك اليمق من أصحاب الحرف وتابعي المعسكر - يبدو للأوروبي أشبه ما يكون بقرية أو بلدة صغيرة منه بفوج أوروبي. كان الإنكشاريون يعيشون في بيوتهم أو مساكنهم الخاصة، ونادراً ما كانوا يعيشون في ثكنات أو بيوت الإيواء. في العاصمة وفي المراكز الرئيسية في الأقاليم؛ مثل: بغداد وبلغراد، تم إعطاء أقسام كبيرة من المدينة إلى حي الإنكشارية الذي كان مرموقاً لكونه أنظف وأكثر تنظيماً من الشوارع المحيطة.

كان في كل مدينة كبرى في الإمبراطورية؛ مثل: حلب ودمشق وسالونيك وأدرنة وبورصة، قواتها الإنكشارية التي أقامت عبر الأجيال مجتمعها الخاص بها، ومنطقتها المستقلة داخل المدينة. وكانت المفارز الأولى تضم العزاب الشبان المتزمتين، ولكن بحلول أوائل القرن السابع عشر، كان الإنكشارية قد تزوجوا وتخندقوا داخل المجتمعات المحلية. ولما واجهتهم مشكلة عدم انتظام رواتبهم من العاصمة أصبحوا يمارسون الحرف والصناعات، برغم حظر ذلك عليهم رسمياً. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر كان

الإنكشارية في الكثير من المدن قد تخلوا عن التذرع بأنهم قوة مقاتلة؛ وقد شكلوا - بالأحرى - مركز شبكة مصالح قوية في كل قلعة من قلاعهم. كانت الدعوة إلى الالتحاق بإحدى فرق الإنكشارية، وبشكل أخص الحق في الحصول على بطاقة وجبة إنكشارية، الوسيلة التي كان يدخل بها كثير من القرويين المسلمين حياة المدينة.[8] وقد احتشد أهالي مناطق معينة داخل كتائب وسرايا معينة.

لكن لم تحصر المصلحة في استمرارية نظام الإنكشارية في الحجّاب والمساعدين والمتطفلين على فيلق الإنكشارية. في عام 1735 أصدر السلطان مرسوماً [أو فرماناً كما هي الكلمة التركية المعروفة] يقضي بقانونية أن يدفع الناس مقابل تسجيل أسمائهم في سجلات المدفوعات الإنكشارية، وكان الغرض من هذا الفرمان جمع الأموال للحرب ضد النمسا. وكانت هذه السجلات تخوّل من يرد اسمه فيها بالأكل على حساب السلطان من قدور الطبخ العامة، و(الأهم) المطالبة بدفعة يومية. وقد جمع المضاربون سجلات المدفوعات الإنكشارية مثل شهادات الاكتتاب، وحصلوا على إيرادات ممتازة منها. وقد وُجد أن أحد الأغوات الإنكشارية في القرن الثامن عشر، الذي صادر السلطان بضائعه، كان يمتلك سجلات مدفوعات كانت تدر عليه إيرادات يومية تبلغ 12500 قرش ackhe، بينما وجد أن المصرفي التابع له لديه 9000 قرش موجودة تحت تصرفه.[9] وكان عدد كبير من هذه السجلات يعود "لأناس ماتوا" من الإنكشاريين الذين توفّوا من دون أن يتم حذف أسمائهم منها. وكانت كل محاولة لتطهير الإيرادات الزائفة تبوء بالفشل، وحتى أداة الطلب، من خلال قيام جميع الإنكشاريين بالوفود شخصياً إلى معسكر السلطان الحربي لتقديم مطالبتهم والحصول على سجلات المدفوعات، تم تقويضها بدهاء أصحاب السجلات.

لقد استجلب هذا النظام الغش والاختلاس؛ الأمر الذي بعث خيبة الأمل في نفوس الكثير من الإنكشارية الشجعان والمتدينين. وكان الترفيع لا يعتمد على الميزات، بل على العلاقات؛ أي على الشبكة العثمانية القائمة على "الانتساب". ومع ذلك، فقد كان هذا الجسم الميت الذي نخره الفساد ينهض إلى القتال مرة تلو المرة. ففي معركة ما، ولاسيما

دفاعاً عن مصالحهم الخاصة كما حدث عندما دحروا الفرنسيين في القتال في عكا عام 1799، أظهر الإنكشارية المحليون كل شجاعتهم السابقة، حتى إنهم حظوا بإعجاب السير سيدني سميث، القائد البريطاني في المدينة، لثباتهم تحت النيران.[10]

كثيراً ما كان يبدو هذا التصرف منطوياً على مفارقة، بل شبه خيالي. فرفضهم للأسلحة الأوروبية لم يكن مبنياً على المصلحة الذاتية؛ ذلك أن كثيرين كانوا يعلمون أنه سيحسن من وضعهم وقوتهم في الدولة. وكانت التغيرات التي يعارضونها على الدوام تلك التي تتناقض مع صورتهم الذاتية، التي كانت تعتمد على التفوق في القتال بالأيدي. وقد كانت عزة النفس هذه؛ بوصفهم طبقة محاربين تحتم عليهم استعمال السيوف والرماح والخناجر والصولجانات. وحتى خصمهم القوي، السلطان محمود الثاني، صرح بأن «الأعداء الذين برزوا أمام صفوف كتائبنا المتماسكة خضعوا للصولجان والأبطال المسلمين».[11] وهنا ترتبط البطولة بروح القتال الفردية. فالأوسمة (ذات الريشات الثلاث أو الأربع)[12] التي كان الأبطال الإنكشارية يحملونها على عماماتهم لم تكن لتتحقق إلا بالشجاعة الفائقة التي كانوا يبدونها في الالتحام مع عدو متفوق. كان نظام القيمة لفيلق الإنكشارية، والقصص التي كانت تروى كل ليلة، يقوم على الشجاعة الفطرية في المعركة. وتماماً كما كان أشجع المحاربين بين قبائل السهول في أمريكا الشمالية أولئك الذين "يسجلون الضربات" على أجساد أعدائهم، كذلك الأمر بين الإنكشارية؛ إذ كانت أطول القصص البطولية التي تروى باجتماعهم حول قدور الطبخ هي قصص الذين كانوا أول من اخترق صفوف العدو وعاشوا ليحدّثوا قصصهم. كان التركيز على الشجاعة الشخصية يحدد الطريقة التي كان الإنكشارية يستعدون بها للقتال؛ الأمر الذي كان يصيب باليأس القادة الذين كانوا يريدون نشرهم بطريقة مختلفة (من غرائب التشابه، أن الجيش النمساوي أيضاً كان يعوقه ضباطه الشباب التواقون للفوز بما يعادل ريش الإنكشارية، وهو وسام ماريا ثيريسين الذي كان يوجب بالمثل عملاً من أعمال الشجاعة الفردية المتهورة).

كان الإنكشارية يرون في الأسلحة القاذفة - سواء كانت أقواساً أو بنادق قصيرة قديمة الطراز أو بنادق عادية - مجرد مقدمة أولية للعمل الرئيسي في المعركة. كانوا يعتقدون أن الجيوش الأوروبية قد ألغت الشجاعة الفردية بتسليم كل جندي بندقية قصيرة وحربة. وكانوا يعترضون بصورة خاصة على الحربة؛ لأنها كانت في نظرهم تفسد قيمة الحديد البارد. كانت الحربة بمنزلة أداة أبقت الجندي جزءاً من طابور، وقمعت «حماسته الحربية الطبيعية». لم يسبق أن طور الأتراك مطلقاً مثيلاً للحربة، فالرمح الطويل، الذي كان يتم حشده للدفاع والهجوم، كان وراء ظهور الشكل المميز للمعركة الغربية-الأوروبية في القرن السابع عشر. وكانت العواقب للمقاتل الفرد أنه «بنهاية حرب الأعوام الثلاثين لم تعد الجيوش الأوروبية تشكيلة من الأشخاص المدربين جيداً بشكل فردي والمولعين بالقتال... ولا حشداً من الرجال يعملون بشكل موحد بقدر كبير من الفظاعة الوحشية، ولكن من دون سيطرة فعالة بمجرد أن يتم الالتحاق بالمعركة».[13] إن عملية ما أطلق عليه وليام ماكنيل بجدارة "بيروقراطية العنف"، أوجدت:

> فن حرب تم صقله عن وعي وإنجازه بجد ومثابرة، بحيث سمح للقائد، من حيث المبدأ على الأقل، أن يسيطر على تصرفات نحو 30000 رجل في المعركة. كانت القوات المجهزة بطرق مختلفة والمدربة لشتى أشكال القتال قادرة على المناورة في وجه أي عدو. ومن خلال التجاوب مع قيادة الجنرال استطاعوا الاستفادة من بعض الظروف غير المتوقعة لتحويل ميدان نزاع عنيد إلى نصر غير متوازن. بتعبير آخر، شهدت الجيوش الأوروبية تطوراً سريعاً إلى المستوى العلوي من الحيوانات عبر تطوير نظام جهاز عصبي مركزي، قادر على تنشيط أسنان ومخالب متميز تقنياً.[14]

كان الإنكشارية يعرفون مباشرة ما يعنيه أسلوب الحرب الأوروبي في ميدان المعركة، ولم يكونوا يريدون أي جزء منه.

كان تصورهم عن مضامين "الإصلاح" صحيحاً من جهتين. مالياً، بمجرد أن لم يعودوا يملكون احتكار العنف المنظم، كان حتمياً أن تتراجع سوقهم، وحتى أمنهم الأساسي يغدو مهدداً. ولكن إن مضوا في سبيل المطالب الخاصة بالتغيير فسوف يتوقف

دورهم "كمحاربين مختارين من السماء"، أو خيرة الله. ولم يكن هذا اعتقاد الإنكشارية وحدهم؛ لأن جميع خطط الإصلاح العشر أو ما قاربها في القرن الثامن عشر كانت تهدف إلى إعادتهم إلى صفتهم القديمة وليس سعياً لأي بدعة متطرفة. والواقع أن مهارات الحرب العثمانية التقليدية استطاعت تحقيق انتصارات تلفت النظر، وكان انتصار واحد يعوض هزائم كثيرة. وهكذا كان الاستيلاء على بلغراد عام 1739 (بعد خسارتها عام 1717) يبدو فأل خير: مازال التراث التقليدي العثماني يتغلب على جميع الفنون العسكرية للكفار.

وقد أسهمت علاقاتهم بالدراويش البكتاشية، الذين كان عددهم يفوق 7 ملايين مريد في الأناضول، وأكثر من 120000 في العاصمة، في منح الإنكشارية قاعدة شعبية للدعم. كان عدد كبير من الإنكشارية يؤمنون بالمعتقدات البكتاشية، التي كانت سمة من سمات الحماسة الدينية الإسلامية:

> نحن مؤمنون منذ بداية الدنيا. ومنذ ذلك الوقت عرفنا وحدانية الله، سوف نضحي برؤوسنا في سبيل هذه العقيدة... كنا السكارى منذ الأزل - نحن فراشات في النور الإلهي - نحن في هذا العالم جيش دائماً في جذب ونشوة بين يدي الله - ونحن كثر، أكثر من أن نعد على الأصابع - ينبوعنا لا ينضب والمجدفون لا يمكن أن يعرفوا أبداً حالتنا.[15]

ويكمن تحت اللغة المزخرفة - من دون شك - الحماسة لصورتهم الذاتية؛ بوصفهم "خيرة جند الإسلام"، ممن لا يلينون في وجه كل البدع. ولم يكن يتكلم بمثل هذه الضراوة العنيدة أيضاً إلا الوهابيون المتنسكون في الصحراء العربية. وعلى الرغم من الفساد والجشع والخداع الذي وصلوا إليه، مازال الإنكشارية يمثلون المحارب، أو الغازي؛ أي المثل الأعلى للعثمانيين. وعلى الرغم من أنهم أضحوا أشد كراهية للقتال مما كانوا عليه أيام سليمان، وأقل استعداداً للتخلي عن وسائل الراحة في المدينة للذهاب في إحدى الحملات، فإنهم بمجرد إثارتهم كانوا يقاتلون بأقصى درجات الشجاعة. فقد كان الإنكشاري الذي قاد الهجوم على نهر بروث عام 1711 مع روسيا (كما أسلفنا) يجسد معنوياتهم وشجاعتهم التقليدية. وهكذا نجد أنه على الرغم من أنه كانت هناك كراهية

لعمليات الابتزاز غير القانونية وممارسات الفساد التي أصبحت تقريباً مرادفة لاسمهم، فقد كان هناك اعتقاد واسع النطاق بأنه من الممكن والضروري إصلاح النظام واستعادته مجده السابق.

وقد جاء أول برنامج شامل للإصلاح من السلطان الشاب سليم الثالث الذي خلف عمه عبدالحميد الأول في ربيع عام 1789. فقد ورث حربين مع النمسا وروسيا انتهتا بكارثة، على الرغم من تحقيق انتصار أو انتصارين مرموقين. فأبوه مصطفى الثالث وعمه، كانا يميلان إلى التغيير، وهو بوصفه شاباً تم أخذه ليفتش المدفعية الجديدة التي قام دي توت de Tott بتطويرها. وقد دفعه الإخفاق العسكري المهين على يد النمساويين خلال عامه الأول في العرش إلى جعله شديد التصميم على المضي في التغيير. ولكنْ بدلاً من المضي قدماً في الوسيلة التقليدية وهي القرار السلطاني، قام بإحياء مفهوم مجلس الدولة الذي تم إهماله لمدة طويلة، وذلك لاستشارة كبار شخصيات الإمبراطورية. وفضلاً عن الصدر الأعظم، خوجة يوسف باشا، فإن عدداً قليلاً من دعاة الإصلاح، الذين دعاهم إلى تقديم تقارير خطية، كانوا يمتلكون خبرة في الحرب، ولم يكن أحد منهم يملك أي معرفة واسعة بالجيوش الأوروبية (باستثناء الأوروبيَّين الاثنين اللذين طلب منهما المشورة: ضابط مدفعية فرنسي كان يسمى برتراند والأرمني دوهسون الذي كان المترجم الوحيد في السفارة السويدية).

اقتصر برتراند على التعليق على توجه الإدارة العثمانية للمساواة بين إصدار مرسوم وإنجاز النتيجة المرغوب فيها. ولم يتم فعل إلا أقل القليل لضمان تحويل النظرية إلى تطبيق عملي. أما دوهسون فقد اقترح أن الإصلاح لن يكون فعالاً إن قُصرت نتيجته على إقامة "مؤسسات موازية"؛ أي الاتجاه باهظ التكلفة وغير العملي لإنشاء قوات عصرية جديدة تتعايش من دون جدوى مع الفيلق القديم الذي لم يتم إصلاحه. ومادامت صعوبة المراس القديمة لدى الإنكشارية متروكة من دون تذليل، فلن يكون بالإمكان تحقيق أي شيء جوهري. وقد عرض الموظفون العثمانيون مزيداً من النصح التقليدي، علماً أن اقتراح

إنشاء ميليشيا أناضولية تحرس الوطن، في الوقت الذي كان فيه الإنكشارية الذين تم إصلاحهم يقومون بتوسيع حدود الإسلام، أثارت اهتمام السلطان.

في غضون بضعة شهور بدأ سيل من الفرمانات في التدفق لإصلاح الفيلق القديم والسباهية والإنكشارية. وقد بدا أن هذه الفرمانات تتبع أقل النصائح واقعية وأكثرها تقليدية تلقاها السلطان؛ إن كان الإنكشارية يلقون الإكرام والتقدير المناسب فسوف يعودون آلياً إلى الانضباط، وسوف يكونون مرة أخرى - كما أكد المستشارون بثقة - القوات الموالية والمخيفة التي كانت في الأيام الخوالي. كان من المفروض إعطاؤهم رواتب أعلى ومنتظمة، وإن كان لا بد من تدريبهم بواسطة ضباط أوروبيين، فكان من الضروري أن يقبل هولاء الضباط الإسلام؛ لأن الإنكشاريين كمؤمنين صادقين لم يكونوا ليقبلوا كلام الكفار وتعاليمهم.[16]

ونتيجة لذلك، تم تحسين رواتب الإنكشاريين وأحوالهم المعيشية؛ فقد كان السلطان يسعى عن طريق اللطف والكرم لتحقيق ما أخفق الإكراه في تحقيقه. ولأول مرة خلال نصف قرن تم دفع الرواتب من دون حسومات، وبصورة فورية في كل ربع سنة كما هو مقرر في الأنظمة. كما تم توسيع ثكنات الإنكشارية في العاصمة وتحسينها، بل دفع لهم السلطان ضريبة "الانتساب" التقليدية التي كانت قد توقفت. كان رد فعلهم الشغب، كما فعلوا في الماضي تجاه كل اقتراح أو عرض للإصلاح. كان الإنكشاريون يحتجون في كل مرة تجري فيها محاولات لتقديم بنادق وحراب لهم على النمط الأوروبي. وكان أي مدرب أجنبي، سواء أسلم أم لم يسلم، يخاطر بحياته إن حاول أن يدربهم على استخدام أسلحة جديدة. أضف إلى ذلك أن السعي لحذف الأعضاء غير الموجودين أو غير العاملين في الفيلق لم يحظَ بأثر إيجابي. والواقع أن زيادة انتظام الدفع جعل سجلات مدفوعات الإنكشارية تعد استثماراً أفضل، وازدادت أعداد من هم في الخدمة إلى 109000، وهو رقم كبير، وذلك بعيد إطاحة سليم الثالث عام 1807، وهو تقريباً ضعف ما كان عليه العدد يوم جلوسه على عرش السلطنة.

وثمة شعور بالانجذاب التقليدي الروتيني إلى "الإصلاح" في تعامل السلطان مع الإنكشارية، كما لو أنه لم يكن لديه توقع للنجاح. ولا ريب في أن معظم طاقته انصرفت إلى إنشاء جيش "النظام الجديد"، وهم جند الله العسكريون المتعلمون Talimi Askeri. وكان مرد ذلك إلى مجموعة من الألمان والروس الفارين من الخدمة العسكرية والذين تلقفهم الصدر الأعظم خوجة يوسف باشا في أثناء قيادته لحملة ضد الروس في الشمال. وقد عرضت عليهم ميزات (إضافة إلى إنقاذ حياتهم)، إن قاموا بالتدريب معاً، باستخدام الأسلحة الروسية التي تم الاستيلاء عليها وبارتداء البدلات المفصلة على هيئة الثياب العسكرية الأوروبية تقريباً. وقد شكلوا فصائل، وأطلقوا النار دراكاً ورشاً، ومارسوا تدريبات الحراب، والمسيرات العكسية والتطويرات الأخرى في الكتائب العسكرية الأوروبية.[17] لم يكن لديهم هدف، إلا ربما كونهم مثل جماعات الترفيه التي كانت ترافق القادة العثمانيين كجزء من أمتعتهم في القطار.

عند انتهاء الحرب، عاد الصدر الأعظم إلى العاصمة مع جيشه المصغر، ورأى السلطان مناوراته ورميه وابلاً من الرصاص أول مرة. وفي أواخر عام 1792 تم تجنيد أوائل الأتراك لهذا الجيش الصغير؛ حيث تم أخذ نحو مائة من شوارع العاصمة. وقام رجال الوزير بتروٍّ باختيار أولئك الذين لم تكن لديهم خبرة عسكرية، وتجنبوا حقاً أولئك الذين كانت لديهم اتصالات مع الفيلق الإنكشاري التقليدي.وكانوا يؤخذون خارج المدينة إلى مكان يسمى ليفيند تشيفتليك Levend Ciftlik، وهي قطعة أرض منبسطة على بعد نحو عشرة أميال إلى شمال العاصمة، كان يستخدمها دي توت في الماضي أرضاً لتدريب رجال المدفعية لديه. وهنا، تم وضعهم تحت قيادة الألمان والروس الذين شكلوا الجيش المصغر للصدر الأعظم، وتم تدريبهم من دون هوادة. وفي تلك الأثناء، بدأ البناؤون العمل في تشييد ثكنات لإيواء المجندين الجدد، وكان واضحاً من نطاق أعمال البناء أنه كان من المتوقع انضمام أعداد كبيرة أخرى إليهم.

ومحافظة على وجود هذه القوة الصغيرة (وذات موضع الجدل الكبير) سراً، تم الاحتفاظ بها بعيداً عن أي اتصال مع الجيش التقليدي. وتم إعطاء الجنود المدربين إدارتهم وخزينتهم وإيراداتهم الخاصة بهم، منفصلة تماماً عن إدارة الحرب العادية. وقد عادت إيجارات الضرائب السخية التي خصصها السلطان لجيشه الجديد بأموال تزيد كثيراً على حاجاتهم العاجلة؛ فقد كان بإمكان "مشرف الجنود المدربين" تجنيد ضباط في أوروبا الغربية، وتبديل المجموعة المتنافرة من البدلات والمعدات التي كان قد بدأ بها. وقام بتوسيع قيادته إلى 200 رجل، وقد تم اختيارهم أيضاً من المحرومين من شوارع إسطنبول. وخلال عامين تطورت القوة الصغيرة في عزلة تامة، ولكنها حققت درجة عالية من الكفاءة، من خلال التدريبات اليومية ونظام الانضباط الصارم الذي وضعه القائد الفرنسي. وبحلول ربيع عام 1794؛ أي عندما تم الإعلان رسمياً عن وجود فوج كامل مؤلف من 1600 فرد وضابط، كان متوقعاً بثقة أن الجنود المدربين سيتم توسيعهم بسرعة إلى فيلق مؤلف من 12000 رجل. وقد تمت تسميتهم رسمياً "رماة فيلق البستنجية"، وهي عملية تنكرية لم تفلح في تمويه حداثتهم ضمن الجيش العثماني. ولكن كان ثمة سوابق قوية ومقبولة لإنشاء مثل هذه القوات الخاصة، وقد تجلت في هؤلاء رغبة السلطان في تجنب الصراع مع التقليديين. والواقع أنه في الوقت الذي تم فيه الإعلان عن الفوج، كان هناك 468 رجلاً وعشرون ضابطاً فقط قد استقروا في منطقة التدريب الجديدة، وكانت الثكنات غير مكتملة البناء؛ إذ كانوا مايزالون يعيشون في مجموعة من الخيام والأكواخ المتداعية. ومع ذلك فقد نالت قدرتهم على المسير والمناورة والرمي إعجاب جميع من شاهدوهم.

وكان ثمة سوابق في التاريخ العثماني لاستحداث جنود مدربين، ولكن السلطان لم يكن يعلن عن أي منها. وسوف يكون هؤلاء هم الإنكشاريون الجدد في نهاية المطاف. وكانت النظائر السابقة الكثيرة واضحة. وكما تم تجنيد إنكشاريي القرن الرابع عشر الأصليين من بين أولئك الذين لم يكن لهم جذور في المجتمع العثماني (خلال نظام الدوفشرمة)، فكذلك الجنود المدربون كانوا أيضاً، من هوامش المجتمع، فقد كانوا في

معظمهم من العاطلين عن العمل والمعوزين من شوارع إسطنبول، أو من الفتيان المزارعين من أرياف الأناضول؛ حيث تم إرسالهم من قبل سادتهم الإقطاعيين أو الحكام المحليين. وتماماً كما قام الإنكشاريون الأوائل بتطوير أسلوبهم الفريد في الحرب، كذلك كان الجنود المدربون يطورون أسلوبهم. وبما أن الرتب عالية الرواتب في الجيش في النظام الجديد، فقد كانت مفتوحة لملايين القرويين الأتراك، وكان مجال المجندين المحتملين واسعاً، وسرعان ما وصل الفوج إلى القوة. وتم إنشاء مستوطنة جديدة في ليفيند تشيفتليك، ضمت ثلاث ثكنات ومسجدين ومدرسة. وقد اجتهد الخياطون لصنع البدلات المصممة على الطراز الفرنسي مع قبعات زرق ناعمة لا حواف لها؛ مثل قبعات الباسك المسماة "البيريه"، والسترة القصيرة الحمراء، والبنطلون القصير. وقام مزيد من الضباط الفرنسيين المرسلين من باريس من الحكومة الثورية الجديدة بتعليم مزيج من الأساليب الرسمية القديمة للحرب الأوروبية والأنماط الجديدة التي تم تطويرها في جيوش الجمهورية. وفي عام 1799 تم إنشاء فوج جديد في أسكودار، ومرة أخرى على مسافة حذرة من المدينة. وفي العام اللاحق انتقلوا إلى الثكنات الجديدة في كاديكوي المطلة على القرن الذهبي. وهناك كان بالإمكان رؤيتهم يومياً، في بدلاتهم الزرق الفاتحة (لتمييزهم من الفوج الأول في ليفيند تشيفتليك)، على أرض الاستعراضات الواسعة وفي المسيرات في الأرياف المحيطة. لقد جاءت هذه القوات الجديدة حصرياً من قرى الأناضول، وتم اختيارها بعناية على أساس الصحة والقوة، وتم دفع مكافأة لأسرهم مقابل تجنيدهم. كانت هذه، إذاً، الدوفشرمة الجديدة التي تمت الدعوة إليها في الخطط المقدمة إلى سليم الثالث، ولكن أول مرة منذ القرن الرابع عشر كانت جيشاً من الأتراك المولودين أحراراً.

تنامى عدد جيش النظام الجديد بسرعة؛ فقد زاد عدد الرجال من 4300 عام 1799 إلى 9200 بحلول عام 1801، وفي عام 1806؛ أي بعد عملية تجنيد واسعة النطاق في الأناضول، أصبح هناك أكثر من 22500 رجل، إما في الثكنات المحيطة بالعاصمة، أو أرسلوا إلى مدن الحاميات في أوروبا والأناضول. وفي القتال كان "الجيش الصغير" قد أظهر فاعليته في عكا وفي حصار الجيش الفرنسي في روزيتا، وكلاهما حدث عام 1799.

ولكن الإنكشارية رفضوا أن تكون لهم أي علاقة بالجنود المدربين، كما رفضوا القتال إلى جانبهم أو حتى مشاركتهم في المعسكر نفسه. وقد ازدادت كراهيتهم وريبتهم حينما أصبحت البدلات الحمر أو الزرق أكثر ظهوراً في الصفوف العثمانية. ولكن زيادة عدد جيش النظام الجديد بسرعة كبيرة، جعلته يبتعد عن الخطة الخاصة بقوة منضبطة وجيدة التدريب. فقد كان هناك 27 ضابطاً يقودون أكثر قليلاً من 2000 رجل عام 1797، وكان مايزال 27 ضابطاً مسؤولين عن أربعة أضعاف عدد الجنود الذي كان قبل أربع سنوات. وبحلول الوقت الذي ازداد فيه عدد القوة إلى أقصى حجم لها، أصبح فيها أكثر من 1500 ضابط، ولكن ما من جيش يزيد حجم قيادته بهذه السرعة من دون أن يفقد الجودة. فالضباط الجدد لم يكونوا مدربين إلى المستوى نفسه كسابقيهم، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يملكون المعرفة الوثيقة بجنودهم كما كان يتميز به فوجهم في السابق. وقد ازدادت قوة التنافس على دخول الجيش الجديد، وتم استخدام النفوذ لوضع عملاء العثمانيين ذوي النفوذ ضمن الفيلق الموسع لهذا الجيش. وما لبثت المشكلات نفسها التي أصابت عدواها الإنكشاريين - من عدم انضباط وابتزاز وقطع طرق - أن بدأت تصيب الجيش الجديد كما حدث للجيش القديم. كانت المشكلة - كما أشار بيرتراند - تكمن في فقدان السيطرة الكافية.

وما لبث الجيش الجديد أن بدأ يتبع مسلك الانحدار الذي سلكه الإنكشارية. وبدأت التدريبات اليومية تلقى الإهمال. والواقع أن وجود عدد كبير من القوات في الثكنات جعل من المستحيل إجراء أي مناورات فعالة. ولكن عندما سمح لهم بالخروج في البلاد تصرفوا بأسلوب مخالف للقانون، فقاموا بغزو القرى القريبة على طريق مسيرهم؛ حتى غدا من الضروري تقييدهم من دون نشاط في الثكنات لفترات طويلة جداً؛ ولذا سمح لهم بممارسة "مهنة تتماشى مع شرف الفيلق"، وعلى الرغم من حظر الزواج عليهم فقد قام عدد كبير منهم بعقد اتفاقات مع نساء محليات، وكان ذلك غالباً بموافقات ضمنية من رؤسائهم المباشرين.

ويمكن إيراد القصة نفسها - الطموحات الكبيرة، والاستثمار الضخم، مع نتائج محدودة في نهاية الأمر - عن مسعى العثمانيين لتسليح القوة الجديدة. كان هدف السلطان يتمثل في تحقيق الاكتفاء الذاتي، سواء في تشكيل جيش حديث أو في جميع المواد التي يحتاج إليها للحرب. في البداية، منذ عام 1792، تم استيراد أسلحة وعتاد مصنّعين من فرنسا وإنجلترا وإسكندنافيا، ولكن الإيرادات الضخمة للنظام الجديد استخدمت أيضاً لشراء المعدات التي تسمح للعثمانيين بصناعتها بأنفسهم. وقد وافقت حكومة الثورة في فرنسا على إرسال سبعين من رؤساء الصانعين المهرة ومجموعة كاملة من الآلات والمعدات من الترسانة في فالنس لبناء مصنع أسلحة حديث في الترسانة القديمة في توفان بجوار القرن الذهبي. وتمت إقامة مصنع للبنادق في ليفيند تشيفتليك ودولما باهتشة. وما لبث كل ثكنة أن أصبح لها مصنع للمدفعية ملحق بها، وتنافست دول أخرى لتزويد هذه السوق المربحة المحتملة بخبراء من عندها. وقد تم تزويد كل مصنع مدفعية بآلات حديثة من خبرة الترسانات الأوروبية، ولكن المخرجات لم تكن مطلقاً مواكبة للمستوى الذي تحقق في مصانع مشابهة في أوروبا. وفي كل مرحلة كان الموظفون يجعلون الحياة صعبة على الخبراء الأجانب؛ حيث رفضوا إدخال جميع فنييهم إلى البلاد، وسدوا الطريق أمام التجهيزات والعمال الأتراك المهرة، بل رفضوا قبول الأسلحة المصنّعة لا لسبب إلا الهوى. كان الاستياء الذي شعر به الكثير من العثمانيين من الدخلاء الأجانب غير مفهوم لمعظم الأوروبيين. وبالمقابل، تبين أن مصنعاً جديداً ضخماً للبارود، بني عام 1794، وتم تشغيل آلاته كلها بواسطة الماء، كان ناجحاً جداً. ولكن تمت إدارة هذا المصنع من عضو في المجتمع الأرمني، وهو من الداخل وليس أجنبياً، والأهم أنه تم بناؤه تحت الرعاية الفعالة لقادة عثمانيين. وما لبث أن قام بتلبية جميع الطلبات على البارود سواء من الأسطول العثماني أو من الإنكشارية أو فيلق حملة البنادق، وكذلك الاحتياجات المدنية من صيد وما شابه ذلك. وبما أن نقطة الضعف الكبرى للمدفعية العثمانية كانت تكمن دائماً في النوعية المختلفة جداً للبارود؛ الأمر الذي جعل الدقة في النيران مسألة حسن حظ وليس مسألة حكم، فقد كان ذلك تقدماً ذا أهمية كبرى.

وهكذا، كان إدخال صناعة الأسلحة إلى الإمبراطورية مشوباً بالصعوبات، وقد حقق نتائج محدودة في عهد سليم الأول؛ إذ استمر العثمانيون في الاعتماد على موردين أجانب لمعظم المعدات الحديثة. ولكن على الرغم من أنه تم تدمير بعض المصانع عندما أطاح الإنكشارية لاحقاً حكم سليم وحقدوا عليه، فقد بقيت مصانع أخرى وشكلت نواة صناعة الأسلحة التي استمرت حتى نهاية الإمبراطورية، وإلى ما بعد ذلك في الواقع.

بحلول ربيع عام 1807 كلف السلطان – على الورق – القوة العسكرية بهزيمة أي قوات معارضة داخل الدولة. كان الجنود المدربون في الثكنات حول المدينة، ومن بين الفيلق القديم كان يعتقد أن الـ 5000 مدفعي في الترسانة موالون له، وكذلك جنود البحرية العثمانية، الذين كانوا يستمتعون بسفن جديدة وبدخل ورواتب تقاعدية أفضل، فقد استفادوا من النظام الجديد. ولكن كان يبدو في الوقت نفسه أن الحظ الجيد – الصفة الأساسية لأي حاكم عثماني ناجح – قد تخلى عن سليم الثالث؛ ففي شبه الجزيرة العربية كان محاربو الصحراء من المذهب الوهابي، الذين كانوا متعصبين في كراهيتهم للشر في العالم، قد بنوا جيشاً مخصصاً لتنقية الدين من البدع بالحديد والنار. كان الوهابيون يرون أن الترف ورفاهية الحياة في المدينتين المقدستين كانا منكراً؛ حيث يسببان الهلاك. وفي عام 1804 استولوا على المدينة المنورة، ثانية مدن الإسلام، وطهروها من الشر. وبعد ذلك ركبوا شمالاً لينقلوا الحرب إلى أبواب بغداد. وفي العام اللاحق رفض القائد الوهابي عبدالله بن سعود السماح للحجاج بدخول المدينة المقدسة ما لم يقبلوا المبادئ الوهابية. وفي عام 1806 طلب الحجاج السماح لهم بالدخول من الوهابيين.

لم يعد السلطان العثماني – حامي الحجاج الذي كان يرمز إلى حضوره الشخصي في كل موسم حج المحمل الذي كان يحمله جمل أصيل على رأس القافلة طول الطريق من أسكودار حتى أبواب الكعبة المشرفة في مكة – يستطيع ضمان سلامة شعبه. وفي فبراير 1807 دخل عبدالله مدينة مكة المكرمة وأطلق يد محاربيه، وقاموا بتطهير المدينة من أي شيء كان خارجاً عن تعاليم القرآن الكريم. فقد تم تجريد البيوت من المجوهرات والحلي

من كل الأنواع، وتحول أهل مكة (المعروفون بحبهم للترف والرفاهية) إلى أثـواب بسـيطة يبيحها الدين، وتم تدمير القبور والأضـرحة التي أصبحت مزارات، وأمر عبدالله أن يحـل اسمه محل اسم سليم في خطب صلاة الجمعة في المسجد الحرام، وكـان هـذا بمنزلـة إهانـة عامة للسلطان في أقدس مكان في الإسلام.

كانت الصفعة لهيبة سليم الثالث أكبر من المتوقع؛ ففي قائمة ألقابه الرنانة كان يدعي أنه «المجاهد، وحارس الأماكن المقدسة، وحامي الحج، وخادم المدينتين المقدستين، و(أقل تأكيداً) الخليفة». وعلى مدى أكثر من ثلاثة قرون كان يتم تكريم السلطان العثماني بين أهل التقوى من المسلمين؛ بوصفه "حامي الحرمين الشـريفين". وعبر عشـرات السـنين كـان العثمانيون يستثمرون بشدة في القلاع لجعل طريق الحج الخطيرة آمنـة بقـدر الإمكـان. أما الآن فلم يعد السلطان قادراً على منع الثوار من رد الحجاج عن دخول المدينتين المقدسـتين في الإسلام، وفي كل يوم جمعة أصـبحت إهانتـه علنيـة. وفي إسـطنبول ظهـرت إشـاعات مفادها أن فقدان المدينتين المقدستين كان انتقاماً إلهياً من "البـدع الضـالة" للسـلطان. وفي ثكنات الإنكشارية، وفي القلاع المحاذية للبوسفور وهي التي يدافع عنهـا اليمـق، انتشـر الخبر بأن السلطان قد انتهك العرف والدين وسوف يدفع الثمن.

في عالم العثمانيين المغلق، كان العنف يندلع غالباً من المؤامرات التـي كانـت تحـاك في العمق. وكان الإشاعات أضخم ما تكون عندما كانت تتغذى عـلى الحقيقـة؛ مثـل فقـدان المدينتين المقدستين، ولكن المصلحين زودوا خصومهم من دون إدراك منهم بالمادة اللازمة لخططهم. وكان من سوء الحظ أنه في الصباح الباكر من يوم 25 مايو 1807، انطلق رئيـف محمود باشا، قائد القلاع التي تحرس بحر مرمرة، في بارجته الرسمية نحو القلعة في "روملي حصاري" لكي يدفع لليمق أجورهم التي تستحق كل ربع سنة. كان هذا أول يوم صـرف للرواتب منذ أن شاع خبر الاستيلاء على المدينتين المقدستين في العاصمة. وفي وقت سـابق من ذلك الشهر تم إصدار فرمـان بـأن اليمـق، الـذين كـانوا في الأصـل مرتزقـة ألبـانيين وشـركس، سيتم دمجهم في المستقبل ضمن جيش النظام الجديد، ولن يـتم إلحـاقهم بفيلـق

الإنكشارية. وقد تم إرسال الضباط بالفعل إلى القلاع، وكان هناك مدربون يتمتعون بالخبرة على أتم أهبة لتدريبهم على النظام الجديد، بينما تم تجهيز 3000 بدلة على عجل في المصنع بأسكودار. لم يكن الباشا يعلم أنه كان يقع بذلك في فخ؛ فالمحافظون بين وزراء السلطان كانوا قد خططوا منذ أمد بعيد لإثارة انتفاضة بين صفوف الأتباع المعروفين بوحشيتهم ومزاجيتهم؛ ولذا فقد شجعوا رئيف محمود على المضي في عملية الدمج، على حين كانوا يبعثون برسائل سراً إلى اليمق محذرين إياهم من الخطة، وقائلين إنها ما هي إلا خطة شيطانية من «المرتدين والكفار والفاسقين من المسلمين».

كانت مرافقة رئيف محمود لحراسته لا تتم بواسطة الإنكشارية، بل بمفرزة من الجنود المدربين، المتألقين في بدلاتهم الحمر والزرق، وأخذ الباشا معه بعض البدلات الجديدة والأسلحة والعتاد، على أمل إقناع قوات القلعة بالترحيب بالنظام الجديد. جاء الأسطول الصغير إلى الشاطئ بجوار أسوار القلعة، وتجمع الأتباع في الساحة لتسلم رواتبهم. وبعد توزيع الأموال، وبإشارة من رئيف محمود قام قائد حرسه الصغير، واسمه هلال آغا، بإلقاء خطاب في القوات الغاضبة أمامه، فأثنى على فوائد النظام الجديد، وناشد الشعور الوطني الإسلامي لدى اليمق، داعياً إياهم للقتال من أجل السلطان وفي سبيل دينهم، وناشدهم أن ينضموا إليه بين الجنود المدربين. انطلقت صرخات "مرتد" في الساحة، واندفعت جماعة كبيرة من الأتباع إلى الأمام، وكما وصفته الروايات المعاصرة فقد «مزقوه إرباً إرباً».[18]

هرب الباشا ومعظم مرافقيه إلى البوارج، وجذفوا بسرعة بمحاذاة الساحل إلى أحد المراسي، على أمل أن يختبئوا إلى أن يخيم الليل؛ ومن ثم يهربون عبر التلال إلى الثكنات في ليفيند تشيفتليك. ولكن المتمردين كانوا قد حرضوا جميع اليمق على طول الساحل، وعندما رسا الباشا ورجاله تمت مهاجمتهم وتمزيقهم. تم إرسال الرسائل إلى جميع القلاع على طول البوسفور لقتل جميع ضباط النظام الجديد داخل أسوارها. وما لبثت القلاع جميعاً أن سقطت في أيدي المتمردين. وعندما خيم الليل تجمعت مفارز من اليمق المسلحين

في بويوقدار Buyukdere؛ حيث كانت جثامين الباشا وحراسه المشوهة ماتزال ملقاة ولم تدفن، واستعدوا للزحف إلى العاصمة. وقام قائدهم المنتخب، قباقجي مصطفى آغا، ببعث رسائل إلى الإنكشارية في المدينة يقول فيها إن الوقت قد حان لاستعادة مجد الإسلام وإنهاء الحكم الأجنبي البغيض.

بعد أن رأى سليم ما واجهه من تمرد خطير واضح استدعى وزراءه، وفي أثناء اجتماعهم وصلتهم رسالة أحضرها جماعة من اليمق. أعلن قباقجي مصطفى أن التمرد سينتهي إن تم حصر عموم الجنود المدربين في ثكناتهم وتم سحب بقية المفارز من معسكراتهم التدريبية على طول الشاطئ. قام بعض موظفي السلطان، ولاسيما كبير العلماء المحافظين، بنصح السلطان بالموافقة. ولكن كان هناك رجال سريون يعملون لمصلحة تمرد اليمق داخل القصر، وكانوا بالفعل يتآمرون مع الإنكشارية ضد السلطان. وعندما أدرك المتمردون أن القوات التي فاقتهم عدداً أضعافاً مضاعفة لن يتم استخدامها ازدادوا جرأة. والآن بعد أن بلغ عددهم قرابة الألف رجل وقاموا بحشد أتباع لهم طوال الوقت، زحفوا إلى المدينة على حين أرسلوا مطالب جديدة إلى القصر. وطالبوا الآن بأن يلغي السلطان النظام الجديد ويبعثر الجنود المدربين. ومرة أخرى نصحه أعداؤه السريون في القصر فوافق، اعتقاداً منه أن ذلك سيضع حداً للتمرد. وأوى إلى الحرملك تلك الليلة واثقاً من أن التمرد سيتلاشى.

في أثناء ساعات الظلام، انضمت الفرق الأخرى المفترض أنها موالية للسلطان من المدفعيين إلى المتمردين. ومنذ فجر الثامن والعشرين من مايو، عبر أسطول من القوارب الصغيرة القرن الذهبي أكثر من مرة، حاملاً أتباعاً مدججين بالسلاح وجنود مدفعية. وتم فتح البوابات من قبل الإنكشارية الحرس، واندفع المتمردون إلى الإنكشارية، وتوجه الجميع إلى إيت ميدان. وما لبث الميدان أن امتلأ بالمسلحين، وانضم إليهم هناك جميع ضباط الإنكشارية الذين قرروا قلب قدور الطبخ وأن يقسموا على الولاء. في تلك الأثناء احتشد الجنود المدربون في ثكناتهم واستعدوا للزحف إلى المدينة بأمر من السلطان. ولكن

بدلاً من ذلك وصلهم أمره العالي بحلهم على الفور. وبعد أن زال خطر التدخل ازدادت مطالب المتمردين من جديد؛ إذ طالبوا الآن بإرسال قادة الإصلاح إلى إيت ميدان لمساءلتهم عن جرائمهم ضد الإسلام.

قام سليم بالمماطلة، وتم السماح لثلاثة من الضحايا المقصودين "بالهرب" عن طريق حديقة القصر لينجوا بأنفسهم، ولكن ثلاثة آخرين كانوا موجودين في القصر وتقرر مصيرهم. لكن لإعفائهم من مهانة جرهم إلى إيت ميدان، وربما الموت تحت التعذيب، أمر بخنقهم بسرعة، وتم إخراج رؤوسهم إلى المتمردين عند الأبواب. وحاول أحد الموظفين غير المحظوظين الهرب، ولكن أمسك به اليمق. وبمجرد أن اكتشفوا من هو قطعوه إرباً إرباً بسكاكينهم الطويلة. وقامت مجموعات مسلحة تجوب أرجاء المدينة بحثاً عن أي شخص له علاقة بالنظام الجديد. وبعد صلاة الجمعة احتشد الإنكشارية في إيت ميدان لسماع خطبة نارية من زعيم اليمق الذي صرخ يقول إن الإسلام لن يكون في مأمن إلا بعد تخليص العرش من سليم، وإن السبيل الوحيدة لاجتثاث الشر إلى الأبد هي بعزل السلطان.

هتف الإنكشارية لقباقجي مصطفى، وانطلقوا من ثكناتهم للتجمع أمام أبواب القصر المغلقة، وطالبوا بسلطان جديد. وفي وقت العصر قام كبير الشخصيات الدينية في الإمبراطورية العثمانية، شيخ الإسلام عطاء الله أفندي، اليد الخفية وراء تمرد الأتباع، بقراءة فتواه للإنكشارية المحتشدين، وأعلن عدم كون سليم سلطاناً حقيقياً، وأنه يجب عزله بسبب إساءة الحكم ومخالفة التقاليد والدين. ظلت أبواب القصر مغلقة، ولكن بعد قراءة الفتوى تم العثور على أمين سر سليم في الشوارع، وتم تقطيعه إلى أشلاء على يد الجمهور الغاضب. وتم قطع رأسه وإلقاؤه في القصر تحذيراً لسيده. وفي تلك الأثناء، طالب الجمهور بصوت عالٍ بأن يحل "السلطان مصطفى"، ابن عم سليم، الذي كان داخل القصر، محل السلطان الفاسق. وبعد تردد، وافق مصطفى، وبينما تم حبس سليم في قصر الحريم، تم فتح الأبواب الكبرى وسمح للإنكشارية المنتظرين بالتدفق إلى الفناء

الأول. وأمام باب السعادة في الفناء الثالث قام الطواشية بنصب العرش الإمبراطوري، ثم فتحت الأبواب للسماح بدخول حشد الإنكشارية وأهالي المدينة بالهتاف للسلطان الجديد.

جاء الفصل الأخير من المسرحية بعد ذلك بعام. فقد كانت فترة حكم مصطفى الرابع مغمورة، ولم يفلح إنهاء الإصلاح بشكل سحري باستعادة صحة الإمبراطورية وحظوظها؛ فالفصائل التي جاءت به إلى السلطة انحلت وأعيد تشكيلها. والإنكشارية استبدوا بشوارع المدينة وخرجوا عن السيطرة، بينما أصبح السلطان والصدر الأعظم والزعماء الدينيون الذين أطلقوا المؤامرة ضد سليم ينظرون من دون حول ولا قوة.

ولم تكن السلطة الحقيقية تكمن في العاصمة، بل في الشمال، في يد جيش بيرقدار مصطفى باشا الذي مردته المعارك في الأقاليم البلغارية. فقد كان مصلحاً مرموقاً داخل جيشه، وضمت قواته عدداً كبيراً من أعضاء النظام الجديد السابقين، بينما انضم إليه في الشمال عدد كبير من المتعاطفين مع الإصلاحات الذين هربوا من العاصمة. وأخذ مصطفى باشا على عاتقه دور صانع الملوك؛ بهدف إعادة سليم إلى عرشه. وفي يوليو 1808، بعد مفاوضات طويلة ومضنية مع السلطات الجديدة في العاصمة، قرر أن يسوي الأمور بالقوة، فمشى بقواته جنوباً؛ حيث وصل إلى مرج تشايرجي في 20 يوليو. وفي اليوم اللاحق قامت الكتائب الأولى - ومعظمها من الألبان، وهم صفوة القوات العثمانية - بدخول المدينة، وبدأوا باعتقال كل من كان متورطاً في عزل سليم. وطلب الشماليون الإفراج عن سليم من القصر، ولكن أبواب يني سراي كانت مغلقة في وجههم.

ما كان من مصطفى باشا الغاضب إلا أن سار عائداً إلى داخل المدينة بجيشه الكامل المؤلف من 15000 رجل، واتجه نحو القصر، وإلى الباب العالي، ليواجه الصدر الأعظم. كانت أبواب الباب العالي مغلقة وموصدة، ولكن الجنود الغاضبين حطموا الأقفال وأجبروا الصدر الأعظم الخائف على تسليمهم أختام المكتب، ثم أجبر الجيش السلطات الدينية على إصدار عكس الفتوى وإعادة سليم إلى العرش. ودخل وفد من الزعماء الدينيين، مصحوبين بجماعة من الألبان، إلى القصر وسلموا السلطان الفتوى بعزله،

ولكن غضبه جعلهم يغادرون خوفاً على حياتهم، وأغلقت أبـواب الباحـات الداخليـة في القصـر خلفهم بإحكام، وقام على الفور بإرسال سيافيه لقتل سليم ومحمود الشاب أيضـاً، وهو العضو الباقي الآخر من آل عثمان، فإن تمت إزالـة الاثنـين فـلا يمكـن عندئـذٍ عـزل السلطان مصطفى الرابع؛ الأخير في السلالة.

وُجد سليم في غرفة يصلي، وعندما رأى الحبال صارع بشدة، ولكنهم تغلبوا عليـه في النهاية وأتم السياف عمله، ثم بدأوا يبحثون عن محمود الذي كان قد غادر غرفتـه بعـد أن تم تنبيهه مسبقاً. وتنقل المتصيدون بشكل منتظم خلال جميع الممرات والمقصورات وغرف القصـر. وعند ذلك طلب الألبان الدخول، وعندما فتحت الأبواب الداخلية رأوا جثمان سليم الذي تم إلقاؤه أمام باب السعادة. ومن وراء الأبـواب الخشـبية الضـخمة المرصـعة صـرخ شخـص قائلاً: «ها هوذا السلطان الذي تبحثون عنـه»، ومـن شـدة غضـبهم قـام جنود مصطفى باشا وشقوا طريقهم محطمين الأبواب إلى مشارف البلاط الثالث، وجـروا السلطان مصطفى من غرفه مطالبين بمعرفة مصير محمود. ولحسن الحظ تـم العثـور عـلى الشاب حياً وتم تنصيبه السلطان الجديد، وسمح لمصـطفى بالانسـحاب إلى الغـرف التـي كان يشغلها سليم السيِّـئ الحظ قبل ساعات.

كان السلطان الجديد، محمود، قد بلغ الثالثة والعشـرين من عمره، ولم يكـن عـانى الانعزال التام عن الواقع الذي حوّل عدداً كبيراً من السلاطين إلى لا شيء أمام وزرائهم. وكان سليم قد أطلعه جيداً على سـير الإصـلاحات والأمـور السياسـية والدبلوماسـية بصورة عامة. ولكن محمود كان قد شهد أيضاً الكارثة التي أطاحت حكم سليم، وعرف الرعب الذي يعنيه أن يـتم تصـيده في أنحـاء القصـر بواسـطة السـيافين الـذين قتلـوا السلطان سليم. وما كان يميزه، حتى في أيامـه الأولى عـلى العـرش، كـان صـفة الحـزم المقترن بالصبر، وهما الصفتان ذاتهما اللتان ذكرهمـا المراقبـون في المـاضي في جـده محمـد الفاتح. ولم يكونوا يعلمون أنه أيضاً كان يشترك مع جده في قدرته على تحمل مظلمة عبر عشـرات السنين إلى أن يزيلها بالدم.

في عام 1808 كان لديه القليل من الأصول تحت تصرفه. فقد أصبحت السياسة العثمانية مستقطبة حول قضية الإصلاح العسكري وفكرة البدعة. وطوال فترة من الزمن أصبح نجم الإصلاحيين في صعود. وبعد أن تم تعيين مصطفى باشا صدراً أعظم قام بإعادة تشكيل جيش النظام الجديد، ولكنه سماه الآن "السقبان الجديد" The New Segbans، وكان السقبان، التي تعني سادة كلاب الصيد، من الفرق التقليدية الملحقة بالإنكشارية. وكان سليم قد سعى لتهدئة حساسيات المتمسكين بالتقاليد بالتظاهر بأن جنوده المدربين كانوا جزءاً من فيلق البستنجية. ولم تكن وسيلة مصطفى الشفافة أكثر نجاحاً.

تعامل الجيش الشمالي مع العاصمة؛ بوصفها مدينة مهزومة، وما لبثوا أن حلوا محل الإنكشارية هدفاً للكراهية الشعبية. وقد وقف السقبان في بدلاتهم الجديدة على الطراز الأوروبي في شوارع المدينة، وسرعان ما أصبحت جميع الجرائم ومخالفات التقاليد تعزى إلى جهازهم. وبالمقابل، بقي الإنكشارية في ثكناتهم، وقد تولت قوات الصدر الأعظم جميع واجباتهم. وفي أوائل سبتمبر أجبرت ثورة جياشة في المناطق البلغارية - وهي قاعدة سلطته – مصطفى، على إرسال معظم قواته شمالاً للدفاع عن مصالحه، ولم يترك إلا قوة بسيطة من السقبان وبعض الأغرار من سكان مرتفعات البلقان، وهم أقرب إلى كونهم قطاع طرق منهم إلى جنود، لحراسة المدينة. وفي ليلة 14 نوفمبر، آخر يوم في صيام رمضان، ظهر السقبان في الاحتفالات الكبرى التي كانت تختم أيام الصيام. وكانت الأمزجة عكرة دائماً قبيل نهاية الصيام، وكان هذا غالباً وقتاً تندلع فيه أحداث الشغب في المدينة. والآن أسهم ظهور السقبان في أقدس يوم من العام في تحريض الإنكشارية على الثورة.

بعث اليمق برسالة إلى إيت ميدان مفادها أن الوقت قد حان للنهوض وتدمير أعدائهم قبل أن يدمروا نظام الإنكشارية بكامله ويهاجموا الإسلام نفسه. أعطى حضور أهل المرتفعات مصداقية لهذه المزاعم، وإلا فما الذي يدعو هؤلاء المتوحشين إلى التجوال في شوارع المدينة؟ لقد قامت الفرق العسكرية (الأورطات) بالتسلح وساروا خلال المدينة إلى الباب العالي، وطلبوا إلى الوزير أن يخرج إليهم، ولكن من الحكمة أنه لم يفعل. وفي

الصباح الباكر اندفع الإنكشارية إلى الداخل، واكتشفوا أنه لجأ مع حراسه إلى برج كان يستخدم مخزناً للبارود، وبدأ قتال عنيف بالأسلحة النارية، ولكن بما أن الإنكشارية لم يكن معهم مدفعية فإنهم لم يستطيعوا ترك إلا تأثير بسيط في الأسوار الصلبة للقلعة التي فاجأتهم. وببساطة كان الصدر الأعظم يأمل أن يصمد إلى أن يصبح بالإمكان حصول قواته على المساندة. وتم إرسال رسائل إلى السقبان في المعسكر في ليفيند تشيفتليك طالبة منهم الزحف على المدينة. تمكن بعض الإنكشارية من تسلق السقف الخشبي للمخزن وأشعلوا النار فيه. وحينما اشتعلت العوارض والأخشاب استعدوا للسقوط على المدافعين في الغرف أسفلها، ولكن شرارة من السقف المشتعل أشعلت البارود، وأدى انفجار هائل إلى قتل الصدر الأعظم وحراسه وعدد كبير من الإنكشارية المحاصرين لهم. تم العثور على جثة مصطفى وأخذت إلى إيت ميدان، وهناك تمت خوزقته على عمود خشبي متين تم نصبه في وسط أرض الاستعراضات.[19]

بعد أن أصبح بقية السقبان في المدينة من دون قيادة تراجعوا إلى قصر السلطان؛ حيث أقاموا مخيمهم في الفناء الأول للقصر. وسرعان ما قام الإنكشارية – الذين أغضبهم موت رفاقهم عند الباب العالي – بصعود الهضبة إلى الباب الرئيسي للقصر وطالبوا بإعادة سلطانهم مصطفى. وهنا حدث الوضع نفسه الذي حدث في تمرد يوليو، ولكن بشكل عكسي؛ إذ كان محمود هو الذي أراد أن يجعل نفسه آخر وريث لآل عثمان من خلال قتل ابن عمه. وعلى هذا الأساس تم إرسال المكلفين بخنق السلطان السابق إليه في غرفه في الحرملك، وسلم نفسه بهدوء للحبل الحريري.

عندما علم الإنكشارية بموت مصطفى، وأمروا بالعودة إلى ثكناتهم، ردوا بمهاجمة القصر نفسه. تم إحضار السلالم من المدينة، وحاولوا تسلق الأسوار العالية، ولكن تغلب عليهم السقبان الذين أقامهم محمود على طول الأسوار المجاورة للباب، ولكن محيط القصر جعل من شبه المستحيل الدفاع عنه من دون جيش، ولم يكن لدى حرس السلطان والسقبان الخائفين أمل بالثبات مدة طويلة في مواجهة هجوم خطير. وكان هذا أيضاً هو

الوضع الذي تفوق فيه الإنكشاريون؛ حيث كانت دماؤهم تفور، وأمامهم أسوار القلعة، فخرجوا على السيطرة تقريباً، ولم يكن يبدو أن ثمة شيئاً يزعزع تصميمهم.

كان السلطان مايزال لديه خطوطه في الاتصال مع البحر من خلال البوابات المائية للقصر، وأرسل رسالة مفادها أن تقوم السفن الحربية العثمانية الراسية في القرن الذهبي بقصف الإنكشارية المحيطين بالقصر، ثم بقصف ثكناتهم. وسرعان ما توهجت المدينة بأضواء الكثير من المباني المشتعلة، ولكن بما أن المقاتلين بالأسلحة النارية (وكلهم إنكشارية)، كانوا قد احتشدوا بجوار أبواب القصر فقد اضطرمت النيران وخرجت على السيطرة. كانت البيوت الخشبية في المدينة جافة بعد الصيف والخريف، وكان الطقس جيداً، وما لبثت المناطق المجاورة للقصر أن أصبحت جحيماً:

> غطت غلالة من اللهب أشهر حي في القسطنطينية، ولم تجتذب الصرخات من النساء والمسنين والأطفال أي انتباه، أو تستدرّ أي شفقة. وعبثاً رفعوا أكفهم، وعبثاً توسلوا على العوارض أو الألواح الخشبية لإنقاذ أنفسهم من البيوت المحترقة بواسطة أسقفها... لقد شوهدت وهي تسقط من دون اكتراث وسط لهيب النيران.

ولكن مازال الإنكشارية يثابرون على هجومهم، مستخدمين أضواء النيران لتصعيد الهجمات طوال الليل. وبما أن كبار قادة الإنكشارية كانوا يخشون أن يقوم السلطان بتأليب جميع القوات خارج المدينة عليهم لاجتثاثهم، فقد دخلوا في مفاوضات، وسرعان ما وافقوا على عهد بالطاعة مقابل عفو تام عن التمرد. غير أن الإنكشارية الغاضبين حول القصر رفضوا قبول الاتفاق، مطالبين بدلاً من ذلك برؤوس السقبان داخل الأسوار، ومشيرين إلى كون محمود غير جدير بالجلوس على العرش.

ومع ذلك استمرت الهجمات، وتمكن سلاح المهندسين من قطع المياه عن القصر، بينما سعى آخرون لإشعال النيران في المباني داخل الأسوار التي مازالت عصية على الاختراق. نجحت بعض المجموعات من الإنكشارية في الدخول من حديقة القصر، ولكن حرس السلطان الشخصيين وجنود القصر اصطادوهم وقتلوهم. ومادام تصميم

أفنية القصر القائم على أن يكون كل واحد منها ضمن الآخر، وكل واحد منها تحميه أسوار شاهقة وباب كبير واحد، فقد تعرض للاختبار أول مرة، كما ثبت الأسوار من الناحية الدفاعية، ولا نقطة ضعف فيها إلا أمام المدفعية.

أصبح جنود الإنكشارية الآن في حالة من الغيظ المذهل من هؤلاء في الداخل، وأعلنوا أنهم جميعاً من دون تمييز يستحقون الموت. كان هذا هو الهياج الجنوني الذي واجهه المسيحيون مراراً من قبل، أما الآن فهو موجه ضد آل عثمان أنفسهم. وقد سعى العلماء للوساطة مطالبين بولاء الإنكشارية للدين. وأخيراً وبعد يومين من القتال الشرس المتزايد، وجماعات من الإنكشارية الغاضبين تجول في أنحاء المدينة ويتتبع أفرادها أعداءهم المفترضين، ويقاتلون جماعات من القوات الموالية للسلطان، تم وضع إطار لاتفاق عام. وبينما كانت المفاوضات جارية قرر رجال المدفعية الانضمام إلى المتمردين، واستعدوا لعبور القرن الذهبي بمدفعيتهم الخفيفة. وعندما شعر محمود بهذا الخطر الجديد يواجهه، قرر هو والمدافعون عدم الاستسلام، بل الاستمرار في القتال حتى الموت. وأخيراً أجبر القادة الدينيون كلا الطرفين على القبول بحل وسط، يقضي بأن يرفع الإنكشارية حصارهم، وأن يسمح للسقبان - من دون أسلحتهم وعدم ارتداء بدلاتهم البغيضة بعد ذلك - بالمرور بحرية إلى ليفيند تشيفتليك؛ حيث سيتم تسريحهم. وبالمقابل يمنح السلطان عفواً عن الإنكشارية، وأن يكف عن مشروعات الإصلاح.

في صباح 18 نوفمبر تم فتح أبواب القصر الكبرى، وخرج رتل طويل من السقبان، ولم يعودوا القوة المنضبطة وذات الهندام كما كانت قبل ذلك بأيام، وقد لبسوا السراويل التقليدية والعمائم والمعاطف؛ حيث بدوا مثل الإنكشارية الذين احتشدوا واصطدموا بهم من كل جانب. وساروا في نظام جيد نحو أسوار المدينة وثكناتهم الآمنة، ولكنهم على بعد بضع مئات من الياردات تعرضوا للسخرية من الإنكشارية، وتم تقطيع أولهم بسيوف أعدائهم. وفجأة أطبق الإنكشارية عليهم، وفي فورة دم تم سفك دماء معظم السقبان على مرأى من أسوار القصر. وتم رسمياً بتر رؤوس بعض الضباط، وفصلت الرؤوس عن

الجثامين المشوهة وتم تكديسها خارج باب القصر، على سبيل الهزء والتحذير للسلطان في الداخل. بعد ذلك نصب الإنكشارية مخيماً وعادوا إلى ما تبقى من ثكناتهم.

حدث الكثير من ثورات الإنكشارية في تاريخ آل عثمان، ولكن لا شيء منها يماثل السجال بين محمود وأولئك الذين أصبحوا الآن أبغض أعدائه. كما لم يحدث منذ استيلاء محمد الفاتح على ملكة المدائن أن نشبت حرب على مثل هذا النطاق في شوارع المدينة؛ حيث أمطرت السفن النيران من منطقة القرن الذهبي. ولم يحدث من قبل أن كان سلطان على استعداد للقتال حتى النهاية، وإن دعت الضرورة إلى الموت ملفوفاً (مجازاً) براية الإسلام المقدسة، ومسلحاً بسيف عمر. وعلى الرغم من أن الإنكشارية نقضوا أيمانهم المغلظة مرات كثيرة وقتلوا الأصدقاء والمستشارين لأحد السلاطين أو الصدر الأعظم، فإنه لم يحدث مطلقاً أن نقضوا اتفاقاً تم التفاوض عليه تحت حرمة الدين بواسطة الزعماء الدينيين للإمبراطورية.

كان رد السلطان أن يتجاهل سخريتهم وأن يقر السلام. وهو لم يتنازل عن شيء إلا بكفالة العلماء. لقد دافع عن الإسلام داخل البوابات المقدسة لقصره، وكما عبر عن ذلك مؤرخ معاصر للإمبراطورية:

> صدر فرمان سلطاني لصالح الإنكشارية، وقد تم توجيه اللعن والتبرؤ رسمياً من عادات الفرنجة وجميع البدع الأخيرة... ولكن كان ثمة رجال فكر وعمل بين الأتراك الذين كانوا قد شاهدوا كل هذه الأمور، ولم يروا فيها إلا الدليل الأقوى على ضرورة إجراء تغييرات كاسحة. لقد اضطروا إلى التفكير بصمت... وفوق ذلك كله، كان السلطان نفسه يرقب من عام إلى آخر أن تحين الساعة والوسيلة لتخليص نفسه وبلده من هؤلاء الحثالة.. هؤلاء البغاة على بني جنسه في الوطن.[20]

كان محمود يعرف تاريخ سلالته، وفوق هذا كان يعرف فضائل الصبر.

في السنوات العشر التي تلت الهجوم على القصر، قام محمود بتحركات عدة استعدَت الإنكشارية، ولم يكن أي منها مخالفاً على الأقل للعرف. وقد طلب بشكل روتيني

أن يكونوا أكثر تنبهاً لواجباتهم العسكرية، ولكن لم تجرِ أي محاولة لمحاربة الفساد المستفحل. فأولئك الذين كانوا يمتلكون سجلات مدفوعات الإنكشارية تركت لهم ملكيتهم للأصول بأمان. ولم تجر أي مساعٍ لتحسين تدريب رجال المدفعية وقوات النقل وأوضاعهم؛ ما زاد أعدادهم تدريجياً من 6000 إلى 14000 بحلول عام 1826، أما الأسطول الذي وقف بإخلاص إلى جانبه عام 1808 فقد تمت مكافأته بسفن جديدة وأجور أفضل. وقد استفاد من الحرب بين روسيا وفرنسا لعقد معاهدة سلام مع القيصر عام 1812 على نحو مواتٍ؛ لأن الروس كانوا مشغولين بتهديد نابليون، وراح ببطء يمد سلطته في الأقاليم؛ حيث لم يعد يحمل التحرك العثماني أي وزن أو تهديد. وكان أسلوبه أن يسعى دائماً للحصول على حلفاء، لا لصنع أعداء. فقد منح أبناء الوجهاء في المقاطعات مناصب في الإدارة العثمانية، ولكن بعيداً عن مصدر قوة أسرهم. وكان محمود - حيثما أمكن - يقيد أمراء الحرب المحليين بالنظام.

كان أهم رعاياه البالغي القوة محمد علي، الحاكم العثماني لمصر منذ عام 1805، وكان محمد علي قد بنى قوة مركزه وثروة مصر بعد القضاء على المماليك، النظراء المصريين للإنكشارية. فقد عرف السلطان كيف قام الحاكم التابع له، عام 1811، بدعوة 300 من قادة المماليك إلى وليمة في القصر بالقاهرة، وقد وصف شاهد عيان الحادثة كما يأتي:

> غادر المماليك الديوان ووصلوا إلى أحد أضيق الممرات في طريقهم إلى أبواب القلعة، عندما انصبت عليهم النيران من 2000 ألباني (حرس محمد علي) من أعالي الأسوار، وفي جميع الاتجاهات. كانوا غير متأهبين لأي شيء من هذا القبيل، ومرتبكين إذ لا يوجد فراغ في المكان... ومن لم يقتلوا منهم بإطلاق النار تم جرهم وإنزالهم من ظهر خيولهم، وجردوا من ثيابهم، وربطت مناديل حول رؤوسهم وأخرى حول خصورهم... وتم أخذهم أمام الباشا وأولاده، وأمر بإعدامهم فوراً. وحتى قبل الإعدام، تضاعفت المعاناة، وبدلاً من قطع رؤوسهم على الفور تم أولاً جرح الكثير منهم جروحاً قاتلة، وتم إطلاق النار عليهم في أجزاء مختلفة من أجسامهم بالمسدسات أو طعنهم بالخناجر... ورفض الباشا منحهم أي رحمة... وكان عديم الصبر إلى أن تم تطمينه بأن عملية التدمير قد اكتملت.[21]

استخدم المؤلف (وهو رجل إنجليزي)، هذا المثال ليوضح بربرية العثمانيين «من باشا يفتخر برحمته». وقد كان هناك حادثة أخرى من هذا القبيل في الذاكرة القريبة العهد:

> تم تسيير جماعة الأسرى [2000 أسير] إلى خارج يافا في وسط كتيبة بساحة كبرى. وتوقعوا مصيرهم، ولكنهم لم يلجأوا إلى الشكاوى أو التوسلات لتجنبه. تابعوا سيرهم صامتين متهاسكين؛ حيث تمت مرافقتهم إلى الهضاب الرملية إلى الجنوب من يافا؛ حيث توزعوا هناك إلى مجموعات صغيرة، وتم إعدامهم من رماة البنادق. استمرت عملية الإعدام مدة طويلة، وتم الإجهاز على الجرحى بواسطة الحراب. وتم تكديس الجثث مع بعضها حتى شكلت هرماً مايزال ظاهراً يراه الناس، ويتكون من عظام بشرية، كما كان في الأصل يتكون من جثامين تغطيها الدماء.[22]

ولكن هؤلاء لم يكونوا ضحايا الوحشية العثمانية، بل إنهم أتراك (إنكشارية في معظمهم)، تم ذبحهم على يد جيش نابليون الفرنسي عام 1799. فالعثمانيون لم يكونوا يحتكرون الفظائع.

كانت النتيجة الفورية لاستئصال المماليك إنشاء الجيش المصري الذي تم إصلاحه، أو الجيش المنظم، وهو درس لم يكن يمكن أن يفوت نظر السلطان، ففي عام 1813 قامت هذه القوات نفسها بقتال الجيش الوهابي واستعادة المدينتين المقدستين في شبه الجزيرة العربية. أرسل محمد علي مفاتيح المدينتين إلى السلطان، وأصبح اسم السلطان من جديد ممجداً في خطب الجمعة في قلب الإسلام. وتم إحياء احتفالات كبرى في جميع أنحاء إسطنبول عندما تم تسلم المفاتيح البرونزية الضخمة وحملها في موكب إلى الخزينة؛ حيث تم وضعها بجوار آثار النبي المقدسة.

في عام 1818 اكتمل الانتصار عندما أسر جيش مصري يقوده إبراهيم باشا الزعيم الوهابي، عبدالله بن سعود، وأرسله مقيداً إلى القسطنطينية. وقام محمود بتسليم الزعيم السعودي إلى العلماء الذين حققوا معه تحقيقاً دقيقاً ووجدوا أنه صاحب بدعة غير قابل للإصلاح، فأعادوه إلى قضاء السلطان؛ حيث تم ضرب عنقه علناً، كما ذكر شاهد عيان،

«عند باب حدائق السراي»، وتم عرض رأسه على عمود من الرخام. لقد كان الخيار مفتوحاً للسلطان ببساطة لإعدام الزعيم السعودي؛ بوصفه متمرداً، ولكنه بتسليمه للسلطات الدينية أوضح رغبته في التعاون مع العلماء لا مناوأتهم، كما أنه أعطى إشارة إلى رغبته بالتعاون مع الإنكشارية الموالين، وذلك بترفيعه الضباط القادرين، وتجاوزه لهم عن البقشيش العادي الذي كان يدفع لأجل الترقية، وإكرام الجنود الشجعان، وغالباً ما كان يبعث إليهم بشكره الشخصي خطياً على أعمال الشجاعة الخاصة أو طاعتهم الأوامر. وبدأ بخطى بطيئة بناء جهاز دعم داخل أقوى جهازين وأكثرهما محافظة وتعصباً في الدولة.

في عام 1822 بدأ السلطان بقطع صلته بالماضي، وراح يكشف عن نياته الحقيقية، فقد عزل وزيره الأعظم الذي خدمه طويلاً، خالد أفندي الذي كان أحد أشد خصوم الإصلاح تجذراً، ولكن كراهية خالد للإصلاح كانت مبنية على المعرفة؛ خلافاً لمعظم العثمانيين المعرضين للتغيير. وبما أنه كان سفيراً إلى باريس في الفترة 1802-1806، فقد عرف الغرب عن كثب ولم يعجبه ما رأى. «أطلب إليكم أن تدعوا لي بالعودة سالماً من أرض الكفار هذه؛ لأنني ذهبت حتى باريس ولكنني لم أرَ بلاد الفرنجة هذه التي يتحدث عنها بعض الناس ويمدحونها... فلا أدري في أي أوروبا توجد هذه الأمور العجيبة».[23]
كان مركز الصدر الأعظم قوياً؛ لأنه كان له حلفاء بين الزعماء الدينيين، ولكن السلطان استغل الصراع الطويل بين الفصائل داخل السلالة العثمانية لتقويض خالد وإحلال شخصية أكثر مرونة محله.

وحتى خارج المنصب، كان خالد يمثل خطراً؛ فقد كان بالغ القوة وله صلات وارتباطات تجعل وجوده يمثل خطراً. انسحب إلى قونية مؤقتاً تحت حماية أمر من السلطان يضمن سلامته، ويعبر عن احترامه القلبي لخادمه الأمين. لكن الصدر الأعظم سابقاً لم يكد يستقر في وجهته - مأوى الدراويش المولوية الذي كان عضواً فيه - حتى وصل رسول بأمر شخصي من السلطان يقضي بإعدامه. تم عرض الحبل عليه ولم يطلب إلا أن يتوضأ ويصلي ويرشف آخر فنجان من القهوة قبل الاستسلام للجلاد، مثنياً على رحمة

السلطان، وفي غضون بضعة أيام كان رأسه معروضاً في أعلى عمود رخامي في الفناء الخارجي للقصر.

بعد سقوط خالد، قام السلطان بإشغال منصبين رئيسين - آغا الإنكشارية والصدر الأعظم - بسلسلة متعاقبة محيرة من التعيينات القصيرة الأجل. لم يعد يسمح لأي مسؤول آخر بالبقاء مثل الفترة الطويلة التي بقيها خالد في منصبه، وحتى مساعدو السلطان تم تعيينهم بشكل دوري داخل الديوان وخارجه. وقد عين رجل دين ثقة في المنصب المهم لرئيس الإدارة الدينية، ولكنه ضمن أيضاً ولاء عامة العلماء من خلال رفع أجورهم وامتيازاتهم. ركز محمود كثيراً على تقواه هو، وإعطاء منح دراسية، وبناء المساجد، ودفع الأموال لنشر المؤلفات الدينية. وسلك مراحل متمهلة ومنهجية في قطع العلاقة التاريخية بين الإنكشارية والطبقة الدينية التي أعطت قداسة لإساءة الإنكشارية للسلطة، وفي الوقت نفسه كان يكدس الأسلحة والمعدات الغربية التي تم تخزينها سراً داخل القصر.

لا ريب في أن محمود كان قد أعد خطة لعدم إصلاح الإنكشارية، وإنما لإزالتهم تماماً. وقد قيل إن خالد أفندي استشهد ذات مرة بقول تركي مأثور لخص نهج محمود:

> يعمل الخُلد بصمت وفي الظلام، ولكنه يشق طريقه طبقاً لهدفه. ويعد سير السلحفاة بطيئاً، ولكنها تتأكد من كل خطوة في الصعود، إلى أن تصل أخيراً إلى أعلى الهضبة. أما العقرب فيخفي إبرته اللاسعة، وهو زاحف هادئ ووضيع، إلى أن يتمكن من توجيه سمه بالموت إلى عدوه.[24]

لقد أصبح السؤال، هو إذاً، متى؟ وكيف؟

جاءت الأحداث بفرصة لمحمود. فالنجاح الذي حققه محمد علي بعد هلاك المماليك لم يكن بعيداً مطلقاً عن ذهنه، علماً أن الإنكشارية أشد فطنة من أن يقعوا ضحية حيلة قضت على المماليك. ومنذ عام 1811 جاءت انتصارات الأسلحة المصرية ببضع ومضات من الأمل في المسرح الدولي لم تكن في صالح القضية العثمانية والإسلامية. وفي عامي

1825و1826 امتلأت إسطنبول بأنباء انتصار الجيش المصري الذي كان السلطان قد دعاه إلى استعادة النظام في أقاليم اليونان المتمردة. وقد أعقب إخفاقات الإنكشارية سلسلة من النجاحات للمصريين المهرة المدربين والمنظمين. وقد تم تصوير هؤلاء الجنود على أنهم جنود الإسلام يدحرون قوى الشر في العالم المسيحي. وقد انتشرت قصص الفظائع الإغريقية في أنحاء العاصمة، وتم تشجيع اللاجئين من موريا على التحدث عن رعبهم. وفي عام 1821 شهدت المنطقة الواقعة شمال شبه جزيرة ماني في موريا مذبحة لخمسة عشر ألف قروي مسلم، وفر أربعون ألفاً إلى البلدات والحصون التي ماتزال في أيدي العثمانيين.[25] ولم يسمع إلا القليل عن ذلك في الغرب، بينما سمع أكثر من ذلك عن رد الفعل العثماني. فقد قام محمود بإعدام اليونانيين البارزين المقيمين في العاصمة، وشنق البطريرك الإغريقي من أبواب قصره الأسقفي في أحد عيد الفصح، رافضاً جميع التوسلات لدفن الجثمان. وبعد بضعة أيام تم إلقاؤه في البحر.

في الثالث والعشرين من إبريل، وبعد حصار طويل، تم الاستيلاء على مدينة القلعة الإغريقية ميسولونغي من جانب القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا، الذي أعاد فتح كريت وموريا. وبعد أن جاء هذا مثالاً على النصر الإسلامي أمام أعين الناس، كشف محمود رويداً عن خطة لتشكيل جيش يستوفي الإصلاحات، لا يتبع أي نموذج أوروبي، بل النموذج المصري. وتم صوغ الاقتراحات ضمن إطار لغة التقاليد العثمانية. وتم إطلاق تسمية "إسكنجية" eskenjis على القوات، وهو ببساطة الاسم الذي كان يطلق على الإنكشارية عندما كانوا في الخدمة الفعلية. ولم يكن هؤلاء من الفتيان الفلاحين الأناضوليين، أو مرتزقة أجانب أو من دهماء الشوارع؛ مثل "الجنود المدربين" أو السقبان، بل تم اختيار إنكشارية منتقين من كل مكان لطعام الضباط في العاصمة؛ علامةً على الشرف.

تم إعلان الاقتراحات رسمياً لحشد كبير من الموظفين العثمانيين يمثل العناصر المدنية والعسكرية والدينية في الدولة، ثم تمت قراءة الفرمان الطويل والمفصل، وطلب الصدر الأعظم إلى شيخ الإسلام القاضي زيد طاهر أن يعطي رأيه، فأعلن القاضي (وهو

الذي تم اختياره من السلطان)، الحكم الرسمي للعلماء حول الفرمان المقترح، إلى الإنكشارية الحاضرين وأولئك الموجودين في ثكنتهم. كان دعمه واضحاً لا لبس فيه؛ إذ لم تحظَ أي خطة للإصلاح في السابق منذ أيام سليمان بمثل هذه المصادقة الكاملة من كبار قضاة الإسلام:

> انظروا أيها الإنكشارية، لقد ثبت من الأدلة الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وإجماع علماء الإسلام وما هو معلوم من الدين بالضرورة، أنه من أجل القضاء على أعداء الإسلام ومقاومة الكفار بنجاح، يعد تعلم التدريب العسكري واجباً دينياً على المسلمين. فهل أنتم مصممون بصدق على المساعدة في تحقيق رغبات سماحته، على أن تصبحوا جنوداً منظمين ومنضبطين؟ هل أنتم على استعداد لقبول المسؤولية عن المثابرة في هذا الجهد وهل تقسمون على فعل ذلك؟[26]

صرخ جميع الإنكشارية الحاضرين: «نعم، نقسم على فعل ذلك». وعندما تليت الوثائق مرة أخرى أثبت الضباط الفرمان بأختامهم، دلالة على اعتماده. وقيل: إن عدداً كبيراً جداً كانوا يريدون أن يوقعوا حتى إنه تم إحضار صانعي الأختام إلى المطاعم ليصنعوا خواتم عليها أختام لكي يستطيع الضباط وضع أختامهم. وفي النهاية أعلن أكثر من 150 ضابطاً إنكشارياً عن دعمهم، ووقعوا الوثيقة.

استغرقت هذه المداولات إجمالاً أربعة أيام من النقاش المفتوح في كل مرحلة بحضور الصدر الأعظم. وفي مطاعم الإنكشارية تم السعي للحصول على النصح والمشورة، ولكن من غير المستغرب أنه لم يتم طرح أي آراء سلبية؛ فقد تم جانب كبير من الأعمال الإدارية العثمانية في الخفاء، بعيداً عن علم عامة الناس؛ ما جعل لهذه المداولات أهمية رمزية كبرى؛ إذ شوهد السلطان علناً يتشاور مع جميع موظفيه، ومع الإنكشارية أنفسهم. ولكن – خلافاً لاستخدام سليم للمجلس (كما أسلفنا) – لم يكن مطلوباً من الموظفين أن ينصحوا وأن يقدموا اقتراحات خطية سراً فحسب، بل أن يعلنوا تأييدهم علناً للفرمان الذي قرأوه فقرة فقرة؛ دعماً لفرمان السلطان المصدَّق بمرجعية كاملة من العلماء.

ولكن في غضون بضعة أيام راح عدد كبير من ضباط الإنكشارية الذين وقعوا على الفرمان يقولون: إن الإصلاحات لن تكون مقبولة مطلقاً لدى رجالهم، وإن رجالهم لن يخدموا في الإسكنجية ولا إلى جانبهم. ولكن السلطان لم تكن لديه نية بالتراجع عن الإصلاحات، ومهما يكن من أمر فقد تم الضغط عليهم بمنتهى الحزم. وسرعان ما أصبح واضحاً أن الثورة العسكرية قد تطورت خلال أشهر قليلة. وبعد إعلان الفرمان بأيام كانت الأسلحة والبدلات للجنود الجدد جاهزة للتوزيع، فقد كانت معدة من قبل، وكانت مخزنة في ترسانة السلطان. وقد بدا الإسكنجية أشبه ما يكونون بقوات إبراهيم باشا، وإن كانوا يلبسون بنطلونات قصيرة إلى الركبة، وأكسية الساق القماشية، وقبعة مخروطية طويلة، وليس البنطلونات والمعاطف الضيقة التي ترتديها الجيوش الأوروبية التي صاغ المصريون بدلاتهم على نمطها. وثمة حساسية مماثلة أدت إلى عدم إخراج البنادق الطويلة والحراب، وإن كان المصريون قد استخدموها، وبدلاً من ذلك تم تزويد الرجال بقربينات (بنادق قصيرة) وسيف معقوف، غير أن السيف المعقوف كان رمزياً أكثر منه عملياً؛ فهؤلاء سيكونون رماة بنادق يعتمدون على قوتهم النارية، لا الأسلوب القديم للغازي الإنكشاري.

وبدلاً من تأخير تنفيذ هذا الفرمان بدا أن مقاومة الإنكشارية المتجددة له أدت إلى الإسراع به. وبعد ضمان موافقة جميع السلطات في الدولة راح السلطان يضغط للمضي قدماً بمزيد من الاستعجال. وتم اختيار مجموعات صغيرة من المتطوعين بسرعة ليشكلوا أولى كتائب الإسكنجية، وتم أصلاً التخطيط لإقامة أول عرض للقوات الجديدة خارج أسوار المدينة، في مرج تشايرجي. غير أن محمود أمر الآن بإخلاء إيت ميدان وإقامة عرض الإسكنجية في قلب حي الإنكشارية. أضف إلى ذلك أنه بعد إقامة أول عرض قام الموظفون الدينيون والمدنيون بإلقاء خطابات علنية في الإنكشارية المجتمعين، الذين احتشدوا ليشاهدوا التمرين، حول واجب الجميع في قبول الإصلاح.

أسهمت السـرعة التي تحرك بها السلطان ومستشاروه في إفشـال خطـط الإنكشـارية للمقاومة، فقد كـان هنـاك أقـل مـن أسـبوعين يفصـلان عـن إعـلان فرمـان الإصـلاح والاستعراض الأول الذي سيتم إجراؤه يـوم الاثنـين في 12 يونيـو 1826. وكانـت خطـة المتمردين الأولى تقضـي ببدء تمرد عند أول تمرين للقوات الجديـدة، غـير أن تحضـيراتهم لم تكن قد اكتملت، كما أن كثيرين في الصفوف بدأوا يتساءلون عن مدى احتمالات نجاح أي ثورة. وفي الوقت الذي كانوا يأملون فيه أن ينضم إليهم زملاؤهم من الإنكشـارية الـذين أصبحوا إسكنجية من قبل بأسلحتهم وعتادهم، فإن بعض المتمردين المحتملين أدركوا أن هناك كثيرين بين صفوفهم أصبحوا الآن يفضلون الإصلاح، علاوة على أنهـم سيكسـبون الكثير من الامتيازات داخل صفوف القوات النشيطة، إلى جانب الثواب الإلهي.

وعند انبلاج أول شعاع من فجر يوم العرض، تم إرسال الأوامر إلى كـل كتيبـة مـن كتائب الإسكنجية الإحدى والخمسين المختارة للاحتشاد بين ثلاثة وخمسة من الأفـراد في إيت ميدان؛ للمشاركة في العرض بعد الفراغ من صلاة الظهر. وعند الصلاة كـانوا جميعـاً يرتدون بدلاتهم الإنكشارية القديمة، بحيث لا يمكن تمييـزهم مـن بقيـة الإنكشـاريين في الصلاة، ثم تجمعوا في رتل وتم تسليم كل واحـد مـنهم بدلـة وأسـلحة جديـدة. وحينـما خلعوا عمائمهم وبدلاتهم القديمة، كما ينسلخ الكثير من الأفاعي من جلودها، تحولـوا إلى جنود جدد؛ فقد تعلموا من قبل مبادئ التدريب الجديد، وغيروا تشكيلهم بسـرعة في هيئة سـرايا، وقد وقف ضباطهم الثمانية والخمسون في صف طويل أمامهم.

تقدم المسؤولون العثمانيون، يتصدرهم العلماء، إلى سـاحة العـرض؛ حيـث تكلمـوا طويلاً عن الحاجة إلى التنظيم الجديد، وأكدوا أن لبـاس هـؤلاء الجنـود وعـدتهم يشـبهان لباس المصـريين المنتصـرين وعـدتهم، والمسـلمين الصـالحين، وليسـوا متشـبهين بـالجنود الأوروبيين الكفرة كما ادعى الإنكشارية، ثم تمت دعوة كل ضابط من الضـباط إلى التقـدم وتسليمه قربينة تم مباركتها علناً. وعندما تسلم كل ضابط سلاحه الناري المبرأ من الإثـم، ظهر أربعة ضباط تدريب، لا أحد منهم أوروبي، ومروا خلال حركات التدريب الجديـد.

لم يتم إرسال أي ذخيرة؛ ومن ثم فإنه لم يكن ثمة تدريب على إطلاق النار، وزودتهم السلطات عن قصد بثلاثة أنواع مختلفة من القربينات، بعيارات مختلفة؛ لئلا يمسك الإنكشارية بأي أسلحة في أثناء العرض ويحولوها ضد رجال السلطان.

لم يفت الحاضرين المدلول السياسي للعرض؛ فقد شكل إجراؤه في إيت ميدان، مركز النظام الإنكشاري، تحدياً لمصداقية الإنكشارية بأشد الأساليب التي يمكن تخيلها إثارة. وقد مثل خلع الإسكنجية بدلاتهم الإنكشارية القديمة، وارتداء الجديدة، إساءة عامة أخرى للإنكشارية. وأخيراً، فإن مباركة البنادق نفت بأكثر الطرق موثوقية دعوى الإنكشارية الممكنة بأن البنادق غير مناسبة للجندي المسلم.

بدأ الجنود الخاصون تدريباتهم في اليومين اللاحقين، بقيادة ضباطهم، ولكنهم اكتشفوا في يوم الأربعاء المصادف 14 يونيو أن إنكشارية من فرق مختلفة بدأوا يحتشدون خارج الميدان. وبعد غروب الشمس امتلأت الشوارع بجماعات صغيرة من الإنكشارية المدججين بالسلاح يتجهون نحو الميدان، حاملين معهم قدور المرق النحاسية. كانت نيتهم واضحة. عند فجر اليوم اللاحق، أصدر قادة التمرد - وقد أحاط بهم آلاف الإنكشارية المبتهجين - أوامرهم بقلب قدور الطبخ رأساً على عقب، في رفض تام لحصص السلطان وسلطته.

بدأ التمرد، ولكنه لم يبدأ بشكل جيد. فقد خططوا في منتصف الليلة السابقة لقتل آغا الإنكشارية، ولكنهم لم ينجحوا في العثور عليه؛ إذ اختبأ في مرحاض صغير، بينما كانوا يجوبون قصره بحثاً عنه، وكذلك أخفقت محاولات مماثلة للعثور على الصدر الأعظم وبقية الوجهاء؛ إذ التزم كبار الشخصيات العثمانية الحيطة، وبقوا داخل أسوار المدينة طوال الليل. كان محمود في قصره الجديد في بشكطاش Besiktas، إلى جوار مضيق البوسفور، ولكنه حالما سمع بالتمرد المنتظر منذ مدة طويلة، استدعى بوارجه، وانطلق إلى باب المدفع في قصره. كان بالإمكان سماع الإنكشارية في الشوارع القريبة من جامع أيا صوفيا الكبير، وهم يصرخون: «الموت للمفتين، وكتبة القرارات القضائية، ولخصومنا،

والجميع من يلبس الكايوك kayuk [أصحاب العمائم الضخمة التي يرتديها كبار المسؤولين]... الموت للسلطان محمود. يسقط النظام الجديد. يعيش أولاد حاجي بكتاش (أي الإنكشارية)».[27] وبينما كانوا يجوبون الشوارع، تمكن جميع كبار المسؤولين الدينيين والمدنيين، إضافة إلى كبار ضباط الإنكشارية الموالين للسلطان، من التملص من أعدائهم بنجاح وتجمعوا في حديقة القصر، وانضم إليهم هناك أعداد ضخمة من الجنود من فيلق المحترفين، من مهندسين ومشاة بحرية وجنود المدفعية، علاوة على مدفعية الخيل مع كامل مدفعيتهم. والغريب أن الإنكشارية لم يبذلوا مسعى جدياً لوقف الاحتشاد.

وفي الوقت الذي شوهد فيه أسطول السلطان الصغير يشق طريقه بقوة عكس اتجاه المد، احتشد أكثر من 14000 من الموالين عند القصر، وكان عدد كبير منهم مسلحون ببنادق. وكانت الترسانة ماتزال مملوءة بالأسلحة التي تم جمعها من أجل الإسكنجية. وفي مواجهتهم كان ما يصل إلى 20000 إنكشاري، علاوة على حلفائهم وأتباعهم داخل المدينة. تذكر الكثير من الموالين للسلطان أحداث 1808 المروعة، والأضرار الهائلة وسفك الدماء الذي نجم عن ذلك، حتى إن البعض اقترحوا أن يتم الآن التوصل إلى اتفاق مع الإنكشارية.ولكن وصول محمود زاد من صلابة روح المقاومة. وقام بدعوة جميع القادة إلى قاعة الختان التي كانت تستخدم لمراسم الدولة، وأعلن بصوت مرتفع:

> منذ يوم صعودي العرش تحملت جهداً وعناية عظيمين لخدمة مصالح الدين، ورعاية الشعب الذي ولاني الله عليه. وأنتم جميعاً تعلمون أن الإنكشارية الذين هدد تمردهم وعصيانهم حكمي مرات كثيرة قد قوبلوا مني بالصفح والمسامحة... وقد صفحت عنهم تلافياً لسفك الدماء. وقد مضيت إلى أبعد من ذلك وأنعمت عليهم بالامتيازات. وأخيراً أقسموا على الخضوع لقانون الإصلاح الجديد، من دون أي إكراه إلا المعاملة باللطف والإحسان. فما هي الإجراءات المناسبة التي تحكمون بها لإخضاع هؤلاء الخونة والقضاء على هذا العصيان؟

ثم طلب إلى العلماء الحاضرين أن يقرروا مصير المتمردين، فأجابوا بصوت واحد، كما كان يسجله تاريخ مثل هذه الأحداث: «حكم الشريعة أنه يجب مقاتلة العصاة، فإن اعتدى البغاة على إخوانهم فقاتلوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله». وتم إعداد حكم الإعدام

على المتمردين والمصادقة عليه من قبل المرجعيات الدينية كافة. صاح أحدهم: «لماذا نؤجل؟ لنسارع في التحرك ضد الأعداء ونسحقهم بالمدفعية والسيوف». عندها سالت دموعهم بما فيهم السلطان الذي ذهب إلى الخزينة وعاد حاملاً راية الرسول، وقال لهم: «أريد أن أنضم إليكم وأقاتل وسط صفوف المسلمين الصادقين، وأعاقب الجاحدين الذين يؤذونني»، ووجد الصدر الأعظم صعوبة في إقناعه بالبقاء داخل القصر.

عند صلاة الفجر تم تلاوة رسالة في جميع مساجد المدينة، داعية جميع المسلمين المخلصين المسارعة لدعم السلطان في القصر، ولم تمض إلا بضع دقائق حتى بدأ الآلاف يحتشدون في الميدان أمام القصر، على الرغم من أن الإنكشارية بدأوا الآن يهاجمون جمهور الناس المحتشدين بأعداد متزايدة باستمرار، واندلعت معارك محتدمة مع بعض "الإمّعات" الذين تسلحوا بالسكاكين والسيوف. وبعد أن أدرك الإنكشارية أن الناس قد انقلبوا ضدهم، وشاهدوا القوات الموالية مستعدة للزحف على حي الإنكشارية، بدأوا يتراجعون أمام صرخات السخرية من جانب الجموع المحتشدة أمام باب القصر.

حينما بدأ الإنكشارية بالانسحاب امتطى السلطان جواده متجهاً نحو باب القصر الكبير، واحتل مكانه في الغرف فوق الباب، مطلاً بنظره على المدينة، ثم راقب الحشد الهائل من الجنود والمواطنين منطلقين على طول شارع الديوان الواسع. كان جنود المدفعية يجرون مدافعهم خلفهم، والجنود يسيرون في صفوف طبقاً لأنظمة التمرين الجديدة التي بدأوا يتعلمونها بشكل جدي. وعندما وصلوا إلى الميدان الكبير بجوار جامع بايزيد حيث كانت تطل عليه أسوار إسكي سراي المنيعة (الذي لا يسكنه الآن إلا زوجات وجواري السلاطين السابقين)، انقسم الجمهور العظيم البالغ تعداده عشرين ألفاً أو أكثر إلى رتلين ضخمين، يتقدم أحدهما رجال المدفعية المنطلقين مباشرة نحو حي الإنكشارية الذي كان يقع إلى يسار الطريق العام وسط شبكة من الشوارع الأصغر حجماً. أما المجموعة الأكبر من الطلاب والتجار وعامة أهالي المدينة، فقد انطلقوا نحو أسوار المدينة، قاصدين الالتفاف نحو الغرب وتطويق إيت ميدان من الشمال.

أما قادة التمرد فقد دفعهم الخوف من عاقبة تمردهم والكراهية الشعبية التي لم يسبق لها مثيل ضدهم إلى إرسال مبعوثين إلى الصدر الأعظم قائلين إنهم كانوا رجالاً جهلة، ولم يمنعهم من قبول التدريبات الجديدة إلا سوء الفهم. وفي هذا الوقت أصبح أول الجنود على مسافة بضع مئات من الياردات من إيت ميدان. كانت أبواب الثكنة موصدة أمامهم، وحينما تقدموا بحذر تم إمطارهم بوابل من الرصاص من مجموعة من الإنكشارية مختبئين بجوار "نافورة"؛ وهي مصدر الماء العام الذي كان الجوار يستقون منه ماءهم. جرى المهاجمون بسرعة إلى الثكنة، على حين قام رجال المدفعية، وقد أغضبهم موت رفاقهم، بتلقيم مدفعين خفيفين جروهما معهم إلى أعلى الهضبة. داخل الثكنة كانت الأبواب والبوابات موصدة بحجارة ضخمة؛ الأمر الذي جعل من المستحيل على أحد الدخول أو الخروج. صرخ قائد المدفعية بالإنكشارية بأن لديهم فرصة أخرى لطلب "العفو الكريم" من السلطان، ولكن الرد الوحيد كان صرخات الشتم والتحدي من داخل الأسوار.

في تلك اللحظات أصبح مجمع ثكنة الميدان مطوقاً من جميع الجهات، وبدأ الإنكشارية يطلقون النار من الداخل. وفي رد عليهم تم إرسال الجنود فوق أسطح المباني المجاورة، وبدأوا يردون على النيران. مع أول طلقات المدفعية تم تدمير نصف باب الثكنة بطلقة كروية وقتل الكثير من الإنكشارية الذين تجمعوا وراءه. وقد أصيب عدد كبير آخر بشظايا الحجارة من كتلة حجارة البناء التي كدسوها وراء الباب، ثم تحول رجال المدفعية إلى استخدام الطلقات العنقودية، وأمطروا المدخل مرة أخرى؛ ومن ثم تقدم جندي جسور بسرعة وتمكن من فتح الباب الذي لم يتضرر؛ حيث استطاعت القوات والمدفعية من الدخول إلى الميدان الواسع المفتوح. وتحت وابل من النيران الموجهة من الجنود الذين كان عددهم بالآلاف، وتراجعوا نحو مباني الثكنة الخشبية الكبيرة التي كانت تحتل جانباً من الميدان، وأمامها كانت محلات الجزارين التي أضفت اسمها على ميدان اللحم (إيت ميدان).

قام أحد رجال المدفعية برمي المحلات بشعلة ملتهبة، فبدأت تحترق بشكل جنوني، وقد فاحت رائحة اللحم المشوي في الأجواء. وقعت بعض الجمرات على مباني الثكنة

الخشبية التي بدأت تحترق احتراقاً بطيئاً داخناً، وما لبثت أن اضطرمت فيها النيران بسبب رشقات الرصاصات التي انصبت على الإنكشارية الذين انكمشوا من الخوف في مدى قريب، أو تم إطلاقها بشكل محكم بواسطة أحد الجنود. وقد أصبح هناك الآن أكوام من الإنكشارية الموتى أو المحتضرين داخل الثكنات وخارجها، ولكن استمر إطلاق النيران المتقطع من الداخل. وتم إحضار المزيد من المدافع إلى الأعلى قريباً من المباني، وأمطروها مرة تلو المرة بطلقات عنقودية مزقت الثكنة وحصدت الإنكشارية الذين كانوا مايزالون يقاومون. وأصبحت الآن رائحة اللحم المشوي أشد أثراً، وصارت تصدر أصوات طقطقة الشحم المحترق حينما بدأت الجثث المتفحمة "للمحاربين المرسلين من السماء" تتفجر بالحرارة الشديدة.

وحتى عندما توقف الإنكشارية عن الرد على نيران الجنود، وراحوا يصرخون طلباً للرحمة، ازداد إطلاق النار بدلاً من أن يتلاشى. تمكن بعض الإنكشارية من الهرب إلى داخل مجموعة المباني المحيطة بالميدان، ليصطادهم الجنود المبتهجون ويقطعوهم إرباً إرباً حتى الموت.

انتشرت النيران الآن على نحو خرج عن السيطرة في المباني الخشبية في الشوارع المحيطة بميدان اللحم، واضطر مزيد من الإنكشارية إلى الخروج من مخابئهم، وأخذوا أسرى، وسيقوا إلى الصدر الأعظم الذي كان في مسجد السلطان أحمد المجاور للقصر. وبدأ الميدان المجاور يمتلئ بالمساجين الإنكشارية، البعض منهم من المعركة في إيت ميدان، ولكن كثيراً منهم أخذوا من ثكنات الإنكشارية الأخرى حول المدينة. وحينما تم التحقيق معهم تم شنق المدانين بالتمرد أو ضربت رؤوسهم، وتم تكديس جثثهم حول شجرة دلب ضخمة في وسط الميدان. لقد كان انتقاماً مؤجلاً للوزراء الذين شنقهم الإنكشارية المتمردون عند الشجرة نفسها عام 1648. وسرعان ما تكدست 200 جثة تحت أغصانها الممتدة.

طافت فرق من الجنود الشوارع بقوائم من الإنكشارية السابقين المتورطين في التمرد ضد سليم الثالث، وتم إعدام أكثر من 120 في أقبية بيت آغا الإنكشارية. وإجمالاً تم قتل

6000 على الأقل، سواء في الهجوم على إيت ميدان أو في الانتقام اللاحق (تذكر بعض المراجع رقماً مرتفعاً يصل إلى 20000، ولكن هذا يبدو مستبعداً.)

تم نقل أخبار النصر والتطهير إلى محمود الذي جاء ليرى نتائج عمله في الميدان، فقد دعا مجلسه إليه في القصر، وتم إصدار فرمان بحظر اسم "الإنكشارية"، وأنه يجب حل النظام في جميع أنحاء الإمبراطورية. أما الإنكشارية الذين بقوا موالين فتقرر مكافأتهم، واستمر احترام سجلات المدفوعات.

تم إعداد فرمان طويل يلخص تاريخ الإنكشارية الطويل والشرير، وتمت قراءة سجل بجرائمهم على حشد متحمس من الموظفين من منبر جامع السلطان أحمد، على وقع صيحات "سمعاً وطاعة لأمر حاكمنا" من كل جانب من أرجاء الجامع. وبدأت فرق الكتبة تنسخ الفرمان، وتم توزيع مائة نسخة على كل مسجد في العاصمة وحولها، ليتم قراءتها من على المنبر بعد الصلوات، وأعداد أخرى على الأقاليم. وقد تم إرسال تعليمات خاصة بواسطة رسل التتار إلى ولاة الأقاليم والمدن التي كان الإنكشارية المحليون أقوياء فيها، لكي يتم القيام بهجوم استباقي عليهم قبل أن يسمعوا بالأخبار من العاصمة ويثوروا في تمرد. في تلك الأثناء تم إغلاق أبواب المدينة. وقد وصف السفير البريطاني، ستراتفورد كانتج Stratford Canning، الذي راقب الأحداث من مرتفعات بيرا عبر القرن الذهبي، كيف أنه مع مرور الأيام:

> كان مجرد اسم إنكشاري، سواء تم فضحه بعمل مكشوف أم لا، يعد بمنزلة حكم بالإعدام. وقد انعقدت لجنة خاصة للمحاكمة، أو بالأحرى لإدانة الحشود، وكان كل ضحية يمر على الفور من المحكمة إلى يدي الجلاد. وكان وتر القوس والسيف المعقوف مصلتين باستمرار... وقد تبقع بحر مرمرة بجثث الموتى.[28]

على مدى بضعة أيام وبصورة مفاجئة، تعرض الإنكشارية في مدن الأقاليم – الذين أصبحوا أكثر من مجرد تجار محليين – لهجوم ومجزرة من دون سابق إنذار. وبعيداً عن العاصمة أصبح اسم "إنكشاري" بمنزلة ذنب، وكانت عمليات القتل تتسم غالباً بفظائع

كبيرة؛ لأن أولئك الذين كانوا يحسدون الإنكشاريين على وضعهم المتميز نفسوا عن أحقادهم في أجساد الذين كانوا - حتى قبل أيام قليلة - سادة على جيرانهم. وقد أخبر أحد الباشوات كيف أنه:

لم يلجأ عدد كبير من هؤلاء الكلاب الإنكشارية إلى منطقتي؛ لأنهم كانوا يخشونني، ولكن - بحمد الله - وقع أحدهم في يدي، وكنت على علم بأفعاله الرائعة في إسطنبول... ولذلك جعلته يأتي ويقابلني. وعندما وصل تحادثنا للحظة..، ثم أمرت بسجنه داخل باب وتم تسمير الباب. فإن مما يرضي الله أن أجعله يموت من الجوع.[29]

في غضون بضعة أيام، أطلق محمود إشارة بانطلاق عملية تحول المجتمع العثماني؛ إذ ظهر في صلاة الجمعة في يوم النصر، 16 يونيو 1826، وقد أحاط به رجال المدفعية والقاذفون بدلاً من حرس الإنكشارية التقليديين، وفي غضون أسبوع كان أوائل الجنود الذين سيحلون محل الإنكشارية - واسمهم الآن "جند الله المنصورون" - جاهزين لاستعراضهم من قبل السلطان. والزائر للفناء الأول في القصر في ذلك اليوم التاريخي «لفت انتباهه فجأة أصوات الناي والطبول، ولدهشته [ظهر هناك] جماعة من الأتراك في ثياب مختلفة، ولكنهم مسلحون ببنادق المسكيت والحراب، ومرتبون على النظام الأوروبي، ويخضعون لشكل جديد من أشكال التدريب... وقد اتبع الرجال الأوامر في السير وفي مناولة أسلحتهم».[30] ثم ظهر السلطان لكي يستعرضهم. لم يكن يرتدي الأثواب الإمبراطورية التقليدية؛ لا قفطان، ولا عمامة، بل طراز جديد من الملابس: «كان جلالته يرتدي الزي المصري، مسلحاً بالمسدسات والسيف المعقوف، وعلى رأسه شكل من أشكال القلنسوة، بدلاً من العمامة الإمبراطورية».[31] كان هذا هو الإجراء لهذه "الواقعة الخيرية" Vakayt Hayriye،[32] كما هو الوصف الرسمي لتدمير الإنكشارية. وقد تم التخلص من جميع زينات النظام العثماني القديم وزخارفه، على حين غدا محمود حراً في البناء من جديد، بعد أن أصبح أكثر أمناً في عرشه من أي سلطان منذ سليمان.

الفصل الخامس

"إسطنبول" المدينة

صور غربية عن العثمانيين

وجد الرحالة الأوروبيون "إسطنبول" Stamboul لا تقاوم. فاعتباراً من عـام 1800 وما بعده، تدفق الزوار متحدين مخاطر السفر بحراً، أو متاعب الرحلة بـراً، لزيـارة المدينـة الأسطورية. وكانوا يشعرون بأنهم "كانوا يعرفون" ملكة المدائن قبل وقت بعيد من رؤيـة مساجدها وقصورها، وكانوا يشترون رسوماً ونقوشاً لروائعها "الشـرقية" النادرة. كـانوا يتخيلون نساءها المنقبات الغامضات، وشاهدوا الحياة الداخلية للحريم معرّاة على خشـبة المسـرح [عندهم]. واعتصـروا ألماً لما سمعوه عن العقوبات التركية الوحشية؛ من كلاليب وخوازيق ونساء منبوذات في الحرملك وقد أغـرقهن الطواشـية القسـاة في البحـر مقابـل القصـر في سـراي بورنو. جاؤوا وهم يتوقعون أن يروا المدينة التـي في مخيلـتهم، فوجـدوا الواقع مخيباً للآمال.

كانت المدينة تملك الكثـير مـن الأسـماء. وكـان الأوروبيـون يسـمونها إسـطنبول أو القسـطنطينية، وكـان الأتـراك يسـمونها القسـطنطينية أيضـاً، ولكـن كـانوا في أحـاديثهم يستخدمون اسمها التركـي "إسـطنبول" Istanboul. وسـرعان مـا كـان الزائـر الغافـل يكتشف منجماً من الغمـوض. فالمدينـة البيزنطيـة القديمـة داخـل الأسـوار فقـط يمكـن تسميتها "إسطنبول" بشكل صحيح. أما المدينة عـبر القـرن الـذهبي فهـي بـيرا، وأطلـق الأتراك عليها أيضاً اسم باي أوغلو Beyoglu. أما "إسطنبول" وهو الاسم الـذي أعطـاه للمدينة محمد الفاتح فقد شملها جميعاً: إسطنبول، وبيرا، وفي ما بعد الضواحي التي تنامت

واتسعت على طول القرن الذهبي ومضيق البوسفور. وهكذا كانت كذلك نظرياً، غير أن الأتراك قد يستخدمون تسمية "إسطنبول" بمعناها الضيق دلالة على المدينة القديمة، أو "إسطنبول" لتشمل العاصمة بكاملها. فقد جسدت إمكانية الخلط مدينة كان من عادتها أن تستخدم أربعة تقاويم مختلفة (هما: تقويمان مسيحيان وآخران إسلاميان)، وكانت كل ساعة فيها تتضمن نظامين منفصلين للدلالة على الوقت في أثناء اليوم.[1]

كانت إسطنبول (وتعني المدينة القديمة داخل الأسوار) مثل معظم العواصم في بداية القرن التاسع عشر، قذرة في الغالب، ومهيبة في بعض الأحيان. ولكن عدداً كبيراً من الزوار الأوروبيين الجياشين بالأفكار الرومنسية جاؤوا على أمل أن يكتشفوا مشرقهم الخيالي. هناك شاب لندني اسمه ألبرت سميث Albert Smith أبدى حيرته عندما وصل من مالطا على ظهر الباخرة الفرنسية "سكاماندرا" في سبتمبر 1850:

> عليّ أن أعترف بأن أول منظر رأيته من إسطنبول عندما اقتربنا من ذلك الجزء من المدينة أصابني بخيبة أمل. وكنت قد سمعت وقرأت لمحات موجزة عجيبة رفعت من توقعاتي إلى مستويات غير عادية، حتى إنني على الرغم من معرفتي أنني كنت أحدق النظر في مسجد أيا صوفيا، وأن حديقة السرو المظلمة المتدلية على المياه الزرقاء أمامنا كانت تحيط بحريم السلطان وكانت مياهه الزرقاء هي البوسفور، كان أول هتاف لنفسي: "وهل هذا كل شيء!".[2]

سرعان ما اكتشف الفنانون والنقاشون أي صور المدينة لقيت قبولاً أفضل، وقد أثار الكثير من الرسامين تخيلات كانوا يعلمون أنها سترضي جمهورهم، وكانت موضوعات الصور ومضامينها تقليدية ليست مطابقة لواقع الحياة. لم يكن لدى الفنان جون فريدريك لويس John Frederick Lewis أي صعوبة في إعداد مجموعة ناجحة جداً من الصور الإيضاحية للقسطنطينية قبل أن تقع عينه عليها أول مرة عام 1837 بثلاث سنوات كاملة، وكان من أشهر المناظر "إسطنبول كما تبدو من القرن الذهبي"؛ وهو المشهد الذي كان يطالع المسافرين حينما يبحرون إلى أعالي البوسفور من البحر الأبيض

المتوسط. وقد افتتنت جوليا باردو Julia Pardoe برؤيتها للمشرق: «يكمن السحر العظيم للقسطنطينية في الجدة البالغة التي تعد في حد ذاتها سحراً؛ إذ إنه ليس الموقع بأكمله، بل توابعه جميعاً، لا يشبهه مطلقاً ما خلّفه الرحالة وراءه في الغرب؛ ما يجعل كل مجموعة موضع دراسة، وكل حدث مصدر عبرة».[3] وإلى أن تصل السفينة إلى سراي بورنو، فإن سلسلة القباب والمآذن تبدو خليطاً متنوعاً:

> ولكن عندما درنا حول سراي بورنو، ودلفنا ببطء إلى داخل القرن الذهبي؛ حيث انفتح أمامنا المشهد البانورامي الرائع بكامله... بجماله الذي لا يبارى، استبد بنا تماماً شعور بالروعة والإعجاب... القباب المهيبة والمآذن السامقة التي نأت بنفسها عن قاعات المباني حينما مضينا في سيرنا، وانتصبت بارزة بيضاء جلية مقابل السماء الزرقاء المشرقة.[4]

كان يخيل للرحالة أن المدينة نفسها في حركة دائبة حينما تبدّت المباني الجديدة، وتم عقد صلات جديدة بين الأبراج بقامتها الممشوقة والانكفاء اللامتناهي للأسقف المقببة. كان سحر إسطنبول يكمن في هذا المشهد الفسيح. لقد أسر المنظر الأب روبرت والش Revd Robert Walsh، المعين حديثاً كاهناً في السفارة البريطانية حينما أرسل نظراته عبر القرن الذهبي من مكانه المريح الآمن في السفارة:

> على الجانب الآخر من البحيرة ترتفع مدينة القسطنطينية، ويظهر فيها جبل من البيوت الممتدة على مد النظر في كلا الاتجاهين، الهضاب السبع من خط متموج عبر الأفق، تتوجه مساجد عظيمة... وهي جميعاً تختلف عن كل ما يحيط بها، وهذا التباين يمنحها حجماً ظاهراً، يكاد يساوي عظمة الهضاب التي تنتصب فوقها... كل هذا المنظر وأنا أحدق النظر فيه من نوافذ القصر كان ذا جمال متفرد، ولم أفكر بمنظر يفوقه بحيث يشدني لزيارته.[5]

كان هناك جانب آخر في إسطنبول. فهذا الأب قد قدم براً في ديسمبر، وكان أول ما واجهه جانب غير جذاب من المدينة. فقد كان شتاء منطقة تراقيا "أشد قسوة" من أي شتاء عاناه في بلده الأم في منطقة نائية إلى الشمال؛ ومن ثم، لم يكن والش في مزاج يسمح له باستحسان المدينة كتجربة جمالية. لقد كان انطباعه الأول غير رومنسي من دون ريب:

> حينما اقتربت من العاصمة [على طول الطريق الساحلي] لم يكن ثمة مظهر مبهج لكثافة سكانية، ولا زيادة في المنازل والقرى، بحيث يشير إلى قرب مدينة كبرى. وعلى مدى الأميال العشرة الأخيرة لم نمر على بيت كما لم نقابل رجلاً، ووجدنا أنفسنا فجأة تحت الأسوار قبل أن أدرك أننا كنا نقترب من المدينة. مررنا خلال باب سيلفريا Silyvria، وكانت الوحشة في الداخل أسوأ؛ لأنه كان أقل توقعاً مما هي في الخارج. وحينما راحت حوافر خيلنا تقعقع فوق الرصيف الخشن أصبح الضجيج مجفلاً، فقد كانت الشوارع موحشة وساكنة، والضجة الوحيدة الأخرى المسموعة كانت صادرة عن كلب شرس اختبأ في حفرة تحت أساس البيت، وراح ينبح نباحاً زاد من وحشتنا في أثناء مرورنا.[6]

ولكن هذا كان منظراً دقيقاً للمدينة وحياتها. وعندما أصبح والش يعرف (ويكره) المدينة، قارنها بالأجزاء الصحية من مدينته الأم إدنبرة. وهناك أيضاً البيوت السابقة للنبلاء والتجار قد هجرها أصحابها، وانتقلوا منذ زمن بعيد إلى أحياء أكثر رقياً، والأزقة أو الحارات الضيقة في المدينة القديمة قد تكدست فيها أكوام عالية من القمامة والفضلات. في لندن ومدن أوروبية كبرى أخرى، كان الكثير من المباني الفخمة مدفوناً في الأحياء الفقيرة، وقليلون هم من كانوا يرون أنها جديرة بالتعليق عليها، ولكن الرحالة وجدوا انحلال إسطنبول مزعجاً. وهم، شأنهم شأن والش، قدموا متوقعين السمو والرقي، فوجدوا الواقع منتناً ومزعجاً للحواس. وقد ألقى معظم الأجانب، مثل والش، باللائمة على الكسل "الشرقي" لدى الأتراك، وقليل من الزوار من كان يبحث عن أسباب أخرى. ولكن كانت هناك أسباب وراء التباين الجلي بين الانطباع عن المدينة عن بعد والانطباع عنها عن قرب.

إن سهل تراقيا الواسع، الذي كان والش ذكره في خريطته بأنه «بلاد عارية مغطاة بالهضاب»، يمتد عبر الأسوار إلى داخل إسطنبول على هيئة امتداد ضيق من الهضاب المنخفضة، تقريباً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. ويمتد هذا الخط من ست هضاب حتى حافة المرتفع المثلث الذي بنيت المدينة فوقه. وعلى كلا جانبي هذه الأرض المرتفعة تنحدر الأرض انحداراً شديداً حتى الشاطئ؛ حيث يوجد بحر مرمرة في جانب وميناء القرن الذهبي الطويل في الجانب الآخر، وقريباً من النقطة التي تلتقي

عندها الأسوار البرية العظيمة مع البحر، وترتفع الأرض ثانية لتشكل هضبة سابعة، ويجري نهر ليكوس إلى قلب المدينة على طول صدع الوادي بين الهضبة السابعة والهضاب الست الأخرى.

لقد كسبت إسطنبول وخسرت من هذا الوضع الفريد؛ فجيولوجيا شبه الجزيرة حددت مسبقاً كيف يستخدم كل من البيزنطيين والعثمانيين هذا الموقع الذي لا نظير له. كانت أفضل أرض للبناء على طول خط الهضاب. كانت الأرض المنخفضة من جهة البحر غير صحية، وفي الأغلب يغمرها الضباب في الشتاء وحرارة الصيف، غير أن جانباً كبيراً من هذه الحالة غير الصحية كان وراءه أيضاً عامل بشري؛ فقد كان الأغنياء والأقوياء يحتلون الأرض العالية، وعلى مدى قرون كانت بيوتهم وقصورهم تطلق فضلاتهم ومجاريهم إلى أسفل الهضبة، فكانت السوائل في هذه الفوضى المنتنة تجري أسفل المنحدر إلى الشاطئ. «لا توجد مجارٍ في القسطنطينية، ويتم رمي الفضلات على شكل أكوام لتتراكم في أماكن مختلفة».[7] كان المجتمع الإسطنبولي مدرّجاً بشكل رأسي؛ فاسوأ مكان للعيش فيه كان في القاذورات في أسفل الهضبة. لم يكن هذا النموذج مقصوراً على المدينة، فهناك مدن أخرى على حافة أرض مرتفعة، مثل إدنبرة، صنعت خندقاً لمياه الصرف الصحي الكريهة الرائحة خارج أسوارها، غير أن إسطنبول تطهرت جزئياً بالبحر الطهور الذي حمل الأقذار من المدينة إلى خارجها عبر تيارات مياه البوسفور الأشد عمقاً، ولولا المياه السريعة الجريان لأصبح القرن الذهبي كومة من القاذورات.

كان العثمانيون يبنون حيث بنى أسلافهم؛ فالطريق العالية كانت على طول العمود الفقري للهضاب، وتغوص في الوديان المحصورة في ما بينها. كانت تبدأ من مليون، وهو قوس نصر بيزنطي في الفضاء المفتوح الكبير قبل القصر الإمبراطوري، يني سراي، للسلاطين العثمانيين، المبني على الموقع الذي كانت تنتصب فيه قلعة البيزنطيين في الماضي. وعلى جانب الميدان من جهة البحر، انتصب مسجد أيا صوفيا، رمز النصر العثماني، وخلفه انتصب جامع أحمد الثالث الأزرق المبني مقابل الزرقة المتلألئة لمياه بحر مرمرة.

كانت المباني الحكومية العظيمة على جانبي الطريق العام الموصل من يني سراي إلى باب أدرنة، كلها عثمانية. ولم يكن ثمة ما يمثل دليلاً على تاريخ إسطنبول المسيحي إلا قناطر فالنس التي تنقل الماء إلى المدينة من الخزانات على الهضاب في الخارج. ولم تكن بقية الأطلال الظاهرة من بيزنطة إلا بضعة أعمدة وبعض الأحجار المنتصبة. ففي ذروة أمجاد بيزنطة كان الطريق العام الرئيسي – ميزي – يحيط به من الجانبين رواق رخامي وسلسلة من أعمدة النصر. أما في وقت الفتح فلم يبق إلا الطريق العام المرصوف. كان الطريق يتجه صعوداً إلى ذروة الهضبة الثانية التي كان يحتلها ميدان قسطنطين في الماضي، ثم ينحدر عبر الوادي بين الهضبة الثانية والثالثة إلى قصر إسكي سراي الذي بناه محمد الفاتح في موقع ميدان ثيودوسيوس. وقد حجب آثار بيزنطة سلسلة من المساجد التي كانت مظهراً من مظاهر أمجاد الإسلام وسلالة آل عثمان، ووضع أبناء الفاتح وأحفاده صروحهم المعمارية على الهضبة الثالثة. فقد بنى بايزيد الثاني جامعه بين عامي 1501 و1506، غير أنه غطى عليه جامع السليمانية الذي صممه وشيده سنان، أعظم المعماريين العثمانيين بين عامي 1550 و1556.

كان جامع سليمان القانوني هذا، بمآذنه الأربع وقبته الضخمة، يشبه سنام العقد الذي يرصع درع أحد الأتراك، وكان بمنزلة التاج لإسطنبول، وقد أذهل الرحالة الإنجليزي جون ساندرسن John Sanderson الذي عاصر السلطان سليمان تقريباً:

> دار العبادة والضريح الرائعان للسلطان المظفر الذي لا يقهر سليمان، بناء يليق بهذا السلطان، ويحتل أفضل الأماكن وأكثرها إقبالاً في المدينة، ويفوق – في عظمته وإتقانه وأعمدته الرخامية وثرائه الملوكي الفائق – سائر دور العبادة التي شيدها أسلافه السلاطين، إنه عمل جدير بأن يوضع في مصاف عجائب الدنيا السبع.[8]

لقد بنى «أسلافه السلاطين» صروحهم المعمارية على قمم الهضاب الرابعة والخامسة والسادسة؛ «فمدينة القباب المغطاة بالرصاص» التي بناها الفاتح على الهضبة الرابعة – كما وصفها المؤرخ الإسطنبولي في القرن السابع عشر أوليا جلبي – كانت تضم جامعاً ضخماً،

هو جامع محمد الفاتح، والضريحين التوأمين لمحمد وجولبهار، أم ابنه وخليفته بايزيد الثاني. وكانت مدرستها تتسع لألف من تلامذة القرآن الكريم، كما كانت "الطبخانة" tabhane (نزل المسافرين) توفر للمسافرين الزائرين للجامع مأوى مجانياً. وقد زود الجامع المجتمع المحيط به بـ "عمارة" imaret (مطبخ للشوربة لأجل الفقراء)، ومستشفى، وخان (نزل) للتجار، مع مخزن آمن لأغراضهم، ومدرسة للأطفال المحليين، ومكتبة ملأى بالكتب والمخطوطات، وحمام عمومي. وقد امتد إجمالاً فوق مساحة أربعة فدادين، وهو «أكبر مجمع اجتماعي في العالم الإسلامي».[9]

يحمل الجامع الموجود في أعلى الهضبة الخامسة اسم سليم "العابس" [أو القاطع عند الأتراك] فاتح المشرق. لقد بني لذكراه بواسطة ابنه سليمان، وينتصب قائماً وجميلاً على هضبة عالية فوق القرن الذهبي. ويقع المسجد السلطاني فوق الهضبة السادسة داخل باب أدرنه عند نهاية الطريق العام المنطلق من فناء أيا صوفيا. كان هذا أيضاً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بسليمان؛ إذ فوضت ابنته ميهريما Mihrimah معماري السليمانية سنان من أجل بنائه، وتم بناؤه بين عامي 1560 و1565. كانت مئذنة الجامع المشوقة، التي كانت ترى من جميع أنحاء المدينة، علامة بارزة على نهاية مسيرة طويلة من المعالم العمرانية للأمجاد العثمانية.

كان ضباط السلطان وموظفوه أيضاً بنائين كباراً، يحذون حذو سادتهم السلاطين، وبحلول القرن التاسع عشر أصبح هناك أكثر من 500 مسجد وضريح في العاصمة. كان وقف المسجد يعد عملاً لإظهار التقوى، وكان يهيِّئ لمؤسسه مكاناً للدفن؛ لأن مرقده كان يشكل جزءاً من مجمع المسجد، والمبنى يحمل اسمه إلى الأبد. كان الكثير من المساجد بمنزلة المبنى التذكاري الوحيد للموظفين الذين فقدوا الحظوة وتم إعدامهم في ما بعد. وعلى الرغم من مصادرة عقاراتهم، فقد بقيت الأوقاف الموهوبة للمساجد من دون أن يمسها أحد. ومثل هذه الهبة يمكن أن يكون لها منافع مادية مباشرة للواهب وأسرته؛ لأن الأموال الخيرية الدينية كانت مخولة بإقراض المال مقابل فائدة؛ وهذا أمر لولا ذلك فهو محرم في الإسلام. استطاع كثير من الواهبين ضمان الأمن لأسرهم من

خلال وقف الأموال لأغراض دينية، بشرط أن يدفع الوقف دخلاً تقاعدياً لذريتهم إلى الأبد. ولم تكن هذه الأعمال الصالحة حكراً على الرجال وحدهم، فقد عرفت نساء الأسرة السلطانية وزوجات المسؤولين العثمانيين أيضاً بأعمالهن الصالحة، وهناك عدد كبير من المساجد يحمل أسماءهن.

كان ثمة تناغم بين التقوى والحذر، وقد حظيت المدينة برصيد ضخم من المباني الدينية والمدارس والنوافير والأسواق والحمامات العامة والمكتبات، وكلها وقف من قبل المؤمنين. كانت المساجد السلطانية تمتلئ لأداء صلاة الجمعة والأعياد الدينية الكبرى. وقد تم استخدام مئات المساجد الصغيرة والمقامات لأداء الصلوات اليومية ولبت الاحتياجات المحلية، وكانت النقطة المركزية في مجتمعاتهم، كما كانت الكنائس البيزنطية في القرون السالفة. والواقع أن أي مبنى كان يستخدم للعبادة المسيحية غالباً ما كان يستمر استخدامه كمسجد مع أدنى قدر من التغييرات.

كانت المدينة طوال القرون المسيحية خليطاً من مجتمعات صغيرة تواجدت بصعوبة جنباً إلى جنب. في العصور البيزنطية قام الكثير من هذه القرى ببناء أسوار استبعاداً لجيرانها. وقد اختفت الأسوار بعد الفتح، ولكن روح المجتمعات المغلقة انتقلت إلى المدينة العثمانية، وتمت إقامة "أحياء" أو "تجمعات أقليات (غيتو)" حينما أصبحت إسطنبول جاذبة للطامحين وعديمي الجذور من كل جزء من أجزاء الإمبراطورية، وقد لاحظ أحد الكتاب عام 1873 الحشود في المركز التجاري بالمدينة أن:

> تعد القسطنطينية مدينة – للكثير من الأمم، وليس لأمة واحدة – ولا فرق في ذلك بين أمة وأخرى... وهناك ثماني لغات أو تسع يتم دائماً التحدث بها في الشوارع، وتظهر خمس أو ست منها على واجهات المحلات. وليس هناك من شيء يوحد الأعراق، لا علاقات بين الناس إلا علاقات التجارة، والجميع يخشى بعضهم بعضاً بشكل دائم.[10]

كل مجتمع، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً، يحكمه زعماؤه، ويتمركز حول مسجده أو كنيسته أو بيعته. ولم تكن حدوده ظاهرة ولكنها حقيقية. وقد تجمعت

الجماعات العرقية أو الإقليمية معاً من أجل الحماية المتبادلة. وكان أشخاص جدد قادمون من الأقاليم ينضمون إلى أسر استقرت من قبل في العاصمة ليشكلوا قرية جديدة، مثلاً، من الأناضوليين أو الألبانيين. ولكن كانت ثمة علامات خارجية قليلة تميز بين مجتمع وآخر. وكانت البيوت الخشبية الآيلة للسقوط تبدو متشابهة سواء كان يسكنها مسلمون أو مسيحيون أو يهود. لم تكن إلا قصور قلة الأثرياء مبنية من الطوب أو الحجر، ومعظم البيوت الأفضل مبنية من الخشب والألواح الخشبية والجص مثل بيوت الفقراء.

كانت القصور العثمانية الشاهقة تغطي الهضاب في وسط إسطنبول، بينما تنعم أسر التجار اليونانيين بأسلوب حياة عظيم في حي فنر Fener بمحاذاة القرن الذهبي. كانت تبدو هذه البيوت من الشارع مهترئة وآيلة إلى السقوط، أما من الداخل فكانت مريحة، بل وفخمة. وصفت السيدة هارفي Mrs Harvey "من إيكويل بيري" زيارتها إلى بيوتات عثمانية تقليدية ثرية في صيف عام 1871 ولاحظت في أثناء مرورها فناء صغيراً مظللاً، محاطاً بأروقة: «تعرشت على أعمدتها نباتات متسلقة، وفي الوسط كانت هناك نافورة تحيط ببركتها أشجار البرتقال وكتل منسقة من الأزهار». ويقود الدرج العريض في نهاية الفناء إلى الشقق الرئيسية، وعند رأس الدرج كان يوجد صالون واسع:

> في منتهى الروعة، وكان مطلياً ومذهباً على نحو يوحي بالثراء، وكان هناك الديوان المعتاد، والأرض مغطاة بسجاد ناعم، ولكن لم يكن هناك أي نوع آخر من الأثاث... كانت الجدران جميلة جداً؛ إذ كانت مطلية بلون القشدة الأصفر الشاحب، تحيط بأطرافها كتابات باللغة التركية، منقوشة بلون الذهب المطفأ، وهو نوع من الزخرفة الجميلة والبهية... وكان كثير من الجمل آيات من القرآن الكريم، وبعضها الآخر تضمن أسماء والد الهانم [السيدة] وألقابه، فقد كان وزيراً يتمتع بقدر كبير من النفوذ والأهمية.[11]

في غرفة مجاورة لاحت منها التفاتة إلى «طاولة جدارية عليها الساعة المعتادة، وبيانو، وبعض الكراسي الصلبة المرتبة مقابل الجدران».

كانت قلة من المنازل العثمانية تمثل أكثر بكثير من كونها واجهة فارغة مغبرة بالنسبة إلى العالم، وحتى القصور السلطانية كانت مخبأة خلف الأسوار العالية. فالحياة في إسطنبول كانت يعيشها الناس داخل البيوت، ويستبعد منها العالم الخارجي. وكانت حياة الشارع قبيحة؛ وذلك لأسباب سرعان ما اكتشفها الأب روبرت والش عندما نفذ إلى قلب إسطنبول:

يمثل داخل المدينة تبايناً كئيباً مع مظهرها المغري عن بعد، فالمنطقة بكاملها مقسمة بأزقة ضيقة ملتوية، لا يستحق أي منها تسميته بشارع؛ فهي تنحدر إما صعوداً إلى الهضاب أو نزولاً منها على طول جوانبها... أما الشوارع فمرصوفة بقرميد مشوه، يمثل جميع أشكال الزوايا الحادة في الأعلى، مع وجود فراغات في ما بينها. وفي بعض الأماكن تمتد أرصفة ضيقة بعرض نحو قدم واحدة بمحاذاة البيوت، ولكنها قوية وخشنة وتعترضك فيها درجات وعقبات أخرى، مما يجعل من الأسهل البقاء في منتصف الطريق... كما تمثل البغال والخيول وما تجره خلفها من ألواح وعوارض خشبية عقبة أخرى تسد الممرات المزدحمة باستمرار...

في أي مدينة أخرى في أوروبا تتوقع أن ترى مكاناً أفضل بناء أو فضاء أوسع مساحة، فتأتي إليه. أما هنا فكل الأماكن سواء، وأول زقاق ضيق ووسخ تدخله يمثل أمامك عينة للمدينة بكاملها البالغ محيطها ثلاثين ميلاً. أما الأشجار والصروح التي بدت منثورة على نحو جميل وزينت سطح الهضبة أمامك، فلن تراها مطلقاً. فالبيوت الوضيعة المهترئة التي برزت منها النوافذ الخشبية والمتقاربة في ما بينها في الأعلى، والتي تحجب الضوء، حجبت عنا أيضاً رؤية كل منظر آخر.[12]

في منتصف القرن التاسع عشر كان يعيش ما يقارب 400000 نسمة في المدينة. وكانت معظم بيوتهم بالية ومهلهلة، بنيت على عجل، ودمرتها الحرائق والزلازل التي اجتاحت المدينة. ذكر الروائي الفرنسي ثيوفيل جوتييه Theophile Gautier في عام 1854 أن من النوادر أن تجد منزلاً عمره أكثر من ستين عاماً.[13] ولكن هذه المخاطر الطبيعية أصابت منازل الأغنياء، وكذلك أكواخ الفقراء. وحتى المباني الحجرية لم تكن منيعة؛ فقد وقع زلزال كارثي عام 1766 دمر الجانب الأكبر من مجمع الجامع الذي شيده محمد الفاتح، وتم تجديد الجامع في طراز زخرفي مختلف تماماً عن الشكل التقشفي القديم.

وهناك زلزال آخر حدث عام 1894 سبب دماراً أوسع انتشاراً. أما الحرائق فكانت تتكرر بشكل شبه يومي، وإن لم يتم إطفاؤها بسرعة فيمكن أن تكتسح مناطق شاسعة من المدينة، وتشتعل على مدى أسابيع كاملة. فقد تم حرق الباب العالي وإعادة بنائه ثلاث مرات في الأعوام الثلاثين الأولى من القرن التاسع عشر. ففي أغسطس 1826، أتلف حريق هائل جزءاً كبيراً من الفناء الأول وجزءاً من الفناء الثاني في يني سراي. وبعد هذا الحريق بأكثر من ثلاثين عاماً كانت الخرائط ماتزال تظهر مناطق شاسعة فارغة مكتوباً عليها "دمره الحريق". وبذلت السلطات جهوداً ضخمة لإقامة نظام إنذار ضد الحريق وفرقاً من الإطفائيين، ولكنها لم تكن مطلقاً كافية لأجل مدينة مبنية من الخشب القديم الجاف.

كانت مدينة بيرا المسيحية (المحيطة ببرج المراقبة الجنوبي القديم في غالاطا) في الجانب الآخر من القرن الذهبي عرضة لخطر أكبر، فقد بنيت على طرف هضبة شديدة الانحدار وفيها شبكة من الأزقة الضيقة، مما جعل الحرائق تنتشر حتى أسرع مما انتشرت في إسطنبول؛ فقد دمر حريق اندلع عام 1870 نحو 3000 منزل أو أتلف ما في داخلها، على الرغم من أن عدداً كبيراً منها كان مبنياً من الحجارة وليس من الخشب. كانت إسطنبول الإسلامية وبيرا المسيحية جزءاً من المدينة نفسها، وتخضعان للشريعة الإسلامية، ولكنهما عملياً كانتا كيانين منفصلين. وقد تم منح الاختلاف وضعاً قانونياً عام 1858، عندما كانت بيرا أول جزء من العاصمة يتم تزويده بمجلس للمدينة يتمتع بالسلطة على المجتمعات المحلية. وعلى الرغم من حدوث شجارات مستمرة بين الجماعات العرقية والاجتماعية الكثيرة التي تكونت منها "مدينة الكفار" (حيث كلمة كاوور Giaour تعني كافر وهي تسمية تهكمية تعني "مسيحي")، فقد نجح المجلس؛ إذ تغير وجه بيرا. ومع مرور الزمن في أثناء القرن أصبح التباين أكثر وضوحاً بين إسطنبول وبيرا. وفي عام 1895 كتب زائر أمريكي: «في غالاطا يبدو الشرق متغيراً كما لو كان ذلك بعصا ساحر؛ إذ لم تعد تُرى النوافذ المتشابكة في أي مكان تقريباً. والمآذن الخفية قليلة ومتواضعة... ويستهزأ

بغالاطا/ بيرا بوصفها مدينة كافرة... وهكذا يبدو الأمر: مدينة غربية انقطعت بها السبل في المشرق».[14]

لم يتم توفير جهد لصنع وهم الحضارة الغربية في بيئة غربية. فالشارع الرئيسي له اسم فرنسي – شارع بيرا الكبير The Grand Rue de Pera. كانت هناك صحف تقلد صحف باريس ولندن، والرقصات والسهرات اليومية. كان عالم بيرا مكوناً على الأغلب من اليونانيين والأرمن الذين تبنوا العادات الغربية السائدة في الكلام واللباس. وكانوا ينظرون بتعالٍ إلى العثمانيين "الجفاة"، وكانوا مكروهين بدورهم من جانب الزوار الأوروبيين بسبب تكلفهم وتظاهرهم. وقد تم ضبط أجواء المجتمع بواسطة السفارات التي هيمنت قصورها المهيبة على بيرا. كانت جميعاً تتجسس وتتآمر على الحكومة العثمانية وعلى بعضها البعض، وكانت الحكومات الأوروبية - لا العثمانيون - هي التي تمثل السلطة الحقيقية في المدينة المسيحية. فالامتيازات الممنوحة من قبل السلطان -"الامتيازات الأجنبية" الشائنة - سمحت للسفارات بامتيازات سيادية تقريباً على أي شخص زعموا أنه أحد مواطنيهم. فقد كان لديها جميعاً قوائم بالأشخاص الخاضعين للحماية، الذين تم منحهم حصانة من القانون العثماني وأصبحوا ضمن دائرة اختصاص حكوماتهم. وكان هناك تجارة نشيطة بالأوراق المزورة أو المبدلة، وكانت بيرا تعج "بالفرنسيين" الذين لم يكونوا أقرب إلى فرنسا من كعب قارورة البراندي لديهم [أي لا صلة لهم بفرنسا تقريباً]، أو "الإنجليز" الذين نادراً ما تحدثوا بعشر كلمات من اللغة [الإنجليزية]. وقد علم الخبير الاقتصادي ناسو سينير Nassau Senior عام 1857 أنه «ليس من مجموعة من المتوحشين أسوأ من الأيونيين والمالطيين الذين يطوفون في جميع أنحاء المشرق ويقومون بالاستئساد والغش والاغتيالات تحت الحماية البريطانية».[15]

وحيث كانت تفيض إسطنبول بالمساجد، فإن بيرا تحوي وفرة من الكنائس الكبيرة والصغيرة لكل طائفة يمكن تصورها: الروم الكاثوليك، والأرمن، والكلدانيين، والنسطوريين، والسريان، والمشيخيين، والروس الأرثوذوكس، والأنجليكانيين،

والانضماميين أو الكاثوليك. وكانت الشوارع «محاطة بمحلات يديرها الإيطاليون والإغريق والفرنسيون».[16] وقد لاحظ ألبرت سميث أنه كان هناك «عدد كبير من السلع الإنجليزية للبيع، من جوارب ومطرزات قطنية وأدوات المائدة ودهان أسود للأحذية. في إحدى النوافذ كان هناك عدد من زجاجات شراب البنش... وفي الزاوية كانت لوحة مكتوب عليها "شقق مفروشة للإيجار"، وعلى سور المقبرة الصغيرة كان تركي جالساً ومعه صينية من أقلام بيرمنجهام الفولاذية على بطاقات».[17] كان الأوروبيون يقيمون في بيرا ولم يكونوا أبداً في جهة إسطنبول. لم يأت جون موراي John Murray في كتابه **دليل الرحالة في تركيا** *Handbook for Travellers in Turkey* على ذكر حتى فندق يمكنهم الإقامة فيه بالمدينة. وقد اصطبغت رؤيتهم لإسطنبول بالحريات النسبية في المدينة الأوروبية. فالمشروبات كانت تتدفق بحرية في بيرا، بينما كانت محظورة رسمياً في إسطنبول. ولم يكن ثمة جسر مناسب بين المدينتين حتى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وكانت المواصلات جميعاً بينهما بواسطة الزوارق، وهي عادة زوارق الكايك caique الرشيقة التي وجدها الأوروبيون طريفة جداً.

لم تلق الجسور ترحيباً عاماً بها؛ فالأول منها كان راكباً عبر القرن الذهبي في أضيق نقطة منه، وذلك تقريباً حيث كان البيزنطيون يعلقون السلاسل لإغلاق المرفأ عام 1453، وقد تم افتتاح الجسر عام 1838. وكان يطفو على مجموعة من الأطواف أو العوامات الخشبية، ولذلك كان يرتفع وينخفض مع حركة الأمواج اللطيفة. تم افتتح جسر ثان عام 1850 في آخر القرن الذهبي، وقد تم تبديل الجسر العائم عام 1878 ببناء جسر جديد «يحتوي على طريق عام واسع وممرات مشاة فسيحة»،[18] ظل يُستخدم حتى تسعينيات القرن التاسع عشر، عندما قامت شركة ألمانية بتركيب جسر ضخم من الحديد الصلب عبر القرن الذهبي.

أسهم تحسين إمكانية الانتقال في تقليص الإحساس بالانفصال بين بيرا وإسطنبول، ولكن لم يجر إلغاؤه على الإطلاق. وكان كلا المجتمعين يرغب في المحافظة على تلك

المسافة. كانت بيرا وجهة للزيارة من قبل النساء العثمانيات «اللواتي كانت تغريهن بنوافذها الزجاجية المطلية»، غير أنهن كن «يقمن بسرعة بالانتهاء من المشتريات ويسارعن إلى البيت».[19] وكان الرجال العثمانيون الذين لم يستطيعوا الالتزام بتحريم القرآن للمسكرات يحصلون على ما يريدون من النبيذ والمشروبات الكحولية في "مدينة الكفار"، ولكنهم كانوا ينظرون إليها بمزيج من الحسد والاشمئزاز.

قدم خليل خالد إلى العاصمة للدراسة في إحدى مدارسها الكثيرة تحت رعاية عمه وإشرافه. وذات مساء، بعد وصوله بوقت قصير، قام بزيارة بيرا، وأذهلته «العلامات الجلية للرخاء والثراء الذي ينعم به سكانها». ولكنه مع اقتراب المساء نزل إلى قلب المدينة، غالاطا، ورأى مشاهد روّعته:

> هنا يمكن رؤية سفاحين، الجريمة منقوشة على وجوههم، وفوق هذا كله، الكثير من المدمنين على الكحول... وهنا أيضاً رأينا بيوتاً سيِّئة السمعة فيها نساء متبرجات شبه عاريات جالسات على الشرفات أو واقفات على عتبات أبواب بيوتهن، يدعون كل من كان يمر بهن... لقد شعرنا بالاشمئزاز من هذا العرض لما يعتقد معظم المسلمين بأنها حياة "مسيحية". وبعد هذه الجولة لم يعد يسمح لي بزيارة الحي الأوروبي لفترة طويلة.[20]

إن الكثير من العثمانيين المتنورين الذين كانوا ينبذون الكراهيات القديمة للكفار كانوا مايزالون لا يرغبون في أن يتفرنجوا [أي يصبحوا مثل الأجانب الفرنجة] ويعيشوا حياة أهالي بيرا. وبعد بناء الجسر "الجديد" عام 1850 وتحسن المواصلات بين المدينتين، ارتفعت إيجارات البيوت بشكل لافت على واجهة إسطنبول المائية، وازدادت جرائم الشوارع التي كان يرتكبها غالباً اليونانيون والأرمن وذلك على نحو يدعو للقلق. لم يكن ذلك دعاية جيدة للحضارة الغربية.

سر معظم الأوروبيين بانفصالهم عن إسطنبول الإسلامية، فقد استحسنوا الراحة النسبية والحضارة في المدينة المسيحية، ولم يحل لهم ما اعتبروه صفاتها "التركية" – من قذارة وانحطاط – علماً أن بعض المراقبين الموثوقين، من أمثال تشارلز وايت، الزائر الإنجليزي،

أشار بقوله: «لكن من الإنصاف للأتراك ملاحظة أن شوارع بيرا وغالاطا أشد قذارة بدرجة كبيرة من شوارع القسطنطينية، ولاسيما في الأحياء التي يقتصر العيش فيها على اليونانيين والأرمن».[21] وكان الرحالة قانعين بقضاء يوم في مشاهدة مناظر إسطنبول القديمة قبل العودة إلى بيرا وأسباب الراحة الغربية.

بحلول منتصف القرن التاسع عشر تسارع النمو كثيراً في بيرا، وكانت بيوت الحجارة والطوب على الطراز الغربي تنتشر إلى أعلى سفح الهضبة، وبحلول عام 1844 أصبح عدد السكان الأوروبيين يقدر بنحو 15000 نسمة.[22] بالمقابل، كان القنصل البريطاني يلاحظ أن «أن السكان المسلمين من أصل عثماني في القسطنطينية يتناقصون... وعلى حين تتناقص أعداد العثمانيين سنوياً، تزداد أعداد السكان المسيحيين واليهود بنسبة سريعة».[23] وبحلول عام 1878فاق عدد السكان الأوروبيين 120000. [24]

أصبحت"مدينة الكفار" مدينة مزدهرة. وازداد طلب العثمانيين على السلع الأوروبية بعد حرب القرم في الفترة 1853-1856. وتدفق على المدينة الانتهازيون والمحتالون والخبراء الماليون الرأسماليون والقوادون والمومسات وأصحاب المحلات والتجار. إن الإحصائيات غير دقيقة، ولكن التقديرات تشير إلى أن التجارة في الواردات (غالباً من بريطانيا وفرنسا) تضاعفت مرتين بين بداية الأربعينيات ونهاية الخمسينيات في القرن التاسع عشر، وأربعة أضعاف في نهاية القرن. وصلت أول باخرة، سويفت Swift، عام 1828، وبحلول أواخر الأربعينيات كان النمساويون والفرنسيون والبريطانيون والروس يقومون بتسيير خدمات بواخر منتظمة إلى بيرا، تنقل السلع والمسافرين، وواكب تدفق الواردات سيل من الصادرات، وكان يتم توجيه جانب كبير منها من خلال بيوت التجار في بيرا. وحتى ثمانينيات القرن التاسع عشر:

> كانت القسطنطينية سوقاً لجميع المنتجات التي كانت تشق طريقها من الداخل إلى البحر الأسود وشواطئ بحر مرمرة. وكانت مراكب الملاحة الساحلية المحلية الصغيرة تستلمها وتنقلها إلى القسطنطينية، وكان يوجد في القرن الذهبي سوق كبرى ونشيطة، ليس

للمنتجات التركية فحسب، بل لأجل الحبوب وبذور الزيت، والصوف، والجلود، والشحوم، من جنوب روسيا والدانوب.[25]

ويبدو القرن الذهبي في أولى صوره في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر مكتظاً بالسفن التجارية.

ولم يتم استهلاك معظم الواردات القادمة من بريطانيا وفرنسا من قبل الأوروبيين، بل من قبل العثمانيين. وقد ابتهج والش من رؤية التحول الذي أحدثته التجارة:

بعد أن عرضت القسطنطينية على مدى قرون مشهداً منفرداً وفريداً لمدينة إسلامية في منطقة مسيحية، ووقفت ساكنة على حين كان كل ما حولها يتطور، نهضت أخيراً وبشكل مفاجئ من غبائها وغفلتها، فالمدينة تشهد تغيراً يومياً غير عادي وغير مأمول أيضاً، وسوف يرى الجيل الحالي في ذهول ثورة من الاستخدامات والآراء خلال عمرٍ واحدٍ؛ الأمر الذي لم يحدث في أي بلد آخر عبر القرون... لقد رأى المسافر الذي زار القسطنطينية قبل عشر سنوات [السلطان] في الأكشاك، والشرفات الخشبية النافرة تحيط بها نوافذ كئيبة ومشاعر الغيرة (فقد أغلقت أمام أعين جميع الناظرين)، وهو يراه الآن في قصر مهيب... له ما لأي ملك أوروبي من جمال وسعة.[26]

بحلول أربعينيات القرن التاسع عشر، كان زعماء المجتمع العثماني قد غادروا المدينة القديمة، بحرارتها الصيفية الخانقة، إلى حياة أكثر نظافة وراحة بمحاذاة مضيق البوسفور، وعلى الشاطئ الآسيوي في أسكودار. وقد استغل السلطان محمود الثاني (1808-1839) ذريعة حريق 1826 لينقل سكنه الرسمي من يني سراي إلى قصر جديد في بشكطاش على مضيق البوسفور، وعلى صعيد الواقع فهو نادراً ما استعمل يني سراي بعد عام 1815. وفي الأعوام الأربعين اللاحقة تم بناء قصور سلطانية جديدة في بيلاربାي على الشاطئ الآسيوي للبوسفور، وفي تشيراجان على الشاطئ الأوروبي، وفي دولما باهتشة حيث اتصل مبنى ضخم بقصر أصغر منه كثيراً في بشكطاش. وقد سر السلطان بإنشائه قصوراً أسطورية على الطراز الغربي المصبوغ بصبغة عثمانية على النمط العثماني بصورة تدعو للغرابة. وقد أخذ ثيوفيل جوتييه Theophile Gautier في جولة في أنحاء دولما

باهتشة بصحبة مهندسها المعماري نيكوجوس باليان Nikogos Balian. وقد أعوزت الكلمات الأديب الفرنسي لكي يصفه: «ليس إغريقياً ولا رومانياً ولا قوطياً ولا إسلامياً ولا عربياً ولا حتى تركياً». كانت الواجهة الرئيسية في نظره تشبه «قطعة ضخمة من عمل حداد، بالنسبة إلى الترف المعقد في زخارفها والدقة البالغة في تفاصيلها». فقد وصف أعمدتها المجعدة وأطر [نوافذها] المزينة بالنقوش، وكيف «كانت الفراغات المتوسطة مزدحمة بالنقوش المنحوتة وفن الزخارف العربية بينها». ولكنها وإن لم تكن متوافقة مع أي طراز تقليدي من الشرق أو الغرب، فإنها كانت رائعة في محيطها عل شواطئ البوسفور: «إن البناء الهائل من رخام المرمر باللون الأبيض المائل إلى الزرقة، والذي يضفي عليه لمعان الجدة شيئاً من البرودة، كان له أثر مهيب، بانتصابه بين زرقة السماء وزرقة البحر».[27]

بحلول عام 1878 كان محمود الثاني، وخليفتاه عبدالمجيد (1839–1861) وعبدالعزيز (1861–1876) قد بنوا أو جددوا ليس أقل من عشرة قصور أخرى مصفوفة على طول البوسفور. كانت التكلفة باهظة. في عام 1856 بلغت القائمة المدنية للسلطان، ومعظمها تم إنفاقه على بناء جديد وشراء أثاث من أوروبا، أكثر من 14.5٪ من إيرادات الدولة، ولكن في ذروة طفرة بناء القصر، في الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر كان عبدالعزيز ينفق أكثر من ضعف تلك القيمة.[28] لقد كان ذلك نزفاً لا تتحمله الموارد الوطنية.

وقد أسهم أيضاً في تغذية ازدهار البناء كبار موظفي السلطان الذين كانوا يفضلون دائماً بيوتهم المسماة yalis (المطلة على حافة الماء حيث كانوا يقضون الصيف) على بيوتهم في المدينة. وفي أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر أصبحت المدينة تمتد في ما وراء الأسوار. كان الأثرياء ينتقلون إلى بيوت على طول البوسفور، وكان الفقراء يقيمون مدن الأكواخ خارج أسوار المدينة، وعلى طول جانبي القرن الذهبي. وفي عام 1888 كان وصول سكة الحديد التي ربطت إسطنبول مباشرة بباريس بمنزلة رمز لتدمير المدينة القديمة بواسطة الجديدة. وقد التوى الخط حول سفح سراي بورنو فوق الأرض التي

كانت تقف عليها أسوار بيزنطة البحرية القديمة منتصبة في الماضي وفي ما بعد أكشاك السلطان والقصر الصيفي. وقد تم تدمير الجميع باسم التغيير والتطوير لشق طريق للعجلات الحديدة للتجارة.

في عام 1878 أعلن جون موراي عن طبعة جديدة من كتابه الشهير **دليل الرحالة في تركيا**:

> التغيرات الكبرى التي حدثت في تركيا خلال السنوات القليلة الماضية استدعت صدور طبعة جديدة من الدليل. لقد أزالت الحروب والثورات المعالم الوطنية القديمة، وقد فتحت الطرق والسكك الحديدية قطاعات كبرى من البلاد لم يكن الوصول إليها متاحاً من قبل، وقد أدت طرق الترام والمركبات إلى سهولة زيارة أشهر المعالم...[29]

لقد نمت إسطنبول جديدة من رحم القديمة؛ حيث تم شق الطرق عبر مناطق المساكن المتداعية، وظهر مركز تجاري جديد حول الجسر الجديد ومحطة القطار.

بقي الميناء الكبير محط الأنظار في المدينة؛ «حيث كان يستوعب 1200 سفينة شراعية في آنٍ واحد... وكان عميقاً بدرجة كافية لحمل سفن حربية من أكبر الأحجام، بحيث ترسو بجوار الشاطئ».[30] وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر كان الميناء العميق (أكثر من 18 قامة) يمتلئ بالسفن من جميع الأنواع والأحجام، من زوارق الفلوكة التقليدية إلى زوارق الدهو الشراعية في شرق البحر الأبيض المتوسط، مروراً بالبواخر الساحلية لدول كثيرة، إلى السفن الحربية لدى البحرية العثمانية التي كانت ترسو في القرن الذهبي كل شتاء وفي البوسفور في أثناء الصيف. وقد تمت إقامة رتل من السفن البخارية عام 1851 بخدمات منتظمة إلى القرى بمحاذاة البوسفور. كان الجسر الذي يربط بين بيرا وإسطنبول «مشيداً بحيث يشكل جسراً دوّاراً لكي يسمح بمرور السفن الأكبر حجماً ذهاباً وإياباً. فقد ساعدت المفاصل الحديدية الضخمة المثبتة على إحدى الزوايا على سحبه للخلف ورجوعه في غضون بضع دقائق».[31]

كان جسر بيرا النقطة المركزية لأنظمة النقل الحديثة التي جاءت مع إعادة بناء إسطنبول، وتوسيع بيرا، وإنشاء ضواحٍ عثمانية جديدة على طول البوسفور. وكان هناك "ترام" يصعد الهضبة من نهاية جسر إسطنبول إلى الميدان القديم لأيا صوفيا؛ ومن ثم خلال الشوارع الضيقة في المدينة القديمة إلى النقطة المجاورة لقلعة الأبراج السبعة حيث تنزل الأسوار إلى بحر مرمرة. وفي جانب بيرا كان يمتد خط ترام على طول شاطئ البوسفور مروراً بجوار قصور السلاطين الجديدة عند دولما باهتشة وتشيراجان، من خلال الضواحي الجديدة إلى قرية أورطاكوي Ortakoy. وكانت الحافلات التي تجرها الخيول، "نظيفة ومريحة" في رأي كتاب موراي، تربط مع خط الترام، وتمثل نظاماً للنقل العام إلى أجزاء أخرى من المدينة. كانت الشوارع الجديدة أكثر اتساعاً واستقامة من الشوارع القديمة، ولكن انتشار الترام والباصات والعربات الخاصة والخيول أدى إلى ازدحامها واتساخها مثل الشوارع الضيقة والأزقة القديمة.

أما في الطرق المفضية إلى الشوارع المرصوفة حديثاً، وفي البلدات المتداعية بعيداً عن المباني الكبرى على الهضاب الست، فقد استمرت إسطنبول القديمة بوضوح دونما تغير. وكانت استمراريتها تمثل تحدياً وتأنيباً للسلاطين المصلحين، من أمثال مراد الثاني وعبدالمجيد، ووزرائهم، فقد كانوا ينوون جعل إسطنبول مدينة عصرية، وباريساً إسلامية، فيها شوارع مشجرة وميادين وخدمات عامة تتصف بالكفاءة.

كان أول إصلاح ملموس يتعلق بتطبيق القانون (ما يكشف عن الأولويات العثمانية أن المهمة الأساسية للموظفين المحليين كانت تطبيق قوانين صارمة في اللباس، أولها القوانين التي أرساها الفاتح، ثم تلك القوانين "الإصلاحية" التي أمر بها حفيده محمود الثاني). فقد تم إنشاء قوة شرطة نظامية، كانت تقوم في البداية على بستنجية القصر الذين قاموا بدور الشرطة داخل يني سراي، ثم - بعد عام 1845- قوة نظامية تحت سلطة مجلس للشرطة. وفي عام 1853تم مسح المدينة القديمة شارعاً شارعاً، وتم إنشاء ملكية لجميع عقارات الأراضي، وقد دل المسح على أنه بعد قرون من وصايا التوريث الدينية

كانت في الواقع ملكية جميع المناطق الرئيسية في المدينة تعود إلى الأوقاف الخيرية للمساجد. وكانت السلطات الدينية أقوى الحقوق والمصالح المكتسبة التي هيمنت على إسطنبول على مدى قرون، وقاومت بقوة أي تغيير كانت تعتقد أنه سينتقص الصفاء الإسلامي، وقد اتحدت مع نقابات المهن لمقاومة الضغوط الرامية للتغيير.

تآكلت مقاومة "الإصلاح" شيئاً فشيئاً، وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر تم تجريد النقابات الحرفية وهيئات المساجد من سلطاتها، وتم تزويد إسطنبول (مثل بيرا "مدينة الكفار") بمجلس للمنطقة وقدر كبير من البيروقراطية، وقام مفتشو المباني، ومفتشو المدارس، وهيئة خبراء التقويم التجاري، والمفتشون الصحيون، وشرطة المدينة، بتطبيق الكثير من الفرمانات المحلية التي تدفقت من مجلس المدينة.

لعل أكثر التغييرات لفتاً للأنظار كان يتعلق بمجموعات الكلاب التي كانت تجوب الشوارع منذ أيام البيزنطيين. فقد كان الأوروبيون ينظرون إليها إما برعب أو بإعجاب، وأكدت أنها مسموح لها بالتجول بحرية بسبب وجود محبة إسلامية للحيوانات النبيلة. وقد قارنوا هذا الحب للحيوانات بقسوة العثمانيين على إخوتهم من بني الإنسان. كانت الحقيقة أكثر واقعية؛ إذ كانت الكلاب تسيطر على المدينة ليلاً؛ لأنه لم يكن لدى أحد اهتمام كبير بمنعها. وقد قامت أيضاً بوظيفة نافعة بأدائها دور نظام بدائي في التخلص من النفايات. فقد لاحظ تشارلز وايت أن قطاعاً كبيراً من المدينة كان «سيصبح في حالة لا تطاق بسبب جثث الخيل النافقة وتراكم القاذورات، لولا هذا الحشد الكبير من الكلاب. في الوقت الحاضر لا شيء ينجو من ضراوتها، ففي أقل من اثنتي عشرة ساعة من سقوط أحد الأحصنة لا يبقى شيء من بقايا جيفته».[32] ولكن الكلاب المتوحشة لم تكن منسجمة مع صورة المدينة الحديثة، وقد أمر مجلس المدينة بتجميع كل الكلاب الضالة وشحنها إلى جزيرة جافة منعزلة في بحر مرمرة كي تموت هناك. لقد تم محو معلم مشرقي قديم «نابض بالحياة» بجرة قلم.

كشفت "مشكلة الكلاب" نقاط القوة والضعف في الإدارة العثمانية معاً. فقد كان بالإمكان تصحيح إساءات معينة، غير أن عملية "الإصلاح" كانت ضد المزاج الاجتماعي. فقد كان هناك حماسة ضعيفة لإيجاد بنية أساسية غير منظورة لمدينة حديثة. جادل منتقدو "التقدم" العثمانيون بقولهم: لم يا ترى نقضي عقداً من الزمن وثروة على الصيانة والإصلاح، على حين أن زلزالاً واحداً أو حريقاً كبيراً يمكن أن يدمر كل ذلك العمل؟ بالإمكان التخلص من الكلاب بعمل واحد لا رأفة فيه، أما بالوعات التصريف الموعودة لإزالة القاذورات من المدينة فتظل تخطيطاً طويل الأمد؛ ومن ثم لم يتم بناؤها لمدة ثلاثين عاماً آخر، وازدادت إسطنبول قذارة.

كان بالإمكان تفسير الكثير من هذه العيوب منطقياً بالضائقة المالية؛ فقد بذّرت الدولة العثمانية مواردها، وعندما لم تكن مصادر دخلها كافية استحدثت القروض بأسعار فائدة عالية. وحصلت النتيجة الحتمية عام 1875 عندما اضطرت الإمبراطورية إلى الإقرار بالإفلاس، وفرضت الحكومات الأوروبية تسوية ضمنت استثماراتها الخاصة. وتبع ذلك سنوات من التقشف المالي، وتبدد الدعم لأجل منافع غير منظورة وغير ملموسة، مثل الصرف الصحي، وتم استخدام الأموال الباقية في المواطن التي يمكن رؤيتها فيها، واستمر ازدهار البناء.

ترك سلاطين القرن التاسع عشر، مثل أسلافهم، المساجد والقصور هدية لذريتهم، ولكن المباني نفسها كانت تجسد مبادئ التغيير والتقدم. فقد بنى محمود الثاني جامع النصرتية (أو جامع النصر) احتفاء بانتصاره على الإنكشارية، ولم يختر لموقعه مكاناً داخل المدينة القديمة، بل شاطئ البوسفور على الطريق إلى بشكطاش؛ حيث كان قد شيد قصره الجديد. كان الجامع مختلفاً تماماً من حيث الأسلوب عن أي جامع آخر في المدينة. وبما أن مصممه هو كريكور باليان Kirkor Balian، فقد كان أشبه في تصميمه بالطابع الغربي لما ينبغي أن يكون عليه مظهر البناء "الشرقي" من شبهه بما سبقه من الطابع الإسلامي. وكان القصد منه تسجيل اتجاه جديد في الإمبراطورية العثمانية، بعيداً عن الماضي، كما كانت

تجسده مباني إسطنبول، نحو طراز عثماني جديد يضم أفضل المواصفات لدى الغرب. لقد تم تصميمه كمعلم لعصر جديد.

لكن المعالم الأساسية للسلاطين العثمانيين "الجدد" كانت مدنية وعسكرية. وكان أكثرها لفتاً للانتباه مبنى يُرى عبر البوسفور فوق الشاطئ الآسيوي في حيدر باشا، هو الثكنة التي بناها أولاً سليم الأول من الخشب، وأعاد بناءها من الحجر محمود الثاني عام 1828، وقام بتوسعتها ابنه عبدالمجيد في الفترة 1842-1853. وكان بناؤها يحيط بثلاثة جوانب من ساحة عروض واسعة، وكانت مؤلفة من ثلاثة طوابق، وعلى كل ركن من أركانها برج رفيع، وأكثر من 1100 نافذة من الجهة المتجهة نحو إسطنبول. وصفت فلورنس نايتنجيل Florence Nightingale (التي استخدمت جانباً من ذلك المبنى لأجل المستشفى العسكري البريطاني المشهور في أثناء حرب القرم) القذارة داخل الغرف الغائرة، لكن جوليا باردو - التي كان لديها تذوق وميل إلى المباني الجميلة - قالت إنه كان له مظهر قصر من القصور.[33] فقد كان بطلائه الأبيض وبريقه تحت أشعة الشمس يبدو أكثر شبهاً بالقصور الجديدة على طول البوسفور من المباني القديمة في المدينة. وتم إنشاء صف من الثكنات الأخرى مباشرة خارج الأسوار وفي جانب بيرا من القرن الذهبي، مما مكّن السلطان من إبقاء قوات موالية قريبة في المتناول.

إن كانت الروح الواثقة (والتوسعية مالياً) لدى محمود وخلفائه قد وجدت تعبيراً عنها من خلال مبانيه الجديدة، فقد جُعلت المباني والمساجد القديمة أيضاً في خدمة مبادئ العهد الجديد. في عام 1828 تم إخلاء إسكي سراي من بقية سكانه من النساء، وهن أرامل وبنات السلاطين السابقين، اللواتي تم نقلهن إلى الحرملك في يني سراي (القصر الجديد) المهجور والذي أصابه الحريق بأضرار. وقد غدا هذا الأخير (بشكل مربك) "القصر القديم"، أو بالتسمية الدارجة قصر "طوب قابي" (باب المدفع). وفي قصر النساء جاء الجنود المبشرون بالعهد الجديد. وقد شغلت وزارة الحرب مباني إسكي

سراي حتى عام 1865. وعندما دمر الحريق مباني القصر الخشبية القديمة، تم إقامة وزارة حرب جديدة أكثر فخامة في الموقع نفسه. وحتى جامع أيا صوفيا لم يسلم من التغيير؛ فقد تم تكليف مهندسَيْن معماريين سويسريين، هما الأخوان فوساتي، من قبل عبدالمجيد "بترميم وتحسين" الجامع ومداخله. وقد شمل عملهما الرئيسي سابقاً السفارات والكنائس في بيرا، أما وقد تم إطلاق يدهما في مبنى إسلامي فقد أرخيا العنان للإلهام لديهما. ونتيجة لذلك أصبح أيا صوفيا (وجامع السليمانية الذي عملا فيه بعد ذلك) أكثر انسجاماً وتناغماً مع الخيال الأوروبي. إن كانت هذه الفوائد موضع تساؤل، فإن النتائج الأخرى لعملهما كانت جيدة تماماً؛ ذلك أن الجامع (الكاتدرائية) الكبير الذي كان يتداعى تم تثبيته وتأمينه للأجيال المستقبلية.

تم إنفاق مبالغ ضخمة على المباني الجديدة. وقد غطت الإصلاحات "على الورق" كل جانب من جوانب الحياة. فقد تم تحديث بعض المناطق في المدينة، وأعيد بناء البيوت الخشبية القديمة من مواد أكثر متانة طبقاً للأنظمة الجديدة. وتم بذل المساعي لإعادة تنظيم ربط الشوارع الصغيرة التي استجدت حول الأسواق وعلى طول شاطئ القرن الذهبي، لكن لم تعد هناك أموال متوافرة لمزيد من التغييرات الجذرية، وتم حصر تأثير أي تغيير في المنطقة المحيطة مباشرة بأي من المباني الجديدة، ولم يتم العمل على إعادة البناء على نحو أشمل إلا في المناطق التي أزالت فيها الحرائق منطقة واسعة.

بقيت الأحياء العرقية المغلقة في المدينة غير مفتوحة على التغيير واستمرت في التزويد بالمادة البشرية للشغب والعنف؛ الأمر الذي كان يمثل خطراً دائماً في إسطنبول. وقد كتب الدبلوماسي البريطاني السير تشارلز إيليوت Charles Eliot تحت الاسم المستعار أوديسيوس Odysseus عام 1900 يقول:

إن كل تركي يولد جندياً، ويمارس مهناً أخرى؛ بصورة رئيسية لأن الأوقات سيِّئة. وعندما يكون ثمة قتال، حتى في حال الشغب، فإن الفلاح المتبلد الحس يستيقظ ويبدي قوة مدهشة في

التنظيم وإيجاد الذرائع و - للأسف - ضـراوة مدهشة. فالتركي العادي ذو نفس فاضلة ومرحة، ولطيف مع الأطفال والحيوانات، وشديد الصبر والتحمل، ولكن عندما تتلبسه روح القتال فإنه... يذبح ويحرق ويخرب، دونما أي رحمة أو تمييز.[34]

كانت الشوارع الخلفية في إسطنبول وأكواخ الفقراء المهجورة تعج "بالأتراك العاديين"، وكان لدى السلاطين مسوغ لأن يتخوفوا من شعبهم؛ ففي مناسبات عدة اقتحمت جماعات الشغب قصر يني سراي نفسه، كما تم عزل قريب محمود، سليم الثالث، بمثل أعمال الشغب هذه. وقد أحاط محمود وخلفاؤه المدينة بالثكنات على سبيل الاحتياط احترأساً من الشعب، وكان الأمن من تهديدات غوغاء إسطنبول دافعاً قوياً للسلاطين لكي يكونوا خارج المدينة.

كان فيلق الإنكشارية في الماضي طليعة أي ثورة شعبية؛ حيث كانوا يقودون الفقراء والطلبة softas من المدارس التابعة للمساجد، وبعد تفرق الإنكشارية عام 1826، أصبح الطلبة القادة المنضبطين والمنظِّمين لأي تمرد. وقد وصف خليل خالد، وهو نفسه طالب، كيف أنهم « بعد إثارتهم وتحريضهم من قبل السياسيين، كانوا يحتشدون في ساحات الجوامع الكبرى، حاملين اليطقانات (السيوف المحدبة) والهراوات الثقيلة تحت معاطفهم الطويلة، وتتبعهم أعداد لا تحصى من عامة الناس».[35] كان بإمكان المدارس أن تعد ما يصل إلى 20000-30000 شاب مؤهل ومتزمت يستجيبون بالفطرة لأي تهديد لصفاء الإسلام.

كان الطلبة الشرعيون متقلبي المزاج، وإذا ما تم استفزازهم فمن الصعب السيطرة عليهم. كانوا يبغضون المسيحيين واليهود والمبتدعة من المسلمين، ولكنهم خلال فترة قصيرة في أثناء سبعينيات القرن التاسع عشر أصبحوا متحمسين في دعمهم للتغيير الاجتماعي، وأعلنوا أن الإصلاح كان سبيلاً إسلامية حقة. وفي مايو 1876 قام طلبة مدارس السليمانية وبايزيد ومحمد الفاتح بأعمال شغب أمام الباب العالي، وكانوا يطالبون باستقالة الصدر الأعظم وإدخال برنامج للتغيير، وقاموا لفتاً للأنظار بقياس الدرابزينات

خارج المبنى ليروا إن كانت عالية بما يكفي لشنق الصدر الأعظم منها. انهارت الحكومة وأصبح الطلبة أبطالاً. لكن حماستهم للإصلاح كانت قصيرة الأجل، ففي أغسطس راحوا يكتبون لمهاجمة فكرة الدستور التقدمي بكاملها، ويهددون الصدر الأعظم الجديد، مدحت باشا، بالاغتيال إن تمادى في إصلاحاته.[36]

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أصبح طلبة إسطنبول يعدون أنفسهم رأس الحربة للإسلام الجهادي؛ فقد أضفت كراهيتهم للبدع جاذبية واسعة على احتجاجهم المتطرف الضيق. وبحلول عام 1900 كان الخوف من الهيمنة الأوروبية قد شاع في أوساط المسلمين العثمانيين. كان الطلبة متعصبين، ولكنهم لم يكونوا أغبياء، وسعوا لكسب التأييد من جميع مستويات المجتمع الإسلامي. فقد دعموا الإصلاح السياسي عندما كان لمنفعة المسلمين، أما عندما كان يشمل المسيحيين واليهود فكانوا يعلنون أنه ضد الإسلام. وطرحوا مسوغات اقتصادية واجتماعية لرهاب الأجانب لديهم، كما حدث عام 1895 عندما سأل طلبة إسطنبول: «لماذا يأتي مئات الأوروبيين إلى هنا ويصبحون أثرياء على حسابنا؟ فهم يرسلون إلينا عمالاً لتنفيذ أشغال عامة كما لو أننا لا يوجد لدينا أي عمال».[37]

كسب الطلبة الدعم الضمني من المسلمين المتحضرين والمتعلمين الذين كانوا يرفضون العنف الطائفي، غير أنهم رأوا في المسيحيين أعداء خطيرين. وصف السير تشارلز إيليوت موقفاً عثمانياً سائداً تجاه العالم المسيحي. كان محدثه التركي رجلاً رفيع المقام: «كل ما ينبغي أن يكون التركي عليه. كانت له لحية كثة، وكان قوامه يشبه كومة القش، وأنفه مثل حبة بطاطا. كان مارشالاً... وقد شغل على التوالي مناصب وزير حرب ومالية وشؤون خارجية، ولبضعة أشهر الصدر الأعظم». روى هذا الشخص الجليل قصة كيف أنه ذات مرة عندما:

> كنت شاباً يافعاً، وذهبت في جولة راكباً مع والدي المسن. كنت شديد الحماقة في ذلك الوقت، وكان رأسي محشواً بتصورات سخيفة وأفكار متحررة. قلت لوالدي إنه يجب علينا أن نصلح

> دستورنا، ونمأسس إدارتنا، ونـنقي حياتنا الأسـرية، ونعلم نسـاءنا، وندخل الأفكار التحرريـة، ونقلد الأوروبيين، فلم يجب والدي بكلمة.
>
> وهكذا مضـينا في جولتنا على طول ضفاف البوسفور. وأخيراً وصلنا إلى قرية مسيحية، وحـول القرية المسيحية كانت هناك خنازير. عندها قـال لي والـدي: «يـا بنـي، مـاذا تـرى؟» فأجبـت: «خنازير يا أبتي». فقال: «يا ولدي، هل كلها متشابه في الحجم واللون، أم أنهـا مختلفـة؟» قلـت له: «إنها مختلفة يا أبي». فقال: «ولكنها كلها خنازير يا ولدي؟» فقلت: «كلها، يا أبي». فقال: «يا ولدي، الأمر مع المسيحيين كما هو مع الخنـازير. فهنـاك مسـيحيون كبـار ومسـيحيون صـغار، ومسيحيون روس، ومسيحيون إنجليز، ومسـيحيون فرنـسيون، ومسـيحيون ألمـان، ولكـنهم جميعاً خنازير، ومن يريد تقليد المسيحيين فإنه يرغب في أن يتمرغ مع الخنازير في المستنقع».[38]

كانت التسوية بين المسيحيين والبهائم القـذرة (الخنـازير) سـتفاجئ معظـم الـزوار الأجانب الذين كانوا يتحدثون عن اللطف والتسـامح الـذي كـانوا يلقونـه مـن الأتـراك المسلمين. ومع ذلك، فإن أشد العثمانيين تحرراً، "بمجرد أن يـتم اسـتفزازهم" سـتنعكس عليهم مواقف المتعصبين. وقد ربط خليل خالد، وهو رجل مثقف ومتحرر، ربطاً مباشـراً بين جموح الأقليات غير المسلمة والهيمنة التجارية الأوروبية على الإمبراطورية:

> القوى الأجنبية... يتبنى البعض منها قضـية المسيحيين الشـرقيين الخاضعين للحكـم العـثماني، زاعمين أنهم يتصـرفون باسم "الإنسـانية". لكن دافعهم الحقيقي هو استغلالهم كنقطـة ارتكـاز لخططهم ومطامعهم السياسية... فكل مجتمع مسيحي من أهل البلد الأصليين يضـمر، في هـذه الأيـام إلى حـد مـا ودون أقنعـة، مشـاعر العـداء نحـو العثمانيـين، بـل يتعـاطفون مـع أعـداء الإمبراطورية التركية في أوقات الاضطرابات أو الحرب العالمية.[39]

ومضـى يوحي بأن الهجمات على الأقليات المسيحية «التي يتم تمثيلها في أوروبـا عـلى أنها اندلاع للتعصب الإسلامي» هي عبارة عن رد فعل مفهوم على الاسـتفزاز: «إن صـبر الرجل التركي لا يكاد ينتهي، ولكنك عندما تهاجم نساءه أو أطفاله فإن غضبه يثـور، ولا شيء على وجه الأرض يمكن أن يسيطر عليه».

تم تصوير الأتراك على أنهم متوحشون وبرابرة في الغرب، ورأوا أنفسهم بطيئين في الغضب، ولكنهم عنيدون بمجرد أن يتم استفزازهم. وكان الأوروبيون ينظرون إلى الأتراك نظرة ازدراء، وكان الأتراك يردون بالمثل. كما كان العثمانيون المثقفون يتهمون الغربيين بالجهل وفقدان الإحساس. أخبر أحد كبار المصلحين، وهو جودت باشا، السفير الفرنسي بقوله: «كنت تعيش في باي أوغلو [بيرا]. إنك لم تتعرف بشكل صحيح على روح الدولة العثمانية أو حتى ظروف إسطنبول. إن باي أوغلو تعد برزخاً بين أوروبا والعالم الإسلامي. من هناك يمكنك رؤية إسطنبول من خلال تلسكوب».[40] كانت ردود أفعال الغربيين دائماً، كما أشار خليل، هي الغضب من سوء معاملة المسلمين للمسيحيين. وكان يتم شجب الأتراك بوصفهم أعداء الإنسانية بسبب معاملتهم لليونانيين في أثناء حرب الاستقلال اليونانية (1821–1829). أما المذبحة التي راح ضحيتها 15000 من الرجال والنساء والأطفال الأتراك في جنوب اليونان عام 1821 فقد تم تجاهلها: كان الشعار اليوناني "لن يبقى تركي في موريا" بمنزلة وصفة للإبادة الجماعية. وفي أثناء "الفظائع البلغارية" عام 1875 تم الإعلان على نطاق واسع في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية عن الفظائع التي ارتكبت ضد المسيحيين، بينما تم تجاهل جرائم القتل التي كانت على المستوى نفسه من الفظاعة ضد المسلمين. وفي تسعينيات القرن التاسع عشر، عندما استخدم الأرمن العنف لضمان استقلال أرمينيا، تجاهلت الدول الغربية عمليات القتل ضد الأتراك، بينما تمت إدانة رد الفعل العثماني على أنه جريمة قتل عنصرية بلهاء. كتب السير تشارلز إيليوت عن سلسلة المذابح والثأر في أثناء الحرب اليونانية «ليس بدافع الرغبة في إثبات أن الأتراك واليونانيين هم جميعاً متماثلون معاً، بل إنه من المهم إدراك أن الأتراك لديهم سبب للخوف من المسيحيين، وإلا فإن أحداثاً كالمذابح الأرمنية الحديثة العهد (1896) لن يكون لها تفسير».[41]

إن المناسبات التي سالت فيها شوارع إسطنبول فعلاً بدماء المسيحيين كانت قليلة، فقد تعايشت المجتمعات العرقية المختلفة، ربما لأنه لم تهيمن إحدى الفئات. في الأناضول حيث فاقت أعداد المسلمين كثيراً أعداد المسيحيين، وفي البلقان التي كان المسيحيون فيها

هم الأقلية، كان هناك عنف أشد كثيراً. وعلى الرغم من المعالم الإسلامية الكبرى، وحماسة الطلبة، فإن القسطنطينية (بما فيها إسطنبول وبيرا والضواحي المجاورة) لم تكن مدينة مسلمة؛ لقد كان فيها عدد المسلمين أقل من المسيحيين (384836 مسلماً مقابل 444294 مسيحياً، بالإضافة إلى 22394 يهودياً).[42]

لكن الإحصائيات لا تقيس بشكل مناسب الطبيعة المتغيرة لتعداد سكان المدينة. ففي الفترة بين عامي 1876 و1896 هرب أكثر من مليون مسلم إلى الإمبراطورية العثمانية من مناطق البلقان ومن جنوب روسيا، وكثير منهم صار لديه حقد شخصي على جميع المسيحيين، وقد أقام عدد كبير من هؤلاء المسلمين البلقانيين مساكنهم في إسطنبول وفي مدن الأكواخ المحيطة بالأسوار. وقد شمل بقية المهاجرين الفقراء إلى العاصمة الكثير من الأكراد الذين كانت كراهيتهم معروفة للأرمن المغامرين الأشداء. فالعدد الأكبر من بين الـ 6000 أرمني الذين قتلوا في أغسطس 1896 تم ضربهم بالهراوات حتى الموت من الأكراد وذلك تسوية لحسابات. وكذلك تدفق السكان المسيحيون، فمعظم الجاليات المسيحية، كاليونانيين مثلاً، استقروا في إسطنبول على مدى قرون. ولكن أعدادهم تضخمت من خلال وفود أعداد كبيرة من الذين عانوا على يد الأغلبية المسلمة في الأناضول والأقاليم الشرقية من الإمبراطورية. وقد انجذب هؤلاء اللاجئون نحو العاصمة بحثاً عن مزيد من الأمان وسعياً للعثور على فرص عمل، وقد جلبوا معهم مخاوفهم وعدائياتهم إلى القسطنطينية؛ ما زاد من التوتر والكراهيات الاجتماعية فيها. وفي السنوات الأخيرة من الإمبراطورية العثمانية، مع تنامي الضغوط الاقتصادية والعداوة العرقية والدينية، أصبحت القسطنطينية ما لم تكن عليه من قبل: عالماً مصغراً عن الإمبراطورية.

الفصل السادس

أحلام من دار الورد

الطريق المتعرجة للإصلاح

في الثالث من نوفمبر 1839، وبعد بضعة أشهر من وفاة محمود الثاني (أصبح اسمه الآن أمام شعبه "محمود العادل")، تمت إقامة احتفال طويل في الطرف الشمالي من أراضي الأفراح بين قصر طوب قابي والأسوار البحرية بمحاذاة القرن الذهبي. وكانت هناك في الحدائق الكثير من الأكشاك الصغيرة، التي وصفها رحالة إنجليزي من القرن السابع عشر بأنها «نواة من ثلاث غرف أو أربع لها مداخن، والأشجار مزهرة كأنها من الفضة، والنوافذ ذات ألواح زجاجية أنيقة، وهي إلى ذلك محمية بشبك حديدي وكلها مذهبة بشكل رائع؛ فالإطار بكامله مطعّم بالأوبال والياقوت الأحمر والزمرد، ومصقول بالذهب، ومطلي بالأزهار، ومزين بمشغولات الحجر السماقي المرصعة، والرخام، واليشب والكهرمان الأسود والحجارة الناعمة».[1] بعد ذلك أصبح للأكشاك استخدامات كثيرة، وقد تم استخدام الكبرى منها من قبل الحلواني الرئيسي في القصر لنقع أوراق الورد وتقطيرها في مستخلص يستخدم لصنع قطع حلوى تعرف في الغرب بـ "راحة الحلقوم" Turkish delight؛ ومن ثم، كانت "دار الورد"،* كما كانت تعرف في الاستعمال الدارج، في حالة جيدة من الإصلاح، وهنا بالذات كان يجتمع كبار الوجهاء العثمانيين جميعاً، وأول مرة في تاريخ الإمبراطورية، وممثلو الدول الأجنبية، للاستماع إلى قراءة مرسوم شهير وهو "خط الشريف" Hatt-i-serif، وهو تعبير عن الرغبات

* "دار الورد" Rose Pavillion، وتعرف أيضاً بـ "كلخانة" Gülhane، أو دار الزهور؛ هي الحديقة التي تقع في ساحة قصر "يني سراي" أو "طوب قابي" في إسطنبول. ومنها تم إعلان ما عرف بخط شريف كلخانة عام 1839. (المترجم)

الشخصية للسلطان. وقام ناظر الخارجية، مصطفى رشيد باشا، بقراءة الوثيقة بالشكل المناسب؛ لأنه كان قد كتب مسودتها باسم السلطان الجديد. وكانت روحها تنطوي على الإصلاح، وليس على التغيير، وهي عملية إعادة تنظيم (تنظيمات Tanzimat) وليست تحويلاً جذرياً للمجتمع العثماني. بدأ رشيد:

> من المعلوم أنه في أثناء العهود الأولى للسلطنة العثمانية، كانت التعاليم المجيدة للقرآن الكريم وقوانين الإمبراطورية تلقى التكريم دوماً... على مدى 150 عاماً أسهمت سلسلة متعاقبة من الأحداث والأسباب المختلفة في الحد من هذه الطاعة للوائح القوانين المقدسة... وقد تحولت القوة والازدهار السابقان إلى ضعف وفقر... ونتوسل بنبينا في أن نتمكن من خلال مؤسسات جديدة من حصول أقاليم الإمبراطورية العثمانية على منافع إدارة جيدة.[2]

في أي فرمان عثماني مكتوب بخط القرآن الكريم ولغته، كانت كل كلمة ثمينة ومليئة بالمعاني، لكن المعنى الأعمق للخط لم يكن من السهل استيعابه على الغربيين الذين اجتمعوا ليسمعوا المستقبل. كان هناك نص فرنسي ونص عثماني، وقد اختلفا في الأسلوب وفي رسالتهما الضمنية معاً. كان رشيد يعطي كل جزء من الحضور الرسالة التي كانوا يودون سماعها. وقد أسهم ضمان «الأمن التام على حياتهم وأعراضهم وممتلكاتهم» والإعلان بأن «ممتلكات الورثة الأبرياء لأي مجرم لن تتم مصادرتها» في معالجة مظلمة قديمة العهد داخل الطبقة الرسمية العثمانية الذين كانوا يتطلعون إلى الأمن وإلى وضع مستقل عن إرادة السلطان. وقد سمع الممثلون الأجانب أنه سيتم أول مرة معاملة المسيحيين داخل الإمبراطورية بالمساواة مع المسلمين: «إن جميع رعايا سلطتنا المجيدة، مسلمين منهم وأهل ملل أخرى، سوف يستفيدون من هذه الميزات من دون استثناء». ولكن تمت طمأنة علماء الدين المحافظين (وكان هناك كثيرون ضمن الاجتماع) أنه «بما أن هذه المؤسسات الحالية تهدف فقط لتجديد الدين والحكم والأمة والإمبراطورية، فلن نقدم على ما يناقضها». ولذلك، فمنذ البداية كان الإصلاح العثماني ميثاقاً ينطوي على غموض، حتى إن الغرب راح في نهاية المطاف يفترض أنها كانت مجرد محاولة لخداعه. كان خطأ الغربيين، وتم ارتكابه بحسن نية، أنهم كانوا يسعون للحصول على نظير بلغة

يفهمونها هم. قام عدد كبير من الغربيين فيما بعد بمقارنة خط الشريف (بشكل مزيف) مع الماجنا كارتا "الوثيقة العظمى" أو ميثاق الحقوق [الإنجليزي لعام 1215]، وكان صحيحاً أن النص الفرنسي من خط الشريف وسع حقوق غير المسلمين بطريقة لم يفعلها النص التركي.[3] وأكثر من ذلك أنه كان محاولة لموازنة مواطن الغموض من خلال رفض الاعتراف بوجودها.

كان العثماني والأوروبي الغربي ينظران إلى الأحداث نفسها، ولكنهما يريان الأمور بصورة مختلفة. كان الأول يرى تقدماً بطيئاً ومحكماً على طريق التطور، بينما يعرف الآخر مجرد إخفاق، وعهداً لم يتم احترامه. وحتى حينما تقارب العثمانيون والغرب اقتصادياً وسياسياً خلال القرن التاسع عشر، ازداد اتساع فجوة سوء التفاهم بينهما. وعلى حين كان العثمانيون مايزالون غريبين بشكل واضح، بأثوابهم المنسدلة وعاداتهم غير المتمدنة، فإنهم كانوا خارج العالم المتمدن ولم يكن من المفترض أن يتم الحكم عليهم بمعاييره. وبعد أن رحبوا بالحضارة الغربية وسافروا إلى الخارج، وتعلموا التحدث بالفرنسية والإنجليزية، وجلسوا على الكراسي، وأكلوا على الطاولات، فإن أي توجه غريب كان ينظر إليه كشكل من أشكال الردة؛ أي الرجوع إلى نفوسهم السابقة غير المتنورة. وكما قال عقيد فرنسي لتشارلز ماكفرلين Charles Macfarlane، وهو ضابط بريطاني، إبان زيارته الثانية إلى القسطنطينية عام 1847: «لقد عاش رشيد باشا فترة لا بأس بها في باريس وفي لندن، وهو يعرف عادات المجتمع المتمدن، ويعلم جيداً تماماً كم سيكون من القبيح وغير اللائق أن ينزل خدم رئيس وزراء فرنسا أو بريطانيا وراء كل زائر مطالبين بالبقشيش».[4] (لكن ألم يتم الهجوم على زوار للبيوت الكبرى في بريطانيا بمثل هذه الطلبات بالضبط؛ توقع البقشيش الذي ولد كثيراً من الإزعاج ضد طمع طبقة الخدم؟). وعلاوة على ذلك فقد تابع العقيد القول:

[رشيد وعلي أفندي، وزير الشؤون الخارجية] أفضل زعماء التمدن والإصلاح من دون منازع، فهما الرجلان اللذان أعلنا بأعلى صوتهما في فرنسا وإنجلترا أن أخلاق

الأتراك وتقاليدهم قد تغيرت، وأنها إن لم تتغيرفسوف يغيرونها في الحال... ولا يمكنك الذهاب إلى بيوتهم من دون أن تتعرض للسرقة. وأنت ترى كيف يعيشون في بيوتهم! فزوجاتهم ونساؤهم منفصلات ومحبوسات في أقفاص كما كنّ عندما جاء الأتراك إلى القسطنطينية.

أصيب ماكفرلين "بشيء من الدهشة"، ولكنه ظن أن الفرنسي كان متحاملاً. لكن كثيرين في أوروبا كانت لديهم التوقعات نفسها: كان للإصلاح مضمار واحد ونهاية واحدة فحسب؛ وهو طريق التغريب بكافة جوانبه. كان من غير المفيد بالنسبة إلى العثمانيين كما هو الأمر بالنسبة إلى الكاتب والمفكر السياسي نامق كمال الذي كتب عام 1872 يقول إن «الأمر استغرق مع أوروبا قرنين من الزمان حتى وصلت إلى هذه الحال، وعلى حين كانوا مبتكرين في سبل التقدم نجد كل الوسائل جاهزة في متناولنا... فهل ثمة أي شك في أننا نحن، أيضاً، حتى إن استغرق معنا الأمر قرنين، يمكننا أن نصل إلى مرحلة نغدو فيها من أكثر الدول تمدناً؟».[5] كان الغربيون قليلي الصبر أو مرتابين من نيات العثمانيين، وطالبوا بالنتائج ليس خلال قرنين، بل خلال مدة قصيرة هي عشرون عاماً.

من الصعب قياس التقدم غير الطبيعي للإصلاح الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي داخل الإمبراطورية العثمانية؛ لأن ما ينطبق على منطقة لا ينطبق بالضرورة على أخرى. كما أنه ليس من السهل متابعة النتائج الأخرى حتى النهاية، السياسية منها والمالية، التي نتجت من العملية. ولكن أدلتنا في قطاع واحد كانت أفضل، وهو الإصلاح العسكري، ومن الأسهل تفكيك تعقيدات النتائج المتشابكة التي نشأت عنها. فقد كان ضمان جيش متطور يتمتع بالكفاءة أولوية بالنسبة إلى سليم الثاني ومحمود الثاني، وكان تكوين جيش جديد أحد المنجزات الإيجابية والأكثر جلاء لفترة حكم محمود الطويلة، لكن مدى التغيرات وفاعليتها يتضاءلان عند تمحيصهما عن كثب. إن العائد الضئيل للجهد الذي وضع في الإصلاح العسكري يدل على الحدود الواقعية لأي برنامج للتغيير داخل الإمبراطورية. وغالباً ما كانت التغييرات رمزية وليست حقيقية، وكان من

خصائص العثمانيين أنهم يقرؤون النيات بدلاً من أن ينظروا إلى الواقع. وإن كثيراً مما صدر على أنه ابتكار جذري لم يكن تقدمياً بالمنظور الأوروبي.

كان الإصلاح الموجه من الأعلى بواسطة السلطان سبيلاً خاطئة؛ ففي نظر محمود كانت الحرب مظهراً للبطولة تماماً كما كانت في نظر الإنكشارية؛ فقد كان يحب قيادة سرايا الفرسان الثلاث الشهيرة التابعة له في الهجوم بأقصى سرعة، وكما ذكر أحد المراقبين «يعد محمود من دون ريب أفضل فارس في جيشه في نظر الأوروبيين، وهذا الإنجاز إلى جانب كفاءة أخرى... هي قيادة سرية فرسان والمناورة بها، كان يمثل مصدر فخره ومجده».[6] وقد قال قائد تدريب الفرسان لديه، المارق بيدمونتيز كالوسو Piedmontese Calosso، إن السلطان كان يقود سراياه كأي رائد أو نقيب أوروبي متمكن. وكان أسلوبه ومواقفه أسلوب ضابط فوج ومواقفه، فقد كان لديه اهتمام استحوذ عليه بجميع التفاصيل الدقيقة لعدة الحصان والأسلحة والتجهيزات والبذلات، وتعلم الركوب على الأسلوب الأوروبي، وهذا أمر ليس بالسهل على شخص معتاد على السرج التركي المختلف تماماً، وقد سقط السلطان أكثر من مرة في أثناء التدريب. كان أفقه العسكري فرسانه وشوقه للمتابعة. ولكن هذا كان جيشاً نموذجياً، مصغراً عن الجيش الكامل؛ حيث كان جنود الصدر الأعظم النموذجيون يشكلون أساساً للنظام الجديد.

كان السلطان ثابت الهدف، ولكن لم يكن لديه سعة رؤية، بل كان لديه قلة صبر إزاء إنجاز النتائج. وكان أهم أمر لديه هو تجهيز جيش للدولة العثمانية على الطراز الحديث (المصري)؛ لأنه على الرغم من عدم فائدة الإنكشارية فقد حافظوا على مظهر النظام على أقل تقدير؛ إذ إن العثمانيين من دون جيش سيكونون عاجزين في وجه مطامع محمد علي أو الروس المساوين له في العدوانية. كانت القضايا أشد تعقيداً من مجرد التجنيد والتجهيز لأفواج جديدة، ولكن الإعداد الطويل والصبور - الذي تم من خلاله بناء الجيش المصري الجديد إلى درجة هائلة من الكفاءة - كان يبدو غير ضروري،[7] وكل ما كان مطلوباً في نظر السلطان هو بعض المعدات الجديدة وبضعة مدربين.

في البداية طلب إلى محمد علي أن يعيره حوالي عشرة ضباط مصريين، ولكن الباشا رفض باحترام قائلاً: إن رجاله لم يكونوا "معدّين بدرجة كافية" لمثل هذه المهمة الكبيرة.[8] ونتيجة لذلك لم يكن من السلطان إلا أن قام بجمع تشكيلة من المدربين من مختلف الدول الأوروبية، بعضهم أكفاء؛ مثل كالوسو (الذي لم يتجاوز رتبة نقيب في جيش بيدمونت)، بينما لم يكن بعض آخر كذلك؛ مثل المدرب الرئيسي للمشاة، وهو فرنسي يدعى جيلارد كان في الماضي رقيباً في حملة نابليون على مصر، وكان آمراً شديد التمسك بالانضباط وضعيف الخيال. وقد تم إرسال بضعة ضباط شبان يتمتعون بالخبرة إلى محمود، اثنين أو ثلاثة من النمسا، وأكثر من ذلك من بروسيا؛ مثل الشاب هيلموت فون مولتكي Helmut von Moltke، الذي كانت سنواته في تركيا تجربة قاسية. وكان قوله المأثور فيما بعد: إن أي خطة لن تتخطى الدقائق الأولى في المعركة، تجسد تعليمه بطريقة الحرب العثمانية.

وفضلاً عن المحترفين النمساويين والبروسيين تم اختيار هؤلاء المدربين من بين نحو خمسة، من خلفيات عسكرية مختلفة، وأنظمة مختلفة للتمرين والتدريب. ولا بد من أنهم قاموا بالتدريب على مجموعة متنوعة من التكتيكات التي كانوا هم قد تعلموها، ثم قاموا بتطوير غيرها تسويغاً لوظيفتهم. «قام كل مدرب؛ كي يعجب الباشا الذي يتبعه، بابتكار تمرينات جديدة كانت مدعاة للسخرية وعديمة الفائدة». ففي عام 1828 قام عريف سابق باختراع عملية انتشار على شكل مثلث أو شبه دائرة لفصائله، وجعلها تسير ضمن هذا التشكيل؛ تلبية لرغبة الباشا في الإبداع والحداثة.[9] أما في نظر السلطان فكانوا جميعاً يعلّمون تلك المهارة المرغوب فيها؛ أي الأسلوب الغربي في الحرب. وكان يعرف المزية الخاصة لشخص مثل مولتكي، ولكنه كان يختار معظم مدربيه دونما تمييز، على أساس الاجتماع مصادفة، أو لمجرد توافره في العاصمة، وحتى أكثر الخبرات بدائية كانت مؤهلاً كافياً.

تضاءل هذا الإحساس غير المميز "بالغرب" بعد أن اكتسب المزيد من العثمانيين خبرة مباشرة في مختلف أنواع المجتمعات الأوروبية، ولكن الجهل استمر في استنزاف

الفاعلية الممكنة للجيش الجديد. فحكمه بشأن ما هو التغيير المناسب، أو ما هو النموذج الذي ينبغي اتباعه، كان خاطئاً دائماً؛ ففي ثلاثينيات القرن التاسع عشر أدرك المسؤولون الحاجة إلى دليل للتحصينات، وفي غمرة جهلهم وقع اختيارهم على كتاب من تأليف فوبان Vauban عمره أكثر من قرن، وهو من روائع كتب العلوم العسكرية، لكنه لم يكن ما كانوا يحتاجون إليه ليكون دليلاً بسيطاً للمستجدات الراهنة. وكان إصرار مولتكي هو الذي جعلهم يوافقون على الاستقرار على دليل تمرينات واحد للجيش، علماً أن الاقتراح بترجمة الأنظمة البروسية الحالية لم يتحول إلى حقيقة؛ لأن المشروع تلاشى بعد رحيله. ولم يحدث تغيير كبير منذ أيام بارون دي توت وشكواه من الباشاوات العثمانيين. كما أن القارئ يحس بأن مولتكي يثير الشكوك حينما يصف في رسائله «أسوأ الخلائق حظوظاً... جيشاً على النموذج الأووربي بسترات روسية، وأنظمة فرنسية، وأسلحة بلجيكية، وقبعات تركية، وسروج مجرية، وسيوف إنجليزية، وتعليمات من جميع الدول».[10]

لكن تم إنشاء جيش جديد، هو ("جند الله المنصورون") بسرعة مذهلة، وعندما احتشد عام 1828 في ميدان داود باشا للمسير شمالاً ضد غزو روسي، بدا الجنود لعين ماكفرلين المتمرسة:

> سريعين جداً في جميع تحركاتهم. لقد رأيتهم مرات عدة ينفذون مناورات حربية بسرعة أدهشتني، حتى مع... بعض الأفواج الأوروبية المميزة كانت حية في ذاكرتي. صحيح أن هذه لم يتم تنفيذها بشكل أنيق أو متناسق، ولكن النتيجة كانت تتحقق؛ إذ حدث تغيير في الأنساق؛ حيث أصبحت تشكيلاتها مربعة أو مرصوصة أو مفرغة، وانتشرت القوات بخفة... ولم يكن ثمة ما يقال ضد السرعة والانتظام في رميهم.[11]

لكن كما أشار أيضاً، لم يبلغ تلك المرحلة إلا ألفان أو ثلاثة آلاف من الرجال، وكان الباقون "سيِّئين بالفعل". وكما هو الأمر بالنسبة إلى الإنكشارية قبلهم، كانت جودة القوات الجديدة مختلفة، ويعود ذلك في جانب منه من دون شك إلى الطريقة التي تم فيها تعليمهم فنون الجندية الجديدة. ولكن، كما أشار مولتكي، «كان هذا الجيش يتمتع بصفة

واحدة وضعته فوق الكثير من الجيوش التي كان بإمكان الباب العالي دعوتها إلى الميدان: إنه مطيع».

عندما جاءت الحرب في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، قاتلت القوات بشجاعة، ولاسيما في الدفاع، ولكن جودة قادتهم كانت غير مناسبة كما كان عليه الأمر قبل تدمير الإنكشارية. والواقع أنهم في الكثير من الحالات كانوا إما القادة أنفسهم، أو أنهم تم استقطابهم من المحيط الاجتماعي نفسه. وكان كبار الضباط يعانون قلة استيعاب فن الحرب، ولم يكن لديهم أي قدرة على استعمال المهارات المحدودة التي اكتسبها جندهم بالجد والمثابرة. وبعد نهاية الحرب، تم بذل جهد جديد لتحسين جودة الضباط، وبحلول نهاية عام 1831 كان من المقرر إجراء الترفيعات بناء على فحص شفوي فقط. كانت جميع التعيينات في الرتب العليا تتطلب الموافقة الشخصية من السلطان، لكن لم يكن ملزماً بأنظمته، وفي عام 1833 جعل أحد مرافقيه عميداً لسلاح الفرسان، وبحلول 1838 أصبح هذا الرجل القائد العام للجيش (لكن ممارسات محمود لم تكن مختلفة كثيراً عن ممارسات الجيش البريطاني؛ حيث ازدهر شراء القيادة والمحسوبيات وعدم الكفاءة).

في أواخر أربعينيات القرن التاسع عشر، حدث بعض التحسن؛ فقد كان الضباط الإنجليز مايزالون يشكون من إهمال القوات و«داء البلادة التركية: فنصف الضباط بدلاً من السير بضعف السرعة فوق الهضاب مع رجالهم، بقوا وراءهم على أرض التدريب للثرثرة وتدخين الغليون مع الضباط هناك».[12] وقد علق ضابط فرنسي "كان قد درسهم جيداً" و"عاش فترة طويلة في الشرق" بقوله: «لا يكاد يوجد فيهم أي ضابط كفء»؛ فقد استمر النظام القديم؛ حيث الباشا العظيم:

> تم وضعه على رأس الجيش بخديعة من البلاط، ولم يكن جندياً في يوم من الأيام، وهو أجهل الناس في الجيش بالشؤون العسكرية. وهو يأخذ أحد الضباط في رعايته وحظوته ويعتمد لبعض الوقت على رأيه ومشورته، ثم يتغير عليه ويأخذ مستشاراً آخر، أو إن تعقدت أمامه المصاعب على الإطلاق، فإنه يسعى للحصول على مشورة أكثر من عشرة رجال قد يكون لديهم أكثر من عشرة آراء وخطط.[13]

استغرق الأمر خمسين عاماً تقريباً لإيجاد سلاح ضباط أكثر كفاءة.

أصيب "جند الله المنصورون" بهزيمة منكرة في أول مواجهة لهم. في عام 1832 أدى النزاع المتوقع منذ أمد طويل بين السلطان وباشا مصر إلى الحرب. فقد طلب محمد علي إلحاق ولاية سوريا بولايته الواسعة أصلاً، فرفض محمود، وقام الجيش المصري تحت إمرة ابن الباشا إبراهيم بغزو الإقليم، واحتل عكا، وبعد سلسلة من المعارك هزم هؤلاء الجند، وأسر قائدهم الذي انضم على الفور إلى الجانب المصري. وفي أكتوبر زحف إبراهيم من سوريا إلى الأناضول واحتل مدينة قونية القديمة، وأصبحت الطريق إلى القسطنطينية مفتوحة، فاضطر السلطان إلى وضع مهين بطلب عون الروس لمنع أتباعه المصريين، من الزحف على عاصمته. وفي القتال ضد الجنود المحنكين الذين صقلتهم الحروب في الحملات اليونانية ظهرت حقيقة الجند المنصورين على أنهم مزارعون نصف مدربين كما لاحظ ماكفرلين. وعندما سئل إبراهيم باشا – الذي انتصر في سوريا وكريت واليونان – إلى ماذا يعزو إخفاق الأسلحة التركية بعد جهد ست سنوات من إعادة التدريب والتجهيز أجاب: «لقد أخذ الباب العالي الحضارة من وجهها الخطأ، فليس الأمر يتم بإعطاء "كتفية" وبنطلونات ضيقة إلى أمة تبدأ أنت بمهمة تجديدها... فبدلاً من البدء بثيابهم... عليهم أن يسعوا لتنوير عقول شعبهم».[14]

لقد ركز محمود بالفعل على المظاهر الخارجية، فألغى الثوب العثماني التقليدي الذي كان يرتديه جميع الموظفين العثمانيين. وكما ارتدى الجند المنصورون بدلات جديدة، فكذلك فعل الموظفون المدنيون. وذهبت جميع التدريجات المفصلة للرتب التي لاحظها ليجوي مارسيجلي Ligui Marsigli، وهو من رعايا هابسبورج أخذ أسيراً عند الأتراك في القرن الثامن عشر: «هناك عادة عند الأترك بالتمييز بين الرتب بواسطة عمائم مختلفة، وكذلك بزي الثوب وبطريقة ارتداء الوشاحات وبلون الأحذية، سواء في الاستخدام العام أو الاستخدام الخاص».[15] وقد اختفى دور آغا العمائم، وهو موظف في القصر كانت مسؤوليته الوحيدة الإجابة على أسئلة حول المراسم الخاصة بالعمائم. فقد تم إلغاء

وظيفته مع الكثير من الوظائف الأخرى، وأصبح متعيناً الآن على المأمورين ارتداء معطف أسود طويل مستقيم القطع حل محل القفطان، ومخيط على نمط زي الثوب الغربي، ولكنه مازال بمواصفات "شرقية" يصعب تحديدها، وكان نمطياً جداً بالنسبة إلى الموظف العثماني حتى إنه أصبح يسمى "الإسطنبولي"، واختفت الصنادل والنعال (الشباشب) ليحل محلها الأحذية السوداء القصيرة (كان المسلمون عادة لا يلبسون إلا أحذية حمراً أو صفراً)، وأصبحت السراويل السوداء أو الرمادية الغامقة يتم تفصيلها ضيقة مثل الزي الأوروبي. واستكمالاً للطقم المنسجم الأجزاء كان هناك قبعة حمراء مخروطية من اللباد تسمى "الطربوش "، أو بالتركية "فيس" fez على اسم مدينة فاس في المغرب حيث كان يتم صنعه في البداية. ولم يكن شكل اللباس الجديد تقليدياً ولا غربياً حقيقياً، بل كان هجيناً؛ وبذلك المعنى فقد كان رمزاً مناسباً للتغيير على يد محمود، ولم يترك إلا العلماء بلباسهم الرسمي الكامل المؤلف من العمائم والثياب الفضفاضة.

جاءت قوة الإصلاح من السلطان، ولعل هذا يفسر الطريقة الفوضوية والمتنافرة التي سار فيها الإصلاح قدماً. لم يكن إحراز تقدم ممكناً إلا لأنه كان هناك عدد متزايد من العثمانيين الذين يتمتعون بخبرة من الغرب. في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تزايد عدد البعثات العثمانية إلى أوروبا كثيراً، ولكن كان ينظر إليها دائماً على أن مدتها محدودة بشكل صارم، حتى عندما استمرت أكثر من عامين، كما في السفارة الأولى إلى باريس. وكان الدبلوماسيون الأجانب يعدون ضيوفاً عند السلطان، وكانت الدولة العثمانية تتحمل معظم تكاليفهم في الأراضي العثمانية. وعندما ساءت العلاقات بين الدولتين - كما كان يحدث مراراً - لم يتمتع الدبلوماسيون بأي حصانة وكان يتم اعتقالهم جراء مخالفة قوانين الضيافة. وبالفعل كان الموقف المتمثل في اعتبار الدبلوماسيين ضيوفاً عائقاً أمام إقامة تبادل للممثلين؛ لأن العثمانيين كانوا يتوقعون من الحكومات الأجنبية التبادل من خلال تحمل تكاليف مفوضيات السلطان. وفي عهد إصلاحات محمود بدأ العثمانيون يقرون ويستقبلون السفارات بالطريقة الأوروبية، وتزايدت الطلبات على مكتب رئيس الكتاب، الذي كان يقوم بدور وزارة الخارجية بشكل ملحوظ؛ وبالمثل،

فقد ازدادت فجأة أهمية مكتب الترجمة، وهو مكتب صغير مساعد للدولة كانت مهماته محصورة عموماً في الترجمة الشفوية وإضافة محسنات لغوية فارسية وعربية إلى الوثائق التي تتسم نوعاً ما بالجفاء في الحكومة التركية؛ فقد أصبح عدد ضئيل من الموظفين في عشرينيات القرن التاسع عشر فجأة أكثر من أربعين بحلول عام 1841. [16] وقد قضى ثلاثة من هؤلاء الذين أصبحوا فيما بعد كبار رجال الدولة في الإمبراطورية (علي باشا، وفؤاد باشا، ومصطفى رشيد باشا) بداية حياتهم المهنية هنا؛ حيث اكتسبوا معرفة بالعالم خارج الإمبراطورية، ثم شغلوا مناصب وخدموا في سفارات في الخارج. وقد تحول "السلك الدبلوماسي" - كما أصبح بصورة فعالة - من كونه عنصراً ثانوياً في بنية الحكم، إلى سبيل إلى التقدم السريع داخل البيروقراطية العثمانية. وقد أصبح الموظفون الذين يمتلكون خبرة في العالم الخارجي ومهارات في اللغات الفرنسية والإنجليزية، وأحياناً في الألمانية، يحصلون على علاوة.

كان الغربيون يستحسنون أولئك العثمانيين الذين بدوا تقدميين في نظرتهم، وكانت لهم بعض التجربة في العالم الخارجي، وكانوا يتقنون لغة غير التركية العثمانية. ومعظم الباقين كان نصيبهم الكراهية بوصفهم صنفاً من المجرمين الآسيويين. وقد تم تصنيف محمود الثاني على الفور بأنه مصلح بالمفهوم الغربي، على الرغم من تحدثه الفرنسية بشكل محدود، واعتبرت سقطاته أحياناً في أعمال "بربرية" مسوغة بحكم الظروف، حتى إن بعض المؤلفين تعاطفوا مع أساليبه الوحشية المباشرة. وغالباً ما تمزج الروايات عن نهاية الإنكشارية بين الابتهاج وإشارة خفيفة إلى الانتقاد، مسوغة المجزرة بأنها ممارسة للإرادة الشعبية:

> إثر فتح وريد الأقرباء (من الإنكشارية) تدفق كالسيل من دون أن يثير أي شفقة أو تعاطف... وقد أفعمت قلوب الآلاف المحتشدة بهدف واحد، هو اجتثاث الإنكشارية. وحتى أولئك الذين كانوا وفق طبيعة تفكيرهم سيتقاعدون... أخذهم التيار العام. وبالشعور نفسه الذي يلقي بمجموعة من الجراء على كلب هزمه خصمه، أضاف الغوغاء آلياً ثقلهم لسحق الإنكشارية المحطمين.[17]

يشير كريسي Creasy، الذي هو أكثر بعداً عن الأحداث من حيث الزمان والمكان، إلى أن محمود «أزال الاستبداد العسكري الذي رزحت الإمبراطورية تحت وطأته على مدى قرون».[18] ولكن رأيه ببساطة هو أن السلطان كان يهدف إلى ترسيخ قيم العالم الغربي وممارساته داخل السياق الشرقي. أما مولتكي، وهو الذي كانت تجربته مباشرة، فقد أشار إلى أنه نكاية بروسيا «قد يكون السلطان نفذ الإصلاحات اللازمة في إدارة بلاده، ونفث حياة جديدة في الأغصان الميتة للإمبراطورية العثمانية».[19]

كان الأوروبيون يعدون العثمانيين متخلفين وفاسدين ولم يصلوا إلى مقاييس الحضارة الغربية؛ إذ كان يتم تطبيق تلك المقاييس بشكل مرن، كما في حالة محمود، ولكن ليس لمصلحة العثمانيين، فهناك دوماً تعارض بين التغيرات المتوقعة في أقاليم السلطان وتلك التي تحققت في الغرب. فالإصلاح الاجتماعي والسياسي كان قد بدأ قبل وقت طويل حتى في أكثر الدول الأوروبية الغربية تقدماً؛ ومن ثم تم تطبيقه بصورة فردية فقط. فالإصلاحات في البرلمان البريطاني التي خلصته من "الفساد القديم"، وهو المتمثل في الانتخابات المزورة وشراء المقاعد، لم تتحقق إلا في عام 1832، وكانت طريق المزيد من الإصلاح وتوسيع حق الإدلاء بالأصوات طويلة ولقيت معارضة شديدة على مدى عشرات السنين بعد ذلك. كان تشارلز ماكفرلين يشكو من الوضع المتدني للمسيحيين في إقليمي الأناضول والبلقان في وقت كان فيه الكاثوليك في بريطانيا مايزالون محرومين من شغل الوظائف أو الدوام في الجامعات. ولكن نادراً ما يوجد أي اعتراف في الروايات الغربية حول الإمبراطورية بأن الإصلاح في الأقاليم العثمانية يمكن أن يكون تصاعدياً، وبمراحل بطيئة، كما هو الأمر في أوطانهم.

من النادر، مثلاً، أن تجد كاتباً غربياً يوحي بأن الرشوة كانت شائعة في العالم الغربي كما كانت في الشرق.[20] كان إدموند هورنبي Edmund Hornby، الذي كان على مدى عشر سنوات قاضياً قنصلياً بريطانياً في القسطنطينية في أواسط القرن التاسع عشر وخدم في ما بعد في كندا، أحد القلائل الذين أجروا المقارنة، مشيراً إلى أن الكنديين كانوا تواقين

إلى الرشوة مثل الأتراك، وقد قال بعض زوار أيرلندا في أثناء المجاعات في أربعينيات القرن التاسع عشر إن الأحوال هناك كان لا يمكن حتى أن يتسامح بها الأتراك. لكن بصورة عامة كان يتم الحكم على الأتراك بأنهم معوزون.

كان ثمة ظن بأن العثمانيين الذي كانوا يسافرون ويخدمون في الخارج قد "تفرنجوا"، وهذا صحيح إلى حد ما. فالغرب بالنسبة إليهم كان يعني نهاية الحكم الاستبدادي والأمن على الحياة، ومن خلال تجربتهم في لندن أو باريس أو فيينا، ذاقوا طعم نوع من الحياة تفوق كثيراً على أي شيء يمكن أن يتوقعوه داخل حدود الإمبراطورية. وقد وقفوا بغير ارتياح بين عالم القيم التقليدية والعالم الغربي؛ حيث كانت القيم الأساسية بحلول منتصف القرن هي المرافق والصناعة والتوفير. وفي الوطن كانوا يتعرضون لهجوم المحافظين؛ لعنة أطلقها عليهم عاصم أفندي، وهو المؤرخ الإمبراطوري في عهد سليم الثالث، ومايزال يمثلها اتجاه قوي من الرأي الرسمي، وقد أثار غيرتهم التقدم الذي تم منحه للمتفرنجين:

> وهم بعض الفاسقين العراة من لباس الولاء... [الذين] بين وقت وآخر تعلموا السياسة منهم [الفرنسيين]، وبعضهم رغبوا في تعلم لغتهم، واتخذوا معلمين فرنسيين، واكتسبوا مصطلحاتهم، واعتزوا... بحديثهم السمج. وبهذه الطريقة استطاعوا دس العادات الفرنجية في القلوب، وتزيين أساليبهم في التفكير في أذهان بعض الناس ضعيفي العقول وقليلي الإيمان.[21]

لكن بعد شهر عسل أولي مع المصلحين، لم يشاهد الغرب في نهاية المطاف إلا أخطائهم واتهموهم بالنفاق. فبعد أن تمت مواجهة علي باشا بأدلة على الفساد وسوء الإدارة في حكومته، «استمع وكأنه مهتم وأبدى بعض الملاحظات التي جعلتني أعتقد أنه كان مخلصاً وجاداً، بل هتف مرات عدة قائلاً: "ذلك سيِّئ" و"ذلك ظلم كبير" و"ذلك مناقض لتنظيماتنا وقوانيننا القائمة" و"ذلك لا بد من معالجته"». لكنه أضاف أن الباشا على الرغم من أنه «رجل محدود التفكير جداً، ومتخلف عن روح عصره، فإنه *يلقى دعماً كبيراً* [مكتوب في الأصل بحروف مائلة]، وعلى الرغم من أنه ليس بالعبقري، فإنه يتمتع بموهبة كبرى في تدبير المكايد حتى إنه من الأفضل للحكومة الحالية ألا... يكون مقرباً من

القصر». وقدّر زائره الإنجليزي أنه كان يعني أنه لم يكن ثمة «سوى فرصة ضئيلة جداً في التصحيح». وفي استئذانه لمغادرة علي باشا «لم يظهر منه عدم لياقة؛ حيث دعاني للعودة إلى زيارته في بيته متى شئت. ولم أعد أرى وجه الرجل الصغير الحجم مرة أخرى: فقد رأى مني ما يكفي تماماً! ففي المرة اللاحقة عندما زرته كان مشغولاً جداً؛ إذ كان سيذهب إلى الباب العالي، وكان لدي الوسيلة لأعرف *يقيناً* أن كل ذلك لم يكن صحيحاً، فلم أعد إلى زيارته».[22] ولعل هذه المقابلة تعطي انطباعاً عن العلاقة المضطربة بكاملها بين الغرب والمصلحين العثمانيين.

غالباً ما كان يوجَّه السؤال عن كون العثمانيين "مخلصين" في قبولهم للقيم الغربية أو لا؛ لأن بعض قادة الإصلاح بدوا معتادين على الرشوة والاختلاس مثل خصومهم. وقد رويت قصة عن أن وزير الإصلاح الأعظم، علي باشا، قبل بامتنان رشوة من خديوي مصر كان قد رفضها زميل له أقل ميلاً إلى الإصلاح. ولم يكن العثمانيون يرون النفاق بمستوى البراغماتية، وهي القوة التي حكمت جميع الإصلاحات العثمانية. وقد قال علي باشا في وقت لاحق: «إن سرعتنا يقيدها خشية دفع المراجل إلى الانفجار... يجب أن يكون تحولنا حذراً وتدريجياً وداخلياً ولا يتم تنفيذه بلمح البرق».[23] ويرى معظم الغربيين أن هذا لا يدل على الواقعية، بل على النفاق. فقد ضللهم إلى حد ما الوعد الظاهر الذي انطوى عليه خط شريف كلخانة [لعام 1839]، وتضمينه في المرسوم الإمبراطوري (خط الهمايون Hatt i-Humayun) عام 1856 أيضاً، الذي كان أمارة على تقدم العثمانيين نحو التنوير.

لم يكن الإصلاح في السياق العثماني يحمل المعاني نفسها التي كانت لصيقة بالمفهوم السائد في الغرب، بل كانت توجهه دوافع مختلفة، وكان "التغريب" وسيلة وليست غاية، فقد تم وصفه بأنه "تحديث أو تجديد دفاعي"[24] في وجه العالم الغربي. أما داخل الإمبراطورية فكان يستخدم سلاحاً من جماعات متنافسة لتعزيز المركز أو الدفاع عنه. فأولاً، تم استخدام "التحديث" من بعض السلاطين؛ كمحمود الثاني وحفيده عبدالحميد الثاني؛ لاستعادة سلطة المركز، الذي يعني السلطان شخصياً؛ حيث تآكلت هذه السلطة

عبر القرون. وثانياً، تم اعتماد "الإصلاح" من جزء من الطبقة الحاكمة العثمانية لضمان مركزها؛ وهو توسيع النظام العثماني osmanlilik إلى العناصر المحرومة من الامتيازات في الإمبراطورية بطريقة تمكن الحكام الحاليين من السيطرة في قمة المجتمع. وهكذا كان السلطان والطبقة الحاكمة في حالة تنافس على السلطة؛ فـ "الحداثيون" من جهة - محمود الثاني وعبدالحميد الثاني - ناضلوا من أجل الأتوقراطية المركزية، و"الإصلاحيون" من جهة أخرى مارسوا الضغط من أجل مزيد من النظام البرلماني تحت هيمنتهم (بالطبع). وأما العنصر الثالث في المعادلة - والتطفلي بصورة متزايدة - فكان مصالح الدول الغربية؛ فكل دولة كانت تريد أن تؤثر في الدولة العثمانية في الاتجاه الذي يلائم الأغراض الاستراتيجية والسياسية لتلك الدولة. وكان لكل قوة أوروبية أجندتها المحددة الخاصة بها، ولكن اهتمامها كان دائماً يجد تعبيراً عنه؛ بوصفه دفاعاً عن الأقليات المسيحية.

كان التركيز على محنة المسيحيين ببساطة يتجاهل الطريقة التي كان تتم بها معاملة المسلمين واليهود في ظروف مشابهة. فأحياناً كان المسيحيون هم عوامل الاضطهاد. وقد ذكرت ماري إيلايزا روجرز Mary Eliza Rogers كيف أن «فتاة صغيرة لطيفة المظهر، عمرها نحو ستة أعوام، وأبوها رجل أوروبي بالغ الاحترام، وأمها عربية، فاجأتني ذات يوم بالقول في العربية، دونما أي استفزاز، وبإيماءة ازدراء، لعامل يهودي: "اذهب أيها اليهودي ولتصلب". وعندما تم إخبارها بما تعنيه تلك الكلمات، قامت "بعفويتها، وبشكل أذهلته كثيراً، بتقبيل يديه، وقد بدت الدموع في عينيها"».[25] ولم يُعرف هل سمع أبوها المسيحي أو أمها العربية كلماتها الصادرة عن نية سليمة، ولكن الحادثة تمثل تعقيباً على العرض المبسط جداً للمسيحي؛ بوصفه ضحية الذي يهيمن على معظم الروايات الأوروبية عن الإمبراطورية العثمانية. وحتى في البلقان؛ حيث التزم الأوروبيون فكرة الإبادة الجماعية من العثمانيين، لعل الكراهيات الرجعية في الحياة القروية كانت في الغالب أكثر أهمية وبروزاً من الانقسام الواضح بين مسيحي ومسلم. لكن هذه لم تكن الرسالة البسيطة عن "الوحشية" التركية التي كان يطلبها الغرب.

وبعد وفاة محمود الثاني عام 1839 أذعن ولداه عبدالمجيد (1839-1861) وعبدالعزيز (1861-1876) على التوالي لمفهوم وزرائهما عن "الإصلاح". لم يكن لدى عبدالمجيد، الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره؛ أي بديل، ولكن يبدو واضحاً أنه كان يؤمن بالإصلاح بصدق، وأنتج عهده رمزين عظيمين من التنظيمات العثمانية، خط شريف كلخانة لعام 1839 وخط الهمايون في فبراير 1856. وكان هذا الأخير يهدف - كما تعلن الافتتاحية - إلى «التجديد ومزيد من الاتساع... لهيبة الإمبراطورية والمكانة التي تشغلها بين الأمم المتحضرة».[26] وقد أكد السلطان أنه لم يتكلم على رعاياه المسلمين فحسب، بل تحدث عن «رغبته في زيادة الرفاهية والازدهار للحصول على السعادة لجميع رعاياي الذين هم في نظري جميعاً متساوون وعزيزون علي بالدرجة نفسها، والذين توحدوا فيما بينهم بأواصر المحبة والوطنية». وسعى عبدالمجيد أيضاً «لضمان وسيلة جعل ازدهار الإمبراطورية يتنامى يوماً بعد آخر». كانت هذه الكلمات للصدر الأعظم، علي باشا، وليس من شك في أنها مثلت أمنيات السلطان ومشاعره. كذلك أسهمت في إرضاء حلفاء الإمبراطورية، فرنسا وبريطانيا؛ لأن هذا المرسوم جاء الاستشهاد به في الفقرة التاسعة من الاتفاق الذي أنهى حرب القرم بوصفه "عظيم القيمة"، وقد كانت معاهدة باريس إيذاناً بدخول الإمبراطورية العثمانية في مجموعة الدول الأوروبية المتحضرة، أو كما وصفها وليام إيوارت جلادستون، الذي شغل أربع مرات منصب رئيس وزراء بريطانيا، «صممت بريطانيا وفرنسا على إجراء تجربة كبرى بإعادة نمذجة النظام الإداري في تركيا؛ على أمل علاج آثامها التي لا تحتمل».[27] لقد كانت إنجازاً ملحوظاً للوعد ببرنامج الإصلاح، ولكنها كانت فجراً كاذباً.

لقد تم تصور الإخفاق مسبقاً في حدث غريب عند الاستقبال الكبير الذي نظمه السلطان؛ احتفالاً بالتوقيع على المعاهدة. كان قصره الجديد في دولما باهتشة على البوسفور قد حل محل مبنى أكثر تواضعاً كان والده يستخدمه. وقد استغرق تنفيذ القصر الجديد الفسيح أحد عشر عاماً، وهو مبنى مبهرج، نفذته مجموعة رائدة من مهندسي العمارة العثمانيين، بتكلفة 5 ملايين ليرة ذهبية. كان يبدو بالنسبة إلى الإسطنبوليين مزيجاً عجيباً من

الشـرق والغرب. كان هناك درج بلوري يقود إلى الأعلى إلى "قاعة السفراء"، مذهبـة مـن الأرض إلى السقف، مع أربعة مواقد تدفئة مفتوحة، كلهـا مشـتعلة بحيـث تجعـل الغرفـة شديدة الدفء. وقد تم تنظيم الوليمة احتفاء بالمعاهدة في الأسفل بقاعـة العـرش، بقبتهـا الضخمة المطعمة بطبقة فوق طبقة من نسيج صوفي مزين ومن الزخـارف. ومـن "منـور" محيط بالقبة، كان بإمكان نساء حرملك السلطان الذي ضـم الكثـير مـنهن الإطـلال عـلى الحفل في الأسفل. كان أول مبنى في العاصمة يضاء بالغاز، وقد بنى مهندسون بريطـانيون مصنع غاز ضخماً لإمداد القصـر وملاحقه. وقد حضـر إدموند هورنبي مع وفـد بريطـاني كبير، عسكري ومدني، و:

بعد أن أوى السلطان إلى فراشه بدقيقة أو دقيقتين أجفلنا صوت قصف الرعـد المخيـف مـرتين تبعتها عاصفة من الرياح والبَرَد. بدا أن المبنـى بكاملـه يهتـز، وفي غضـون لحظـة انطفأ الغـاز وأصبحنا في ظلام دامس. ألقت فرقة الموسيقا آلاتها وسمع صوت ارتطامها وهربـوا. لم ينـبس أحد ببنت شفة للحظة، ثم سمع صوت رقيـق وحـاد باللغـة الفرنـسية يقـول: "مصـيبة.. الله يلطف!".[28]

في الواقع قامت دول أوروبا بتقويم الإمبراطورية في الميزان ووجد أنهـا تفتقـر إلى الكثير.

كانت مصالح الدول الغربية محـددة؛ فهـي كانـت تهـتم بحمايـة مصـلحة الأقليـات المسـيحية، ولكـن كانـت لهـا أيضـاً مصـالح تجاريـة متنامية معرضـة للخطـر داخـل الإمبراطورية. كتب كريـسي في كتابه **تاريخ الأتـراك العثمانيـين** في الأيـام الأخـيرة لحـرب القرم (1853-1856) محدداً الخطة الأوروبية الضمنية للإمبراطورية:

مع تحسن الحكم الـداخلي، وزيـادة الأمـن عـلى الشخـص وممتلكاتـه، سـوف تتـدفق رؤوس الأموال الأوروبية على تركيا، وتثري المنطقة التي يتم استثمارها فيها، حتى أكثر من الأيدي التي يتم بواسطتها استثمارها. قـد يختفـي جنـود فرنـسا وإنجلـترا وأعلامهـما مـن منـاطق سـيادة السلطان، لا حرفيوهما وملاحوهما وعمالهما في مجـال المنـاجم، كـما لـن تتوقـف أعـلام سـفنهما

> التجارية عن الازدحام في موانئ المشرق. ربما لا تعود تُسمع أصوات حروب الفرنجة، ولكن أصوات دندنة الصناعة الأوروبية النشيطة ستزداد وتجد لها أصداء لا تحصى.[29]

بهذه الوسائل أمكن الإمبراطورية العثمانية أن «تتعلم كيف تقوى وترتقي». كان"الارتقاء" مفهوماً أخلاقياً مألوفاً تماماً لقرائه؛ إذ إن دخول التجارة البريطانية سيوفر مثلاً وسيلة لمزيد من التقدم.

بدأ الغرب على هيئة مستثمرين وتجار داخل الإمبراطورية، ولكن الحكومات الأوروبية الرئيسية انتقلت في نهاية الأمر إلى دور مركزي وأكثر نشاطاً. وقد فعلت ذلك حماية لاستثماراتها من فشل النظام الاقتصادي العثماني الذي تتوج بإفلاس وطني عام 1875. وفي عام 1851 ضَمن الصدر الأعظم والمصلح الأول مصطفى رشيد عرض قرض بخمسين مليون فرنك من مصرف بريطاني وفرنسي، وعند تلك المرحلة علّق أمير عثماني يتمتع ببعد النظر: «إن استدانت هذه الدولة خمسة قروش فسوف تغرق؛ لأنه بمجرد أن يؤخذ قرض فلن تكون ثمة نهاية له... إنها [الدولة] ستغرق تحت وطأة الديون».[30] وعلى الرغم من عدم أخذ ذلك العرض، فقد تم أخذ عروض كثيرة غيره؛ بالنتيجة المتوقعة؛ وكاد يحدث انهيار مالي عام 1861، تم تفاديه بحسن الحظ أكثر مما كان بالمهارة المالية.

كان العثمانيون متهمين حقاً بالإسراف والتبذير؛ فبعد حرب القرم استمرت الدولة العثمانية في إنفاق الأموال من دون حساب بشكل فاق الضرائب التي كانت تتسلمها. ولم تجد الإمبراطورية صعوبة في الاستمرار في جمع الأموال في السوق الأوروبية، كما أن الدخول في "اتفاق أوروبا"* دعم الثقة المالية في الخارج. أما في داخل الإمبراطورية فكانت الأسعار في ارتفاع بمعدل أكثر من الضعف سنوياً، وكان هناك استياء متزايد بين

---

* اتفاق أوروبا concert of Europe، ويعرف أيضاً بـ "كونجرس فيينا" وأحياناً بـ "تحالف أوروبا"؛ أسسته النمسا وبروسيا وبريطانيا وروسيا القيصرية، وكانت ضمن "الحلف الرباعي" الذي هزم نابليون عام 1815، ثم أصبحت فرنسا عضواً فيه. ويمثل هذا المجلس توازن القوى بين عام 1815 وحتى بداية الحرب العالمية الأولى عام 1914. ولم تكن توجد قوانين مكتوبة تحكم عمل المجلس أو وثائق دائمة، ولكن في حال وجود أزمات، كان أحد أعضائه يقترح عقد مؤتمر له. (المترجم)

المسلمين من الميزات التي تمنح للأقليات الدينية بموجب فرمان 1856. وقد أثار موت عبدالمجيد المفاجئ عام 1861، عن عمر ثمانية وثلاثين عاماً فقط، مخاوف من عدم الاستقرار، وأثار أزمة ثقة، ولم يتم تفادي انهيار مالي إلا بحسن الحظ. كان عبدالعزيز الذي خلفه أصغر من أخيه بسبع سنوات، وذا شخصية متناقضة. فقد كان ضخم الجسم خلافاً لبقية أسرته الهزيلين، وكان في البداية يبدو "تركياً بسيطاً"؛ إذ لم يكن مستسلماً لملذات الحريم، كما لم يكن حريصاً على اتباع المسار نحو الغرب، وبعد جلوسه على العرش، قلب معظم التوقعات رأساً على عقب.

بدلاً من الابتعاد عن الأجانب، أصبح السلطان الجديد أول حاكم عثماني يسافر إلى أوروبا؛ حيث زار باريس لحضور معرض عام 1867 بدعوة من نابليون الثالث، وأمضى أحد عشر يوماً في العاصمة الفرنسية، ثم مضى إلى لندن؛ حيث حل ضيفاً على الملكة فيكتوريا. كان البريطانيون حريصين على الأقل على مضاهاة كرم الضيافة الفرنسي، وكانوا يعرفون شغفه بالسفن، ولذلك تم ترتيب زيارات إلى أحواض بناء السفن، وشاهد مراحل تطور الأسطول في القنال الإنجليزي. ونتج من ذلك طلبيات شراء سفن حربية، وكان من دواعي سرور شركات أحواض السفن البريطانية القيام بصنعها، كما سرت الحكومة البريطانية من النفوذ الإضافي التي يمكن أن تتوقعه بصورة شرعية في القسطنطينية. تم دفع قيمة السفن من خلال قروض إضافية يتم جمعها في لندن، وتم التعامل معه بهذه الجدية الكبرى؛ حتى إن الملكة وافقت على تقليد عبدالعزيز "وسام الفروسية" a Night of the Garter، وهو شرف - بحسب مذكراتها - «كان عازماً على الظفر به».[31] كانت رحلة عودته إلى الوطن عامرة بالأحداث والتشريفات والأوسمة. وبعد أن غادر إلى القسطنطينية عن طريق بروكسل؛ حيث استقبله الملك ليوبولد، تابع رحلاته نحو الراين ليلتقي القيصر فيلهلم الأول في كوبلينز في راينلاند البروسية التي حظيت بإعجابه الشديد. وكانت آخر نشاطاته في فيينا؛ حيث تم قضاء فترات النهار في المناورات العسكرية، وفي الأمسيات حل ضيف شرف في الكثير من حفلات الاستقبال. وتم إجراء اتصالات مع صانعي المدافع النمساويين الذين عرضوا عينات من منتجاتهم.[32]

كانت هذه الرحلة إلى الغرب أمارة على قبول أوروبي للعثمانيين، ونتج منها زيارات متبادلة إلى القسطنطينية. كان عبدالعزيز أول حاكم عثماني يستقبل ملوكاً مسيحيين: الإمبراطور فرانز جوزيف ملك النمسا، والإمبراطورة يوجين ملكة فرنسا، وأمير ويلز ممثلاً للملكة فيكتوريا. وقد اعتبر ذلك كله دليلاً على أن عملية "الحضارة" استمرت. وهو، مثل أخيه، أصبح بنّاء عظيماً؛ حيث بنى قصرين - بيلارباي على الشاطئ الآسيوي وتشيراجان على الشاطئ الأوروبي - على البوسفور، ولكن حينما اتجه السلطان وحكومته نحو الغرب كان العداء نحو عملية الإصلاح (بكل جوانبها) في تصاعد طوال سبعينيات القرن التاسع عشر. وقد علق أمريكي كان يكتب من سوريا في أوائل عام 1874 بقوله: «ثمة تصاعد واضح في العداء للأجانب، والغيرة من وجودهم وعملياتهم مهما كان نوعها، تجارية كانت أو تعليمية أو دينية».[33] ولم تكن تلك هي المشكلة الوحيدة؛ فالنتائج كانت كارثية طوال سنوات عدة متوالية. وفي عام 1873 كان فصل الشتاء هو الأسوأ خلال سبعين عاماً، وراحت الذئاب تعوي في ضواحي إسطنبول، أما في البلقان والأناضول فقد مات القرويون من الجوع.

كانت عواقب التغريب المالية مباشرة وغير مباشرة معاً. فقد تصاعد استيراد المعدات العسكرية الغربية وسلع الكماليات بشكل مطّرد، بينما تم تدمير الصناعات المحلية بسبب المنافسة الأجنبية، وفي الكثير من مناطق إنتاج النسيج في الإمبراطورية حلت الواردات من مانشستر محل الأقمشة المحلية بشكل فعلي؛ بينما أدى إدخال أساليب الأزياء الأوروبية في حرملك القصر إلى موجة من التقليد بين صفوف النساء العثمانيات، وقد أسهمت زيارة الإمبراطورة يوجين في الإسراع بالعملية، وأقام مصممو الأزياء من باريس اتصالات مع خياطي الملابس النسائية في بيرا لمحاكاة الأزياءالأوروبية، وتم صنع هذه جميعاً من أقمشة أوروبية بدلاً من الأقمشة المحلية، وأصاب الدمار تجارة الحرير الناعم. وحتى الملابس التي تلبس خارج البيوت - وإن كانت أكثر تقليدية - بدأت تظهر تأثيرات أجنبية قوية فيها.[34] وقد صاحب أزياء الملابس ذوق جديد في الأثاث على الطراز الغربي بدأ في عهد محمود الثاني، ولكنه تصاعد إلى مستويات أعلى من البذخ في عهد

عبدالمجيد وعبدالعزيز. وتدل مفروشات القصور العثمانية - التي ماتزال ترى اليوم - مدى التحول في أسلوب الأزياء وتكلفتها الواضحة في الإمبراطورية.

أسرف ولدا محمود الثاني كلاهما في إنفاق الأموال على نطاق هائل؛ فقد بنى عبدالمجيد القصور، واشترى سفناً حربية وأسلحة، وقام بتمويل منطقة سراي بورنو على نطاق كبير، أما عبدالعزيز – الذي بدأ عهده باحتجاجات على الاقتصاد – فما لبث أن كشف عن أذواق مماثلة باهظة التكلفة. وقد ازدادت القوائم المدنية والدفعات الخاصة لأعضاء البيت الإمبراطوري بدرجة خرجت على السيطرة؛ لأنه لم يكن أي موظف يجرؤ على بذل أي جهد جدي لكبحها. وقد اقترن الإنفاق المتزايد بوسائل غير فعالة وغامضة لجمع الإيرادات. إن الوعد بالتخلي عن "ضريبة الخراج" - وكانت رخصة للمضاربين لاستغلال دافعي الضرائب - وتضمينه في مرسوم عام 1839 وكذلك في مرسوم عام 1856 الأكثر طموحاً، لم يتم الوفاء به على الإطلاق؛ وقد أدى هذا إلى جعل الدول الغربية ترتاب في وفاء العثمانيين تجاه وعود أخرى وردت في المرسومين.

لم يكن بالإمكان تحقيق تقدم بسرعة، كما كرر جميع المصلحين، ولكن بدا أنه تحقق تقدم مطّرد. ومن التناقضات أن كراهية الغرب والإفلاس الوطني (1875) ترافقا في المرحلة التي بلغت فيها عملية التغريب الذروة.

وسّع الدستور العثماني لعام 1876 في الواقع، حقوق المواطنة الكاملة لجميع من كان يعيش داخل "ممتلكات الدولة العلية". وكان ينبغي أن تتوج إنجازات الإصلاحيين، وهم الآن جيل جديد – من العثمانيين الشبان – بقيادة مدحت باشا، وهو رجل عظيم الكفاءة وشخصية مهيمنة. وكانت مؤهلاته تحظى بالإعجاب. وخلال سنواته أولاً في بلغاريا، ثم لاحقاً في بغداد، أقام حكماً قوياً ولكنه عادل، وحظي باحترام شعبي هائل.[35] وقد جعلته عزيمته التي لا تلين ومهارته في الإدارة يبدو أنه الرجل المناسب لاستعادة الحظوظ العثمانية، وكانت نقطة ضعفه أنه كان يفتقر إلى اللباقة والحس الدبلوماسي الذي كان يتمتع

به علي باشا أو فؤاد باشا. فقد شغل منصب الصدر الأعظم لفترة قصيرة، غير أن عبدالعزيز كان يخشاه ولا يثق به. وكان هذا جزئياً نتيجة عدم الاستقرار المتزايد لدى السلطان. فقد طلب بأن يركع أمامه جميع الوزراء، وحظر استخدام اسم عزيز إلا في الإشارة إليه وحده دون سواه. واضطر الوزراء الذين كان من سوء حظهم أن حملوا هذا الاسم الشائع إلى استعمال اسم آخر قبل أن يسمح لهم بالمثول في حضرته، أو قبل أن تظهر أسماؤهم في إحدى الوثائق (وقد ضايقه مدحت بلبس نظارات من دون طلب موافقة السلطان أولاً). لكن السلطان كان محقاً في خشيته من طموح الوالي السابق الواضح ورغبته في السلطة.

عاد النزاع القديم مع الطبقة الحاكمة العثمانية إلى الظهور من جديد بعد غيابه أكثر من ثلاثين عاماً. فمن الفوضى المالية والسياسية عام 1875 برز مدحت بالتحالف مع الجيش والسلطات الدينية لعزل السلطان، وتأسيس دستور، وتولية مراد (ابن أخي عبدالعزيز والوريث الشرعي) على العرش؛ بوصفه ملكاً دستورياً. وبحلول ليلة 29 مايو 1876 اكتملت جميع خطط الانقلاب. وقبل فجر 30 مايو، أخذت كتيبتان من القوات مواقعهما بهدوء، بحيث أغلقتا الطريق إلى قصر دولما باهتشة، بينما تمركزت سفن البحرية العثمانية لمنع أي هروب من جهة البحر. التقى مدحت والمتآمرون معه عند وزارة الحرب، وقرأ شيخ الإسلام مرسوم العزل. كانت المسوغات الحالة العقلية للسلطان وجهله بالشؤون السياسية وتبديده الإيرادات العامة على الأمور الشخصية والسلوك الضار «بالدولة والمجتمع». بعد ذلك أعلن المتآمرون مراد الخامس الذي تم إحضاره سراً من غرفه الخاصة، وعندما تم إعلان العزل لعبدالعزيز، قبِل ذلك بروح الاستقالة من دون تعليق، وتم نقله إلى حبس مريح في قصر طوب قابي (يني سراي السابق). وبدا أن إطلاق 101 طلقة مدفعية تحية لإعلان تتويج مراد تعد ببداية جديدة. وقد وصفت نهاية عهد عبدالعزيز بالكلمات نفسها التي قيلت عند تدمير الإنكشارية قبل خمسين عاماً، بأنها "الواقعة الخيرية".

صرح الإعلان الرسمي بتتويج مراد بأنه أصبح سلطاناً "بإرادة الله"، وهي الصيغة المعتادة – وعلى نحو فريد أيضاً – "بإرادة الشعب". لكن انتقال السلطة إلى حكومة دستورية تحت إمرة مراد، بتوجيهات مدحت وزعماء الطبقة الرسمية العثمانية، تم إهماله بفعل الأحداث. وطلب السلطان السابق – الذي كان يكره طوب قابي – نقله إلى قصر تشيراجان الذي كان قد بناه على البوسفور. ولكن تم اكتشاف جثمانه هناك في صبيحة الأحد 4 يونيو. وعلى ما يبدو قطع أوردته وفتح شرياناً باستخدام مقص صغير كان قد طلبه ليشذب لحيته، واستنتج تسعة عشر من كبار الأطباء في المدينة، بمن فيهم بعض الأوروبيين البارزين، أنه انتحر. ولكن في غضون ساعات انتشرت إشاعات بأن المتآمرين قتلوه: تم تناقل إشاعات فظيعة بأن مدحت شخصياً استخدم سكيناً للتخلص من سيده السابق.

أما مراد الخامس فقد جعله نبأ موت عمه في حالة من الانهيار العصبي. وقد أربك ذلك جميع خطط مدحت. وقام مدحت بسؤال الأخ الأصغر للسلطان، عبدالحميد، إن كان سيقوم بدور الوصي على العرش إلى أن يتعافى مراد، ولكنّ عبدالحميد أجاب بأنه سيقبل العرش، على مضض، لا منصب الوصي على العرش الذي كان يعد مفهوماً غير عثماني. وتمت هندسة انقلاب آخر لعزل مراد، وفي 7 سبتمبر قام عبدالحميد بامتطاء جواد أبيض وركب إلى جامع أيوب وحمل سيف عمر، وبذلك يتولى رمزياً حقوق السلطان وأعباءه. وبذلك أصبح لدى الإمبراطورية سلطانها الثالث في غضون ستة شهور، والذي قدر له أن يحكمها مدة الأعوام الثلاثين اللاحقة.

تولى عبدالحميد في سن الرابعة والثلاثين عرش دولة كانت رسمياً مفلسة، وعلى وشك أن تمضي إلى الحرب مع روسيا. هذان العنصران – الكارثة المالية والحرب – كانا الفكرتين المتكررتين في فترة حكمه الطويلة. كانت منجزاته في كلا الجانبين ضخمة؛ فقد انفجرت فقاعة الديون العثمانية عام 1875، عندما أخفقت الخزينة في دفع الفوائد المستحقة على القروض. وبالنسبة إلى المضاربين الغربيين فقد قدمت لهم الصكوك العثمانية معدلات عائدات عالية (حتى 12٪). وبالنسبة إلى المصرفيين الغربيين فقد حددت المخاطر مقابل

احتمالات وقوع مذبحة كبرى. وقد أصبحت تكلفة الإقراض لا تطاق بالنسبة إلى العثمانيين. فبحلول عام 1874 شغلت خدمة الديون الأجنبية حتى 60٪ من إيرادات الدولة العثمانية.[36] ورفض عبدالحميد الإذعان لخطط أكثر وحشية من دائني الدولة، وانتظر حلاً وسطاً. وفي نهاية المطاف، توجت المفاوضات الطويلة في عام 1881، عندما تم تأسيس لجنة ديون عامة، مكونة من ممثلين من جميع الدول الدائنة الرئيسية (بريطانيا وهولندا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا-المجر)، ومكتب للدولة العثمانية. وقد تم تمكين هذه اللجنة من السلطان لجمع إيرادات معينة، ولاسيما الإتاوة التي يدفعها الإقليم البلغاري المستقل حديثاً ورسوم إنتاج الملح واحتكار التبغ الجديد. وقد تم استخدام هذه الإيرادات مباشرة لخفض الديون، بدلاً من أن تختفي في داخل الميزانية الوطنية. وبحلول عام 1900 حوى هذا المكتب أكثر من 5000 موظف، مع 720 مركزاً منفصلاً لجمع الضرائب في أنحاء الإمبراطورية كافة. وقد لقي هذه المكتب استياء متصاعداً؛ بوصفه تدخلاً أجنبياً في قلب الأمة. فقد اعتبرت ضريبة التبغ مؤامرة مسيحية، مع أن إحدى الحكومات العثمانية هي التي فرضت الضريبة في سبعينيات القرن التاسع عشر. وقد فرضت اللجنة الضرائب على نحو عادل. وكان جباة الضرائب لا يحظون بالشعبية، وأصبحوا بؤرة دائمة للتحريض ضد الغرب.

كان الإفلاس انتكاسة مهينة،[37] وكان إنشاء اللجنة مساساً مؤذياً للسيادة. ومع ذلك، فقد أوجد الاتفاق أساساً صلباً للمستقبل. لقد تجاوزت عجزاً لم يكن ليتم سداده بالوسائل الطبيعية. وفي عام 1881 تم خفض المبلغ المستحق السداد إلى نصف قيمة الديون الكاملة، وتم تثبيت سعر الفائدة بأقل من 5٪. وارتبط الاستقرار باقتصادات محلية صارمة. وبهذه الوسيلة هبطت النسبة المئوية للدخل القومي المخصص لإيفاء الديون من من 60٪ إلى أكثر قليلاً من 32٪ بين عامي 1877-1878 و1905-1906. وبعد أن أصبح العجز تحت السيطرة تعافت الديون العثمانية؛ فقد استطاع عبدالحميد جمع تسعة عشر قرضاً ضخماً في الأسواق المالية الغربية بعد عام 1881.

حينما قويت قبضة عبدالحميد على الحكم والإدارة، وجد طرائق حاذقة أخرى لجمع الأموال، من أروعها ذريعة تمويل السكة الحديدية الإسلامية من خلال الحجاز، وهي التي ربطت دمشق بمراكز الحج في شبه الجزيرة العربية، بواسطة التبرعات (التي ليست تطوعية). وتم جمع ثلاثة ملايين ليرة تركية بهذه الوسيلة؛ ومعنى ذلك إمكان بنائها من دون استنزاف بالغ للخزينة، ومن دون تسليم الامتياز إلى شركة أجنبية، كما حدث في جميع خطوط السكك الحديدية الأخرى داخل الإمبراطورية.[38] وبما أن الحج كان مصدراً رئيسياً للدخل، وكانت السكة الحديدية أيضاً تنتج دخلاً من الركاب فقد كانت استثماراً ناجحاً.

كانت نقطة الضعف الأساسية الأخرى في الدولة حالة الحرب شبه الدائمة. ونسبة إلى الموارد الوطنية، كان نطاق الانخراط العسكري للإمبراطورية والاستنزاف المالي الناتج أكبر بكثير من أي من الدول المجاورة أو المنافسة. وكانت الإمبراطورية العثمانية في حرب في جميع العقود الزمنية حتى عام 1914. فقد بدأ نصف قرن من الصراع بحرب مع روسيا في الفترة 1853-1856 تطورت من خلال حرب القرم، وشملت بريطانيا وفرنسا حليفين للإمبراطورية العثمانية. ونشبت حرب عصابات مُرة في جزيرة كريت لم تنتهِ إلا بفقدان كثير من الأرواح وتكاليف ضخمة استمرت في الفترة 1866-1868. وقد أدت مقاومة أقاليم البلقان وجاراتها في الإمبراطورية إلى نزاع رئيسي استدرج روسيا في الفترة 1876-1878. وكان هناك صراع واسع الانتشار مع رجال القبائل في سوريا والجزيرة العربية طوال ثمانينيات القرن التاسع عشر.[39] وفي عام 1896 تطور تمرد كريتي جديد إلى حرب واسعة النطاق مع اليونان استمرت حتى بداية العام اللاحق. وفي القرن العشرين ازداد نطاق الصراع مع دخول الإمبراطورية في حرب ضد إيطاليا في ليبيا، والأشد خطراً من ذلك، ضد جميع جيرانها البلقانيين في الفترة 1912-1913. ولا تعبر هذه القائمة عن الاستنزاف الكامل للموارد العثمانية - بشرية ومادية - ولكن التكلفة المالية هي الأسهل قياساً. في الفترة 1880-1881 كانت الميزانية العسكرية تعادل 52٪ من جميع إنفاق الدولة، وبحلول عام 1907 بلغت 63٪، وكان ذلك من دون التكلفة الضخمة لحروب البلقان التي لما تكن قد أتت بعد.

وبعد أن ووجه عبدالحميد عند توليه السلطنة بأزمة إفلاس الدولة العثمانية في ذلك الوقت والأزمة الوشيكة المتمثلة في حرب كبرى مع روسيا في البلقان، بدا مرشحاً غير محتمل لمستبد ناجح. فقد كان هزيل القامة إلى حد ضعف البنية، وعنيداً ويتحدث بهدوء، ووديعاً جداً، وبدا نتاجاً نموذجياً لنظام الحرملك. وسرعان ما لقّب بـ "الأرمني"؛ لأنه قيل إن هذه الصفات القاتمة الكئيبة قد جاءت من أمه الأرمنية، مع أنها في الحقيقة كانت شركسية. تساءل آخرون بمزيد من الصفاقة عن أصله من جهة الأب باقتراحهم أن أباه هو من ورّثه الصفات الأرمنية. ويعد كلا الطرحين من المفارقات بالنظر إلى سمعته فيما بعد بأنه مضطهد الشعب الأرمني.

بما أن أخاه كان الوريث الشرعي، فقد كان عبدالحميد قادراً على قضاء معظم شبابه خارج دفء القصر، وكان قد رافق عمه في زيارته إلى معرض باريس، وقام فيما بعد بإقامة الكثير من الاتصالات مع الأوروبيين في القسطنطينية، وكذلك مع أعضاء الجاليات اليهودية والأرمنية، وكان قد تعلم الكثير عن الأمور المالية من المصرفي الأرمني الذي كان يدير ثروته الشخصية. وكان على علم بالتكلفة المدمِّرة لبلاطَيْ أبيه وعمه، وعاش أسلوب حياة أبسط كثيراً، وربما كان تقشفياً. وقد أعجب وزراؤه باهتمامه بإنشاء أول دستور عثماني، ولكنه أيضاً أظهر دهاء سياسياً دحض براءته الظاهرية. حاول مدحت باشا – الذي كان وقتها أبرز قادة الحركة الإصلاحية – أن يكون لديه رجال موالون له شخصياً داخل إدارة القصر يضعهم قرب السلطان الجديد؛ فرفض عبدالحميد الاقتراحات وعين رجاله الخاصين به. كانت هذه أول إشارة إلى روحه المستقلة؛ إشارة تجاهلها مدحت من دون حكمة. وقد قابل أمريكي السلطان قبل حفل تقليده في جامع أيوب بوقت قصير، ولاحظ محادثته مع مدحت. فعندما سئل السلطان الشاب كيف ستكون سياسته أجاب: «سياستي الآن أن أطيع الوزارة، وبعد أن أتعلم ما تدعو إليه الحاجة سأغيّر سياستي وأجعل الوزارة تطيعني».[40]

تم إصدار الدستور العثماني الجديد في 23 ديسمبر 1876، في أثناء هبوب عاصفة عنيفة، كانت بمنزلة نذير شؤم للمستقبل. تجمعت حشود ضخمة في وقت مبكر من بعد الظهر في الميدان المكشوف بجوار الباب العالي ليسمعوا فرمان السلطان. لم يكن السلطان عبدالحميد حاضراً؛ إذ قيل إنه "متوعك الصحة". وكما هو الشأن مع فرمانيّ عامي 1839 و1856، قدم الفرمان الجديد فكرة الإصلاح الغربية، كما أشار المبعوث العثماني إلى مؤتمر القسطنطينية للوزراء الأوروبيين الذين كانوا في تلك اللحظة جالسين للحكم على وضع الإمبراطورية في مبنى الأميرالية على بعد أقل من ميل. وكان ميثاق الإصلاح، مثل سابقيه، وثيقة غامضة، فقد منح حقوقاً جديدة لرعايا الإمبراطورية، مع تعزيز صلاحيات السلطان في الوقت نفسه، بدلاً من الحد منها. وأول مرة تم إعلان عبدالحميد خليفة للمسلمين، بصلاحيات واسعة وإن كانت غير محددة. وكان شخصه يتمتع بالحصانة، وهو وحده مسؤول عن جميع تصرفاته. والسلطان هو الذي يعين جميع وزرائه دونما إشارة إلى البرلمان أو الصدر الأعظم، وقد تم الإعلان بأنه المرجع الأعلى في الأمور الدنيوية القانونية، وأنه مسؤول عن تنفيذ قرارات المحاكم الشرعية. ولا يحق إلا للسلطان أن يأمر بالانتخابات أو يعقد البرلمان، وكانت جميع التشريعات البرلمانية تحتاج إلى توقيعه قبل أن تصبح قانوناً، ولكنه يستطيع إصدار فرمانات من دون إحالتها إلى البرلمان. والأهم من كل شيء، في المادة 113 التي تم إدخالها بإصرار شخصي منه، أنه احتفظ بالقوة الباقية الكاملة؛ إذ كان بإمكان عبدالحميد تعليق الدستور أو نفي أي شخص تحت أي ذريعة، وهي ذريعة "مصلحة الدولة"، بناء على معلومات واردة من الشرطة.[41]

لقد كررت هذه الفقرات عموماً ذكر السلطات التقليدية للسلطان، ولكنها أضعفت موقف الصدر الأعظم؛ حيث لم يعد له سلطة حقيقية على الوزراء الذين دانوا بتعيينهم للسلطان مباشرة. ولم تعد ثمة قيود على ممارسة السلطان سلطته الخاصة؛ ومن ثم صار يحكم شخصياً، ولم يعد مقيداً كما كان الأمر من قبل بفعل النظام التقليدي. وحتى البرلمان أصبح بالإمكان التلاعب به؛ فجزء يجري انتخابه (مجلس النواب)، وجزء يجري تعيينه من السلطان (مجلس الأعيان)، وكان دوره محدداً بإحكام. وحتى صلاحياته في الإشراف على

الميزانية السنوية تقوضت بحكم نص على أنه «في الحالات الملحة الناجمة عن ظروف غير عادية، يحق للوزراء... بمرسوم سلطاني... إحداث نفقات غير منظورة على الميزانية».

بدا الدستور في نظر الغرب تتويجاً ناجحاً لعملية الإصلاح، وأعطى الإمبراطورية بنية أكثر تحرراً من عدوها اللدود، روسيا. وضمن الدستور أن «جميع رعايا الإمبراطورية يسمون... عثمانيين مهما كان الدين الذي اعتنقوه... وجميع العثمانيين متساوون في نظر القانون. ولهم الحقوق والواجبات نفسها نحو الدولة من دون إخلال بالدين». وتم الإعلان أيضاً أن «جميع العثمانيين يتمتعون بالحرية الشخصية؛ شرط عدم التدخل في حرية الآخرين».[42] ولكن الصلاحيات الاحتياطية أتاحت للسلطان حيزاً واسعاً إن أراد أن يمارس سلطته الممكنة بكاملها. ففي النمسا-المجر كانت حكومات الإمبراطور فرانز جوزيف تستخدم أيضاً فقرات الطوارئ للتخلص من قيود الحكم البرلماني.

تحرك عبدالحميد بسرعة لاستعادة السلطة؛ فتمت إقالة مدحت باشا بعد تسعة وأربعين يوماً فقط من شغله منصب الصدر الأعظم، وتم إرساله إلى المنفى بغطاء من المادة 113. وبقي البرلمان بعد مهندسه الأول مدة تزيد قليلاً على عام، وبعد أن سمح له بالانعقاد في بضع جلسات حتى فبراير 1878، تم تعليقه من السلطان، واستمر ذلك ثلاثة عقود تقريباً. لم يتم قط سحب التسوية التي جرت عام 1876 ولم تلغَ رسمياً، واستمر عبدالحميد في وصف نفسه بالسلطان الدستوري، وكان يتم سنوياً طباعة الدستور العثماني في بداية كل كتاب سنوي رسمي للحكومة.

قرر السلطان اتباع سبيل تقليدية؛ ففي إحدى الجلسات الأخيرة للجنة برلمانية من الشيوخ والنواب، أعلن عبدالحميد: «لقد ارتكبت خطأً عندما تمنيت أن أقلد والدي عبدالمجيد الذي سعى للإصلاح من خلال أخذ الإذن وعبر المؤسسات التحررية. سوف أتبع خطوات جدي السلطان محمود، فأنا مثله أفهم الآن أن المرء لا يستطيع إلا بالقوة أن يحرك الناس الذين أمنني الله عليهم».[43] ولكن عبدالحميد خلافاً لجده، كان يتمتع بحس مميز لمعرفة ما يمكن للغرب أن يقدمه لما يريد من تحديث وعصرنة. وخلال ثلاثة عقود أقام

نظاماً مركزياً من الاستخبارات الاجتماعية والسياسية ليس له مثيل في أوروبا. ولقد كانت المهارة التي قام من خلالها بتحييد قوى المعارضة المحتملة، ومعظمها ضمن النص الحرفي للدستور الجديد إن لم يكن ضمن روحه، أمراً مؤكداً يدل على الفطنة والذكاء. فقد قام بنفي مدحت وبقية كبار الإصلاحيين بسرعة وفاعلية؛ حتى إنه سرعان ما تشكلت في الواقع حركة إصلاح عثمانية في المنفى بباريس. وفيما بعد؛ أي عندما أدرك أن المنفيين يمكن أن يكونوا أشد خطراً في الخارج من وجودهم في الوطن، سمح لبعضهم بالعودة، واعداً بأنهم لن يتعرضوا للاضطهاد بسبب آرائهم السياسية، ولكن إثر عودة مدحت تمت محاكمته بتهمة التآمر في مقتل عبدالعزيز، وهي الإشاعة الكاذبة القديمة التي كانت تنتشر منذ موت السلطان في غير أوانه. وقد وجده قاضٍ وهيئة محلفين مسايرين مذنباً، ولم يتم الحكم عليه بالإعدام بل بالسجن المؤبد. كانت هذه البادرة الإنسانية للاستهلاك الشعبي فحسب؛ إذ أنهى الصدر الأعظم السابق أيامه في قلعة الطائف الكئيبة في شبه الجزيرة العربية مخنوقاً بواسطة الجلادين الذين أرسلهم السلطان، ولكنه رسمياً مات بعد مرض طويل. وتم إرسال رأسه إلى العاصمة، بحسب الشائعات، في صندوق مكتوب عليه "عاج ياباني".

كانت معاملة مدحت أقصى الإجراءات؛ لأنه لم يكن ليخضع للضغط، وكان شديد الخطورة إن ترك حياً. وعادة كان يتم تحييد الأعداء بوسائل أكثر براعة.[44] لم يستطع عبدالحميد أن ينسى أن مدحت كان قد عزل سلطانين في السابق وقد يقوم بعزل ثالث. والواقع أن قدراً كبيراً من القلق الشديد الذي أبداه السلطان من دون ريب كان له أساس ثابت في الحقيقة. فقد كانت هناك مؤامرة بالفعل لإعادة مراد الذي كان يعيش بهدوء في قصر تشيراجان، وقد أخفقت المحاولة؛ لأن أخاه لم يكن في وضع يسمح له حتى لأن يكون رئيساً صورياً في التمرد. ولكن على الرغم من الخطر الذي كان يمثله أخوه كبؤرة لانقلابات مستقبلية، فلم يكن من عبدالحميد إلا أن ينقله إلى مزيد من الأمان في مجمع جديد كان يبنيه في حديقة يلدز على الهضاب فوق منطقة بشكطاش، وتابع حياته من دون انزعاج إلى حين وفاته الطبيعية عام 1904. وقد روت ابنة السلطان وصف أبيها لهذه الحوادث:

بعد قضية علي سوافي [محاولة إعادة مراد إلى العرش]، كان علي أن أكون حذراً. كانت عيناي مفتحتين، وإن سمحت لأخي أن يبقى حراً فلن يكون أي منا في سلام... ولأجل كلينا اتخذت إجراءات صارمة جداً. ولولا ذلك لما مات كل منا في فراشه موتاً طبيعياً.[45]

لم يكن الانطباع الأكثر اعتياداً عن عبدالحميد أنه صاحب قرار، بل الانطباع أنه شخص يعذبه الخوف من المجهول. وقد ذكر السفير البريطاني السير هنري لايارد Sir Henry Layard (المعروف بصورة أفضل تاريخياً بأنه حفار نينوى) أن السلطان كان مقتنعاً بأن البريطانيين كانوا ينوون اختطافه على ظهر سفينة بحرية وإعادة مراد. وقد وصف لايارد ذلك بأنه خدعة سخيفة. ومع ذلك فقد كان العمل التعسفي الثابت هو الذي اعتمده البريطانيون عند تعاملهم مع المسؤولين الصعبي المراس في مصر. ولعل حس الحذر والحكمة لدى عبدالحميد أصبح مبالغاً فيه، لكن كثيراً ما يتم الإيحاء بأنه مصاب بجنون الارتياب.

ومن الشائع أن يصف الخصوم السياسيون خصماً لهم بأنه "شرير" أو "مجنون"، أما أعداء عبدالحميد داخل الإمبراطورية وخارجها معاً فقد عدوه مجنوناً وشريراً في آنٍ واحد. وكان "جنونه" يكمن في عدم اتباع طريق التغريب المعتمد. كان الاعتقاد على مدى جيل بأن النموذج المناسب لتطوير الإمبراطورية، يتجسد في الأمم الأوروبية المتنورة؛ فقد كان الفرنسيون والبريطانيون يطالبون بأسلوب غربي من نظام الحكم، يعمل فيه وزراء مسؤولون ضمن سياق برلماني وعرضة للمساءلة أمام الشعب. والواقع أنه ليس ثمة قوة أوروبية كبرى بلغت ذلك المثل الأعلى؛ فالامتيازات في بريطانيا كانت مقيدة، والسياسة في ألمانيا والنمسا كانت متأثرة بقوة بالملك، أما روسيا فلم يكن لديها دستور فعال مطلقاً. وكانت إسبانيا في وضع شديد التقلب، وعرضة للحرب الأهلية والانقلابات العسكرية، وكانت إيطاليا ممزقة بالنزاع بين الكنيسة والدولة. ومع ذلك، كان التغريب هو البرنامج الذي كان يقدمه "الإصلاحيون" العثمانيون مدة تزيد على ثلاثين عاماً. ولكن بتولي عبدالحميد بلغت طاقتهم ودعمهم حديهما الأقصى: فقد كان دستور 1876 يمثل ذروة إنجازاتهم. ولم يخيب الإصلاح رعاة التغيير الغربيين فحسب، بل غير أيضاً أولئك العثمانيين الوطنيين الذين قبلوا الحاجة إلى التحديث، ولكن ليس في سياق غربي. وكانوا في

تلك الأثناء يشاهدون انحدار البلاد إلى الهزيمة والفوضى المالية. وكان هناك دعم للالتفات إلى اتجاه جديد لا يدين بشيء لأي من الدول الغربية.

عرض عبدالحميد عليهم، على مراحل بطيئة، برنامجاً مختلفاً، يعتمد على قيم الإسلام، وينبني على لقب الخليفة الذي ضمنه له دستور عام 1876. وقد سوغ الروس اختراقاتهم في البلقان؛ دعماً لإخوانهم السلاف؛ حملة صليبية للرابطة السلافية. وقد طور عبدالحميد مفهوم الوحدة الإسلامية ببطء؛ إذ اختزل بإحكام أيديولوجية إسلامية بأحدث أدوات القوة. كانت هذه عقيدة جهادية أعيد تكوينها من أجل سياق جديد. وقد استحق؛ بوصفه خليفة الولاء والخدمة من جميع المسلمين الصادقين، من جزر جنوب شرق آسيا إلى شواطئ الأطلسي. وكان الغرب يرى أن هذا الرجوع إلى الإسلام يعني أن السلطان «قد حصن نفسه أكثر فأكثر وبعمق في أحلام يقظة غير حقيقية؛ حيث وضع مزيداً من التركيز المستمر على مهابته الدينية؛ بوصفه خليفة؛ حيث كان يأمل بواسطتها أن يحقق مزيداً من السيادة على جميع المسلمين».[46] لم يطالب السلاطين العثمانيون قط بصورة رسمية بلقب الخلافة، إلا بمعنى تشريفي عام، أما عبدالحميد، فقد حول المطالبة إلى إعلان للسلطة الزمنية. في أوج قوة الإمبراطورية لم تكن بحاجة إلى ادعاء سلطة الخلافة الغامضة، ويعد السعي لإقامة دار الإسلام الجديدة هذه في وقت متأخر في القرن التاسع عشر، إقراراً بالضعف العثماني. وقد ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية بعد أن تم طرد العثمانيين فعلياً من جميع البر الأوروبي، باستثناء بقعة من الأرض حتى أدرنة. ولكن كانت هذه المرحلة هي التي تولى فيها عبدالحميد العرش، ويبدو أنه ما من شك في أنه كان يؤمن بإخلاص بدوره من حيث هو خليفة. وبالمصطلح السياسي كان لهذا تأثير في توحيد جميع القوى في المجتمع العثماني التقليدي وراءه. وإذا ما كان خطاب السلطان من الماضي، فإنه كان أيضاً أكثر أنصار تحديث المجتمع العثماني فاعلية.

لقد تحقق الكثير من الوعود المتجسدة في الدستور، وزود عبدالحميد الإمبراطورية ببنية أساسية للتعليم الثانوي، وشبكة سكك حديدية، وبخطط لتحسين شبكة الطرق في

أواخر عهده، وما لبث التلغراف أن امتد عبر البلاد بكاملها بما في ذلك المدن الصغيرة.[47] وكان يدير البيروقراطية الحكومية من خلال جهاز موظفين ضخم (12000 تقريباً في مجمع القصر). وقد حل في قصر يلدز وسكن في الواقع محل هيكلية الوزارة التقليدية والنظام الوزاري الجديد بموجب الدستور. ولكن هذا أيضاً كان في التقاليد العثمانية، ويرجع إلى الأيام التي وضع فيها محمد الفاتح هيكل قصر يني سراي. وأقام عبدالحميد نظاماً جعل بالإمكان ممارسة السلطة مركزياً.[48] كما استطاع أن يحكم الدولة من غرفه في القصر؛ لأن عيونه وآذانه كانت في كل مكان. وكانت ترسل إليه تقارير ("مذكرات") أسبوعياً، ويومياً، بواسطة مخبرين كانوا يبلغونه عن الأحوال في كل أصقاع الإمبراطورية. وكثيراً ما كان يعلم عن الأحداث في منطقة ريفية نائية أكثر مما يعرفه الموظف المسؤول عن المنطقة والجالس في عاصمتها الإقليمية. وقد قال السير تشارلز إيليوت، وهو يكتب "أوديسيوس" Odysseus:

> إنه [البرق أو التلغراف] أقوى أداة لإمبراطور يرغب في السيطرة على موظفيه، فلم يعد ضرورياً ترك أي من الأقاليم لحرية تصرف الوالي... بالتلغراف يمكن إصدار الأوامر إليه، ومعرفة ما يفعل، وتأنيبه، إضافة إلى استدعائه، وتوجيه مرؤوسيه للإبلاغ عنه، وبصورة عامة تجريده من السلطة الحقيقية.[49]

لقد ذهبت أيام الحاكم الإقليمي المطلق القديم؛ مثل الباشا الذي قابله الدبلوماسي الإنجليزي روبرت كيرزونRobert Curzon في طرابزون («كان يدخن غليون الطمأنينة على بساط الحكمة وقد رقدت باشاوية طرابزون تحت أشعة الشمس»[50]). لقد كان – كما ذكر إيليوت – «قوة طرد مركزي»، بينما كان نظيره الجديد قوة "جذب" مركزي تماماً.

كان عبدالحميد من أوائل من أدرك القيمة المعلوماتية للصورة التي غدت ممكنة بواسطة آلة تصوير الفيلم الملفوف. وقد استطاع السلطان من خلال الصورة، الحكم لنفسه على مدى صحة المعلومات التي كانت تصله. فإلى جانب مجلدات التقارير والنصوص المقدمة كانت هناك مجلدات من الصور. وهذه ليست من أعمال الفن أو

التحقيق الصحفي في التقليد التصويري الغربي، بل هي وثائق استخبارات اجتماعية أو سياسية.[51] وهي تعرض جسراً نصف مبني (عندما يؤكد له الوالي أنه اكتمل بناؤه)، أو سوقاً خالية (بينما تم إخباره بأن الطعام وفير فيها)، أو مدرسة مهجورة ظهر أنها ملأى بالطلاب. كانت الصور لأفراد في بعض الأحيان، ومن الملاحظات المرافقة يمكننا الاستنتاج أن هذه تمثل "عوامل دمار" محتملة؛ فعواقب الإخفاق يمكن أن تكون النفي، أو النقل إلى وظيفة أسوأ أو خفض الرتبة. وعلى الرغم من أنه كان هناك الكثير من الوحشية - ولاسيما في العاصمة لدى شرطة السلطان السرية - فقد كان الخوف لا الوحشية هو الذي يسيطر على أخلاقيات النظام. لم يكن أحد يعلم كم كان ما يعرفه السلطان، ولكن بما أن عبدالحميد كان مجداً واستحواذياً فقد كان يعرف الكثير. وقد تم تشجيع الأشخاص للإخبار عن جيرانهم، وكان يتم التحقيق في الشكاوى، وغالباً ما يتم العمل بناء عليها.

لم يكن السلطان "مبتكراً" بالطريقة التي كان والده وجده يستمتعان فيها بالابتكار لأجل الابتكار، بل كان مبتكراً لأنظمة. وبذلك، نجد أن عبدالحميد كان مستخدماً بكثرة للتلغراف، ولكن معظم الشبكة كان قد تم إنشاؤها في الوقت الذي تولى فيه العرش. كان يوجد 25000 كيلومتر من خطوط التلغراف عام 1869، ولكن بحلول عام 1904 ازداد هذا الرقم إلى 36000 كيلومتر فقط، وهو تقدم بطيء وحذر. وفي الجيش، خلافاً لأسلافه، كان يقوم عبدالحميد بالترشيد بدلاً من الابتكار؛ فقد عانى إفراطاً في الأفكار الجديدة وشراء الأسلحة بسوء تنسيق. وعندما واجه جنوده الروس عام 1877 كانوا يحملون مجموعة غريبة من المعدات. وقد أعجب وليام هيربرت William Herbert (الذي كان يخدم في الحرب في جانب العثمانيين وتم أسره عند سقوط بليفنا) بالجيش التركي، ومع ذلك فإنه استغرب عندما وصلت الذخيرة ذات يوم ولم تكن تتلاءم مع أي من أنواع البنادق التي كان يحملها جنوده.[52] قاتلت القوات بكفاءة وبعزيمة ثابتتين أذهلتا أوروبا (ومعظم الروس)، ولكن نظامها العسكري خذلهم. وعلى الرغم من أنه كان هناك القليل من الابتكار في عهد عبدالحميد (ويعود ذلك جزئياً إلى أنه كان يخشى أن يمنح الجيش دوراً

مستقلاً بشكل مبالغ فيه)، فقد تم إدخال كثير من التحسين في النظام. فقد تم إبرام عقود طويلة الأجل مع صناع الأسلحة الألمان والنمساويين الذين كانوا ينتجون معدات موحدة قياسية للسوق التركية. وعندها كان ثمة نوع واحد من الذخيرة يناسب جميع البنادق التي كانت تستخدمها قوات الخط الأول، وكانت المدفعية كلها تأتي من المصدر نفسه.[53] وتعد المؤسسة العسكرية مثالاً واضحاً على نهج عبدالحميد في التغيير، أما برنامجه السياسي فكان ضمن تقاليد جده، ولكنه - خلافاً لمحمود الثاني - كان يطبق منطقاً تنظيمياً وبيروقراطياً لا يعرف الرأفة لتنفيذ أهدافه. كان تجول محمود "العادل" مع فرسانه صورة مميزة، أما عبدالحميد "البغيض" فكانت صورته المقابلة هي صورة رجل يقلب الأوراق، ونادراً ما يظهر في الهواء الطلق، بل نادراً ما يغادر حدود قصر يلدز.

لازم هذا النظام الحميدي صاحبه، وشكل أساس الدولة التركية الحديثة. وعندما أجبره انقلاب عسكري عام 1908 على أن يصبح سلطاناً دستورياً من حيث النظرية والتطبيق (تم عزله عن العرش عام 1909 بعد إخفاق الانقلاب المعاكس)، تسلمت حركة "تركيا الفتاة" - (وكان اسم أصحابها ومطامحهم القومية تبعدهم عن العثمانيين الشبان في الجيل السابق) - بيروقراطية تميزت بالحداثة والكفاءة، يمكن أن تستمر في أداء دورها في أشد أحوال الحرب قساوة، وتتخطى الغزو والحرب الأهلية. وعندما قام مصطفى كمال عام 1923 (ما بعد كمال أتاتورك - "أبي الأتراك") أخيراً بإزالة بقايا النظام القديم، والسلالة العثمانية، وآخر آثار القوة الإمبراطورية السابقة، والخلافة، كان ميراثه هو الهيكل والنظام الذي بناه عبدالحميد على مدى ثلاثين عاماً. وفي أيدي السادة الجدد كان أداء النظام أفضل مما كان عليه من قبل.

كان النظام الحميدي مرناً ومتجاوباً مع اليد الموجِّهة من أي جهة تقوم بتشغيل آليته، وقد قاده أتاتورك على نحو أفضل من أسلافه. ولم يخفق عبدالحميد لأنه كان وحشياً أو قاسياً، وإنما لأنه كانت تعوزه الإرادة للسيطرة على ما ابتكره. فقد زوده سيل المعلومات من الأطراف إلى المركز بحس واسع بالقوة والسلطة، ولكن أيضاً بانطباع متشعب

بالتقويض والتهديد. وكانت هناك قيمة عالية للمخبرين من خلال المؤامرات التي كانوا يكتشفونها، وعدم الكفاءة التي كانوا يعثرون عليها، والأخطار التي تسهم تقاريرهم في تلافيها. ونتيجة لذلك، قاموا بتطوير مهارات في إعداد تقارير عن بدايات المعارضة على أنها حريق ملتهب. وكانت ملاحظة عارضة في مقهى، تتطور إلى شبكة من الثوار. وحينما كان السلطان نفسه يعتقد أن عرشه في خطر كان عرضة لإيحاء غير منضبط بوجود مؤامرة أو فتنة. وعلى أيدي محققيه المهرة في أساليب التعذيب تأكدت أسوأ مخاوفه.

وحينما أصبحت الدولة الحميدية المتحفظة أكثر قوة وسرية، تنامت حاجتها إلى أعداء حقيقيين أو خياليين. وكانت أبرز بؤرة تركزت فيها هذه المخاوف الوسواسية، هي الأرمن. ولا ريب أنه في أثناء الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، أصبح الأرمن الهادئون تاريخياً تدريجياً أكثر تصميماً على تحسين مركزهم داخل الدولة؛ وبوصفهم جماعة، لم تكن لهم شعبية، إلا بالنظر إليهم ضمن دورهم التقليدي بوصفهم مقرضين ومصرفيين. وقد دعم الكثير من التقارير الغربية الصادرة عن صحفيين ومبعوثين قضية الأرمن، بينما أدانتهم تقارير أخرى. وتتم قراءة الأحداث الدامية في عهد عبدالحميد وخلفائه بشكل مختلف من كل جانب.[54] أما بالنسبة إلى العثمانيين، فكان الأرمن يمثلون تهديداً لسيطرتهم على الدولة. كان عبدالحميد نفسه هدفاً لعملية اغتيال، وكان احتلال القوميين الأرمن للبنك العثماني في القسطنطينية عام 1895 بمنزلة مهانة قاتلة. أما مدى مسؤولية السلطان عن عمليات القتل التي تمت بعد ذلك فهي غير مؤكدة، ومن المؤكد أنه لا يمكن ألا يكون على علم بما كان يجري، سواء من خلال تقارير مخبريه أو من سيل الشكاوى من الحكومات الغربية المدعمة بتفاصيل من قناصلها ومبعوثيها. كان ثمة نموذج في الأحداث وفي رد الفعل الغربي، وكان هناك تشابه في الممارسة تجاه النزاعات الدموية بين المجتمعات في بلغاريا والبوسنة والهرسك (1875-1877)؛ حيث كانت السلطات العثمانية ببساطة تشجع الأحقاد القديمة لتنفجر في هيئة مذبحة. كان دور الدولة هو "استعادة النظام". وقد اتبعت الحكومة الروسية ممارسة

ليست مختلفة عند ارتكابها مجازر منظمة ضد المواطنين اليهود. وفي الحالة الأرمنية اتبع الغضب الغربي الأساليب نفسها.[55]

لم يكن أي سلطان عثماني قط موضع كره عالمي كما كان عبدالحميد. فمن جهة كان يتم استهجانه بوصفه "عبدالحميد البغيض" أو "السلطان الأحمر" الذي كانت يداه ملطختين بالدماء. ومن جهة أخرى، كانت تتم السخرية منه؛ بوصفه رجلاً يسيطر عليه الجبن والخوف؛ حتى إنه لا ينام أكثر من ليلة في الغرفة نفسها، ولا يخرج من قصره خوفاً من الاغتيال. وفي نظر الغرب، أصبح عام 1907 يجسد أسوأ السمات المنسوبة إلى العثمانيين؛ من قسوة وجبن و - على نحو أقل معقولية - الشبق. كان الزعيم المناسب لسلطنة مريضة وعليلة. كان "رجل أوروبا المريض". وأصل هذه العبارة معروف جيداً؛ ففي يناير 1853 نهض القيصر نيقولا الأول - وهو يتعرق بشدة من حمى شديدة أصابته ويتألم من مرض النقرس - من فراش المرض ليلتقي الوزير البريطاني في بيترسبيرج، وتحولت محادثتهما حتماً إلى الموضوع الرئيسي الذي كان يشغل القيصر. كان نيقولا مقتنعاً بأن الإمبراطورية العثمانية كانت على حافة الانهيار الوشيك. قال لسيمور: «لدينا رجل مريض على أيدينا، رجل شديد المرض، ستكون... محنة كبرى إن نجا منا في أحد هذه الأيام، ولاسيما قبل عمل جميع الترتيبات».[56] كان يقصد بـ "الترتيبات" التي كانت في ذهنه تفكيك الإمبراطورية العثمانية بواسطة القوى الأوروبية.

بعد ذلك أصبحت تركيا "رجل أوروبا المريض"؛ إذ قام رسامو الكاريكاتير، ولاسيما في المجلتين الهزليتين البريطانيتين بنش *Punch* ومقلدتها جودي *Judy*، بشكل ثابت بتصوير السلطان، ممثلاً للعثمانيين؛ إما بوصفه شخصاً هرماً يرتدي طربوشاً أو بوصفه شخصاً شرقياً بديناً ومريضاً، وسرعان ما أصبح الرجل المريض تعبيراً سياسياً وبصرياً مأثوراً، غير أن هذه الصورة لإمبراطورية واهنة متداعية ومحتضرة لم تبدأ مع القيصر، بل كانت شائعة على مدى قرون. فقبل أن ينطق نيقولا بهذه العبارة (لبلاطة ضريح العثمانيين؟)، كان الأوروبيون قد تنبأوا بالانهيار الوشيك للإمبراطورية. وفي عام

1622 كتب السير توماس رو Thomas Roe، السفير إلى الباب العالي، عن «العلامة المحتومة على انحدارهم». وقد وصف الإمبراطورية بأنها «تشبه جسداً عجوزاً، أصيب بالضعف نتيجة خطايا كثيرة تبقى عندما تنهار القوى». وأكد كتّاب مسيحيون آخرون ملاحظاته. فقد أشار مبعوث البندقية إلى القسطنطينية، لورينزو بيرناردو Lorenzo Bernardo، عام 1595 إلى «أنها [أي الإمبراطورية العثمانية]، صعدت إلى قوة عظمى بسرعة كبيرة، بالطريقة نفسها التي تنمو بها النباتات التي تنضج بسرعة وتنتج ثماراً، ثم تذوي بسرعة أيضاً».[57] وقد ردد الإصلاحيون العثمانيون صدى هؤلاء المنتقدين،[58] الذين عقدوا مقارنة صارخة بين فضائل السلاطين العظام؛ مثل: محمد الفاتح أو سليمان القانوني، وخطايا خلفائهم. وقد أشاروا إلى أن الإمبراطورية قد سمم قلبها الفساد، وذلك الفساد، مثل البثرة المتقيحة، وصل إلى رأسها ممثلاً في شخص عبدالحميد. فقد كان - بقامته الصغيرة وهيئته الرثة، بطربوشه ومعطفه الإسطنبولي - يمثل، واقعياً ورمزياً، التراجع عن السلاطين العظام في الماضي بعماماتهم وفروهم وريشهم.

لقد أسهمت القوات التي أطاحت السلطان عام 1909 - الجيش والسياسيون ونفوذ القوى الغربية - في إعادة الطبقة الحاكمة العثمانية إلى السلطة، إلى جانب الأحلام التي تمثلت في خط شريف كلخانة. وتم إحياء دستور عام 1876، وأصبح أعضاء "تركيا الفتاة" الآن يمارسون كل السلطات التي كان عبدالحميد يجمعها في شخصه. كان السلطان الجديد، محمد الخامس، شخصية تشريفية من دون أي نفوذ سياسي. وفي الحكم، كان أعضاء "تركيا الفتاة" أكثر نجاحاً بقليل من عبدالحميد. وعند سؤال بائع أسلحة ألماني عن الفرق بين النظامين القديم والجديد، أسر القول إنه لم يتغير شيء، باستثناء أن أحجام الرشوة المطلوبة أصبحت أكبر.

نسفت الحرب [العالمية الأولى] الاستقرار الجديد الهش في الدولة العثمانية فيما قدر لها أن تكون مرحلتها الأخيرة. وقد أظهرت حروب البلقان قوة هائلة للأمم السلافية الجديدة، أما في ليبيا فقد أُجبر العثمانيون على الدفاع عن آخر أرض في شمال إفريقيا ضد

إيطاليا المتعطشة لمستعمرات جديدة. كان دخول تركيا الحرب العالمية عام 1914 إلى جانب ألمانيا والنمسا من باب حساب المنافع، ولكنه دخول تحت مدافع سفينتين حربيتين كبيرتين تجنبتا حصار الحلفاء وأبحرتا داخل مضيق البوسفور. وعلى الرغم من أن أداء الجيش التركي كان جيداً طوال الحرب - حيث هزم البريطانيين والأستراليين والنيوزيلنديين على الشواطئ في جاليبولي، واستسلام القوة البريطانية الغازية في كوت العمارة في العراق، وإبعاد الروس ودول البلقان - فإنه بحلول عام 1918 نفدت الموارد لدى الجيوش العثمانية وانسحبت. وقد افترض الحلفاء أن الإمبراطورية كانت جاهزة للتفكيك؛ أصبح الرجل المريض أخيراً على فراش الموت.[59] ومع ذلك، لم تكن هذه الدورة الأخيرة للعجلة؛ فقد وجد الجيش التركي في الأناضول روحاً جديداً تحت قيادة مصطفى كمال، القائد المنتصر في جاليبولي، والذي قاتل رداً على الحرب. وفي نهاية المطاف، تم طرد جميع المحتلين، من فرنسيين وبريطانيين وإيطاليين ويونانيين وروس، من التراب التركي. وقد شهدت الحرب ضد اليونان قتالاً أشد وحشية من أي قتال في الحرب العالمية، وأصبحت مدينة سميرنا (إزمير) المحترقة منارة للانبعاث التركي وبداية قصة جديدة من الفظائع.

وكان يُنظر إلى الحاكم الأخير في السلالة العثمانية، محمد السادس، الذي تم إجلاسه على العرش عام 1918؛ بوصفه بيدقاً في يد الحلفاء؛ فقد تم تجريده من صلاحياته، من حيث هو سلطان على يد القوميين المنتصرين، غير أنه سمح له بالاستمرار خليفة إلى أن تم إلغاء ذلك اللقب عام 1923. وبعد ذلك، أسهمت الجمهورية التركية التي ولدت من رحم الحرب العالمية الأولى، في التخلي عن أحلام الطبقة الحاكمة وقلدت السيادة "للشعب" في دولة قومية. لقد دمر مصطفى كمال (كمال أتاتورك) الدولة العثمانية العابرة للقوميات، وأوجد أمة تركية جديدة، متجذرة من جديد في منطقة الأناضول المركزية التي كان العثمانيون قد جاؤوا منها قبل ذلك بقرون. ومع قيام الجمهورية التركية، تمركزت السلطة من جديد في يد شخص واحد: أتاتورك نفسه؛ فقد تم تدمير النظام العثماني القديم، لكن ملامحه لم تختفِ؛ فقد ولد الأسلوب العثماني من جديد في هيئة قومية تركية،[60] ورفض أتاتورك سبيل تقليد أوروبا، فلم يأخذ إلا ما أراد هو من الغرب.

الفصل السابع

التركي الشهواني

على مدى أربعة قرون بدا أنه لم يتغير شيء، أما من حيث المظهر فقد تغير كل شيء؛ إذ كانت التغيرات الظاهرية - من القفطان إلى المعطف الإسطنبولي، ومن العمامة إلى الطربوش - تمثل نقلة واضحة من التقاليد إلى الإصلاح. وعندما لبس مصطفى كمال، زعيم الجمهورية التركية الجديدة قبعة بنما لأول مرة عام 1925 في مدينة قسطموني؛ أي في قلب التوجه الإسلامي المحافظ، كانت الصدمة عظيمة كما حدث عندما تخلى محمود الثاني عن القفطان والعمامة. كان كمال يركز على أهمية الإيماءات الرمزية، فقد صرح أمام حشد كبير:

> أن الشعب التركي الذي أسس الجمهورية التركية متمدن، فهم متمدنون في التاريخ وفي الواقع، ولكنني أقول لكم... على شعب الجمهورية التركية الذي يدعي أنه متمدن أن يثبت أنه متمدن؛ وذلك في أفكارهم وعقليتهم وحياتهم الأسرية ونظام حياتهم... عليهم أن يثبتوا في الواقع أنهم أشخاص متمدنون ومتقدمون في مظهرهم الخارجي أيضاً. وسوف أصوغ تفسيري لكم في هيئة سؤال:
>
> هل لباسنا قومي؟ (صرخات بلا)
>
> هل هو متمدن ودولي... (صرخات بلا.. لا)
>
> أتفق معكم. فهذا الخليط المضحك من الأزياء ليس بالقومي ولا الدولي. الثوب الدولي المتمدن جدير بأمتنا ومناسب لها، وسوف نرتديه. جزمة وحذاء لأقدامنا، بنطال لسوقنا، قميص وربطة عنق، وجاكيت وصدرية، وبالطبع إتماماً لهذه جميعاً غطاء له حافة لرؤوسنا. أريد أن أجعل هذا واضحاً. هذا الغطاء للرأس يسمى قبعة.[1]

كان هناك تحول أكثر إثارة حتى بالنسبة إلى النساء؛ لأن "الحضارة أو المدنية" كانت تعني إلغاء العزلة والحجاب، والمساواة القانونية مع الرجال.

ومع ذلك، بقي الغرب متأثراً بالصور المتجذرة من الماضي. "فالحضارة أو المدنية" لم تأتيا بالقبول، بل بالخوف من الصفات الغريبة للأتراك فحسب، ولم يستطع معظم الغربيين فهم التحولات التي كانت واضحة جداً لجميع الأتراك؛ سواء منهم العثمانيون من أيام الإمبراطورية أو القوميون في الجمهورية الجديدة بعد عام 1923. لقد ركزوا بدلاً من ذلك، على صور سطحية وغريبة وغامضة من الماضي البعيد.[2] وكان لهذه المواقف جذور عميقة في الأيام الأولى للاتصال المسيحي-الإسلامي، ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر حدث تحول من التركيز على الخوف والعداوة إلى الرعاية والإعجاب. لقد اتضح أن هذه كانت النقطة التي عندها لم يعد العثمانيون يمثلون تهديداً، غير أن ذلك يعد استنتاجاً بسيطاً بعد انكشاف الحقيقة؛ فطبيعة الاتصال قد تغيرت بالتأكيد؛ لأنه بدلاً من رؤية الأتراك في أرض المعركة أو كأسرى فحسب، بدأوا يظهرون مبعوثين في قصور الغرب، وقد تم تضخيم هذه الرؤية عن العثمانيين؛ بوصفها "تركمانيا" Turcomania عصرية اكتسحت جميع دول أوروبا الغربية في النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد بدأ الانشغال بجميع الأشياء التركية مع سفارة محمد أفندي إلى فرنسا عام 1720-1721. وقد انسحر أفراد الحاشية الفرنسيون بالفراء والقفاطين الفاخرة والأشياء الجميلة الغريبة والمثيرة التي كان السفير وطاقمه يتباهون بها. كانت ردود أفعالهم على هذه المخلوقات الغريبة متوقعة. وقد أشار كاتبو المذكرات على نحو ناقد إلى أنه على الرغم من أن السفير كان يرفض شرب الكحول علناً، فمن الواضح أنه كان ينتشي بتناول الشامبانيا الجديدة المبتكرة، وقد استهلك كميات كبيرة منها في غرف سرية؛ وبالمثل، نجد أن حضور النساء للمناسبات العامة كان يسبب للعثمانيين بعض الحرج، ولكن - كما يذكر كاتبو المذكرات - كان الأمر على النقيض من ذلك تماماً في السر، أما في السنوات التي أعقبت قيام السفارة، فمن دون أي سبب يتعلق تحديداً بمحمد أفندي، تحول الفرنسيون من رؤية الأتراك أشخاصاً مسببين للرعب إلى رؤيتهم بؤرة للمتعة الغريبة والشهوانية والنفاق، وحيث كانت فرنسا تتولى القيادة كانت أوروبا تتبعها.[3]

وسرعان ما تم أيضاً اعتبار الكذب والنفاق والجشع على أنها عيوب عثمانية تميزهم. أضف إلى هذه الصفات، الشهوات الداعرة السهلة التخيل، والشغف الشديد بالحريم، والصور النمطية القديمة عن المسلم [المغربي] الشهواني والأتراك الملطخين بالدماء، التي تأكدت ولم تستبعد، وذلك من خلال الاتصال مع الواقع. وحينما لم يعد ثمة خوف من الأتراك بسبب فضائلهم الحربية والرجولية، فقد أصبحوا موضع حسد من جهة، وكراهية من جهة أخرى؛ نظراً إلى روحهم الرياضية المفترضة ومظاهر وحشيتهم الماكرة في حجرة النوم. وقد ألهبت مثل هذه الانحرافات قوى التخيل لدى الأوروبيين الذين كانوا يرجمون بالغيب حول الشرق. كم كان ملائماً أنه في الشقق التي تم فيها تمثيل رواية دي ساد de Sade مائة وعشرون يوماً من سدوم، كانت هناك «أسرة تركية رائعة مغطاة بمظلة من قماش البروكار [قماش دمشقي فاخر يصنع من خيوط الذهب والفضة والحرير الطبيعي] بثلاثة ألوان مع أثاث متناغم معها، تزين هذه الأجنحة التي كانت مخادع للنساء ويقدم فيها كل شيء وأكثر مما يمكن أن يتخيله أكثر الناس شهوانية وبذاءة».[4]

لم تكن حالات سوء الفهم من جانب الغرب فحسب؛ فقد أصيب العثمانيون القادمون إلى الغرب بصدمة أدت إلى استحضار خيالاتهم. وقد علق الشيخ رفاعة الطهطاوي على الفرنسيين بقوله: «الرجال بينهم عبيد النساء سواء كن جميلات أو لا. قال أحدهم... النساء بين أهل الشرق يشبهن المقتنيات المنزلية، بينما هن بين الفرنجة يشبهن الأطفال المدللين».[5] كما صدم سفير مغربي زار إسبانيا عام 1766 بالطريقة التي بها:

> تدمن النساء كثيراً على محادثة الرجال الأجانب ومخالطتهم علناً أو سراً... وكثيراً ما يحدث أن يعود مسيحي إلى وطنه فيجد زوجته أو ابنته أو أخته في صحبة مسيحي آخر، غريب، يشربان معاً ويميل كل منهما نحو الآخر. وهو مسرور بذلك... ويقدره بوصفه فضلاً من المسيحي المصاحب لزوجته أو لأي أمراة من نساء بيته.[6]

ولعل رد فعل السفير المروَّع، يعكس ردود أفعال الكثير من المسلمين في عصره: «عدنا إلى مساكننا ودعونا الله أن ينقذنا من الحال التعِسة لهؤلاء الكفار». ومع ذلك، فإن

عدم التفاهم المتبادل هذا، الذي يغلفه إحساس بالرضى الذاتي، أعمى كلا الطرفين عن وقائع مجتمعاتهما. فالرجال من بريطانيا وفرنسا كانوا يكرهون حبس النساء في الديار العثمانية، ويهنئون أنفسهم على الحرية الطليقة التي تنعم بها نساؤهم في الغرب. أما صمت نسائهم الذي يفرض في دولهم هم فقد مر من دون تعليق.

قبل القرن الثامن عشر كان السماح بدخول الإمبراطورية العثمانية يعد ميزة نادرة، ولكن قلة من العثمانيين قامت برحلة إلى الطرف الآخر. ومنذ بداية القرن الثامن عشر تنامى نموذج التبادل بين الطرفين عاماً بعد آخر. وأصبحت القسطنطينية ميناء زيارة أو توقف في الرحلة الكبرى، وصار عدد متزايد من العثمانيين يزورون الغرب. وبرز عدد من المواقف المتوازية من كلا جانبي التبادل. أولاً - وهذا الأقل عدداً - كان هناك المتحمسون الذين وجدوا ما يلبي رغبتهم في التواصل، أما على النقيض من ذلك، فكان هناك الذين يمقتون كل مظهر من مظاهر العالم الغريب، وهم جماعة كبرى. وكلتا هاتين الجماعتين المتحمسة والكارهة، لم تختبر الغريب - الآخر - مادامت تجد ما يعزز آمالها أو مخاوفها. كانت الجماعة الكبرى ببساطة، تتصف بكثير من الفضول، وفي فضولهم الساذج واطلاعهم القليل تكمن المواقف غير الواعية التي ألهمتهم إياها ثقافاتهم. وأخيراً كانت هناك الفئة الأكبر على الإطلاق: أولئك الذين كانوا يصدرون الأحكام على العثمانيين من دون أن يستفيدوا من رؤيتهم من أجل أنفسهم. وبالفعل، نجد أنه حينما تحسّنت وسائل الاتصال المطبوعة، وبشكل أكبر مع نمو الصحافة المصورة في القرن التاسع عشر،[7] غدت "مسألة الشرق" ملكاً لأي شخص كان يستطيع قراءة صحيفة أو نشرة، أو يستمع إلى الآراء التي يتم التعبير عنها في حانة الجعة أو مائدة العشاء. وفي نقاط معينة، بعد "الفظائع البلغارية" في سبعينيات القرن التاسع عشر، أو "المجازر الأرمنية" في تسعينيات القرن التاسع عشر، كانت قضية العثمانيين في قلب السياسة، وبشكل أكثر إثارة في بريطانيا، ولكنها كانت في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. في بريطانيا - بالتأكيد - غالباً ما كان يتم ملاحظة التمييز بين الذين كانوا في الشرق والذين لم يكونوا كذلك. وكان بنيامين دزرائيلي Benjamin Disraeli، الذي كان مفتوناً برومانسية المشرق، قد

أمضى شهوراً كثيرة في اليونان والقسطنطينية ومصر؛ حيث كان يعيش "مسترخياً في تركيا". وفي رأيه «يبدو أدنى تاجر في السوق مثل السلطان، في حكايات الشرق الخيالية»،[8] وكان يرى أنه ينبغي أن يتم الاستمتاع بالشرق وفهمه، أما في رأي وليام إيوارت جلادستون William Ewart Gladistone، الذي لم يتجاوز إيطاليا شرقاً وكان يعتز بالحضارة الغربية المسيحية، فكان التركي بغيضاً.

يقع الانشغال الارتدادي للغرب بالعثمانيين تحت ثلاثة عناوين عامة: الشهوانية، والقسوة، والفحش أو البذاءة. وهذا الأخير يرخي بظلاله على العنوانين الأولين. وفي الواقع كان كل مسافر يشعر بأنه مضطر إلى بعضها أو جميعها. ولم أجد في أي من النصوص الكثيرة جداً التي قرأتها أن هذه الموضوعات قد تم إغفالها تماماً. فالأغلبية يرون أن تجربة الشرق كانت وراء تأزيم صراع شخصي داخلي، وكانت القضايا أكثر تعقيداً وحساسية بالنسبة إلى النساء المسافرات عما كانت تبدو بالنسبة إلى الرجال.[9] وبما أنهن يمكن أن يسمح لهن، إن أصررن، بالدخول إلى عالم الحريم الذي لم يكن بإمكان الرجال إلا الثرثرة والتخمين حوله، فقد واجهن صراعاً خاصاً بين الصورة النمطية والواقع المنظور، كما أنهن كن أيضاً على علم بالقيود التي عانينها في مجتمعاتهن: فمقابل كل مدام دي سيفينيه Madame de Sévigné [فتاة فرنسية برجوازية مشهورة برسائلها إلى ابنتها] يتم تكريمها والإشادة بها؛ بوصفها عالمة موهوبة، كان هناك عدد أكبر من النساء اللواتي يتمتعن بالهمة والإنجاز وقد كبتهن عدم تحقيق مبتغاهن. وحتى بالنسبة إلى المرأة ذات المواصفات المقبولة والمكانة الثقافية، كان هناك تقسيم للمجالات. كما صاغها بوب Pope في قصيدته رسالة إلى سيدة:

لكن لنفترض أن الرجال يظهرون أحياناً في العلن،

بينما تظهر المرأة في الحياة الخاصة فقط؛

فمواهبنا الأكثر جرأة يتم عرضها تحت الأضواء تماماً،

وفضائلكم تبدو أجمل في الظل.[10]

أوضحت ألاين كوربين Alain Corbin الصلة بين الظلام والمرض: إن حرمان النساء من النور والهواء الطلق أدى إلى تدهورهن جسدياً ونفسياً.[11] لقد بدا الحرملك بالنسبة إلى الرجال - بجدرانه البيض العديمة النوافذ، والبعيدة عن العالم الخارجي - أرضاً خصبة حتمية للرذيلة والتحلل الأخلاقي. ولكن، ألم يتم إلقاء النساء الأوروبيات من الرجال في "الظل"، وعانين من عزلهن؟ ألم يشعرن بوجود صلة قربى مع أولئك المعزولات خلف أسوار الحريم؟ كانت أول امرأة أوروبية تزور العالم الداخلي الليدي ماري وورتلي مونتاجو Lady Mary Wortley Montagu، ولا حاجة إلى إضافة القول: إنها كانت من أكثر أفراد النخبة تميزاً، وكانت تتمتع باستقلالية تفوق ما تتمتع به معظم النساء. ولكن كان يمكن توجيه أبيات بوب القاسية لمأزقها: امرأة ذكية مقيدة برجل غبي. لقد تحولت بفضل تجربتها في العالم العثماني، وبدأت حياتها من جديد.

في أثناء الأيام الأولى من عام 1717 سافرت إلى القسطنطينية مع زوجها، السفير الإنجليزي الجديد إلى بلاط أحمد الثالث، وأخذت معها جميع تحاملات طبقتها وجنسها، يضاف إلى ذلك تخمة من التخيلات الأدبية حول الشرق الغامض، ولكنها كانت متفتحة الذهن، وقد أنتج التواصل تغيرات عميقة في مواقفها منذ الأيام الأولى لدخولها البلقان المحتلة من العثمانيين.

كتبت عن مضيفها في مدينة بيتروارادين Peterwaradin:

> [الأفندي] حشمت بيك... يتمتع بحس جيد نحو تفضيل حياة مريحة وهادئة وآمنة لكبار ضيوف الباب العالي جميعاً. فهو يتناول العشاء معنا كل ليلة، ويشرب النبيذ بحرية كبيرة. لا يمكنكم أن تتخيلوا كم كان سروره بحرية التحدث معي... حدثت جدالات عدة معه بشأن الاختلاف بين تقاليدنا، ولاسيما احتباس النساء. فهو يؤكد لي أنه لا شيء فيه مطلقاً. ويقول: إننا [أي نحن الأتراك] لدينا ميزة، وهي أنه عندما تخوننا زوجاتنا لا يدري بذلك أحد.[12]

وتبرز في هذه الرسالة إلى ألكساندر بوب Alexander Pope (الذي كانت تعرف جيداً شهيته للغريب والمتنافر)، ثلاث صور نمطية عن العثمانيين، تم الجمع بينها: النفاق

(النبيذ)، والشهوانية (الاقتراب الحميمي من المرأة الأوروبية)، والقسوة (احتباس النساء). ومع ذلك، فقد قوض سلوك حشمت بيك واستجاباته، كلاً من التحاملات واحدة بعد الأخرى؛ فحسن الضيافة اقتضى إكرام ضيوفنا وملاطفتهم، وعلى أي حال فإن تحريم الخمر لا يلتزم به إلا المتدينين. ومن جهة أخرى، من الواجب الابتعاد عن السُّكْر. وببساطة، فإن المحادثة وليس سفور الوجه من الليدي ماري هو الذي أثاره. والواقع أن عينيها اللامعتين الرائعتين لا يمكن أن يقلل من سحرهما إلا الوجه الذي تغطيه بثور الجدري للأسف تحتهما. ولعل كلامه عن النساء الخائنات، كان له صداه الخاص في نفسها؛ إذ كانت قد تزوجت زوجها بعد لقاءات سرية وخداع طويل؛ لأن أباها كان يفاوض من أجل بيعها بمنفعة أكبر لنبيل أيرلندي شاب بليد ولكنه غني. وكان البديل أمامها ليس الموت العنيف الذي كان يعتقد (خطأ) أنهن يعانينه في البلاد العثمانية، وإنما موت اجتماعي طويل الأمد. والواقع أن أباها قال لها: إن بإمكانها رفض الزواج من الفيكونت ماساريني Viscount Massarene، ولكن بشرط ألا تتزوج من أحد غيره؛ ما يعني بالنتيجة النفي الفعلي من المجتمع إلى العيش في الريف. وكان سيمنحها 400 جنيه إسترليني في السنة بقية حياتها لسد حاجاتها. وكان مضمون كلامه واضحاً؛ بإمكانها أن تختار بحرية، ولكن فقط بين اختياره لزوجها ونهاية الحياة التي كانت ترغب فيها.

لذلك كان العثمانيون في نظر الليدي ماري غرباء، ولكنهم ليسوا غير جذابين. أضف إلى تلك الحقيقة المرة أن زوجها، إدوارد وورتلي مونتاجو، الذي هربت معه لتنجو من الفيكونت أو حياة الحرمان العُذري، تبين أنه بليد، ولديه مناعة ضد الرومانسية، وقد أصبح حس التوافق بينها وبين النساء العثمانيات أقوى من ذي قبل. وعندما ذهبت إلى الحمامات لأول مرة في أدرنة، كانت «في هيئة السفر، وهو ثوب الركوب، ولا شك في أنني بدوت عجيبة جداً أمامهن، ومع هذا، فلم تظهر أي منهن أقل استغراب أو فضول وقح، بل استقبلنني بكل لطف ومراعاة ممكنين».[13] وهي لم تتجاهل مصيرهن المشترك؛ بوصفهن ضحايا للنزعات الذكورية:

السيدة التي بدا أنها الأكثر أهمية بينهن طلبت إلي الجلوس بجانبها، وكانت ستساعدني بكل سرور في خلع ثيابي لأجل الاستحمام، فأعفيت نفسي ببعض الصعوبة؛ حيث كن جميعاً جادّات في إقناعي. وأخيراً اضطررت إلى فتح تنورتي وأريتهن مشدّي؛ الأمر الذي أقنعهن تماماً؛ لأنني رأيت أنهن صدّقن أنني كنت محبوسة في تلك الآلة حتى إنه لم يكن في مقدوري أن أفتحه، وهي الحيلة التي عزوها إلى زوجي.

استنتجت الفكرة بكلمة جانبية على انفراد: «لقد سحرني أدبهن وجمالهن، وكان من دواعي سروري العظيم أن أقضي مزيداً من الوقت معهن، غير أن السيد وورتلي الذي قرر متابعة رحلته باكراً في صباح اليوم اللاحق جعلني في عجلة من أمري لأن أرى أطلال كنيسة جستينيان... ». لا ريب في أن الصديقة التي وجهت لها الرسالة كانت ستدرك الشكوى المعنية ضمناً.

كان أول تصرفاتها عند الوصول إلى الأراضي العثمانية، أن جهزت نفسها بطقم كامل من الثياب المناسبة لسيدة عثمانية رفيعة المقام؛ الأمر الذي وصفته لأختها بأنه "مناسب بشكل يدعو إلى الإعجاب". وبمجرد أن ارتدت ثياب الموصلين/ الموسلين [نسيج قطني] والحرير، اكتشفت فوائد الاحتجاب؛ لأنه ما من عثماني سيجرؤ على اقتحام حرمة امرأة. وكما هو شأن الأسوار الخارجية البيض للحرملك، فإن الخصوصية التامة التي يضفيها الثوب العثماني كان يصد المتطفلين أكثر مما يقيد المرأة داخله. والواقع أن الليدي ماري - بعد التخلي عن درع مشدّها - وجدت عناصر أخرى للتحرر داخل الحجاب: «والآن بعد أن تعرفت قليلاً على عاداتهن، لا يمكنني أن أحجم عن الإعجاب سواء بتعقلهن المثالي أو بغباء جميع المؤلفين الذين أعطوا تقارير عنهن».[14] لم يتم تحديد جنس المؤلفين (الذكور)، والحقيقة - كما وجدتها - هي:

من السهل أن ترى أنهن يتمتعن بحرية أكبر مما نتمتع به نحن، لا يسمح لأي من النساء مهما كانت مكانتهن بالخروج إلى الشارع من دون قطعتين من قماش الموصلين، إحداهما تغطي بها وجهها كله ماعدا عينيها، والأخرى تغطي الثياب بكاملها من رأسها، وتتدلى إلى منتصف ظهرها، ويسترن شكلهن تماماً بشيء يسمينه "الشرشف" (عباءة)، لا تظهر امرأة مهما كان نوعها من دونها... لعلكم تخمنون مدى فاعلية هذا اللباس في سترهن، وإنه لا يمكن التفريق

> بين السيدة العظيمة ومملوكتها، ومن المستحيل على أشد الرجال غيرة أن يعرف زوجته عندما يواجهها، ولا يجرؤ رجل أيضاً على لمس امرأة أو اللحاق بها في الشارع.

هذا إذاً، كان معنى كلمة حشمت بيك الانفرادية على سبيل المسامرة في أثناء العشاء، حينما فكر كيف أن «هذا التنكر الدائم يعطيهن الحرية التامة لمتابعة ميولهن من دون خطر اكتشافهن».[15] ولكن، إن كان يعرف على سبيل الافتراض، فكذلك هناك رجال عثمانيون آخرون يعرفون أيضاً، لكن التقاليد التي سمحت للنساء بمغادرة أسوار الحرملك برفقة الطواشية، ومرتديات الثياب المحددة، لم يكن بالإمكان تغييرها جذرياً. ولم تكن ثمة قيود إلا العقوبات الوحشية إن تم ضبطهن بالجرم المشهود. لقد هيمن هذا الموضوع على جانب كبير من رواية أزيادي *Aziyade* عام 1879 لبيير لوتي Pierre Loti، التي تم فيها موازنة الحرية الفعلية بالموت أو أسوأ منه إن تم اكتشافها من قبل حبيب. ولكن الليدي ماري، وهي تتذكر تلك المواعدات غير المريحة مع وورتلي؛ خوفاً من أن يراها جواسيس أبيها، ولا بد أنها فهمت بصورة أفضل من معظم الناس فوائد النظام العثماني.

ما لبثت ميزات أخرى للمرأة أن تكشفت لها؛ فقد وجدت أن المتزوجات يمكنهن أن يرثن الممتلكات ويتحكمن في عقاراتهن، بغض النظر عن رغبات أزواجهن. وعلى الرغم من أن حياة أي موظف عثماني عرضة للخطر، فقد ذكرت أن النساء كن:

> الأشخاص الأحرار الوحيدين في الإمبراطورية. فالديوان نفسه يحترمهن، والصدر الأعظم نفسه عندما يتم إعدام أحد الباشاوات، لا ينتهك مطلقاً امتيازات الحرم (أو شقة النساء) التي تبقى من دون تفتيش وبكاملها للأرملة. إنهن ملكات لإمائهن اللواتي لا يسمح للزوج حتى بالنظر إليهن... إلا من تختارها امرأته.[16]

لكن مع مرور الوقت، اكتشفت أن التطبيق لم يكن يتفق دائماً مع النظرية، وأنه كان يتم إجبار النساء على الزواج أو يتم خيانتهن أو نزع أملاكهن منهن تماماً؛ كما هي الحال في إنجلترا.

إن هذه الآراء من داخل عالم النساء جديرة بالنقاش بشيء من التفصيل؛ لأنها لا تعطي نظرة ثاقبة متميزة عبر حاجز الجنس (أو الجندر) الذي أبعد جميع الرجال فحسب،

بل تسمح أيضاً بصورة غير مباشـرة بالحصول على رؤية أوضح لعـالم الـذكور العثمانيـين. وهذا الأخير ممكن بسبب حماسة الليدي ماري المفرطة لجميع الأمور التركيـة، الـذي امتـد حتى إلى نقطة غير معقولة. لقد كان القانون الجنائي الإنجليزي قاسياً وغالبـاً غـير عـادل، أما أن توحي بأن القانون التركي كان «أفضل تصميماً وتنفيـذاً مـن قانوننـا»[17] فقـد بـدا أن ذلك يدل، على أنها كانت تفكر بأن عمليات الإعدام التي كانت تتم عـلى شـواطئ القـرن الذهبي كانت أقل بربرية من العدالة الإنجليزية المتمدنة. ولعلها فعلت ذلـك؛ لأنهـا قبـل عامين تقريباً من انطلاقها في رحلتها إلى الشـرق عانى قادة ثورة اليعاقبة* طقوس التقطيـع والبتر البشعة بحسب قانون الخيانة الإنجليزي، بينما تم بيـع أتبـاعهم عبيـداً. وكـان أحـد الذين كان يمكن بسهولة أن يلقى هذه النهاية على حبل المشنقة في تاور هيـل Tower Hill أخو زوجها، الذي كان في إيرل مار [في اسكتلندا]، والذي هرب إلى المنفى في بـاريس. أو لعله كان في ذهنها القضاء الفرنـسي؛ حيث كان المجرمون "يـتم تحطـيمهم عـلى العجلـة" قبل أن يموتوا؛ وبوصفها امرأة متعلمة تتمتع بإحساس مرهف وقوى ملاحظة حادة، فإن رسائلها تحمل أمارات الفكر المتيقظ، وينبغي عدم تجاهلها استخفافاً بها.

إن حكاياتها[18] تعالج صميم الإشكالات العثمانيـة؛ فالرسـائل إلى مراسـلين ذكـور، إلى بوب وأبي كونتي Abbe Conti، تختلف في لهجتها عـن الرسـائل الموجهـة إلى معارفهـا مـن النساء اللواتي كن قادرات على حل رموز معناها شبه الخفي. وكذلك كنّ قارئاتها من النسـاء عندما تم نشـر هذه "الرسائل". وقد كتبت إلى أختها في المنفى مع زوجها في بـاريس تقـول: «ذهبت لأرى السلطانة حفيظة المفضـلة لـدى الإمبراطـور السـابق مصـطفى الـذي... تـم خلعه... وقد تم استقبال هذه السيدة بعد موته مباشـرة بأمر مطلق لمغادرة الحرملك واختيار زوج لنفسها من بين كبار الشخـصيات في الباب العالي».[19] كان هـذا صـحيحاً جزئيـاً؛ لأن العادة كانت تقضـي أن يطلب إلى الزوجات السابقات أن يعشـن في قصـر إسـكي سـراي

* ثورة اليعاقبة Jacobite rebellion: حركة سياسية في إنجلترا كانت تطالب بحق أبناء الملك المخلوع جيمس الثاني في العرش. (المترجم)

الذي بناه محمد الفاتح، والذي يعرف بـ "بيت الأحـزان". ولـذلك «ارتمـت السـلطانة عـلى قدمي السلطان ورجته أن يطعنها بخنجره على أن يعامل أرملة أخيه بتلك المهانة».

طلبت السلطانة حياة مستقلة، ولكن أحمد المرتاب لم يكن راغباً في المضـــي إلى ذلـك الحد، فقد كان على معرفة تامة بسلطة النساء في البلاط العثماني، ولكن بما أنه كـان اختيـاراً حراً لزوج:

فقد اختارت باكير أفندي، الذي كان في ذلك الوقت وزيـراً للدولـة، وقـد تجـاوز الثمانـين مـن العمر، لإقناع الدنيا بأنها كانت تنوي بإصـرار أن تفي بنذرها بألا تسمح لزوج ثانٍ بـأن يقـرب فراشها، وبما أنه لا بد لها من تكريم أحد الرعايا لتسـمى زوجـة لـه فقـد اختارتـه علامـة عـلى عرفانها؛ لأنه هو الذي قدمها في سن العاشـرة إلى سيدها الفقيد.[20]

بالنسبة إلى من لم تعرف منذ طفولتها إلا حياة الحريم السلطاني، فقد كانت تملك حساً سياسياً قوياً، و – ببساطة – إرادة قوية.

تزوجت السلطانة حفيظة كما هو مطلوب، ولكنها:

لم تسمح له بزيارة واحدة، علماً أنه مضـى الآن 15 عاماً على وجودهـا في بيتـه؛ حيـث تقضـــي وقتها في حدادٍ مستمر بثبات قلما عرف في العالم المسيحي، ولاسيما في أرملة سنها 21 عاماً؛ لأنها الآن لم تتجاوز 36 عاماً [أكبر ببضع سنوات فقط، في الواقع، من الليـدي مـاري وأختهـا]، ولم يكن لديها طواشية سود لحراستها [وهكذا لم تتح أي وسيلة لزوجها لكـي يـمارس أي سـيطرة عليها]؛ حيث كـان زوجهـا مضـطراً إلى أن يحترمهـا كملكـة، ولا يحقـق مطلقـاً فـيما يجـري في شقتها.[21]

أما الليدي ماري، المحبوسة في زواج مر، وأختها التي نقلها إخفاق زوجها إلى ما يشبه حياة المنفى، فلعلها كانت تحسد حفيظة على استقلاليتها. ولعل هناك دليلاً ما على معنى أكثر عمقاً في رسالتها عندما تختمها: «قد يكـون المثـل القائـل إن المعرفـة ليسـت عبئاً صحيحاً على الشخـص نفسـه، ولكن معرفة أكثر من الـلازم جـديرة بـأن تجعلنـا مزعجين للآخرين».[22]

كان العثمانيون الذين التقتهم الليدي ماري يمثلون مجتمعاً يتغير بالفعل، وهو على وشك أن يشهد مزيداً من التحولات. لقد أغفلت عموماً مظاهر القسوة والظلم التي ينطوي عليها النظام، ولكن شهادتها لا نظير لها؛ بوصفها تمثل تصحيحاً للتخيلات الشديدة التلون والسيِّئة النيات لمعظم المعلقين الذكور. لقد كتبت حينما كان الانفتاح الضيق على العالم الغربي في بدايته، في عهد أحمد الثالث، وهي سياسة استمرت في عهد خلفائه. وقد اصطبغ الكثير من ملاحظاتها بحاجاتها واهتماماتها، كما كان الأمر بالنسبة إلى المسافرين الذكور إلى الإمبراطورية، ولكن ثمة قوة تحليل لدى الكاتبات؛ مثل الليدي هيستر ستانهوب Lady Hester Stanhope، وهذا ما يفتقر إليه الرجال.

انشغل الكثير من الزوار الرجال بالشهوانية الطاغية في الإمبراطورية العثمانية التي كانوا على يقين بأنهم سيجدونها، وقد عكسوا المواقف من الإسلام التي يعود المنشأ فيها إلى كتّاب العصور الوسطى الذين استقصاهم نورمان دانيال Norman Daniel. فقد كتب يقول: «كان الاعتقاد في كل مكان أن انغماس المسلمين خصوصاً في الفجور هو حقيقة، وهذا بالطبع [بحسب ادعائهم] جاء من تعاليم الرسول وقدوته التي حفظها القرآن الكريم».[23] كان يتم تأكيد أن المسلمين معتادون على اللواط، وأنهم أتوا برذائل قبيحة إلى "بستان الطبيعة". ويصف دانيال "الرعب المسحور" الذي التقم به العالم المسيحي القصص حول الشهوانية لدى المسلمين: «غالباً ما كان الانتقاد المسيحي والمبالغة في الإباحية المنسوبة إلى المسلمين مفرطَين، **كان ثمة إجماع كبير**» (التشديد من المؤلف).[24] وهكذا كان وليام أوف آدم William of Adam، الأسقف الشرفي لـ "السلطانية" موقناً بأنه «في ملة الإسلام ليس أي عمل جنسي غير محرم فحسب، بل إنه مباح ومستحب».[25] وبعد هذا بقرون، تم عرض هذه الإشاعات الكاذبة نفسها على خالد أفندي في باريس، فرد غاضباً، وبشيء من الإنصاف: «يقولون: اعلموا كقاعدة عامة أن... المسلمين شاذون جنسياً... إن استمع أحد فإنه يظن أننا جميعاً من تلك النوعية، كما لو أننا ليس لدينا اهتمامات أخرى».[26] وأشار أيضاً:

في باريس يوجد نوع من الأسواق يسمى "القصر الملكي"؛ حيث توجد محلات لأنواع مختلفة من السلع على الجوانب الأربعة جميعاً، وفوقها غرف تحوي 1500 امرأة و1500 فتى مشغولون حصرياً باللواط. والذهاب إلى هناك ليلاً معيب، ولكن بما أنه لا يوجد ضرر في الذهاب إلى هناك نهاراً فقد ذهبت لأرى هذا المنظر. حينما يدخل المرء يقوم ذكور وإناث من جميع الجوانب بتسليم بطاقات مطبوعة لأي شخص يأتي، مكتوب عليها: «لدي الكثير من النساء، غرفتي في المكان الفلاني، والسعر هو كذا» أو «لدي عدد كذا من الفتيان، وأعمارهم كذا وكذا، والسعر الرسمي هو كذا»، وكل ذلك على بطاقات مطبوعة... كانت النساء والفتيان يحيطون برجل من كل جانب، ويستعرضون حوله ويسألون: «أينا يعجبك؟» وأكثر من ذلك أن أشخاصاً عظاماً يسألون باعتزاز: «هل زرت قصرنا الملكي، وهل أعجبتك النساء والفتيان؟».

وختم بتقوى، حامداً الله أنه «في بلاد الإسلام ليس هناك كثير من الفتيان والغلمان المأبونين». وما لفت نظره أكثر من غيره هو سعة نطاق المشروع، واستخدام بطاقات مطبوعة. ولا ريب، أيضاً، أن "أشخاصاً عظاماً" كانوا يظنون أن هذه الجوانب من المدينة كانت تروق أكثر من غيرها للشخص العثماني، بالنظر إلى الميول المعروفة لدى العثمانيين.

لم تكن توقعات لورد شارلمونت Lord Charlemont، وهو نبيل أيرلندي شاب في الرحلة الكبرى في القسطنطينية، مختلفة كثيراً عن توقعات الباريسيين؛ فهو أيضاً كان مقتنعاً «أن هناك الكثير من الأسباب الداعية إلى الاعتقاد بأن الأترك كانوا مدمنين كثيراً على الرذيلة البغيضة التي تبدأ عندها الطبيعة، والتي إن لم يكن ثمة برهان يقيني على ارتكاب مثل هذه الجرائم لا يمكن لرجل حسن النية أن يفترض أنها ممكنة».[27] فهو لم يرَ "برهاناً يقينياً"، بالطبع، بل استمع فقط إلى قدر كبير من الشائعات والثرثرة المستشرية. وأقصى ما استطاع رصده مجموعة من الشباب على متن سفينة قيل له إنهم غلمان القبطان، وكذلك العثمانيون كانوا يفترضون أن ضباط البحرية في سفن البحرية البريطانية كانوا ألاعيب في يد القبطان. لكنه، مثل خالد أفندي، قام بزيارة بيت دعارة من أجل أبحاثه، ولاحظ أنه:

من الضروري ملاحظة أنه لم تتم مشاهدة نساء تركيات في هذه البيوت. السيدات اللواتي يمكن الحصول عليهن هنا هن إما يونانيات أو يهوديات أو مسيحيات أرمنيات، وكثير منهن في

> غاية الجمال ويتمتعن بمهارة هائلة في الفنون والإغواء اللازم لمهنتهن. وكما أن من واجب الرحالة ألا يتركوا شيئاً من دون أن يروه، فلعل فضولنا، أو ما هو أكثر من ذلك، قد أغرياني وأغريا بيرتون أحياناً [رفيقه في الرحلة] إلى أوعية الضيافة هذه.[28]

لكن هذه "الأوعية"، كما وصفها، لم تقربه من أسرار الحرملك؛ لأنه لم يكن أي منهم مسلماً، علماً أنه سمع من يقول إن الكثير من الشباب المسلمين (بالأحرى مثل النبلاء المسيحين الأيرلنديين الشباب) كانوا معتادين على زيارتهن.

إن أطول قسم في مذكرات شارلمونت المجلدة في جزأين من القطع الكبير يدور حول "النساء والزواج في تركيا"، وهما موضوعان لم يكن لديه في الواقع معرفة مباشرة بهما، ومع ذلك، لم تكن لديه مشكلة في جمع قائمة من النشاطات التي كانت تجري خلف الأبواب المغلقة. وقد تمكن في الربط بأناقة بين الإدمان المفترض على "الرذيلة الشاذة" وأجواء العلاقة الجنسية المحمومة المتغايرة الجنس في الحرملك:

> إن التنوع الذي يطلق فيه الأتراك العنان لأنفسهم يجعلهم قسراً (تأكيد "قسراً" من المؤلف) يميلون إلى تجاوز حدود الطبيعة في المتعة الحسية... فدماثة الأخلاق، مهما كانت تبدو غير عادية ومنطوية على التناقضات، فقد كانت بصورة عامة مؤدية إلى الرذائل الشاذة. فالتهذيب والدماثة يفضيان إلى الترف، الذي من مبادئه المعاشرة غير المقيدة مع النساء، وهذا يؤدي بالطبع إلى التخمة وإلى رغبة لاحقة في السعي وراء الجِدّة.[29]

يبدو هذا بالنسبة إلى القارئ الحديث أقرب إلى السيرة الذاتية للورد شارلمونت منه إلى تحليل للعثمانيين، غير أنه يوضح المأزق الذي يواجه المحقق النزيه؛ فقد جاء إلى الشرق بتوقعات ولم يجد إجابات، وأعجب بالناس الذين التقاهم قائلاً: «إن الأتراك بصورة عامة، وفي الواقع جميع الشرقيين، يبدو أنهم يمتلكون كرم الشمائل؛ الأمر الذي يمكن أن يمتد إلى الطبقات الدنيا من الناس. فالفضيلة والكياسة تبدو بالفعل، حسبما لاحظت، صفة أصيلة في الشرق، وكلما اتجهت غرباً فإنها تتراجع».[30] لقد عومل «بأدب مذهل، يفوق الأدب المسيحي، بين الناس الذين تم تلقيني أنهم أقل مستوى من البرابرة».[31] وقد أصبح صراعه النفسي مؤلماً تقريباً، وقد تم إبرازه بأمانة، وإن كان بشكل مشوش، في

مجلته. وفي نهاية المطاف تخلى عن السعي لعقلنة التباين المسجل ببساطة والذي لا يمكن توفيقه؛ ولذا فقد ذكر أن:

> القنصل في القاهرة - لأنني مضطر إلى أن أجمع كل المعرفة القليلة التي استطعت جمعها حول هذا الموضوع الغامض [الحرملك] - كانت سيدة معروفة لدى الكثير من النساء التركيات وكثيراً ما كانت تزورهن. وعندما... أخبرتهن عن الحرية المسيحية وعن الحرية التي يتمتع بها النساء في دولنا، بدا نوعاً ما أنهن ينظرن إلى هذه التقاليد بازدراء ورعب بدلاً من إبداء أي رغبة مبنية على الغيرة والحسد. وهتفن ضد نسائنا بأنهن مستهترات بصورة غير طبيعية، واعتبرن تلك الحريات - التي نعدها نحن بريئة - إجرامية إلى أقصى حد. وباختصار، صرخن ضد عاداتنا وتقاليدنا كما تفعل نساؤنا إزاء البساطة المجردة للهنود أو حرية الحب التي كشفت لنا عنها تاهيتي مؤخراً.[32]

لم يحقق التواصل إلا القليل لتعديل الصور النمطية المتجذرة بعمق في الثقافة الغربية. فالأزياء الجديدة للشرق، التي حفزت عليها إعادة اكتشاف مصر بعد غزو نابليون عام 1798، لم تفعل إلا تعزيز الانطباعات القديمة بالانطباعات الجديدة. وقد أسهم المزيج البايروني [نسبة إلى إيوجين بارون الشاعر الرومانسي الإنجليزي المتعاطف مع استقلال اليونان] بين الشهوانية والقسوة، ولوحات رسوم ديلاكروا وجيريكولت Delacroix and Géricault، في تهيئة الأجواء لرؤية ما بعد عام 1825 عن العثمانيين، واضعين جانباً المزاج الأكثر وطنية لرحالة القرن الثامن عشر. لم يجد شارلمونت «أي عمليات تعذيب أو عقوبات قاسية مهما كان نوعها شائعاً بين الأتراك. فالخوزقة؛ أي التعذيب بالخازوق، تلك الوحشية الفظيعة، التي علمونا أنها ممارسة يومية، لم أسمع بها كثيراً. طوال الشهر الذي كنت في أثنائه في القسطنطينية سمعت بعملية إعدام واحدة فقط».[33] والواقع أن الخوزقة كانت ماتزال تمارس، كما يدل على ذلك رسم ماير Mayer (اللوحة 25)، ولكن ليس في شوارع العاصمة. ولكن دهشة شارلمونت كانت كبيرة بأن ما رآه كان خلافاً لما أوحي له بأن يتوقع رؤيته. كان هناك بالطبع قسوة ووحشية، ولكن ليس على النطاق الذي كان يعتقده الغرب. ولكن منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، ولاسيما بعد فظائع

حرب الاستقلال اليونانية التي لم تتم المساءلة فيها إلا بشأن معاناة المسيحيين؛ فقد كانت صورة التركي الرهيب والشهواني موجودة في كل مكان.

كانت "التركي الشهواني" عبارة شائعة تماماً استخدمت لوصف العثمانيين، ولكنها كانت أيضاً عنوان الرواية القصيرة الداعرة التي تم نشرها أول مرة عام 1828. [34] لقد كانت سابقة للكثير من الكتب الفرنسية في القرن السابع عشر التي كانت ماتزال لها شهرة شعبية في القرن الثامن عشر. [35] تعد مظاهر قسوة الأتراك الآن أكثر دقة من مجرد الوحشية، فقد تم التركيز على المعادلة بين الوحشية والعنف؛ الأمر الذي كان شائعاً لدى كتّاب العصور الوسطى، ولكن تم تبديلها أيضاً. [36] هناك الكثير من حوادث انتهاك العذرية العنيفة، وبعض عمليات التأديب، وحالات اتصالات جنسي لا نهاية لها - وهو أمر حتمي في إباحية يديرها الذكور - ولكن الأوضاع التي تم تصويرها هي أكثر من كونها مجرد شهوانية شرقية تقليدية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العنف فإنه لم يكن في اتجاه واحد. لقد تورط داي (حاكم) الجزائر - البطل البايروني الزائف في المقطوعة الشعرية - مع عدد من النساء، بمن فيهن القاصّة الإنجليزية إيميلي بارلو Emily Barlow. فهي تصف كيف:

بهذه الطريقة كثيراً ما كنا (ثلاثتنا جميعاً) نذوب في وقت واحد في فيض من السعادة.

واستمر هذا أشهراً عدة عندما وضعت كارثة رهيبة نهاية لملذاتنا. فقد استلم الداي فتاة يونانية من أحد قباطنته. وقد استسلمت لعناقاته ولم تنطق بشكوى إلى أن بدأ الهجوم على عذريتها الثانية، عندئذٍ يبدو أنها أُلهمت قوة هرقل. وفجأة أمسكت بسكين كانت قد أخفته تحت وسادة، وأمسكت بذروة قوته، وفي أقل مما كان يظن سحبت سكيناً عبره وقطعته من جسده، ثم غرزته في قلبها وماتت على الفور. [تم استدعاء الإسعاف على الفور لوقف النزف الذي يؤدي إلى الموت، و] بجلَد تلك العظمة المميزة، أمر طبيبه بإزالة تلك اللواحق التي لم تعد لها فائدة الآن [وهي التي كانت توصف من قبل بأنها "جواهره المتدلية"]، وأوعيته المثيرة للنفس، مشيراً إلى أن الحياة ستكون جحيماً إن احتفظ بالقوة بعد أن ماتت الرغبة. [37]

بعد أن تعافى أرسل في طلب رفاقه في المتعة، و«أرانا الأعضاء المفقودة في الخمر ضمن مزهريات زجاجية»، ثم رتب للنساء ليعدن إلى بلادهن الأصلية، وأمطرهن بالهدايا قبل مغادرتهن. غادرته إيميلي بارلو "بقلب حزين".

من جهة، كان الداي يعد "المغربي النبيل" بالنسبة إلى شكسبير، من دون رجال، ومن جهة أخرى هو العثماني البطولي بالنسبة إلى بايرون من قصيدته **الكافر** *The Giaour*:

بسيف يتراقص حتى المقبض،
لكنه يقطر دماً سفحه،
مازال يبذل جهداً باليد المبتورة
التي ترتجف حول ذلك الصنف الذي لا وفاء عنده،
وتدحرجت عمامته بعيداً وراءه
وانشطرت أقوى طية فيها شطرين.
وثوبه المنساب كأنها مزقه صقر،
وغدا لونه قرمزياً كسحب الصباح
التي، تخالطها حمرة الشفق، وتنذر
بأن ذلك اليوم ستكون نهايته عاصفة.
كانت ثمة لطخة على كل غصن حمل
قطعة من ثوبه المبقع.
صدره ممزق بجروح لا تحصى،
وظهره ملقى على الأرض، ووجهه نحو السماء،
يرقد حسن المقتول وقد شخصت عيناه
مازالتا ترمقان عدوه بامتهان،
كما لو أن الساعة التي ختمت مصيره
تركت كراهيته التي لا تخمد حية،
وقد انحنى فوقه ذلك العدو بجبين
مظلم مثل جبينه الذي ينزف تحته.[38]

هذه المقطوعة الشعرية، بالمناسبة، تقلب أيضاً الصورة النمطية الأوروبية المعتادة للطواشي، غير أن لها معنى أعمق رسمته الأوضاع السياسية في ذلك الوقت. فالفتاة اليونانية تنتقم من جسد مضطهدها، من أجل نفسها وبلدها. فقد استلقت الأمة اليونانية، مثلها، بسلبية تحت العثماني، ولكن اليونان أخيراً، وبعد قرون من الزمان، نهضت في انتقام جبار وشرس. ومن الأفضل أن تموت منتصراً من أن تعيش مهاناً. إن تعاطفات إيميلي بارلو مختلطة بالطبع؛ فهي لا يبدو أن لديها "قلباً حزيناً" على الفتاة اليونانية التي لا يتوقع لها بعد كل هذا إلا أن تتصرف بالطريقة نفسها المتوقعة من الأخريات في الحرملك اللواتي ضحين بـ "عذريتهن المقدسة": فهي تصف التصرف اليائس، ولكنها لا تتعاطف معه، كما لم تكن الفلهيلينية Philhellenism أو "محبة الإغريق" [حركة أوروبية مناصرة لاستقلال اليونان] سائدة بين قراء هذه الحكاية.

في **التركي الشهواني** *The Lustful Turk* تم تمثيل المعادلة القديمة للإسلام والشذوذ الجنسي بتفصيل تصويري. في سبعينيات القرن التاسع عشر كان يمكن أن يتم قلب الوضع أيضاً، إذا جاز التعبير. ففي **اللؤلؤة** *The Pearl*، المفترض أنها "مجلة طرائف ومطالعة شهوانية"، تنشر شهرياً، كان يتم تصوير التركي حينها بأنه ضحية. والكتيّب الناجح جداً لجلادستون عن **الفظائع البلغارية**، الذي بيع منه 40000 نسخة في غضون بضعة أيام من طبعته الأولى عام 1876، عقد الصلة صراحة بين الشهوانية التركية والعنف التركي.

وبدءاً من سبعينيات القرن التاسع عشر، صار يُنظر إلى التركي دائماً بعبارات تقليدية، سواء كان ضحية أم مغتصِباً. ففي **حلم السلطان في اليقظة: مقتطف من ملذات القسوة**،[39] نجد جميع العناصر المبتذلة موجودة هناك؛ حيث يصف «سلطاناً في سن الكهولة، وقد تعب من المغامرات الغرامية في الحرملك المزدحم، يسعى للحصول على إثارة جديدة؛ إذ يبدو كل شيء غير مستساغ ومسبباً للسأم». ويقرر أن يحصل على متعته من أم السلطان السابق، التي وصفت بأنها امرأة «كانت في أثناء حياة سلفه قد تآمرت بكل طريقة ممكنة لإبعاد خليفته لمصلحة ابنها على النقيض من التقاليد العثمانية المعتادة».

كان الرحالة - سابقاً - يعجبون بنظافة المدن العثمانية، ولكن منذ بدايات القرن التاسع عشر كان هناك انشغال متزايد بالحديث عن قذارة الحياة العثمانية، ولعل والش كان أول من تحدث عن ذلك. وهناك كاتب أمريكي، هو: وليام إلروي كورتيس William Elroy Curtis، مؤلف كتابَيْ: **توماس جيفرسون الحقيقي** و**أمريكيو الشرق**، عبّر عن الإحساس الجديد بالاشمئزاز: «بيوتهم وسخة تماماً، وسخة إلى درجة أنها لا تصلح لسكنى البشر، ولا يمكن وصف قذارة شوارع القسطنطينية وكل مدينة تركية أخرى. وثيابهم وسخة بقدر نظافة أجسامهم [إشارة إلى الوضوء]، وطعامهم غالباً ما يكون غير لائق لأسباب صحية».[40]

تغيرت المقاييس الشعبية لدى الغرب عموماً مع اكتشاف أن القذارة يمكن مساواتها بالمرض، وأن الطاعون المصاحب للقذارة (الكوليرا، التيفوئيد) يمكن أن يصيب الطبقات الوسطى والراقية بقدر ما يصيب الفقراء، ولكن مقاييس كثير من الأحياء في المدن الأوروبية الكبرى، لم تكن أفضل من مقاييس القسطنطينية، ولم يكن ثمة ما يمكن الاختيار فيه بين القذارة في ريف الأندلس أو ميزوجيورنو أو وسط الأناضول. وحتى بلاد كورتيس نفسه و«مطابخها الجحيمية» سجلها مصورون من أمثال إدوارد ستايجليتز Edward Stieglitz. كان للتركيز على قذارة العثمانيين إيحاءات أخلاقية بقدر إيحاءاتها الصحية. وقد مضى كورتيس يلعن كل الأشياء التركية: «إن فكرة ارتداء الحجاب هو جعل المرأة تبدو قبيحة بقدر الإمكان، وينجح التركي في تحقيق تلك الغاية، إن لم ينجح في غيرها. والنساء اللواتي لا يرتدين الحجاب... لسن مسلمات ويمكن معاملتهن بلباقة».[41] وقد يبدو أن هذا في سياقه؛ لا يعني أكثر من حقيقة أنه لا يمكن أن يرفع قبعته احتراماً لسيدة تركية، ولكن إذا ما أخذناه إجمالاً مع بقية كتابه الطويل، فسوف نجده في مزاجه ينطوي على "التركوفوبيا" (التعصب ضد الأتراك). وكورتيس، شأنه شأن جلادستون، يرفض العثمانيين؛ بوصفهم «صنفاً لا بشرياً». وفي هذا السياق يأتي سلوكهم الوحشي، كما في **حلم يقظة السلطان**، مجرد نتيجة منطقية، وإن كانت مستهجنة.

وقد انهال المزيد من تشويه السمعة على العثمانيين؛ ففي التركي الشهواني يوجد قسم طويل يتناول النزوات الشريرة لدى الرهبان والراهبات، وجانباً من البضاعة المعروضة من الإباحيين والبروتستانت المتطرفين معاً. يرى ستيفن ماركوس Steven Marcus أنه استطراد غريب، ولكنه يبدو لي أنه ينسجم تماماً مع الاستهجانات الشاملة للأتراك في ذلك الوقت. قام لوثر أولاً بالربط بين الاثنين معاً («لا يختلف التركي أو يتباين والبابا في شكل الدين أو طقوسه... تحالف بين البابويين والأتراك... هو من مكر الشيطان»[42]). وألقى المعارض للبابا المتحمس أركيبولد ماسون Archibald Mason "كاهن الإنجيل" minister of the Gospel في ويشوتاون Wishawtown، خطبةً عام 1827 حدَّثت ما قاله لوثر:

> إن سقوط الإمبراطورية التركية سيزيل دفاعاً أساسياً من مملكة روما المضادة للمسيحيين... ويعد شبه الجزيرة الأوروبية، التي تضم إسبانيا والبرتغال، برجاً عالياً غريباً لعدو المسيح، بينما تعد إمبراطورية تركيا حصنه الشرقي... يقف الرؤساء والأتباع، في الإسلام والبابوية معاً، في معارضة الميزات المدنية والدينية للإنسانية... إن الفرمان التركي والنشرة البابوية... يتنفسان الروح نفسها ويتكلمان اللغة نفسها.[43]

كانت المعارضة السياسية للعثمانيين قوية في الأوساط البروتستانتية، وكان المبشرون البروتستانت بصورة عامة هم الذين دعموا الاتهامات الأشد وحشية ضد العثمانيين. فكثيراً ما كانت التهم تنحدر إلى مستوى السخف، استناداً إلى النوع نفسه من الشائعات التي صبغت صورة التركي الشهواني.

ومن الصعب تتبع جذور التحاملات، ولكن يبدو من الواضح أن العثمانيين غدوا بؤرة للخوف والكراهية؛ حيث يظهرون في أشكال مختلفة، ولكن بتساوق ملحوظ عبر الزمن. وكثيراً ما كانت الخرافات لا تمت إلى الواقع بصلة. ويدعي شهود العيان مراراً أنهم رأوا حوادث – مثل سوق الرقيق في القسطنطينية في سبعينيات القرن التاسع عشر[44] – كانت في حكم المستحيل. إن التفسير الأرجح أنهم لم يروا شيئاً ليس موضع نزاع، وأنهم إما أساؤوا الفهم أو تم إخبارهم بشكل خاطئ من قبل آخرين حول ثقافة غريبة. ولكن

تأكيداتهم الواثقة أضافت إلى العبء التاريخي للخرافة؛ إذ كان ثقيلاً جداً حتى صار العثمانيون يأملون أن يتغلبوا عليه.

أما سوء فهم العثمانيين للغرب فالتعليق عليه أشد صعوبة؛ فقد ظلت مواقف الذين كانوا يخشون الغرب ثابتة. وأما العثمانيون الذين تطلعوا نحو الغرب لإحداث تحول في الإمبراطورية فقد تحطمت توقعاتهم؛ إذ تم تضليلهم لتقليد الأخلاق الغربية، ولم تتم الثقة بهم أو تقبلهم تماماً، -وكان ينظر إليهم دائماً بأن لديهم قابلية للارتداد، وبأنهم إما أتراك شهوانيون في علاقاتهم الخاصة، أو الأتراك الرهيبون في حياتهم العامة. لقد وُجدوا في سجن بين عالمين. وكما كتب ت. ي. لورنس T. E. Lawrence نفسه: «كان من السهل تكفير رجل، ولكن كان من النادر تحويله إلى دين آخر... ويقترب الرجل من الجنون عندما يرى الأشياء من خلال الحجب في آنٍ واحد لتقليدين، وتعليمين، وبيئتين».[45]

الفصل الثامن

التركي الرهيب

في القرن السادس عشر وصف فرانسيس بيكون Francis Bacon الأتراك بأنهم "شعب متوحش":[1]

> من دون مُثل أخلاقية، ولا آداب، أو فنون، أو علوم.. شعب نادراً ما يستطيع قياس فدان من الأرض، أو ساعة من النهار، وضيع وتعوزه النظافة في البناء والغذاء وما شابه ذلك، وباختصار: مصدر خزي للمجتمع الإنساني... ومما يقال بحق عن الأتراك، إنه حيث تطأ قدم حصان التركي ينمو الشعب هزيلاً جداً.[2]

إن هذه التأكيدات لـ "الوحشية" من بيكون ومعاصريه هي بمنزلة لائحة ادعائية خاصة؛ فقد كان ثمة القليل للاختيار من حيث الرعب بين عملية إعدام إنجليزية بتهمة الخيانة في عهد الملكة إليزابيث والملك جيمس، وأقسى العقوبات التركية، مثل "الإعدام على الكلاليب" أو"الخازوق"، المسجلة (والمرسومة) بعناية من قبل زوار أوروبيين للإمبراطورية العثمانية. وقد أوحى الأوروبيون بأن القسوة والوحشية لم تكمن في العقوبة المنفذة بقدر ما هي في التعسف في الحكم. وصف أدولفوس سليد Adolphus Slade القتل الذي بدا عابراً لـ "حميد ":

> تمت تلاوة تهمته، مع عدد من التهم الأخرى ومنها تهمة غير عادلة هي اضطهاد الفقراء. ومثل هذه التهمة الزائفة، من دون قدرة على دحضها، لا بد من أنها أضافت غصة إلى مرارة الموت، وذلك لأنه لم يبدِ أي خوف، إن كان الخوف موجوداً أصلاً. ولعله أيضاً كان سيقول كلمة واحدة، بصمود عثماني حقيقي، لولا أن خرج القبطان الباشا في تلك اللحظة من مقصورته لينظر إلى صديقه القديم الذي لمح بصيص أمل وسط الألم، فصرخ مرة واحدة: "أمان". لعله

كان وفر على نفسه عناء الكلام؛ إذ رد الباشا بتلويحة خفيفة بيده، وهي الإشارة المعتادة في مثل هذه الحالات... قاده الحرس أخذوه إلى السجن في الأسفل حيث كان عبدان يقومان بالخدمة... وما لبث حبل القوس أن أدى مهمته، وخلال بضع دقائق تم إحضار الإيصال، رأس حميد (الوجه هادئ كما لو كان نائماً) ليراه الباشا، قبل نقله إلى سراي بورنو. من المرعب أن ترى رأس إنسان محمولاً على طبق إلى أعلى سلم، وقد رأيته ينزل إلى أسفله قبل قليل وفيه إحساس ومستقر على كتفين.[3]

يرى سليد أن أبرز جانب في الحادثة هو الطريقة الارتجالية في الإعدام؛ ذلك أن زملاء حميد السابقين - ضباط البحرية الآخرين على ظهر سفينة الباشا القبطان الذين بدت منهم ارتعاشة لا إرادية، كما هو متوقع منهم، وبدأت سيطرة الرعب - لا يعرفون أين سيضرب وتر القوس بعد ذلك.

على الرغم من أن المصلحين العثمانيين وعدوا بإلغاء الصلاحيات التي تنطوي على الاستبداد، وأن جميع المجرمين سيعطون حق الاستئناف (علماً أن حميد المسكين لا يبدو أنه استفاد من الأمر العالي الذي أصدره محمود الثاني لأجل الإصلاح)، فقد استمرت الصلاحيات الاستبدادية موجودة في صميم النظام العثماني. وقد طرح أولئك الذين لديهم ميول إلى العثمانيين، مثل روبرت كيرزون، فكرة أن المظالم نشأت من صغار الضباط في الحكومة الذين كانوا قمعيين من دون علم رؤسائهم أو موافقتهم. كما أشار أيضاً إلى أن السلطة الاستبدادية لم تكن مقصورة على الإمبراطورية العثمانية، وأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت «أرض حرية، يتمتع فيها كل مواطن حر ومستقل بالحق في ضرب الزنجي المملوك له».[4] وفي حالات كثيرة كان سوء الإدارة، وليس سوء الإيمان، هو الذي أنتج الظلم، ولكن الذي قوض الممارسة العثمانية للحكم كانت ثقافة الخوف. أسر عبدالحميد الثاني ذات مرة القول إنه غالباً ما كان يعاقب الموظفين الجيدين والأمناء، على حين كان يفضل الذين كانوا فاسدين وغير أكفاء. وكان يجب أن يقطع الخشخاش الطويل كما فعل مع مدحت باشا، ولكنه روع الطبقة الحاكمة بكاملها، بطرق أخرى أصغر وأقل

إهلاكاً. كانوا يعيشون في خوف، وقد ورّثوا هذا الخوف لمن هم دونهم. فبرودة دم العثمانيين التي أشار إليها سليد كانت عبارة عن هدوء مبعثه الخوف.

الخوف المطبق بعناية ودقة كان الظرف الطبيعي في حالة عبدالحميد الثاني، ولم يكن الأمر مختلفاً جداً في ظل أسلافه. ولكن أجواء الرعب التي كانت مفروضة، لم تكتسب تأثيرها من قسوة العقوبات، بل من عشوائية تطبيقها. لاحظ اللورد شارلمونت أن وتر القوس والسيف اللذين يستخدمان للإعدام سراً كانا أكثر إنسانية من المشنقة الإنجليزية؛ حيث كان الهدف هو إهانة المجرمين، وقيادتهم إن أمكن إلى الندم. وعملية الشنق العثمانية كانت أكثر عشوائية من نظيرتها الإنجليزية، بينما كان العثمانيون يرون أن المقصلة [الإنجليزية] كانت غير طبيعية وبربرية معاً. ولكن الغرب كان يعد العثمانيين وحوشاً أشراراً، وكانت ظروف العنف الشعبي تعزى إلى بعض العيوب الأخلاقية العميقة والوخيمة. فقد تم الربط صراحة بين الشهوات الجسدية العثمانية ورغبتهم في العنف، وتم استخدام وقائع التاريخ في خدمة ذلك؛ فمظاهر الوحشية في ميادين المعارك في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والممارسة القديمة لقتل إخوة السلطان وأبناء عمه الذكور (تخلى عنها العثمانيون في غضون بضعة أجيال من تطبيقها؛ بوصفها وحشية ولا داعي إليها)، والعقوبات القديمة والمهملة منذ عهد بعيد، كل ذلك تم اعتباره جزءاً من "الحاضر" العثماني، بدلاً من الماضي البعيد. في ثلاث مناسبات في القرن التاسع عشر، تم استفزاز الغرب ضد الأتراك بسبب عنفهم الفظيع ضد المسيحيين: أولاً، لعدد الخسائر الكثيرة في الأرواح في حرب الاستقلال اليونانية، وثانياً، بسبب المذبحة في بلغاريا والبوسنة في الفترة 1875-1877، وثالثاً، بسبب الحملة الشرسة ضد الأرمن التي بدأت من تسعينيات القرن التاسع عشر واستمرت حتى في أثناء الحرب العالمية الأولى. وكل هذه الأسباب الثلاثة أثارت نموذجاً متماثلاً من الغضب الشعبي في الدول الغربية.

في كل حالة، كان يبدو أن التركي الرهيب كان يتصرف بما يناسب نمطه. وكان "التركي السيِّئ جداً" (وهي عبارة توماس كارلايل Thomas Carlyle) يهاجم بضراوة

النساء والأطفال ويغتصب ويقتل ويسلب، ولا يوفر صغيراً ولا كبيراً. ولم يكن - كما زعم العثمانيون - ذلك صراعاً لقتل الإخوة، أو المسلمين ضد المسيحيين، أو أعداء بشأن التوريث يسوون حسابات قديمة؛ ولكن لا بد من أن هذا إجراء دولة تم تنفيذه عن قصد من الحكومة العثمانية. إن الرسوم الفولكلورية الساذجة من الحرب اليونانية تعرض جنوداً مصريين وإنكشارية يقتلون (بشكل افتراضي) نساء يونانيات، بينما يتم إظهار اليونانيين (في تنانيرهم) يهاجمون الجنود الأعداء فحسب، ومع هذا فنحن نعلم أن آلافاً كثيرة من النساء والأطفال الأتراك تم قتلهم، غالباً بوحشية مرعبة، في موريا. وفي أفلام الكرتون الغربية عن "الفظائع البلغارية" كان يتم إظهار أن أعمال القتل كانت تجري على يد جنود نظاميين عثمانيين (ولاسيما في فيلم كرتون بنش *Punch*). وفي حالة أعمال القتل الأرمنية، تم ببساطة استبعاد المزاعم العثمانية بالكراهيات القديمة العهد بين الأكراد والأرمن. ففي كل حالة كان يتم إظهار أعمال القتل العرقية، كما تم تأكيد ذلك، تتم بأمر من الحكومة العثمانية، كنوع من محاولة قديمة العهد لسحق المسيحيين في المشرق.

لماذا فعل العثمانيون ذلك؟ لأنهم كانوا وحوشاً متعطشين للدماء. يعد كتيب جلادستون عن **الأهوال البلغارية ومسألة الشرق** *The Bulgarian Horrors and the Question of the East* من الإدانات الكبرى في تاريخ فن الخطابة. فجداله، المقيس بأسلوبه، لم يشجب الفظائع نفسها فحسب، بل الأمة التركية جمعاء. وهو يصور:

> بأقسى وصف،... فماذا كان العرق التركي؟ وما هو عليه الآن؟ إنها ليست مسألة المحمدية ببساطة، بل المحمدية مقرونة بسمة خاصة لأحد الأعراق... فهم كانوا، منذ اليوم الأسود الأول الذي دخلوا فيه أوروبا، المثال الأكبر لعداوة الجنس البشري؛ فحيثما ذهبوا كان هناك خط عريض من الدم يتبعهم، وحيثما يبلغ ملكهم تختفِ الحضارة عن الأنظار.[5]

وقبل ذلك بثلاثة قرون كان بيكون يقول الشيء نفسه.

يستشهد جلادستون بمصدر أمريكي، لشخص يدعى السيد شويلر Schuyler، يقول: «لم يتم قتل أي نساء أو أطفال أتراك بدم بارد، ولم يتم اغتصاب نساء مسلمات، ولم

يتم مهاجمة قرية تركية خالصة أو إحراقها، ولم يتم نهب بيت مسلم، ولم يتم انتهاك حرمة مسجد أو تدميره».[6] وهذا، في رأي جلادستون، هو «التقرير الذي يقلب الميزان»[7] ويسوغ ما يقوله تجاه «القسوة المتقنة والمحسّنة - التحسين الوحيد الذي تفخر به تركيا! - عدم الاحترام مطلقاً للجنس أو السن - والشهوانية البهيمية البغيضة - والخروج التام والعنيف على القوانين الذي مايزال طاغياً فوق الأرض».[8] وسواء كانت الحكومة التركية نفسها هي التي صنعت «الشهوانية البهيمية البغيضة» وغيرها، أو أنها كانت نتاج «انعدام القانون الذي مايزال طاغياً على البلاد»، فإنه لم يتم بيانه بجلاء. والحقيقة أن الأتراك بطبيعتهم بالذات هم المسؤولون، لقد كان جرماً دموياً لوث سمعة العرق التركي بأكمله. وبالمثل، فإنه يؤكد أن عمليات القتل تأتي من "عملاء" «عنيفين وفاسدين معاً، من قوة مركزية بعيدة... لديها دوماً قوة مادية تحت إمرتها لكي تساند البغي بمباركة من السلطة، ولكن ليس لديها قوة أخلاقية أياً كانت، **لا قوة لكبح الشر أو لفعل الخير** [تأكيد المؤلف]».[9] الأتراك ملعونون لكونهم ضد الإنسانية، ملعونون لسماحهم بالشهوانيات البغيضة، وملعونون لعدم امتلاكهم سلطة لمنع جريمة القتل على نطاق واسع. وترتفع وتيرة لعناته جهراً «ليبعد الأتراك إساءاتهم الآن». وينهال بعبارات الشجب، ويحذر أنه ما لم تتم إزالة العثمانيين كلياً، «فإن القذارة وجميع المشاعر الشرسة... يمكن أن تبرز من جديد في حصاد دموي آخر من التراب المنقوع والمغطى بالدم، وفي أجواء ملطخة بكل عمل أو جريمة يمكن تصورهما».[10]

كانت الأحداث في بلغاريا والبوسنة مروعة، ولكنها كانت دون ما يوازيها في التجربة البريطانية. فقبل عشرين سنة، كانت بريطانيا "القوة المركزية البعيدة" التي تقمع تمرداً في الهند. وفي قمع التمرد الهندي في الفترة 1857-1858 بدأ العقيد نيل Neill وضباط بريطانيون آخرون بحملة إرهاب عنصري؛ حيث شنقوا تقريباً أي هندي وقع تحت أيديهم في حفلة انتقام (والأسوأ من ذلك كانت فرق القوات غير النظامية المدنية). وعندما وصل البريطانيون مدينة كونبور ورأوا نتائج الفظائع هناك، جن جنونهم. وقام

نيل بتدبير أشكال خاصة من الإعدامات التي – وهذا يعتمد على احتمال كـون الإنسـان هندوسياً أو مسلماً – ستصيب الضحية بلعنة أبدية. وأجبر السجناء على لعق الدم الجاف من أرضية منزل صغير تم فيه قتل نساء وأطفال. وتم تلفيق قصص بأنـه تـم اغتصـاب النساء وتشـويههن، وتـم تـدنيس أنـوثتهن الناصـعة بواسـطة «كـلاب هجينـة سـوداء الوجوه»، وتم تعذيب الأطفال ببطءٍ وتأنٍّ.[11] لقد أسـس البريطـانيون سياسـة وإرهابـاً ورعباً، ساعدهم عليها أولئك الذين كـانوا يكرهـون الهنـدوس والمسـلمين معـاً، مثـل السيخ. مر ضابط على جماعة من السيخ يشوون جندياً هنـدياً دربـه الإنجليـز فـوق نـار بطيئة، فلم يبذل أي مسعى لإيقافهم. لم يكن هذا حادثاً معزولاً، بل كانـت هنـاك حملـة رسمية لاستعادة الإعدام بواسطة التعذيب، باعتبار أن الشنق كـان أسـرع مـن الـلازم لأولئك الذين ارتكبوا "أعمالاً سيِّئة". وكانت أكثر أنواع التخلص من المتمردين رسمية أن يتم حزمهم في مقدمة المدفع ثم تفجيرهم في المنتصف، بحيث تلطخ بقاياهم المبعثـرة وجوه رفاقهم السابقين المصفوفين لمشاهدة الإعدام. كانت هذه هي العدالة البريطانية في وجه التمرد على الاستعمار. وقد ارتكبت أمم غربيـة أخـرى فظـائع مماثلـة في ممتلكاتهـا الاستعمارية، إن لم تكن على النطاق نفسه. وهكذا نجد أن حملات شجب جلادستون لم يتم تقديمها لأمة أيديها نظيفة تماماً.

ما الذي جعل العثمانيين بغيضين إلى هذا الحد في بلغاريا؟ كانت جـريمتهم المسـتغربة تكمن في الجمع بين الشهوانية والعنف. كان البريطانيون في الهند تحت قيادة ضـباط، مثـل الجنرال هنري هافيلوك Henry Havelock، زعموا أنهم نفذوا انتقامـاً إلهيـاً خالصـاً مـن المتمردين؛ فالعدالة، وليس المتعة، هي التي دفعتهم قدماً. كـان البريطـانيون يعتقـدون أن الأتراك، بشهواتهم القذرة، كانوا يستمتعون بالقتل، ويستمتعون بالاغتصـاب والتعـذيب حتى أكثر من ذلك. كانوا يعتقدون بأن السادية كانت صـفة عثمانيـة غالبـة علـيهم. يشـير ت. ي. لورنـس بمكر – في وصفه الشهير للواتي تم ضـربهن والإساءة إليهن جنسـياً مـن

قبل الأتراك في درعا – إلى السقم الجسدي والبدانة ورثاثة الهيئة والقذارة والكسل، علاوة على الرغبات الفاسدة بشكل كبير، والتي تعد، كما سبقت الإشارة إليه في الفصل السابع، الشيم المعتادة للعثماني. لقد كانت صدقية الحقائق في تجارب لورنس موضع تشكيك،[12] ولكن المهم هنا هو أن جمهوره الشعبي كان سيقبل في عام 1935 ما أورده في كتابه **أعمدة الحكمة السبعة** عن الأتراك من دون تساؤل.[13] فبالنتيجة كان الجميع يعلم أن ذلك هو ما "فعله" العثمانيون.

لكل عصر هناك الغول – "الآخر" الغريب – وقد ملأ العثمانيون ذلك الدور لأوروبا المسيحية بعد اختفاء التهديد العسكري الذي أعطى الدور بعض المعنى بمدة طويلة؛ لقد أصبحوا ببساطة يشكلون تهديداً من نوع مختلف. توجد حالة موازية تلقي الضوء على الدور الفريد الذي ينسبه المجتمع الغربي إلى العثمانيين. في القرن التاسع عشر اتبع اليابانيون المسار نفسه: من كونهم غرباء غامضين وخطيرين، مروراً بعملية التحديث والعصرنة، ليصبحوا في القرن العشرين، مرة أخرى "متوحشين وبرابرة"، وفي الوقت نفسه هدفاً للفكاهة القاسية. يخبرنا جون دوفر John Dover [14] كيف طمأن الضباط البريطانيون في عشرينيات القرن العشرين حكومتهم أن الضباط اليابانيين و"رجالهم الصفر الصغار" لن يستطيعوا القتال؛ لأن بصرهم كان ضعيفاً. ويوضح الهواجس التي طورها الغرب حول اليابانيين؛ فقد كانوا ينظر إليهم بازدراء وكأنهم بهائم، أو شخصيات للضحك والتسلية، أو أنهم بدائيون متوحشون، أو هوام، ولكنهم نادراً ما تم التفكير بهم بأنهم يشكلون تهديداً جنسياً؛ إذ لم يكن ثمة أدب إباحي شعبي في الغرب حول الساموراي الشهوانيين. وهذه مفارقة؛ لأن تقليد "الكتاب الأصفر" [أدب كلاسيكي ياباني، وهو نوع من المفكرة الشخصية] يجعل اليابانيين أكثر تأهيلاً من العثمانيين لمثل هذا الدور النمطي. وبالطبع، فإن اليابان بالنسبة إلى أوروبا تعد بعيدة جداً، بينما تركيا قريبة وفي المتناول (علماً أن الوضع مقلوب بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية الغربية).

إن تركيا الحديثة مثقلة بأصولها، أما في الغرب فلا تزال محمَّلة بعبء إضافي من الرعب والكراهية يعود إلى الماضي البعيد. وصورة التركي، التي تذوب وتعود لتتشكل، لن تكون خالية مطلقاً من جذورها العميقة: في المخاوف الأوروبية من الجنس والعنف اللذين يلوحان في الأفق من الشرق.

خاتمة

تتغير العادات والتقاليد بتغير الأزمان

يكمن مغزى هذا الكتاب في أنه لا توجد لموضوعه خاتمة؛ فالعلاقة بين العثمانيين وأوروبا، بين الأتراك والغرب، تتغير وتتشكل من جديد باستمرار. ولكن هذا الموضوع كذلك لن ينجو من التعرض لسوء فهم جوهري.[1] وقد بين إيزل كورال شو Ezel Kural Shaw أنه «يجب أن نشكر الرحالة على معلوماتهم، ضمن قيودها، ولكن علينا أن نحرر أنفسنا من تلك القيود لكي نطور معرفة شاملة بالنظام العثماني بشروطه الخاصة».[2] ولكنّ ثمة خطراً يتمثل في أن هذه المعرفة الأكبر لن تحل مشكلة سوء التفاهم. وثمة نقطة ناقشها إدموند بيرك Edmund Burke هي أن الأتراك كانوا «آسيويين تماماً... فماذا على هؤلاء الأسوأ من المتوحشين أن يفعلوه بقوى أوروبا؟».[3] وإن كان مايزال هناك كثيرون في أوروبا يعتقدون أن ذلك صحيح، فهناك الكثير في تركيا ممن يتمنون أن يكون صحيحاً، ولكن حقائق الجغرافيا، إن لم يكن أكثر، تتطلب علاقة متبادلة. إذاً، كيف يمكن التعامل معها؟

في عام 1839 نشر ديفيد أوركوهارت David Urquhart كتاب **روح المشرق، أو صور من الرحلة الشرقية** *The Spirit of the East, or Pictures of Eastern Travels*. فهو في الشكل الخارجي "حكاية رحالة" تقليدية، ولكنه لم يستمد معلوماته من حب الأتراك أو كراهيتهم. ولا يزعم أوركوهارت أنه يتخيل نفسه تركياً، بل يعد نفسه صعباً و"شائكاً"، ويصف الأتراك هكذا:

> يذكّر الأتراك المرء بشخص منفر: يثيرون مشاعرهم أو تحاملاتهم، وفي كل مكان يتم عرض نقطة حادة أو عدائية عليك، فاعرفها ولتُعرف بها، وهي مصقولة ومرنة بقدر ما هي متدنية.

> وبعد أن جربت كلاً من الأثرين فإنني أربط بينهما وبين السبب نفسه، الذي كان في نفسي وليس فيهما [تأكيد المؤلف]. عندما غادرت معالم تركيا، فقد كان بدافع الكراهية في قلبي والازدراء على لساني... لكن الفرص والمثابرة علمتني خلاف ذلك.[4]

سألت مؤخراً عميد الحكايات الشعبية التركية، الدكتور وارين ووكر Warren Walker، كيف استطاع أن يجمع مجموعة مواده المميزة، فأخبرني بأنه والمتعاون معه جابا أنحاء تركيا إحدى عشرة مرة ليجمعا الحكايات، وكثيراً ما كانا يذهبان إلى قرى صغيرة كان سيعدها التركي الحضري اليوم - مثل أجداده العثمانيين - بدائية وعديمة الأهمية تماماً إلى حد الاستحالة. كانا يذهبان إلى المختار (عمدة القرية) الذي كان يرحّب بهما، وخلال شربهما الكثير من أكواب الشاي كانت توجه إليهما الأسئلة ليوضحا من هما؟ ومن أين أتيا؟ ثم يسكت المختار ويتثاءب ويسألهما الأسئلة نفسها من جديد. وربما كان يمر يوم في هذه العملية، وفي اليوم اللاحق يأتي شيخ القرية، الخوجة، ويوجه إليهما الأسئلة نفسها من جديد، ثم في مرحلة ما يتوقف المختار ويقول: «تشرفنا بحضوركما. كيف يمكننا مساعدتكما؟»، ثم يتم قص الحكايات الشعبية عليهما، ويتم إكرامهما بصورة رائعة وإقامة الولائم لهما لمدة أيام.

كان الناس فقراء عادةً، وتكاليف الضيافة كان واضحاً أنها كبيرة على القرويين، ولكن كرم الضيافة كان واجباً وفضيلة؛ ولذا كان من الطبيعي ألا تعرض عليهم نقود، وحتى المؤونة كانت مرفوضة. ولكن ووكر اكتشف أن كميات الشاي والسكر كانت قليلة، ولذلك كان في كل رحلة بعد ذلك يأخذ معه كميات من كليهما. لكن لم يكن يقدمها للقرويين، بل كان يسأل إن كان سيسمح له بإعطاء هذه الهدايا لأطفال القرية. وكان يقال له «نعم، إن بإمكانه إعطاء الهدايا للأطفال». ولم يكن يتم الاحتفاظ بالشاي والسكر للأطفال، بل كان أهل القرية جميعاً يستمتعون بهما. وكان جميع المعنيين قد تصرفوا باحترام وتفهم، وكسبوا من الاجتماع. بالنسبة إلى الغرب، كانت النتيجة مجموعة فريدة من القصص الشعبية الرائعة، وبعضها منشور الآن،[5] أما بالنسبة إلى القرويين فكنت صديقاً كانوا يرحبون بعودته في كل زيارة لاحقة.

واجه ديفيد أوركوهارت مشكلة مماثلة. فقد ذكر كيف أنه:

> عندما يكون ثمة اختلاف في الانطباعات الأصلية، لا يمكن القول إن هناك لغة مشتركة؛ لأن الأفكار التي ينطوي عليها كلام أحد الأشخاص لا تصل إلى عقل الشخص الآخر، ولا يتم الشعور بهذا الغياب للغة المشتركة في شيء كما في تقديرنا للحالة والمشاعر الوطنية في الشرق.[6]

كان جوابه أن يتم قبول الحد الفاصل والنظر عبره بحب وإعجاب عندما شعر بالتحرك إليه (كما حصل بسبب العلاقة بين الأتراك وأطفالهم) أو بالامتناع عن إطلاق حكم عندما لم يفعل. ولعله بتلك النقطة لم يعد رحالة، بل - مثل وارين ووكر - "جاء إلى وطنه"..

ملاحظات على الرسوم التوضيحية

لقد أخذت الصور الواردة في اللوحات من مجموعة سيرايت Searight في متحف فيكتوريا وألبرت، بلندن، أو من مجموعة المؤلف الخاصة. وفي الملاحظات التالية تم وضع الحرف (س) ليرمز إلى الصورة المأخوذة من مجموعة سيرايت، والحرف (و) ليرمز إلى الصور من مجموعة المؤلف.

من آلاف الصور في مجموعة سيرايت، يأتي عدد لا بأس به من الصور التي اخترتها من فنانين: هما "التركي المجهول"، وأماديو Amadeo، وهو الكونت بريزيوسي Count Preziosi. وهذا لأنه بدا لي أنهما يملكان عيناً نزيهة كنت أبحث عنها. ومن الجدير بالذكر أنه لا أحد منهما كان غريباً بالمعنى المعتاد؛ إذ كان يعتقد أن "التركي المجهول" يوناني يعيش في القسطنطينية، وكان بريزيوسي مالطياً.

وغالباً ما تعرض الرسومات الكاريكاتيرية مواقف غير واعية من العثمانيين أفضل من الأعمال الفنية الرسمية، وأنا شاكر للدكتور روي دوجلاس على تزويدي بهذه الرسومات من مجلات جودي *Judy*، وبنش *Punch*، وكلاديراداتش *Kladderadatsch*، من مجموعته الواسعة.

وقد أخذت النقوش داخل النص من كتاب تشارلز وايت Charles White لعام 1945 بعنوان: **ثلاث سنوات في القسطنطينية أو أخلاق الأتراك المنزلية عام 1844** *.Three Years in Constantinpole, or Domestic Manners of the Turks in 1844*

صورة الغلاف

في الصورة الرومانسية لسوق بازار القاهرة، تم إبراز السكينة والهدوء المريح في العالم العثماني بدقة. وقد تركز جانب كبير من التعبير والتفصيل في ذهن لويس أكثر مما هو في واقع الحياة اليومية، ولكنه كان مراقباً دقيقاً وفناناً راقياً. ولذا، فإن هذا التصوير الفني يجمع بين الرؤية المعتدلة لعالم تقليدي غريب ومشحون حسياً قبل وقت قصير من اختفائه تحت ضغط القيم الغربية. (س)

اللوحات

1. **كاتب الرسائل التركي (العرضحالجي)، 1855، الكونت بريزيوسي (1816-1882)**: لم يكن كاتب الرسائل بارعاً في اختيار الخط المناسب فحسب، بل أيضاً في صوغ العبارات المناسبة للظرف أو عرض الحالة؛ لأن العرائض المقدمة إلى الموظفين الحكوميين في إيطاليا كان يتعين صوغها بأسلوب معين. وكان كتاب الرسائل على نطاق واسع معتادين على تفسير تعقيدات الأسلوب الباروكي المزخرف في النصوص الرسمية العثمانية للمواطن العادي. (س)

2. **المقهى، 1854، أماديو، كونت بريزيوسي (1816-1882)**: هذه إحدى أروع الرسوم المائية وأدقها بريشة بريزيوسي، وتوضح القسطنطينية بوصفها نقطة التقاطع في الإمبراطورية. ومنظره المصور في مبنى "حديث " على الواجهة المائية للقرن الذهبي، بينما تشكل إسطنبول خلفية له، يضم "الأنماط" الكثيرة في الإمبراطورية. في الجانب الأيسر يجلس يوناني متربعاً، بجوار درويش بقبعته الطويلة من اللباد. وبجوار الباب يوجد شركسي بقبعته من الفرو، بجوار يونانيين آخرين. وقد سعى بريزيوسي لتصوير أكثر الأنواع غرابة بحيث يمكن تجميل الواقع الإجمالي للمقهى على حين يتم تصوير كل شخصية بدقة. (س)

3. **بيت الطعام (المطعم)، حوالي 1810**: المكان في بيرا ويطل على القرن الذهبي، وهذا يظهر بدقة كبيرة مطعماً عثمانياً تقليدياً. وهذه الصورة وغيرها تبين كم كانت مهجورة شوارع المدينة في فترة الظهيرة. الفنان مجهول ولكن يعتقد أنه يوناني رسم مشاهده في خليطٍ من الأسلوبين العثماني واليوناني. وقد اشترى السفير ستراتفورد كاننغ هذه الصورة مع الكثير غيرها، وهو ألمع الدبلوماسيين البريطانيين وأنجحهم لدى الباب العالي.

4. **الإنكشارية في الفناء الثاني من قصر يني سراي، حوالي 1810**: وصف الزوار الأوروبيون الاندفاع غير المناسب للإنكشاريين من أجل رواتبهم في الفناء الثاني، ولكنه يشبه التمرين العسكري. وقد تمت هنا تطورات أخرى أكثر رسمية، غير أن الإنكشاريين كانوا يمارسون "مهاراتهم الحربية"، ملوحين بأيديهم، في إيت ميدان أو ميدان اللحم وفي ميادين التدريب خارج المدينة.

5. **كبير الخصيان (الطواشية) قيزلر آغاسي، مجهول المصدر**: كان يترأس بيت السلطان، وكان دائماً من السود؛ ومن ثم كانوا يخشونه نظراً إلى صلاحيته فيما يخص الحياة والموت داخل الحرملك، وميله المفترض إلى الوحشية المفرطة الناجمة عن حالته المعدلة. كانت عملية الخصاء و"الزنجية" تجسدان النظرة الغربية "إلى الجانب المظلم" من حياة الحرملك، وهي النقطة المقابلة للأجسام المدللة "للجواري". وقد تم شنق آخر رئيس للطواشية لدوره في الانقلاب المضاد ضد حركة "تركيا الفتاة"عام 1909. (س)

6. **آغا الإنكشارية، مجهول المصدر**: تدل بدلته على أنه بالتأكيد ضابط إنكشاري كبير، وعلى الأرجح قائد (آغا) الأفواج الإنكشارية. ولكن الضباط نادراً ما كانوا يستمرون في القيادة فترة طويلة جداً، كجزء من محاولة غالباً ما تكون من دون جدوى لضبط سيطرة القوات البالغة القوة بالفعل. وكانت هناك فروق بسيطة بين بذلات الأفواج، وقد حمل معظم الإنكشاريين باعتزاز شارة كتيبتهم مرسومة بالوشم على أجسامهم، دليلاً على مرتبتهم المتفوقة بوصفهم المحاربين المختارين للسلطان. (س)

7. **الساعي التركي، بعد السير ديفيد ويلكي ر. أ. (1785-1841)**: تم إلقاء الطابع الرومنسي على مشهد المقهى بطريقة لم تتصف بها صورة بريزيوسي. تأخذ الشخصيات الرئيسية وضعيات بطولية. ويهيمن عليها الرسول التتري المسترخي والمتخذ وضعيته بعناية – وهو الذي ربما تشير جزمته المجنحة والمزخرفة إلى عطارد، وكل العيون مثبتة عليه بتشوق. الشخصيات الوحيدة التي لا تلقي بالاً هي "الموظفون الإضافيون": الأطفال والعبد الأسود الذين ربما أضيفوا إلى الصورة في مرحلة لاحقة. وأيضاً يوجد تنوع عجيب في الشخصيات والأنماط: العثمانيون، والأرمن، واليهود، والدراويش، والتجار – خليط غير متجانس كان يمكن ملاحظته بالتأكيد في العاصمة. كان ويلكي في القسطنطينية عندما وصلت المدينة أخبار الانتصار الأنجلو-تركي على المصريين في نوفمبر 1840، ولكنه مات في رحلته إلى الديار عام 1841، ولذلك أعدّ رسوماته للطباعة الحجرية جوزيف ناش. (س)

8. **محمد علي، 12 مايو 1835، ديفيد روبرتس ر. أ. (1796-1864)**: كان محمد علي، والي مصر، أشد دعاة الحداثة والعصرية فاعلية في العالم العثماني، ولكنه يبدو في هذه الصورة شخصية بليدة وكسولة تقليدية، محاطاً بحاشيته. قارنه بالأوروبيين اليقظين والمنتصبي القامة في يمين الصورة. وأيضاً هناك عنصر الصدق في هذه الصورة، ولكنها تعرض تبايناً سرعان ما أصبح صورة نمطية: العثماني البليد الذي يواجهه الأوروبي المندفع. (س)

9. **مسجد قبة الصخرة من الداخل، القدس، 1836، س. ف. هـ. ويرنر (1808-1894)**: مكان مقدس لدى المسلمين؛ حيث عرج بالنبي محمد إلى السماء على البراق، والموقع الذي كان سيقدم فيه إبراهيم ولده قرباناً. (س)

10. **منظر القسطنطينية من الهضاب خلف سكوتاري، 1829**: تبدو سكوتاري لأذن الإنكليز مرادفة لفلورنس نايتنجيل ومستشفاها في أثناء حرب القرم، أما بالنسبة إلى العثمانيين فتعني مسجداً محترماً جداً على شواطئ البوسفور، والثكنة الكبرى التي بناها سليم الثالث. تم التقاط هذا المنظر من كتاب تشارلز ماكفرلين **القسطنطينية عام 1828**.

11. **شوارع إسطنبول**: يمثل هذا منظراً واقعياً لإسطنبول. كان الفراغ النسبي للشوارع مقابل الشارع الرئيسي مفروضاً جزئياً بالصعوبات في التجول في المدينة بطرقها الطينية التي كانت تصبح أرضاً سبخة في الشتاء، وكان يتم تنظيف الشوارع بواسطة كلاب الكناسة التي كانت تلتقط بقايا الطعام التي تقع من بائع الكباب. (س)

12. **حمام سوق الرجال، حوالي 1810**: مرسومة من واقع الحياة وليس من الخيال، بواسطة "تركي مجهول المصدر" رسم مجموعة لأجل تراتفورد كاننج، وينعدم فيها تماماً جو الشهوانية الذي يهيمن على معظم الصور "الاستشراقية". (س)

13. **مصارعة في قصر يني سراي**: كان شغف الأتراك بالمصارعة قوياً في الإمبراطورية العثمانية كما هو في تركيا الحديثة. وهنا يشاهد السلطان من مظلته في أثناء أداء المصارعين، بينما النساء منفصلات عن المشاهدين من الرجال. (س)

14. **السفر في الإمبراطورية العثمانية، حوالي 1800، لويجي ماير (نحو 1750-1803)**: لويجي ماير المعروف على نطاق واسع بأنه فنان مصر والأرض المقدسة، ترك هذا الرسم عن رحلته في الديار العثمانية. تتنقل العربات على الطراز الأوروبي عبر الطرق الرديئة الصنع، المحاطة من كلا الجانبين بجثث المجرمين الذين تم إعدامهم بالخازوق. في أيام ماير كان الإعدام بالخازوق على

الأرجح يتم بعد الموت بالشنق، وليس مثل الإعدام بالمقصلة في إنجلترا، ولكن لا شك في أن الرعب التام من الوحشية التركية كان يتم استغلاله من قبل بعض المسؤولين المحليين كقانون لأنفسهم. (س)

15. **بدلة القوات الجديدة، 1828، ج. كلارك**: تم التعليق على البدلة العثمانية في موضع آخر. وهذه الصورة من كتاب تشارلز ماكفرلين **القسطنطينية عام 1828** توضح مدى حرص محمود الثاني على تصميم بدلة لا تكون "أوروبية" في زيها. كانت هناك تلميحات أخرى أقل وضوحاً إلى الماضي: اختار السلطان لقواته "الإسكنجية" الألوان نفسها التي كانت في النظام الجديد السيِّئ المصير للسلطان سليم الثالث. وهنا ضابطان إلى جانبي جندي خاص مسلح ببندقية (مسكيت ذات زند له صوانة) قصيرة وحربة، وهم مايزالون يلبسون الحذاء الأحمر أو الأصفر والجزمة في البلاط العثماني. وبعد أن تم هذا النقش بوقت قصير تم تبديل الأحذية بجزمة بنية أو سوداء، وأصبحت البدلات أقرب إلى الزي "الغربي". ولكن حتى نهاية الإمبراطورية كان الجنود العثمانيون يبدون مختلفين عن القوات الغربية.

16. **نساء عثمانيات**: شهد هذا الزي للثوب التقليدي للنساء تغيراً أكثر بطئاً من التغير في ثياب الرجال، ولكن بعد اعتماد الحريم للأزياء الغربية أصبح التحول أكثر عمقاً. هنا يقارن "التركي المجهول" الثراء الفاحش لسيدة عثمانية عظيمة – ريشة طائر في شعرها، وثيابها مصنوعة من الحرير المزين بالجواهر – بثوب أبسط نوعاً ما لغير المسلمة، وهو مايزال جيداً ولكنه أقل زخرفة، بما في ذلك قبعة خضراء صغيرة. لكن الاستمتاع بالألوان والنسيج كان أمراً شائعاً لدى الجميع، وهذا ذوق اختفى عندما حل الزي الأوروبي محل الأزياء التقليدية الأكثر راحة وعملية، واختفت الحرية في الثوب الشرقي الفضفاض ليحل محله المشدات والملابس الضيقة.

17. **بيوت عثمانية مطلة على البوسفور، جيه. سي. بينتلي**: في هذه اللوحة المأخوذة من كتاب جوليا باردو "محاسن البوسفور" يعرض بينتلي البيوت الخشبية القديمة التي كان العثمانيون يلجأون إليها في موسم الحر في الصيف من حرارة المدينة الخانقة. كانت أعداد كبيرة من كبار الشخصيات العثمانية في القرن التاسع عشر تغادر المدينة من أجل الحياة "الريفية" على طول مضيق البوسفور. (س)

18. **جامع أيوب، ج. كارتر**: كان جامع أيوب مقاماً مقدساً خارج العاصمة، وهنا كان يتقلد السلطان احتفالياً سيف عثمان عند توليه الحكم، كرمز لتصميمه على أن يكون مجاهداً في سبيل الإسلام. كان الدفن في مقبرة أيوب الكبرى رغبة اشتهاها كثير من العثمانيين، بينما وجد الروائي بيير لوتي الذي كان بيته في منطقة أيوب رغبته هناك في رواية **أزيادي الجميلة**. (س)

19. **بستاني السلطان (بستنجي)**: أسهم حب العثمانيين للحدائق والبستنة في رفع مكانة بستنجية القصر. وكان السلاطين يستخدمونهم حرساً شخصيين، ومراسلين سريين، وجلادين، إضافة إلى مهماتهم الأكثر رسمية المتمثلة في العناية بالحدائق، وفوق هذا كله الإعداد لاحتفالات الخزامى السنوية. هنا يقف كبير البستنجية في عمامته الحمراء وثيابه القرمزية.

20. **الصدر الأعظم**: شخصية الصدر الأعظم المهيبة بثوبه الأبيض وفرائه الثقيل وسيمائه الجليلة كانت مناسبة لأعلى مسؤول في هرم السلطة العثمانية. وفي ظل السلطان غير الكفؤ كان الصدر الأعظم هو الحاكم في كل شيء ماعدا التسمية. كان كبار الوزراء، مثل السلطان، يرتدون الفراء الثقيل في الشتاء والصيف معاً رمزاً لمركزهم الرفيع. (س)

21. **البيت العثماني من الداخل، القاهرة، فرانك ديلون (1823–1909)**: هذا الجزء الداخلي من البيت القاهري لمسؤول عثماني رفيع يحمل جميع علامات البيت العثماني الثري قبل دخول الأساليب الغربية. ويختلف صفاؤه الرائع عن المزيج المميز بين الأسلوبين الشرقي والغربي الموجود في البيوت الكبرى في إسطنبول والقاهرة والإسكندرية في وقت لاحق من القرن، وقد وصفها أمين فؤاد توجاي. (س)

22. **نساء وأطفال حول سبيل ماء في الشارع، حوالي 1845، أماديو، الكونت بريزيوسي (1816–1882)**: كان العثمانيون يسرفون في العناية والاهتمام بأطفالهم، كما يظهر من الثياب الفاخرة التي ترتديها الفتاة والفتى في هذه الصورة. (س).

23. **نافورة توفان، 1829، ويليام بيج (1794–1872)**: كان يتم استجلاب الماء إلى المدينة بواسطة قناة من الخزانات الكبرى في المرتفعات المطلة على إسطنبول. كان الماء الجاري أساسياً من أجل الوضوء المطلوب لجميع المسلمين قبل الصلاة، وكان يتم تزويد ساحة كل مسجد بأماكن يستطيع المصلون فيها تجهيز أنفسهم. وكذلك 'السبيل' كان يوفر الماء للحي بكامله، وغدا مكاناً للقاء والتجارة والحديث. قارن هذه الصورة بالصورة التي التقطت بعد نحو أربعين عاماً للسبيل خارج باب قصر يني سراي (اللوحة 40). في الخلفية يمكن مشاهدة برج غالاطا في

قلب مدينة بيرا 'الأوروبية'. وكان حي توفان حيث تقع ثكنات المدفعية وترسانة الأسلحة. (س)

24. **منظر من الشارع في بيرا، حوالي 1810**: الشوارع النظيفة والمنظمة في بيرا التي تظهر هنا هي من نسج الخيال. كان يقال إن المدينة الأوروبية (حيث كانت تقع جميع السفارات والمصالح الغربية) كانت أكثر سوءاً من حيث السمعة من إسطنبول في الطرف الآخر من القرن الذهبي. هنا تمر مجموعة من الإنكشارية في المراقبة بسفارة أوروبية، علماً أنه من المستحيل حل شيفرة شعار النبالة الموجود على سور السفارة. ويظهر أوروبي رمزي في الشارع الذي لولاه لكان شبه خالٍ. كان هذا تقليداً في الصور الغربية (سواء كانت لإسطنبول أو لمواقع أثرية كلاسيكية). أحياناً كان هؤلاء يوضحون راعي الفنان، ولكن كان يتم إضافة أي أوروبي لإعطاء "مقياس بشري" للصورة؛ إذ كان العثمانيون أو "العرب" مجرد "أنماط" أو لون محلي. (س)

25. **السلطان في موكب مغادراً الباب الكبير لقصر يني سراي، حوالي 1810**: كان الموكب الاحتفالي للسلطان – من القصر إلى صلاة الجمعة أو إلى المعسكر الحربي في ميدان داود باشا – ملمحاً دائماً. وتختلف صور مواكب القرن السادس عشر قليلاً عن هذه الصورة لمحمود الثاني وهو على فرسه. توضح الصورة الشغف بالفرو، والأقمشة ذات الأشكال الجميلة، والريش، وكلها تستخدم للدلالة على المرتبة أو المكانة. تقدم السلطان، محاطاً بكبار إنكشاريته، ماشياً ببطء، بينما الحشود المحيطة به تنحني له. وقد أكد الموكب انفصال السلطان، ولكن أيضاً حضوره بين شعبه. وعندما حبس عبدالحميد نفسه ضمن الأسوار العالية لقصر يلدز كان ذلك يرى على أنه رفض غير عثماني للتواصل مع شعبه.(س)

26. **الإنكشارية مع قدورهم**: هذه عبارة عن أوعية للطبخ، وكانت الأفواج تمتلك قدوراً أكبر أيضاً يأخذ أفراد الفرقة كلهم حساءهم، وهذه القدور بالذات هي التي كان يتم قلبها رسمياً؛ دلالة على أن الإنكشارية لن يأكلوا إعاشات السلطان وأنهم في حالة تمرد. (س)

27. **مدخل القرن الذهبي، 1852، أماديو، الكونت بريزيوسي (1816-1882)**: كان القرن الذهبي ومضيق البوسفور هما الطريقان الرئيسيتان للوصول إلى إسطنبول؛ حيث تربطان الشاطئين الآسيوي والأوروبي، وبين إسطنبول وبيرا. حينما كان السلاطين وكبار الشخصيات العثمانية يبنون قصورهم على طول شواطئ البوسفور كانت حركة المرور تصبح أكثر ازدحاماً؛ حيث

يحدث الكثير من حوادث الاصطدام التي أصبحت أكثر احتمالاً بسبب التيارات القوية في المجرى المائي. (س)

28. **عربي من العراق، أماديو، الكونت بريزيوسي (1816-1882)**: كان بريزيوسي يبحث عن أنماط غريبة عندما أصبحت نادرة في العاصمة العثمانية. وكان كثير من الذين تم تصويرهم قد وصلوا للتو إلى المدينة أو أنهم كانوا سياحاً، كالعربي من العراق. لكن صوره، كالعادة، كانت دقيقة، ويمكن مضاهاتها بصورة السوري لاحقاً. (س)

29. **مذبحة في قرية بلقانية، 1876، أولاندو نوري (1832-1901)**: كان يتم التركيز على صورة "التركي الرهيب" بصور مثل هذه. وهي على غرار ما هو مذكور في كتاب **مجزرة في شيوس** من تأليف ديلاكروا. لكن لعل نوري رسم أيضاً بلغاريين مسيحيين يقتلون قرويين مسلمين بوحشية مماثلة. (س)

30. **محارب كردي من منطقة بحيرة فان، نحو 1843**: كان "الجنود غير النظاميين" الذين توافدوا إلى راية السلطان مسؤولين عن كثير من الأعمال الوحشية التي ألصقت باسم العثمانيين. ولعله تم تسجيل حفدة هؤلاء المحاربين الأكراد في مليشيات عبدالحميد الخاصة (حميدية) أو كانوا مسؤولين عن قتل الأرمن، مضيفين بذلك مظاهر رعب جديدة إلى القائمة الدموية. (س)

وجاء التصوير مبكراً إلى الإمبراطورية العثمانية، حينما وجدت صور من أراضي الكتاب المقدس، ومشاهد من الحرملك، و"غرائب شرقية" عامة سوقاً جاهزة في الغرب. وقد أنتج المصورون العثمانيون والغربيون معاً صوراً لبت الحاجات الغربية.

31. **الأماكن المقدسة، 1878**: أثبت العثمانيون أنهم حراس جيدون للأماكن المقدسة في القرن التاسع عشر؛ حيث وفروا بيئة مستقرة، وقاموا بالتحكيم بحياد بين الطوائف المسيحية المتصارعة. وقد بلغت السياحة إلى المواقع المقدسة نسباً كبرى مع القيام بزيارات نظمها توماس كوك رائد "الرحلة الكبرى" إلى مصر وأراضي الكتاب المقدس. (و)

32. **خان القوافل في بيروت، ستينيات القرن التاسع عشر**: كانت "الخانات" في العاصمة والمدن الإقليمية نقطة الانطلاق للقوافل التي كانت تجوب الإمبراطورية مثل السفن الصغيرة التي تبحر للتجارة باستمرار على طول الساحل. كانت بيروت نقطة التقاء التجارتين البرية والبحرية. وتصور الجماعة المجتمعة هنا بشكل حي المدى الكبير "للأنماط" العرقية التي تكونت منها الإمبراطورية. (و)

33. **طفل الباشا، ومرضعته، والطواشي، مكة، 1885**: ألغى السلطان عبدالمجيد تجارة العبيد، ولكن العبودية المحلية استمرت في العائلات طوال وجود الإمبراطورية. كان العبيد أقرب إلى العبيد في الإمبراطورية الرومانية منها إلى المستوطنات الزراعية في جامايكا أو الجنوب الأمريكي؛ إذ إنهم كانوا أفراداً مقدرين في البيوت. فطفل مرضعة أصبح "أخاً بالرضاعة" لطفل الباشا، وسوف تستمر الصلة الخاصة طوال حياتهما. (و)

34. **الأسوار البيزنطية، ستينيات القرن التاسع عشر**: أسهم الزمن وهجمات عام 1453 في تآكل التحصينات البيزنطية، وفي القرون اللاحقة انهار المزيد من الأسوار، علماً أن العمل المتقن للبنائين الأصليين واضح من بقاء تلك الأقسام على الحالة الظاهرة في الصورة. (و)

35. **البرج الجنوبي القديم في غالاطا، ستينيات القرن التاسع عشر**: يمكن رؤية بلاطات الأضرحة العثمانية "البديعة" التي يحبها الرحالة. (و)

36. **القرن الذهبي، أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر**: أصبح الميناء المزدحم في الأصل مركزاً للتجارة مع قدوم عصر السفن البخارية. وهنا الميناء في حالة انتقالية؛ حيث ازدحم الميناء بالسفن الشراعية التي يتم تحويلها إلى البخار. وبعد ذلك بعشرين عاماً أصبح سطح الماء لا يكاد يرى من كثرة حركة مرور السفن. (و)

37. **سبيل ماء الشرب خارج الباب الكبير لقصر يني سراي، ستينيات القرن التاسع عشر**: قارن هذه الصورة الموضوعة بعناية لتعرض 'الأنماط' الشرقية، مع صورة سبيل التوفان (اللوحة 26). وتظهر الحالة المتدهورة للمدينة بوضوح. (و)

38. **نساء لابسات لأجل الشارع والبيت، 1886**: هؤلاء النساء اللواتي صورهن المستشرق الهولندي هيرجرونجي كان يعتقد لفترة طويلة أنهن عاهرات؛ لأنهن وقفن للتصوير أمام رجل أوروبي، ولكن هذا الافتراض ليس مؤكداً؛ لأن هيرجرونجي كان يستطيع دخول بيوت المسلمين عن طريق زوجته المسلمة. (و)

39. **منزل الباشا، 1886**: الباشا وابنه محاطان بأفراد أسرتهما. وهنا - بشكل مصغر - التقليد العثماني لبيت العبيد الذي يرجع إلى عهد سليمان وما بعده. كان ولاء الخادم لسيده، وولاء السيد لخادمه، وكان هناك أسرة وثيقة الصلات، وقد انتقل تقليد الصلات العشائرية من الأب إلى الابن، كما يرمز إليه هنا. (و)

40. **درويش وقد جاءته الحال، حوالي 1900**: درويش وقد غرز الشيش (أي السيخ) عبر خده في أثناء سيطرة الحال عليه. وعلى الرغم من قمع دراويش الطريقة البكتاشية بعد سقوط الإنكشارية، ظل الدراويش يمثلون قوة قوية في الإمبراطورية حتى أيامها الأخيرة. (و)

41. **شيخ قبيلة سوري**: كما حدث للكثير من الثوار ضد عبدالحميد، أُخذ هذا الشيخ رهينة إلى العاصمة، ليعيش حياته في حالة مقيدة ولكن مع إقامة مرفهة؛ حيث فقد في أثناء ذلك كثيراً من الشغف الرومنسي الذي رآه المصور فيه. وهذه صورة نمطية مموضعة مثل رسومات ويلكي أو الألوان المائية لبريزيومي. (و)

42. **سكان جبال ألبانيون، 1878**: كان الألبانيون معروفين بولائهم وجرأتهم، وقد اعتمد السلاطين عليهم كحرس شخصي، وكأفضل جنود لديهم، ومنم أكفأ الوزراء لديهم. وقد أصبح "الأرناؤوط" أو الألباني مرادفاً لساكن الجبل المتوحش والمخيف. (و)

ملحق الصور



1. كاتب الرسائل التركي (العرضحالجي)، 1855، الكونت بريزيوسي (1816-1882)



2. المقهى، 1854، أماديو، كونت بريزيوسي (1816-1882)، هذا أحد أروع الرسوم المائية وأدقها بريشة بريزيوسي، وتوضح القسطنطينية، كنقطة التقاطع في الإمبراطورية.



3. بيت الطعام (المطعم)، حوالي 1810، مجهول المصدر.
المكان في بيرا ويطل على القرن الذهبي، وهذا يظهر بدقة كبيرة مطعماً عثمانياً تقليدياً.
وهذه الصورة وغيرها تبين كم كانت مهجورة شوارع المدينة في فترة الظهيرة.



4. الإنكشارية في الفناء الثاني من قصر يني سراي، حوالي 1810.

وصف الزوار الأوروبيون الاندفاع غير المناسب للإنكشاريين من أجل رواتبهم في الفناء الثاني، ولكنه اندفاع يشبه التمرين العسكري.



5. كبير الخصيان (الطواشية)، مجهول المصدر.
كبير الطواشية (قيزلر آغاسي) كان يترأس بيت السلطان، وكان دائماً من السود؛ ومن ثم كانوا يخشونه نظراً إلى صلاحيته فيما يخص الحياة والموت داخل الحرملك، ولميله المفترض إلى الوحشية المفرطة الناجمة عن حالته المعدلة.



6. آغا الإنكشارية، مجهول المصدر.
تدل بدلته على أنه بالتأكيد ضابط إنكشاري كبير، وعلى الأرجح قائد (آغا) الأفواج الإنكشارية. ولكن الضباط نادراً ما كانوا يستمرون في القيادة فترة طويلة جداً.



7. "الساعي التركي"، بعد السير ديفيد ويلكي ر. أ. (1785-1841)

كان ويلكي في القسطنطينية عندما وصلت المدينة أخبار الانتصار الأنجلو-تركي على المصريين في نوفمبر 1840، ولكنه مات في رحلته إلى الديار عام 1841، ولذلك قام بإعداد رسوماته للطباعة الحجرية جوزيف ناش.



8. محمد علي، 12 مايو 1835، ديفيد روبرتس ر. أ. (1796-1864) محمد علي، والي مصر، وهو يستقبل نائب الملك البريطاني في قصره.



9. مسجد قبة الصخرة من الداخل، القدس، 1836، س. ف. هـ. ويرنر (1808-1894).
مكان مقدس لدى المسلمين؛ حيث عرج بالنبي محمد إلى السماء على البراق.



10. منظر القسطنطينية من الهضاب خلف سكوتاري، 1829، مجهول المصدر.



11. شوارع "إسطنبول"، مجهول المصدر.

يمثل هذا منظراً واقعياً لإسطنبول. كان الفراغ النسبي للشوارع مقابل الشارع الرئيسي مفروضاً جزئياً بالصعوبات في التجول في المدينة بطرقها الطينية التي كانت تصبح أرضاً سبخة في الشتاء، وكان يتم تنظيف الشوارع بواسطة كلاب الكناسة التي كانت تلتقط بقايا الطعام التي تقع من بائع الكباب.



12. حمام سوق الرجال، حوالي 1810، مجهول المصدر.

لوحة مرسومة من واقع الحياة وليس من الخيال، بواسطة "تركي مجهول المصدر" رسم مجموعة لأجل تراتفورد كانتج، وينعدم فيها تماماً جو الشهوانية الذي يهيمن على معظم الصور "الاستشراقية".



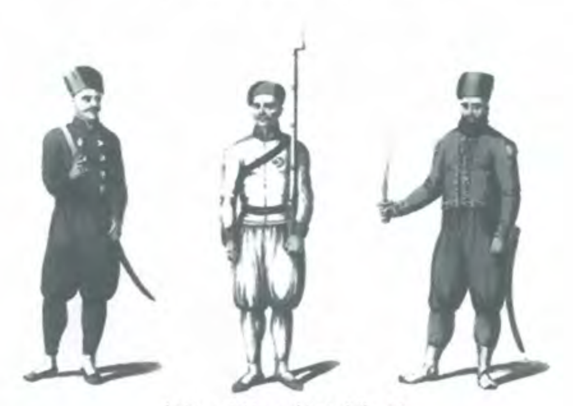
13. مصارعة في قصر يني سراي، مجهول المصدر.

كان شغف الأتراك بالمصارعة قوياً في الإمبراطورية العثمانية كما هو في تركيا الحديثة. وهنا يشاهد السلطان من مظلته أداء المصارعين، بينما النساء منفصلات عن المشاهدين من الرجال.



14. السفر في الإمبراطورية العثمانية، حوالي 1800، لويجي ماير (نحو 1750-1803)

لويجي ماير المعروف على نطاق واسع بأنه فنان مصر والأرض المقدسة، ترك هذا الرسم عن رحلته في الديار العثمانية. تتنقل العربات على الطراز الأوروبي عبر الطرق الرديئة الصنع، المحاطة من كلا الجانبين بجثث المجرمين الذين تم إعدامهم بالخازوق.



15. بدلة القوات الجديدة، 1828، ج. كلارك

جند قوات محمود الثاني الجديدة، يرتدون بدلاتهم "الإسلامية " المميزة.

16. نساء عثمانيات

شهد هذا الزي للثوب التقليدي للنساء تغيراً
أكثر بطئاً من التغير في ثياب الرجال،
ولكن بعد اعتماد الحريم للأزياء الغربية
أصبح التحول أكثر عمقاً.

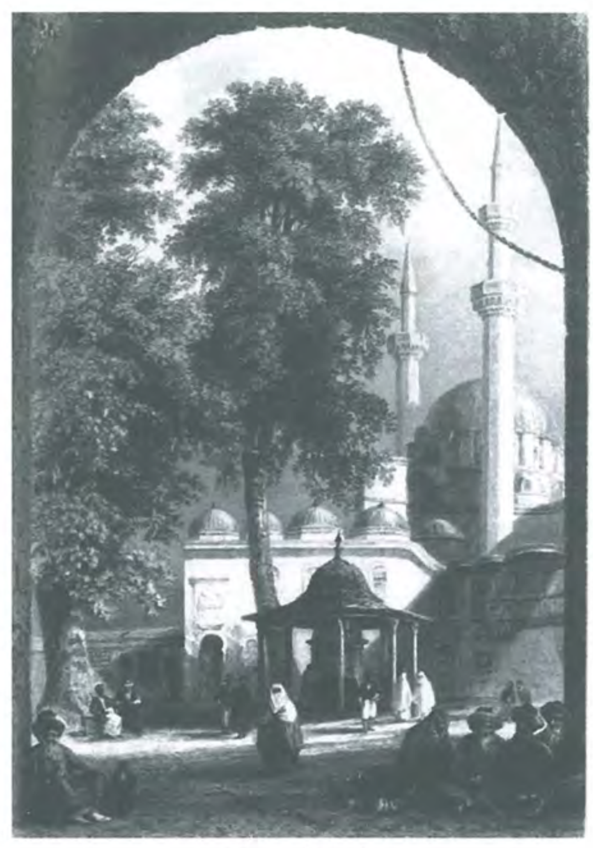




17. بيوت عثمانية مطلة على البوسفور، جيه. سي. بينتلي.

في هذه اللوحة المأخوذة من كتاب جوليا باردو **محاسن البوسفور** يعرض بينتلي البيوت الخشبية القديمة التي كان العثمانيون يلجأون إليها في موسم الحر في الصيف من حرارة المدينة الخانقة.

كانت أعداد كبيرة من كبار الشخصيات العثمانية في القرن التاسع عشر تغادر المدينة من أجل الحياة "الريفية" على طول مضيق البوسفور.



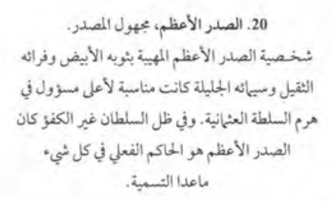
18. جامع أيوب، ج. كارتر

كان جامع أيوب مقاماً مقدساً خارج العاصمة، وهنا كان يتقلد السلطان احتفالياً سيف عثمان عند توليه الحكم، رمزاً لتصميمه على أن يكون مجاهداً في سبيل الإسلام.



19. بستاني السلطان (بستنجي)، مجهول المصدر.
أسهم حب العثمانيين للحدائق والبستنة في رفع مكانة بستنجية القصر. وكان السلاطين يستخدمونهم حرساً شخصيين، ومراسلين سريين، وجلادين، إضافة إلى مهماتهم الأكثر رسمية المتمثلة في العناية بالحدائق، وفوق هذا كله الإعداد لاحتفالات الخزامى السنوية. هنا يقف كبير البستنجية في عمامته الحمراء وثيابه القرمزية.





20. الصدر الأعظم، مجهول المصدر.
شخصية الصدر الأعظم المهيبة بثوبه الأبيض وفرائه الثقيل وسيمائه الجليلة كانت مناسبة لأعلى مسؤول في هرم السلطة العثمانية. وفي ظل السلطان غير الكفؤ كان الصدر الأعظم هو الحاكم الفعلي في كل شيء ماعدا التسمية.



21. البيت العثماني من الداخل، القاهرة، فرانك ديلون (1823-1909).

هذا الجزء الداخلي من البيت القاهري لمسؤول عثماني رفيع يحمل جميع علامات البيت العثماني الثري قبل دخول الأساليب الغربية.



22. نساء وأطفال حول سبيل ماء في الشارع، حوالي 1845، أماديو، الكونت بريزيوسي (1816–1882).
كان العثمانيون يسرفون في العناية والاهتمام بأطفالهم، كما يظهر من الثياب الفاخرة التي ترتديها الفتاة والفتى في هذه الصورة.



23. نافورة توفان، 1829، ويليام بيج (1794-1872).

كان يتم استجلاب الماء إلى المدينة بواسطة قناة من الخزانات الكبرى في المرتفعات المطلة على إسطنبول. كان الماء الجاري أساسياً من أجل الوضوء المطلوب لجميع المسلمين قبل الصلاة.



24. منظر من الشارع في بيرا، حوالي 1810، مجهول المصدر. الشوارع النظيفة والمنظمة في بيرا التي تظهر هنا هي من نسيج الخيال. كان يقال إن المدينة الأوروبية؛ (حيث كانت تقع جميع السفارات والمصالح الغربية) كانت أكثر سوءاً من حيث السمعة من "إسطنبول" في الطرف الآخر من القرن الذهبي.



25. السلطان في موكب مغادراً الباب الكبير لقصر بني سراي، حوالي 1810، مجهول المصدر.

كان الموكب الاحتفالي للسلطان – من القصر إلى صلاة الجمعة أو إلى المعسكر الحربي في ميدان داود باشا – ملمحاً دائماً. وتختلف صور مواكب القرن السادس عشر قليلاً عن هذه الصورة لمحمود الثاني وهو على فرسه.



26. الإنكشارية مع قدورهم، مجهول المصدر.

هذه أوعية للطبخ، وكانت الأفواج تمتلك قدوراً أكبر أيضاً. يأخذ أفراد الفرقة كلهم حساءهم، وهذه القدور بالذات هي التي كان يتم قلبها رسمياً؛ دلالة على أن الإنكشارية لن يأكلوا إعاشات السلطان وأنهم في حالة تمرد.



27. مدخل القرن الذهبي، 1852، أماديو، الكونت بريزيوسي (1816-1882).
كان القرن الذهبي ومضيق البوسفور هما الطريقان الرئيسيتان للوصول إلى إسطنبول؛ حيث تربطان الشاطئين الآسيوي والأوروبي، وبين إسطنبول وبيرا.



28. عربي من العراق، أماديو، الكونت بريزيوسي (1816–1882).

كان بريزيوسي يبحث عن أنماط غريبة عندما أصبحت نادرة في العاصمة العثمانية. وكان كثير من الذين تم تصويرهم قد وصلوا للتو إلى المدينة أو أنهم كانوا سياحاً، كالعربي القادم من العراق.

لكن صوره، كالعادة، كانت دقيقة، ويمكن مضاهاتها بصورة السوري لاحقاً.



29. مذبحة في قرية بلقانية، 1876، أولاندو نوري (1832-1901).
كان يتم التركيز على صورة "التركي الرهيب" بصور مثل هذه.



30. محارب كردي من منطقة بحيرة فان، نحو 1843، أماديو، الكونت برزيوسي (1816-1882). كان "الجنود غير النظاميين" الذين احتشدوا خلف راية السلطان مسؤولين عن كثير من الأعمال الوحشية التي ألصقت باسم العثمانيين.



31. الأماكن المقدسة، 1878.

أثبت العثمانيون أنهم حراس جيدون للأماكن المقدسة في القرن التاسع عشر؛ حيث وفروا بيئة مستقرة، وقاموا بالتحكيم في حياد بين الطوائف المسيحية المتصارعة.



32. خان القوافل في بيروت، ستينيات القرن التاسع عشر.

كانت "الخانات" في العاصمة والمدن الإقليمية نقطة الانطلاق للقوافل التي كانت تجوب الإمبراطورية مثل السفن الصغيرة التي تبحر للتجارة باستمرار على طول الساحل.



33. طفل الباشا، ومرضعته، والطواشي، مكة، 1885.

ألغى السلطان عبدالمجيد تجارة العبيد، ولكن العبودية المحلية استمرت في العائلات طوال وجود الإمبراطورية.



34. الأسوار البيزنطية، ستينيات القرن التاسع عشر. أسهم الزمن وهجمات عام 1453 في تآكل التحصينات البيزنطية، وفي القرون التالية انهار المزيد من الأسوار، علماً أن العمل المتقن للبنائين الأصليين واضح من بقاء تلك الأقسام على الحالة الظاهرة في الصورة.



35. البرج الجنوبي القديم في غالاطا، ستينيات القرن التاسع عشر.
يمكن رؤية بلاطات الأضرحة العثمانية "البديعة" التي يحبها الرحالة.



36. القرن الذهبي، أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر.

أصبح الميناء المزدحم في الأصل مركزاً للتجارة مع قدوم عصر السفن البخارية. وهنا كان الميناء في حالة انتقالية؛ حيث ازدحم الميناء بالسفن الشراعية التي يتم تحويلها إلى البخار. وبعد ذلك بعشرين عاماً أصبح سطح الماء لا يكاد يرى من كثرة حركة مرور السفن.



37. سبيل ماء الشرب خارج الباب الكبير لقصر يني سراي، ستينيات القرن التاسع عشر.
قارن هذه الصورة الموضوعة بعناية لتعرض "الأنماط" الشرقية، مع صورة سبيل توفان الواردة سابقاً.
وتظهر الحالة المتدهورة للمدينة بوضوح.



38. نساء لابسات لأجل الشارع والبيت، 1886.

هؤلاء النساء اللواتي صورهن المستشرق الهولندي هيرجرونجي كان يعتقد لفترة طويلة أنهن عاهرات؛ لأنهن وقفن للتصوير أمام رجل أوروبي، ولكن هذا الافتراض ليس مؤكداً؛ لأن هيرجرونجي كان يستطيع دخول بيوت المسلمين عن طريق زوجته المسلمة.



39. منزل الباشا، 1886. الباشا وابنه محاطان بأفراد أسرتها. وهنا - بشكل مصغر - التقليد العثماني لبيت العبيد الذي يرجع إلى عهد سليمان وما بعده.



40. درويش وقد جاءته حالة النشوة (الفناء)، حوالي 1900. درويش وقد غرز الشيش؛ (أي السيخ) عبر خده في أثناء سيطرة حالة النشوة (الفناء) عليه. وعلى الرغم من قمع دراويش الطريقة البكتاشية بعد سقوط الإنكشارية، فقد ظل الدراويش يمثلون قوة قوية في الإمبراطورية حتى أيامها الأخيرة.



41. شيخ قبيلة سوري.

كما حدث للكثير من الثوار ضد عبدالحميد، أُخذ هذا الشيخ رهينة إلى العاصمة، ليعيش حياته في حالة مقيدة ولكن مع إقامة مرفهة؛ حيث فقد في أثناء ذلك كثيراً من الشغف الرومنسي الذي رآه المصور فيه.



42. سكان جبال ألبانيون، 1878. كان الألبانيون معروفين بولائهم وجرأتهم، وقد اعتمد السلاطين عليهم كحرس شخصي، وكأفضل جنود لديهم، ومنهم أكفأ الوزراء لديهم. وقد أصبح "الأرناؤوط" أو الألباني مرادفاً لساكن الجبل المتوحش والمخيف.

الهوامش

مقدمة

1. كلمة "الغرب" هي اختزال لدول أوروبا المسيحية، وهي تضم أوروبا الشرقية والغربية في صيغة واحدة متماثلة: روسيا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا-المجر، وإيطاليا، وإسبانيا... إلخ. وطبيعي أن لكل أمة مواقفها وسياستها، وكل جماعة سياسية أو اجتماعية داخل كل دولة متمايزة أيضاً. وهكذا فالأحرار البريطانيون كانوا تقليدياً ضد العثمانيين وكان المحافظون مؤيدين للعثمانيين. ولكن مفهوم "الغرب"؛ بوصفه كتلة واحدة بقي مفهوماً شاملاً تقريباً للعثمانيين حتى نهاية الإمبراطورية. أما مصطلح "إفرنجي"، وهو النعت الشامل المستخدم للدلالة على أي غربي، فلم يفرق بين الفرنسيين والألمان أو البريطانيين. وبالطريقة نفسها التي أستخدمُ فيها "الغرب" اسمَ جنس، فإنني أستخدم كلمة "الشرق" بالطريقة غير التمييزية نفسها. فهي تعني المشرق الذي في ذهن المستشرقين. وما يعنيه الشرق/ المشرق يمكن رؤيته على خير وجه في عمل الفنانين المشتغلين بموضوع الشرق المتخيل. للاطلاع على مقدمة جيدة، انظر:

Philippe Jullien, *The Orientalists: European Painters of Eastern Scenes* (Oxford, 1977).

والواقع أن الإمبراطورية العثمانية تقع بشكل غير مريح بين نظريات ما بعد الاستعمار المختلفة؛ فبالنسبة إلى أوروبا كان مركزها من دون شك تابعاً، أما في العلاقات مع الجنسيات التابعة لها والمجتمعات المحيطة إلى الشرق والغرب فكان دورها يقوم على الهيمنة؛ وللاطلاع على مقدمة مفعمة بالحيوية حول هذه الفروق الدقيقة، انظر:

Robert Young, *White Mythologies: Writing History and the West* (London and New York, 1990), especially pp. 119-175.

2. للاطلاع على تحليل واضح للقوة الآسرة للغة، انظر:

Robert Hodge and Gunther Kress, *Language as Ideology* (London and New York, 2nd edn., 1933).

وللاطلاع كذلك على مقاربة مؤيدة للمساواة بين الجنسين، انظر:

Deborah Cameron, ed., *The Feminist Critique of Language* (London and New York, 1990).

3. Richard Ford, *The Handbook for Travellers in Spain* (London, 2 vols., 1845).

4. Edward Said, *Orientalism* (London, 1978).

5. كلمة "بلاكهيث" Blackheath وردت في:

John Morley, *The Life of William Ewart Gladstone* (London, 2 vols., 1908), vol. 2, p. 121.

الفصل الأول

1. انظر:

Syntax, 29 May 1453, cited in Alexander Van Millingen, *Byzantine Churches: Their History and Architecture* (London, 1891), p. 165.

2. ورد في:

Steven Runciman, *The Fall of Constantinople, 1453* (Cambridge, 1965), p. 58.

3. انظر:

Michael Kritovoulos, *History of Mehmed the Conqueror* (tr., Princeton, NJ, 1954), p. 56.

4. انظر:

Edward Gibbon, *The Decline and Fall of Roman Empire* (London, 6 vols., 1910 edn), vol. 6, p. 447.

5. Kritovoulos, *History*, p. 72.

6. ورد في: Van Millingen, *Byzantine Churches*, p. 169.

الفصل الثاني

1. انظر:

Robert Schwoebel, *The Shadow of the Crescent: The Renaissance Image of the Turk, 1453-1517* (Nieuwkoop, 1967), for agarathos, text translated in *Byzantion*, XXII (952), pp. 379-87.

2. Schwoebel, *Shadow*, p. 12.

3. انظر:

Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, tr. Sian Reynolds (London, 2 vols., 1973), vol. 2, p. 665.

4. John Lyly, *Euphues*, The Anatomy of Wit (London, 1868 edn), p. 42.

5. انظر:

Seigneur Michael de Baudier de Languedoc, *The History of the Serrail and the Court of the Grand Seigneur* (London, 1935).

6. ورد في:

Bernard Lewis, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire* (Norman, Okla., 1963), p. 26–27.

7. .Lewis, *Istanbul*, p. 27

8. انظر:

Michael Kritovoulos, *History of Mehmed the Conqueror* (tr., Princeton, NJ, 1954), p. 140.

9. Kritovoulos, *History*, pp. 207-8

10. انظر:

Gerlach, cited in Barnette Miller, *Beyond the Sublime Porte: the Grand Seraglio of Constantinople* (New Haven, Conn.. 1931), p. 152.

11. .Bassano, 1545, see Miller, *Sublime Porte*

12. انظر:

Nicholas de Nicolay, *Quatre Premier Livres, 1561 version, p. 51, cited in: Nicholas Penzer, The Harem* (London, 1936), p. 83

13. .J. P. de Tournefort, *Journey into* the Levant, (tr., London, 3 vols., 1741)

14. انظر:

Ottaviano Bon, '*Descrizione del seraglio ...*' in F. Contarini, *Relationi degli stati europei ... dagli ambiascatori veneti* (Rome, 1866), p. 61.

15. انظر:

Halil Inalcik, *The Ottoman Empire* (London, 1973), p. 90, citing '*illustrations de B. de Vigenere Bourbonnais sur l'histoire de Chalcocondyle athenien,*' in *Histoire de la decadence de l'empire grec et l'etablissement celvy turcs* (Rouen,1660), p. 19.

16. .Miller, *Sublime Porte*, p. 54

17. .Steven Runciman, *Byzantine Civilization* (London, 1933), p. 203

18. .Miller, *Sublime Porte*, p. 54

19. J. von Hammer-Purgstall, *Histoire de l'empire ottoman* (tr., Paris, 1835).

20. F. Babinger, *Mehmed the Conqueror* (Princeton, NJ, 1978), p. 44.

21. Theophile Gautier, *Constantinople of Today* (tr., London, 1854), p. 301.

الفصل الثالث

1. انظر:

Sonia P. Anderson, *English Consul in Turkey: Paul Rycaut at Smyrna*, 1667-78 (Oxford, 1989), and C. J. Heywood, 'Sir Paul Rycaut, a seventeenth-century observer of the Ottoman satae: notes for a study,' in Ezel Kural Shaw and C. J. Heywood, *English and Continental Views of the Ottoman Empire, 1500-1800* (Los Angeles, 1972).

2. انظر:

Ogier Ghislain de Busbeq, *Turkish Letters of Ogier Ghislain de Busbeq*, tr. And ed. E. Forster (Oxford, 1927).

3. انظر:

'Relatione particolare ... dell Conte Alberto Caprara anno 1682 e 1683,' cited in John Stoye, *The Siege of Vienna* (London, 1964), p. 52.

4. انظر:

Kemal Zadeh Pasha, *Histoire de la campaigne de Mohacs*, tr. And ed. A. J. B. Pavet de Courteille (Paris, 1859), p. 90.

5. Kemal Zadeh Pasha, *Mohacs*.

6. وردت في:

Christopher Duffy, *Siege Warfare: The Fortress in the Early Modern World*, 1494-1660 (London, 1979), p. 196.

7. Duffy, *Siege Warfare*, p. 195.

8. انظر:

Adam Zamoyski, *The Polish Way: a Thousand –Year History of the Poles and Their Culture* (London, 1987), p. 3.

9. من المستحيل الكشف عن "معنى" ليبانتو من دون فهم المخاوف المعقدة لدى الإسبانيين تجاه "المغاربة" Moors وبعبعهم الداخلي (كذا) الموريسكيين Moriscos أو المسلمين في إسبانيا، قبل

طردهم في سبعينيات القرن السادس عشـر. وحتى في الإسبانية الحديثة هناك عبارة تدل عـلى الخطـر هي: «يوجد مراكشيون على الساحل». وهناك تمييز في طريقة استخدام المصـطلحين "مـورو" Moro و"تركو" Turco بمعنى العار أو الخزي، تماماً كما تحمـل كلمـة "عـربي" الدلالـة السـلبية نفسـها في الفرنسـية، وهذا موروث من المعارك الاستعمارية في القرن التاسع عشـر. ويعج الأرشـيف الإسـباني من القرن السابع عشـر بإشارات إلى هذا الرعب من التعـاون بـين الموريسـكيين والأتـراك. وهنـاك إشارة في وصف دييجو هورتادو دي مندوزا Diego Hurtado de Mendoza للحرب في غرناطـة إلى Turcos وهم جنود محترفون جاؤوا لمساعدة الموريسكيين. انظر بين أشياء كثيرة أخرى، حالة دييجـو هيرنانديز:

Diego Hernandez in 1569, 'for fleeing to Barbary' (Archivo del Alhambra, Legajo A63, Pieza 6).

وأيضاً رسالة م. دي شانتوني M.D. Chantonney الذي كتب من البلاط الإمبراطوري «عـن طلـب المساعدة للأتراك من الموريسـكيين في إسبانيا»، انظر:

Prague, 15 February 1570, in *Coleccion de documentos inedito para Historia de Hespana*, vol. 103, pp. 450ff.

10. انظر:

Sir Robert Sutton, *The Dispatches of Sir Robert Sutton, Ambassador in Constantinople 1710-14*, ed. Akdes Nimet Kurat (London, 1953), pp. 58ff.

11. Sutton, The Dispatches, pp. 58ff.

12. علق دي توت على بونيفال بقوله: «علي أن أذكر أن م. دي بونيفال أخفق فقط في مشـروعه [لتشكيل فرقة أوروبية الطراز في تركيا]؛ نتيجة إهماله لخصائص الأمة التي تبناها؛ الأمر الذي جعله يبدأ حيث ينبغي أن ينتهي». انظر:

Baron Francois de Tott, *Memoires du Baron de Tott sur turcs et les tartars* (Paris, 2 vols., 1785), vol. I, p.197.

13. تم الاستشهاد به في:

Bernard lewis, *The Muslim Discovery of Europe* (New York, 1982), p. 281, and in his book: *The Emergence of Modern Turkey* (London and New York, 2nd edn, 1968), p. 108.

14. انظر:

James C. Davis, *Pusuit of Power: Venetian Ambassadors' Report on Spain, Turkey and France in the Age of Philip II* (New York and London, 1970), pp. 126-55.

15. .Sutton, *The Dispatches*, pp. 58ff

16. .Ibid

17. انظر:

Flachet, cited in Alev Lytle Croutier, *Harem: the World Behind the Veil* (New York, 1989), p. 67.

18. .Lewis, *Discovery*, pp. 234-5

19. انظر:

Mark Girouard, *The Victorian Country House* (New Haven, Conn., and London, 2nd edn, 1979), p. 28.

الفصل الرابع

1. انظر:

Robert Walsh, *Narrative of a Residence at Constantinople* (London, 2 vols., 1836), vol. I, pp. 351-2.

2. انظر:

Ernst Laudon to Joseph II, 22 September 1788, cited in Christopher Duffy, *The Fortress in the Age of Frederick the Great and Vauban* (London and Boston, Mass., 1985), p. 244.

3. انظر:

Adolphus Slade, *Record of Travels in Turkey, Greece etc. and of a Cruise in the Black Sea with the Captain Pasha in the Years 1828 1829, 1830, 1831* (Philadelphia, 2 vols., 1833) vol. I, p. 265.

4. انظر:

Robert Walsh, *Narrative of a Journey from Constantinople to England* (London, 1828), p. 67.

5. .Slade, *Record*, vol. I, pp. 264-5

6. .Ibid. p. 364

7. انظر:

Baron Francois de Tott, *Memoires du Baron de Tott sur turcs et les tartars* (Paris, 2 vols., 1785), vol. I, p. 215.

8. انظر:

Metin Kunt, 'Ethnic-regional solidarity in the seventeenth-century Ottoman establishment,' *International Journal of Middle East Studies*, 5 (1974), 233–9.

9. انظر:

I.M. D'Ohsson, *Tableau general de l'empire ottoman*, (Paris, 7 vols., 1788-1824), vol. 7, pp. 336-8; see also H.A. Reed, *The Destruction of the Janissaries by Mamud II* (unpublished Ph.D. thesis, Princeton University, NJ, 1951), pp. 178–82.

10. انظر:

E.S. Creasy, *History of the Ottoman Turks, from the Beginning of their Empire to the Present Time* (London, 2 vols., 1856), vol. 2, pp. 340-1.

11. Preamble to the *Eskenji* ordinance, 1826; see Reed, *Destruction*.

12. حول الريش في المجتمع العثماني، انظر:

Zdzislaw Zygulski Jr, *Ottoman Art in the Service of the Empire* (New York and London, 1992), p. 113.

13. William McNeill, *The Pursuit of Power* (Oxford, 1983), pp. 123–4.

14. Ibid..

15. Jevad Pasha, cited in Reed, *Destruction*, p. 323.

16. حول إصلاحات سليم، المرجع المعتمد هو:

Stanford J. Shaw, *Between Old and New: The Ottoman Empire under Sultan Selim III* (Cambridge, Mass., 1971), see especially Part III.

17. انظر:

W.A. Eton, *A Survey of the Turkish Empire* (London, 2nd edn, 1799), pp. 98-9.

18. انظر في أماكن متفرقة من كتاب: Reed, *Destruction*؛ للاطلاع على أحداث 1826، ونصوصه مترجمة عن مؤرخين عثمانيين.

19. انظر :

Charles Macfarlane, *Constantinople in 1828: a Residence of sixteen months in the Turkish Capital and Provinces etc.* (London, 2 vols., 1829), vol. 2, p. 101.

20. Creasy, *History*, vol 2, II, pp. 366–7.

21. Ibid., pp. 392–3.

22. Ibid., p. 392.

23. انظر:

Bernard Lewis, *The Muslim Discovery of Europe* (New York, 1982), p. 56; citing E. Ziya Karal, *Halet Efendinin Paris Buyuk Elciligi 1802-06* (Istanbul, 1940).

24. Macfarlan, *Constantinople*, vol. 2, p. 108.

25. William St Clair, *That Greece Might Still be Free* (London, 1972), pp. 9–12.

26. Reed, *Destruction*.

27. وردت في: Reed, *Destruction*, p. 195.

28. انظر:

Stanley Lane Poole, *The Life of the Right Honourable Stratford Canning, Viscount Stratford de Redcliffe* (London, 2 vols., 1888), pp. 418–9.

29. Reed, *Destruction*, p. 263.

30. Lane Poole, *Life*, I, p. 421.

31. Ibid.

32. العبارة العثمانية هي "الواقعة الخيرية" *Vakayt Hayriye*.

الفصل الخامس

1. كان التقويم الهجري الإسلامي يستخدم لمعظم الأغراض الاعتيادية، وقد استخدمت الإدارة العثمانية التقويم المالي الذي كان يعمل على أساس السنة المالية، وكانت التواريخ المالية تسبق التواريخ الهجرية بين عام وثلاثة أعوام في القرن التاسع عشر. وكان معظم المسيحيين يستخدمون التقويم الميلادي (الجريجوري)، ولكن بعض الجماعات ظلوا أوفياء للتقويم الجولياني القديم الطراز، الذي كان متخلفاً عن التقويم الجريجوري بنحو 12-15 يوماً. وكانت الساعات مضبوطة على توقيت المسجد، وكذلك بحسب اليوم العادي وفق الأسلوب الأوروبي.

2. Albert Smith, *A Month in Constantinople* (London, 1850), p. 42.

3. Julia Pardoe, *The Beauties of the Bosphorus* (London, 4 vols., 1838), vol. I, p. 4.

4. Ibid., p. 3

5. انظر:

Robert Walsh, *Narrative of a Residence at Constantinople* (London, 2 vols., 1836), vol. I, p. 238.

6. .Ibid., p. 228

7. .Ibid., p. 25

8. انظر:

J. Foster, ed., *The Travels of John Sanderson in the Levant, 1584-1602* (London, 1931), pp. 70-1.

9. .Godfrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture* (London, 1971), pp. 124-7

10. .John Murray, *Handbook for Travellers in Turkey* (London, 1878), pp. 6-7

11. انظر:

Annie Jane Harvey, *Turkish Harems and Circassian Homes* (London, 1871), pp. 55-6.

12. .Walsh, *Residence*, vol. I, pp. 266-7

13. Theophile Gautier, *Constantinople of Today* (tr., London, 1854), p. 263

14. انظر:

Edwin Augustus Grosvenor, *Constantinople* (Boston, Mass., 2 vols., rev. edn,1900), vol. I, p. 93.

15. انظر:

Nassau W. Senior, *A Journal kept in Turkey and Greece in the Autumn of 1857 and the Beginning of 1858* (London, 1859), p. 52.

16. .Smith, *A Month at Constantinople*, p. 50

17. ..Ibid

18. انظر:

Zeynap Celik, *The Remaking of Istanbul: Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century* (Seattle, Wash., and London, 1986).

19. .Grosvenor, *Constantinople*, p. 103

20. .Mehmed Beyri Halit, *Istanbul* (Istanbul, 1951), pp. 85-6

21. انظر:

Charles White, *Three Years in Constantinople, or Domestic Manners of the Turks in 1844* (London, 3 vols., 1845), vol. I, p. 72.

22. انظر:

J. H. Ubicini, *Letters on Turkey* (tr., London, 2 vols., 1856) and Celik, *Remaking of Istanbul*.

23. انظر:

Charles Issawi, *An Economic History of the Middle East and North Africa* (New York and London, 1982), p. 114, citing *UK Parliamentary Accounts and Papers, 1883, vol. 7: Constanrtinople*.

24. انظر:

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey* (Cambridge, 2 vols., 1977), vol. 2, p. 242.

25. .Issawi, *Economic History*, 114-15

1. انظر:

Robert Walsh, *Constantinople and the Scenery of the Seven Churches of Asia Minor* (London, n.d.).

26. .Gautier, *Constantinople*, p. 301

27. .Ubicini, *Letters*, vol. I, p. 284

28. .Murray, *Handbook*, Introduction

29. ..Ibid

30. .White, *Three Years*, vol. 3, p. 322

31. .Ibid., pp. 289-290

2. انظر:

Julia Pardoe, *The City of the Sultans and Domestic Manners of the Turks in 1836* (London, 2 vols., 1837), vol. I, p. 280.

32. .Charles Eliot, *Turkey in Europe* (London, 1900), p. 9

33. .Halit, *Istanbul*, p. 94

3. انظر:

Roderic H. Davison, *Reform in the Ottoman Empire 1856-1876* (Princeton, NJ, 1963), p. 349.

34. 20 نوفمبر 1895، ورد في:

Dennis Quataert, *Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire, 1881-1908: Reactions to European Economic Penetration* (New York, 1983).

35. Eliot, *Turkey*, p. 15.

36. Halit, *Istanbul*, pp. 128-9.

37. ورد في: Davison, *Reform*, p. 72.

38. Eliot, *Turkey*, p. 318.

39. الإحصاء العثماني عام 1886.

الفصل السادس

4. انظر:

Peter Mudy, *The Travels of Peter Mundy in Europe and Asia, 1608-1667* (Cambridge, 2 vols., 1907), vol. I, p. 187;

والوصف هو لتوماس جينزفورد Thomas Gainsford.

5. انظر:

Roderic H. Davison, *Reform in the Ottoman Empire 1856-1876* (Princeton, NJ, 1963), pp. 37-9.

6. Davison, *Reform*, p. 40, fn. 66، ويلفت ديفيسون الانتباه هنا إلى هذا التناقض والملاحظات: «يتساءل المرء عما إذا كانت النصوص التركية والفرنسية قد أعدّت مع الأخذ في الحسبان جمهور كل من الطرفين في الداخل والخارج». ومن المؤكد أن رشيد كان يمكن أن يقدر الفرق بينهما وأن يكتب بشكل متساوٍ في كلتا اللغتين.

7. انظر:

Charles Macfarlane, *Turkey and its Destiny: the Results of Journeys Made in 1847 and 1848 to Examine into the State of the Country* (London, 2 vols., 1850), vol. I, p. 43.

8. ورد في:

Bernard Lewis, *The Emergence of Modern Turkey* (London and New York, 2nd edn, 1968), p. 146.

9. انظر:

Charles Macfarlane, *Constantinople in 1828: a Residence of sixteen months in the Turkish Capital and Provinces etc.* (London, 2 vols., 1829), vol. 1, p. 253.

10. انظر:

Avidgor Levy, 'The officer corps in Sultan Mahmud II's new Ottoman army, 1828-39,' *International Journal of Middle East Studies*, 2 (1971), 22.

11. ..Ibid

12. .Ibid., p. 24

13. انظر:

Helmut von Moltke, *Briefe uber Zustande und Begebenheiten ... in Turkei aus den Jahren 1835 bis 1839* (Berlin, 1839), p. 418.

14. .Macfarlane, *Constantinople*, vol. 3, p. 165

15. .Ibid., p. 318

16. .Ibid., p. 323

17. مذكرة تقرير عن مقابلة ألكساندر بيساني Alexander Pisani مع إبراهيم، وردت في:
.Davison, *Reform*, p. 31

18. انظر:

Luigi Fernandino Marsigli, *L'Etat militaire de l'empire ottoman* (Amsterdam, 2 parts, 1732; facsimile edn., Graz, 1972), vol. 1, p. 64.

19. انظر:

Carter V. Friendley, *Bureacratic Reform in the Ottoman Empire: the Sublime Porte, 1789-1922* (Princeton, NJ, 1980), pp. 125–40.

20. .Macfarlane, *Constantinople*, vol. 2, pp. 127-8

21. انظر:

E.S. Creasy, *History of the Ottoman Turks, from the Beginning of their Empire to the Present Time* (London, 2 vols., 1856), vol. 2, p. 412.

22. Moltke, *Briefe*, p. 456.

23. انظر:

Davison, Reform, pp. 34-5, fn. 54, Davidson cites Edmund Hornby, *An Autobiography* (London, 1928), p. 90.

ولكن يذكر ديفيسون أيضاً أن فريدريك هيلوالد Friedrich Hellwald، الذي كان معادياً بعنف للعثمانيين في نظرته، أشار إلى أن الوظيفة الحكومية كانت تباع وتشترى في الولايات المتحدة الأمريكية والإمبراطورية العثمانية، وبالمستوى نفسه تقريباً. وبالمثل قام اللورد شارلمونت في القرن السابق بمقارنة مماثلة، انظر:

Lord Charlemont, *The Travels of Lord Charlemont in Greece and Turkey, 1749*, ed. W.R. Stanford and E.J. Finoboulus (London, 1984), p. 215.

24. ورد في: Lewis, *Modern Turkey*, p. 72.

25. Macfarlane, *Turkey*, vol. 2, p. 146.

26. انظر:

Durand de Fontemagne, *Un sejour a l'ambassade de France* (Paris, 1902), p. 45; cited in Davison, *Reform*.

27. انظر:

Samuel Huntington, *Political Order in Changing Societies* (New Haven, Conn., 1968), pp. 154–6.

28. Mary Eliza Rogers, *Domestic Life in Palestine* (London, 1862), p. 189.

29. Davison, *Reform*, p. 3

30. انظر:

W.E. Gladstone, *The Bulgarian Horrors and the Question of the East* (London, 1876), p. 15.

31. Hornby, *Autobiography*, p. 83.

32. Creasy, *History*, vol. 2, p. 478.

33. Davison, *Reform*, p. 112 fn. 90

34. كانت تريد أن تمنحه وسام باث Order of the Bath.

35. انظر:

MS Vertrgsbuch, Steyr Daimler Puch AG, Steyr, Austria, for the resulting orders and the private Werndl Museum for material supplied.

36. انظر:

Henry Harris Jessup to Revd F. F. Ellinwood, 12 February 1874; cited in Davison, *Reform*, p. 277.

37. للاطلاع على الآثار في سائر أنحاء العالم العثماني، انظر:

Jennifer Scarce, 'Turkish fashion in transition,' *Costume: The Journal of the Costume History Society*, 14 (1980), 114-67, and her *Women's Costume in the Near and Middle East* (London and Sydney, 1987), pp. 68-131.

38. للاطلاع على الحياة المهنية في سوريا لمدحت، انظر:

N. E. Saliba, 'The Achievements of Midhat Pasha as governor of Syria, 1878-80,' *International Journal of Middle East Studies*, 9 (1978), 307-23.

39. انظر:

Stanford J. Shaw and Ezel Kural Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey* (Cambridge, 2 vols., 1977), vol. 2, pp. 221-6, and Roger Owen, *The Middle East in the World Economy, 188-1914* (London and New York, 1981), pp. 101-5.

40. لم يكن العثمانيون وحيدين في مشكلاتهم المالية؛ إذ إنه من بين دول "مفوضية الدين العام" Public Dept Commission تخلفت النمسا عن سداد ديونها خمس مرات خلال القرن، بينما تخلفت هولندا سبع مرات.

41. للاطلاع على معالجة كاملة لهذا الموضوع بكامله، انظر:

W. Ochsenwald, *The Hijaz Railroad* (Chrlottesville, NC, 1980) and Saleh Muhammd Al-Amr, *The Hijaz under Ottoman Rule, 1869-1914: Ottoman Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Rule* (Riyadh, 1978), passim.

42. Al-Amr, *The Hijaz*, pp. 125-31.

43. سجلات البعثة الغربية لتركيا، 6 سبتمبر 1876، وردت في: Davison, *Reform*, p. 355.

44. للاطلاع على هذا كله، انظر: Findley, *Bureaucratic Reform*, pp. 226-8.

45. Shaw and Shaw, *History*, vol. 2, pp. 174–8.

46. ورد في: Davison, *Reform*, p. 403.

47. تعود تجاوزات شـرطته السياسية إلى طموحات زعيمهم أكثر مما تعود إلى أي من سياسات السلطان.

48. انظر:

Aiche Osmanoglu, *Avec mon pere le sultan abdulhamid de son palais a sa prison* (Paris, 1991), p. 74.

49. Carl Brocklemann, ed., *History of the Islamic Peoples* (London, 1980), p. 379.

50. انظر:

Roderic H. Davison, *Essays in Ottoman and Turkish History, 1774-1923: the Impact of the West* (Austin, Tex., and London, 1991): 'The advent of the electric telegraph in the Ottoman empire,' pp. 133-65.

51. انظر:

Stanford J. Shaw, 'The population of Istanbul in the nineteenth century,' *International Journal of Middle East Studies*, 10 (1979), 265,

للاطلاع على استخدام عبدالحميد لتعداد السكان:

> كان استئناف الإحصاء الرسمي العثماني عام 1880 نتيجة الاهتمام الشخصي للسلطان عبدالحميد الثاني، بناء على نظام تسجيل شخصي، وكان كل شخص يتم تعداده يعطى بطاقة إحصاء كانت بمنزلة شهادة ميلاد وبطاقة هوية... وينبغي إبرازها في جميع المعاملات مع الحكومة. وكان لا بد من تسجيل التغيرات الناجمة عن الولادة والزواج والطلاق *وتغيير السكن* (الحروف المائلة من المؤلف) وما شابه ذلك، لدى السلطات المحلية.

كان مطلوباً إبراز هذه الوثيقة للسلطات قبل شراء الممتلكات أو بيعها أو وراثتها، وقبل الدخول في عمل أو مهنة، وقبل الحصول على وثائق السفر، وقبل أداء الأعمال الرسمية كافة. وإن عدم إبراز الوثيقة عند الطلب كانت عقوبته السجن لمدد تتراوح ما بين أربع وعشرين ساعة وشهر. انظر:

E. Karpat, 'Ottoman Population records and the census of 1881/2,' *International Journal of Middle East Studies*, 9 (1978), 237-74.

52. Charles Eliot, *Turkey in Europe* (London, 1900), pp. 158-9.

53. انظر:

Robert Curzon, *Armenia: a Year at Erzeroom and on the Frontiers of Russia, Turkey and Persia* (London, 1854), p. 20.

54. الأرشيف موجود حالياً في مركز بحوث التاريخ والفن والثقافة الإسلامية، الواقع (بشكل مناسب تماماً) في قصر يلدز. وقد تم إرسال مجموعة (مختلفة) من الصور إلى واشنطن ويمكن الاطلاع عليها في مكتبة الكونجرس. انظر المقدمة بقلم:

Professor Ekmeleddin Ihsanoglu in his *Istanbul: a Glimpse into the Past* (Istanbul, 1987).

55. انظر:

William V. Herbert, *The Defence of Plevna, 1877, Written by One Who Took Part in It* (London, 1895).

56. للاطلاع على هذا كله، انظر:

The Mitteilungen des Technische Administratifs Militia Committee.

وكذلك التقارير الخاصة الموجودة في كريجسأرشيف Kriegsarchiv، في فيينا.

57. انظر:

Gwynne Dyer, 'Turkish "Falsifiers" and Armenian "Deceivers": historiography and the Armenian Massacres,' *Midle East Studies*, 12 (1979), 99-107.

58. انظر:

Roy Douglas, 'Britain and the Armenian Question, 1894-7,' *The Historical Journal* 19:1 (1976), 113-33.

59. تم الاستشهاد بمذكرات سيمور في:

Alan Palmer, *The Banner of Battle: the Story of the Crimean War* (London, 1987), pp. 14-15.

60. تقرير لورينزو بيرناردو إلى قاضي البندقية وشيوخها، وردت ترجمته في:

James C. Davis, *Pursuit of Power: Venetian Ambassadors' Report on Spain, Turkey and France in the Age of Philip II, 1560-1600* (New York and London, 1970), p. 166.

61. انظر:

Bernard Lewis, 'Ottoman Observers of Ottoman Decline,' *Islamic Studies*, 1 (1962), 71-87.

62. انظر:

David Fromkin, *A Peace to End All Peace: the Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York, 1989).

63. .(Lord Kinross, *Ataturk: the Rebirth of a Nation* (London, 1964

الفصل السابع

1. (Lord Kinross, *Ataturk: the Rebirth of a Nation* (London, 1964.

2. بعد تحرير النساء قلّ الحديث عن حياة الحريم.

3. لمعرفة الصلة بين الشهوانية والاستبداد، انظر:

Alain Grosrichard, *Structure du serial, la fiction du despotism asiatique dans l'Occident calssique* (Paris, 1979).

4. انظر:

Marquis de Sade, *The One Hundred and Twenty Days of Sodom* (London, 1989), p. 238.

5. ورد في:

Bernard Lewis, *The Muslim Discovery of Europe* (New York, 1982), p. 291.

6. Ibid., p. 288.

7. انظر:

Patricia Anderson, *The Printed Image and the Transformation of Popular Culture, 1790-1860* (Oxford, 1991).

8. انظر:

W. F. Moneypenny and G. H. Buckle, *The Life of Benjamin Disraeli, Earl of Beaconsfield* (London, 6 vols., 1910-20), vol. 1, p. 175.

9. انظر:

Billie Melman, *Women's Orients: English Women and the Middle East* (Basingstoke, 1992), for the travellers in the nineteenth century.

10. انظر:

Alexander Pope, *Moral Essays: Epistle to a Lady*, lines 199-203, in *The Poems of Alexander Pope* (London, 1963), p. 567.

11. انظر:

Alain Corbin, *The Foul and the Fragrant: Odor and the French Social Imagination* (Cambridge, Mass., 1986), p. 154.

12. انظر:

Lady Mary Wortley Montagu, *The Complete Letters of Lady Mary Wortley Montagu: vol. 1, 1708-1720*, ed. Robert Halsband (Oxford, 1965), pp. 307-8.

13. Ibid., pp. 313-15.

14. Ibid., pp. 327-8.

15. Ibid.

16. Ibid., p. 329.

17. Ibid.

18. "الرسائل" الاثنتان والخمسون أداة أدبية مبنية على مجلة كانت تحتفظ بها، وأتلفتها ابنتها فيما بعد، ولكنها تعتمد أيضاً على رسائل حقيقية أرسلت في ذلك الوقت، وتتضح الاختلافات في اللهجة تبعاً لجنس مراسليها وذلك من خلال المراسلة الفعلية الوحيدة والمسودات المختلفة التي بقيت موجودة. ومن الواضح أن الرسائل كانت بليغة ومفعمة بالحيوية مثل شكلها. وقد سلم كونتي رسائلها إلى أصدقاء في باريس، وقيل عن رأيه بأنه «لم يرَ مطلقاً مثل هذه الدقة مع كل هذه الحيوية» من أي كاتب رسائل آخر. انظر: Montagu, *Letters*, pp. xiv-xvii.

19. Montagu, *Letters*, p. 380.

20. Ibid., pp. 380-1.

21. Ibid., p. 381.

22. Ibid.

23. انظر:

Norman Daniel, *Islam and the West: the Making of an Image* (Edinburgh, 1980), pp. 145 and 135-61, passim.

24. Ibid., p. 143.

25. Ibid.

26. ورد في: Lewis, *Discovery*, pp. 290-1.

27. انظر:

Lord Charlemont, *The Travels of Lord Charlemont in Greece and Turkey, 1749*, ed. W. R. Stanford and E. J. Finopoulos (London, 1984), p. 202.

وقد بقيت هذه مخطوطة من دون نشر حتى هذه الطبعة الأولى.

.Ibid., p. 206 .28

.Ibid., p. 202 .29

.Ibid., p. 168 .30

.Ibid., pp. 170-1 .31

.Ibid., p. 203 .32

.Ibid., p. 214 .33

34. للاطلاع على تاريخ "التركي الشهواني" انظر:

Steven Marcus, *The Other Victorians: a Study of Sexuality and Pornography in Mid-Nineteenth-Century England* (London, 1964), pp. 197-216.

والنص الذي استخدمته هو نسخة تم إصدارها من جديد عام 1985.

35. انظر:

Clearance Dana Rouillard, *The Turk in French History, Thought and Literature, 1520-1660* (Paris, 1941).

36. انظر:

Daniel, *Islam and the West*: 'Sexuality and Violence were the characteristic Marks of Islam: *fornications et furta and terror mundanus et voluptis carnalis*,' pp. 145ff.

37. انظر:

Anon, *The Lustful Turk, or Scenes in the Harem of an Eastern Potenate, Faithfully and Vividaly Depicted in*:

سلسلة من الرسائل من سيدة إنجليزية شابة وجميلة إلى ابنة عمها في إنجلترا، التفاصيل الكاملة لاغتصابها وجميع الأذواق الخلاعية للأتراك موصوفة بحماسة وبساطة تضمن دائماً صحتها:

(1828, repr. London, 1985), p. 140.

وحول "الاستثناء الدلالي" للنساء، انظر:

Muriel R. Schulz, 'The semantic derogation of women,' in B. Thorne and N. Henley, eds., *language and sex: Difference and dominance* (Rowley, Mass., 1975), reprinted in Deborah Cameron, ed., *The Feminist Critique of Language: a Reader* (London and New York, 1990).

وتعد المادة الأخرى لدى كل من كاميرون وثورن وهانلي مناسبة أيضاً.

38. انظر:

Lord Byron, *The Giaour*, lines 655-74, in *Lord Byron: The Complete Poetical Works*, ed. Jerome J. McGann (Oxford, 7 vols., 1980-93), vol. 3, p. 60.

انظر أيضاً إيضاح الكتاب المعاصر لهذه الأبيات من الطبعة الأولى، معادة طباعتها على الصفحة المقابلة. وقد تم تلخيص موقف بايرون المتناقض من العثمانيين في "إعلانه" لقصيدة الكافر؛ حيث علق على إقفار موريا: «حيث كانت الوحشية التي مورست على جميع الأطراف من دون مثيل حتى في تاريخ المؤمنين [يعني، الأتراك]» (Ibid., p. 40). أما ملاحظة مالكولم كيلسول: «نحن نعلم أن الأشياء "التركية" كانت مؤشر تنوير مشتركاً لجميع أنواع الاستبداد والخرافة»، فإنها تفصل سياق أسلوب بايرون. انظر:

Malcolm Kelsall, 'The slave woman in the harem,' *Studies in Romanticism*, 31:3 (fall 1992), 315-31.

39. *The Pearl*, 18 (1878), 617-25.

40. William Elroy Curtis, *The Turk and his Lost Provinces* (Chicago, 1903), p. 45.

41. Ibid., p. 109.

42. Daniel, *Islam and the West*, pp. 285 and 383.

43. انظر:

Archibald Mason, *Remarks on the Sixth Vail and the Fall of the Turkish Empire* (Glasgow, 1827), p. 9.

44. انظر الهامش 41.

45. انظر:

T. E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: a Triumph* (London, 1935), p. 32.

الفصل الثامن

1. انظر:

Francis Bacon, 'Of Goodness and Goodness of Nature,' in *The Essays or Counsels, Civill and Morall*, ed. Michael Kiernan (Oxford, 1985), p. 39.

2. انظر:

Francis Bacon, 'An Advertisement touching an Holy Warre written in the year 1622,' in *The Works of Francis Bacon, Baron of Verulam, Viscount St Albans and Lord High*

Chancellor of England, coll. And ed. James Spedding, Robert Leslie Ellis and Douglas Denon Heath (London, 16 vols., 1861), vol. 7, p. 22.

3. انظر:

Adolphus Slade, *Record of Travels in Turkey, Greece etc. and of a Cruise in the Black Sea with the Captain Pasha in the Years 1828 1829, 1830, 1831* (Philadelphia, 2 vols., 1833) vol. I, p. 265.

4. انظر:

Robert Curzon, *Armenia: a Year at Erzeroom and on the Frontiers of Russia, Turkey and Persia* (London, 1854), p. 93.

5. انظر:

W.E. Gladstone, *The Bulgarian Horrors and the Question of the East* (London, 1876), pp. 12-13.

6. Ibid., p. 28.

7. Ibid., p. 33.

8. Ibid..

9. Ibid., p. 61.

10. Ibid., p. 62. للاطلاع على الإيحاءات الإيجابية/ السلبية لاستعمال اللغة، انظر:

Robert Hodge and Gunther Kress, *Language as Ideology* (London and new York, 2nd edn, 1993), esp. 77-82 and 193-201.

11. انظر:

Christopher Hibbert, *The Great Mutiny* (London, 1978), pp. 201-14.

12. انظر:

Lawrence James, *The Golden Warrior: the Life and Legend of Lawrence of Arabia* (London, 1990), pp. 209-21.

13. انظر:

T. E. Lawrence, *The Seven Pillars of Wisdom: a Triumph* (London, 1935), pp. 442-7.

14. انظر:

John Dover, *War Without Mercy: Race and Power in the Pacific War* (New York, 1986).

خاتمة

1. امتد هذا التشويه إلى جميع المجالات، وقد علّق جران كما يأتي:

إن نظرية التمدن أو الحداثة، سواء كانت شرقية أو ماركسية، تعطي معلومات مناسبة حول صعود الرأسمالية الهامشية، ولكنها تضع كثيراً من التأكيد التفسيري على تصرفات بضعة أوروبيين ومصلحين، وتخفق في رؤية دينامية داخلية أكبر. وقد تمت تسوية صراع كبير غير ظاهر في نظرية التمدن، لمصلحة اقتصاد عمالة ذكورية بأجر؛ ما يؤدي إلى غبن النساء اللواتي لم يكنّ يحصلن على أجور، والبدو الرحل الذين كانوا يجبرون على التوطن، والفلاحين الذين فقدوا ميزة الاكتفاء الذاتي المحلي القديم... وإن عزو التغيير إلى الغرب عندما يكون منخرطاً جداً في الأحداث المحلية يبدو تبسيطاً مبالغاً فيه للأمور.

P. Gran, 'Political economy as a paradigm for the study of Islamic history,' *International Journal of Middle East Studies*, II (1980), 511-26.

2. انظر:

Ezel Kural Shaw, 'The double veil: travelers' views of the Ottoman empire, sixteenth through eighteenth centuries,' in Ezel Kural Shaw and C.J. Heywood, *English and Continental Views of the Ottoman Empire, 1500-1800* (Los Angeles, 1972), p. 26.

3. وردت في:

V. G. Kiernan, *The Lords of Human Kind: European Attitudes to the Outside World in the Imperial Age* (London, 1969), p. 110.

4. انظر:

D. Urquhart, *The Spirit of the East, or Pictures of Eastern Travel* (London, 2 vols. in 1, 1839), pp. 379-80.

5. وهذه هي:

Warren S. Walker and Ahmet E. Uysal, *Tales Alive in Turkey* (Lubbock, Tex., 1990) and *More Tales Alive in Turkey* (Lubbock, Tex., 1992).

وتوجد المجموعة في أرشيف القصص التركية الشفوية في المكتبة التقنية في جامعة تكساس، لبوك، تكساس، وهي عظيمة القيمة نظراً إلى مادتها التي لا تجدها في مصدر آخر.

6. Urquhart, Spirit, vol. 1, p. 354.

المصادر والمراجع

Abou-el-Haj, Rifaat Ali, *Formation of the Modern State: the Ottoman Empire: Sixteenth to Eighteenth Centuries* (Albany, NY, 1991)

Ahmad, Feroz, *The Young Turks: the Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908–14* (Oxford, 1969)

Al-Amr, Saleh Muhammad, *The Hijaz under Ottoman Rule, 1869–1914: Ottoman Vali, the Sharif of Mecca, and the Growth of British Rule* (Riyadh, 1978)

Alderson, Anthony D., *The Structure of the Ottoman Dynasty* (Oxford, 1956)

Allen, W. E. D., *Problems of Turkish Power in the Sixteenth Century* (London, 1963)

Allen, W. E. D., and Muratoff, P., *Caucasian Battlefields: a History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 1828–1921* (Cambridge, 1953)

Anderson, M. S., *The Eastern Question, 1774–1923: a Study in International Relations* (New York and London, 1966)

Anderson, Patricia, *The Printed Image and the Transformation of Popular Culture, 1790–1860* (Oxford, 1991)

Anderson, Sonia P., *English Consul in Turkey: Paul Rycaut at Smyrna, 1667–78* (Oxford, 1989)

Andreossy, Comte Antoine François, *Constantinople et le Bosphore de Thrace*, (Paris, 3rd edn, 1841)

Anecdotes sur l'histoire secrette de la maison ottomane (Amsterdam, 1722)

Angelomatis-Tsougarakis, Helen, *The Eve of the Greek*

Revival: British Travellers' Perceptions of Early Nineteenth Century Greece (London and New York, 1990)
'A Propos of the Naval Demonstration', *The Pearl*, 13 (1878), 463
Archivo del Alhambra, Legajo A63
Askeri Müze ve Kültur Sistesi Komutanligi, *Ottoman Military Organisation and Uniforms, 1876–1908* (Ankara, 1986)
Atil, Esin, *The Age of Suleyman the Magnificent* (New York, 1987)
Aubignosc, L. P. B. D', *La Turquie nouvelle* ... (Paris, 2 vols., 1839)
Autobiography of a Constantinople Story-teller (London, 1877)
Babinger, F., *Mehmed the Conqueror* (Princeton, NJ, 1978)
Bachet, Erich, ed., *La Turquie se dévoile 1908–1938: de l'empire ottoman à la republique d'Atatürk* (Paris, 1980)
Bacon, Francis, *The Essayes or Counsels, Civill and Morall*, ed. Michael Kiernan (Oxford, 1985)
Bacon, Francis, *The Works of Francis Bacon, Baron of Verulam, Viscount St Albans and Lord High Chancellor of England*, coll. and ed. James Spedding, Robert Leslie Ellis and Douglas Denon Heath (London, 16 vols., 1861)
Balkan War Drama, The, by 'A Special Correspondent' (London, 1913)
Barber, Karl K., *Ottoman Rule in Damascus, 1708–1758* (Princeton, NJ, and Guildford, 1980)
Baudier de Languedoc, Seigneur Michael de, *The History of the Serrail and the Court of the Grand Seigneur* (London, 1635)
Berton, J. M., *Les Turcs dans la balance politique de l'Europe au dix-neuvième siècle* (Paris, 1822)
Blaisdell, D. C., *European Financial Control in the Ottoman Empire* (New York, 1929)
Bodleian Library, *Life in Istanbul 1588: Scenes from a Traveller's Picture Book* (Oxford, 1977)

Bon, Ottaviano, '*Descrizione del seraglio . . .*', in F. Contarini, *Relazioni degli stati europei . . . dagli ambiasciatori veneti, ser. 5*, vol. 1, par. 1 (Rome, 1866)
Boppe, Auguste, *Les Peintures du Bosphore au XVIII siècle*, revised and illustrated by Catherine Boppe (Paris, 1989)
Boue, Ami, *La Turquie d'Europe* (Paris, 4 vols., 1840)
Bouvard, Michel, *Photo legendes: essai sur l'art photographique* (Lyon, 1991)
Bradford, Ernle, *The Great Siege: Malta 1565* (London, 1961)
Braudel, Fernand, *Civilization and Capitalism: Fifteenth to Eighteenth Century*, tr. Sîan Reynolds (London, 3 vols., 1985)
Braudel, Fernand, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, tr. Sîan Reynolds (London, 2 vols., 1973)
Brockelmann, Carl, ed., *History of the Islamic Peoples* (London, 1980)
Burnaby, F., *Through Asia Minor on Horseback* (London, 1898)
Busbeq, Ogier Ghislain de, *Turkish Letters of Ogier Ghislain de Busbeq*, tr. and ed. E. Forster (Oxford, 1927)
Cameron, Deborah, ed., *The Feminist Critique of Language* (London and New York, 1990)
Carlyle, Thomas, *Shall Turkey Live or Die?* (London, 1854)
Caussin de Perceval, A. P., *Précis de la destruction de la corps des janissaries par le Sultan Mahmoud en 1826* (Paris, 1833)
Çelik, Zeynap, *The Remaking of Istanbul: Portrait of an Ottoman City in the Nineteenth Century*. (Seattle, Wash., and London, 1986)
Charlemont, Lord, *The Travels of Lord Charlemont in Greece and Turkey, 1749*, ed. W. R. Stanford and E. J. Finopoulos (London, 1984)
Chew, Samuel C., *The Crescent and the Rose: Islam and England During the Renaissance* (New York, 1937)

Chishull, Edmund, *Travels in Turkey and Back to England* (London, 1747)
Clark, E. C., 'The Ottoman industrial revolution' *International Journal of Middle East Studies*, 5 (1974), 65–76
Collas, B. C., *La Turquie en 1864* (Paris, 1864)
Collas, B. C., *La Turquie en 1861* (Paris, 1861)
Cooke, M. A., and Parry, V. J., eds., *A History of the Ottoman Empire to 1730* (Cambridge, 1976)
Corbin, Alain, *The Foul and the Fragrant: Odor and the French Social Imagination* (Cambridge, Mass., 1986)
Creasy, E. S., *History of the Ottoman Turks, from the Beginning of their Empire to the Present Time* (London, 2 vols., 1856)
Croutier, Alev Lytle, *Harem: The World Behind the Veil* (New York, 1989)
Cuinet, Vital, *La Turquie d'Asie: géographie administrative statistique descriptive et raisonée* (Paris, 4 vols., 1890)
Curtis, William Elroy, *The Turk and his Lost Provinces* (Chicago, 1903)
Curzon, Robert, *Armenia: a Year at Erzeroom and on the Frontiers of Russia, Turkey and Persia* (London, 1854)
Daniel, Norman, *Islam and the West: the Making of an Image* (Edinburgh, 1980)
Davey, R., *The Sultan and his Subjects* (New York, 2 vols., 1897)
Davis, Fanny, *The Ottoman Lady: a Social History from 1718 to 1918* (Westport, Conn., 1986)
Davis, James C., *Pursuit of Power: Venetian Ambassadors' Reports on Spain, Turkey and France in the Age of Philip II* (New York and London, 1970)
Davison, Roderic H., *Essays in Ottoman and Turkish History, 1774–1923: the Impact of the West* (Austin, Tex., and London, 1991)
Davison, Roderic H., *Reform in the Ottoman Empire, 1856–1876* (Princeton, NJ, 1963)

Devereux, Robert, *The First Ottoman Constitutional Period: a Study of the Midhat Constitution and Parliament* (Baltimore, Md., 1963)
Douglas, Roy, 'Britain and the Armenian Question, 1894–7', *The Historical Journal*, 19:1 (1976) 113–33
Dover, John, *War Without Mercy: Race and Power in the Pacific War* (New York, 1986)
Duffy, Christopher, *The Fortress in the Age of Frederick the Great and Vauban* (London and Boston, Mass., 1985)
Duffy, Christopher, *Siege Warfare: the Fortress in the Early Modern World, 1494–1660* (London, 1979)
Dwight, H. G., *Constantinople Old and New* (New York, 1915)
Dwight, H. G., *Turkish Life in Wartime* (New York, 1881)
Dyer, Gwynne, 'Turkish "Falsifiers" and Armenian "Deceivers": historiography and the Armenian massacres', *Middle East Studies*, 12 (1976), 99–107
Eliot, Charles, ('Odysseus'), *Turkey in Europe* (London, 1900)
Engelhardt, E., *La Turquie et le Tanzimat . . . ou l'histoire des reformes depuis 1826* (Paris, 1882)
Eton, W. A., *A Survey of the Turkish Empire* (London, 2nd edn, 1799)
Eyries, J. B. B., *La Turquie ou costumes mœurs et usages des turcs* (Paris, n.d.)
Farley, J. L., *The Decline of Turkey, Financially, Politically* (London, 1875)
Fesch, Paul, *Constantinople aux derniers jours d'Abdul Hamid* (Paris, 1907)
Findley, Carter V., *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: the Sublime Porte 1789–1922* (Princeton, NJ, 1980)
Fine Art Society, *Travellers Beyond the Grand Tour* (London, 1980)
Flandrin, Jean-Louis, *Un temps pour embrasser: aux origines de la moralle sexuelle, VIe–XIe siècle* (Paris, 1983)

Focief, O., *La Justice turque et les reformes à Macedoine: perles de la justice turque* (Paris, 1907)
Fontemagne, Durand de, *Un séjour à l'ambassade de France* (Paris, 1902)
Ford, Richard, *The Handbook for Travellers in Spain* (London, 2 vols., 1845)
Foster, J., ed., *The Travels of John Sanderson in the Levant, 1584–1602* (London, 1931)
Fromkin, David, *A Peace to End All Peace: the Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York, 1989)
Garnett, Lucy, *The Women of Turkey and their Folklore* (London, 2 vols., 1890)
Gaulis, Georges, *La Ruine d'un empire: Abd-ul-Hamid, ses amis et ses peuples* (Paris, 1913)
Gautier, Théophile, *Constantinople of Today* (tr., London, 1854)
Geary, Grattan, *Through Asiatic Turkey: Narrative of a Journey from Bombay to the Bosphorus* (London, 2 vols., 1878)
Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire* (London, 6 vols., 1910 edn)
Girouard, Mark, *The Victorian Country House* (New Haven, Conn., and London, 2nd edn, 1979)
Gladstone, W. E., *The Bulgarian Horrors and the Question of the East* (London, 1876)
Göcek, Fatma Müge, *East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century* (New York and Oxford, 1987)
Gollner, Carl, *Turcica: Die Europäischen Turkendrucke des XVI Jahrhunderts* (Bucharest and Baden-Baden, 2 vols., 1968)
Goodwin, Godfrey, *A History of Ottoman Architecture* (London, 1971)
Gran, P., 'Political economy as a paradigm for the study of

Islamic history' *International Journal of Middle East Studies*, 11 (1980), 511–26
Grey, Hon. Mrs William, *Journal of a visit to Egypt, Constantinople . . . in the Suite of the Prince and Princess of Wales* (London, 1869)
Grosrichard, Alain, *Structure du sérail: la fiction du despotisme asiatique dans l'Occident classique* (Paris, 1979)
Grosvenor, Edwin Augustus, *Constantinople* (Boston, Mass., 2 vols., rev. edn, 1900)
Habesci, E., *The Present State of the Ottoman Empire etc.* (London, 1784)
Haddad, William W., and Ochsenwald, William L., eds., *Nationalism in a Non-National State: the Dissolution of the Ottoman Empire* (Columbus, Ohio, 1977)
Halit, Mehmed Beyri, *Istanbul* (Istanbul, 1951)
Hamlin, Cyrus, *Among the Turks* (New York, 1878)
Hamlin, Cyrus, *My Life and Times* (Boston, Mass., 1893)
Hammer-Purgstall, J. von, *Histoire de l'empire ottoman* (tr., Paris, 1835)
Harris, David, *Britain and the Bulgarian Horrors of 1876* (Chicago, 1939)
Harvey, Annie Jane, *Turkish Harems and Circassian Homes* (London, 1871)
Heath, Ian, *Armies of the Middle Ages, Vol. 2: the Ottoman Empire, Eastern Europe and the Near East, 1300–1500* (London, 1985)
Heper, Metin, *The State Tradition in Turkey* (London, 1985)
Herbert, William V., *The Defence of Plevna, 1877, Written by One Who Took Part in It* (London, 1895)
Hess, Andrew, *The Forgotten Frontier: a History of the Sixteenth-Century Ibero-African Frontier* (Chicago, 1978)
Hess, Andrew, 'The Battle of Lepanto and its place in Mediterranean history' *Past and Present*, 57, November 1972, 53–73
Hess, Andrew, 'The evolution of the Ottoman seaborne empire

in the light of oceanic discoveries, 1453–1525', *American Historical Review*, LXXV (December 1970), 1889–1919
Hess, Andrew, 'The Moriscos: an Ottoman fifth column in sixteenth-century Spain', *American Historical Review*, LXXIV (October 1968), 1–25
Heyd, Uriel, 'The Ottoman *Ulema* and westernisation in the time of Selim III and Mahmud II', *Scripta Hierosolymitana*, IX (1961), 63–96
Heywood, C. J., 'Sir Paul Rycaut, a seventeenth-century observer of the Ottoman state: notes for a study', in *English and Continental Views of the Ottoman Empire, 1500–1800* (Los Angeles, 1972)
Hibbert, Christopher, *The Great Mutiny* (London, 1978)
Hodge, Robert, and Kress, Gunther, *Language as Ideology* (London and New York, 2nd edn, 1993)
Hornby, Edward, *An Autobiography* (London, 1928)
Hourani, Albert, *A History of the Arab Peoples* (Cambridge, Mass., 1991)
Hubbard, G. E., *The Day of the Crescent: Glimpses of Old Turkey* (Cambridge, 1920)
Huntington, Samuel, *Political Order in Changing Societies* (New Haven, Conn., 1968)
Ihsanoğlu, Ekmeleddin, *Istanbul: a Glimpse into the Past* (Istanbul, 1987)
Inalcik, Halil, *The Ottoman Empire* (London, 1973)
Inalcik, Halil, *The Ottoman Empire: Conquest, Organisation and Economy – Reprinted Essays* (London, 1978); includes 'Ottoman methods of conquest' and 'Military and fiscal transformation of the Ottoman empire'
Issawi, Charles, *An Economic History of the Middle East and North Africa* (New York and London, 1982)
Itzkovitzs, Norman, 'Eighteenth-century Ottoman realities', *Studia Islamica*, Fas. XVI (1962), 73–94
Itzkovitzs, Norman, *Ottoman Empire and Islamic Tradition* (Chicago, 1980)

Itskovitzs, Norman, and Mote, Max, *Mubadde: an Ottoman–Russian Exchange of Ambassadors* (Chicago, 1984)
James, Lawrence, *The Golden Warrior: the Life and Legend of Lawrence of Arabia* (London, 1990)
Juchereau de St Denys, *Histoire de l'empire ottoman depuis 1792 jusqu'en 1844* (Paris, 4 vols., 1844)
Juler, Caroline, *Les Orientalistes de l'école italienne* (Paris, 1987)
Jullien, Philippe, *The Orientalists: European Painters of Eastern Scenes* (Oxford, 1977)
Kabbani, Rana, *Europe's Myths of Orient: Devise and Rule* (Basingstoke, 1986)
Karpat, E., 'Ottoman population records and the census of 1881/2', *International Journal of Middle East Studies*, 9 (1978), 237–74
Kellner-Heinkele, Barbara, and Rohwedder, Dorothea, eds., *Türkische Kunst und Kultur aus Osmanischer Zeit* (Recklinghausen, 2 vols., 1985)
Kelsall, Malcolm, 'The slave woman in the harem', *Studies in Romanticism*, 31:3 (fall 1992), 315–31
Kent, Marian, ed., *The Great Powers and the End of the Ottoman Empire* (London, 1984)
Kiernan, V. G., *The Lords of Human Kind: European Attitudes to the Outside World in the Imperial Age* (London, 1969)
Kinross, Lord, *Atatürk: the Rebirth of a Nation* (London, 1964)
Kinross, Lord, *The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire* (New York, 1977)
Kreutal, Richard E., ed., *Kara Mustafa vor Wien: Das Turkische Tagebüch der Belägerung Wiens 1683, verfasst von Zeremonienmeister des Hohen Pforte* (Graz, 1960)
Krikorian, Mesrob K., *Armenians in the Service of the Ottoman Empire, 1860–1908* (London and Boston, Mass., 1977)

Kritovoulos, Michael, *History of Mehmed the Conqueror* (tr., Princeton, NJ, 1954)

Kunt, Metin, 'Ethnic regional solidarity in the seventeenth-century Ottoman establishment', *International Journal of Middle East Studies*, 5 (1974), 233–9

Kushner, David, *The Rise of Turkish Nationalism, 1876–1908* (London, 1977)

Landau, Jacob M., *Abdul-Hamid's Palestine: Rare Century-Old Photographs from the Collection of the Ottoman Sultan now Published for the First Time* (London, 1976)

Landau, Jacob M., *Pan-Turkism in Turkey* (London, 1981)

Lane Poole, Stanley, *The Life of the Right Honourable Stratford Canning, Viscount Stratford de Redcliffe* (London, 2 vols., 1888)

Lane Poole, Stanley, ed., *The People of Turkey* (London, 2 vols., 1878)

Langer, William L., *European Alliances and Entanglements* (New York, 1931)

Larpent, George, *Turkey: its History and Progress* (London, 2 vols., 1854)

Lawrence, T. E., *The Seven Pillars of Wisdom: a Triumph* (London, 1935)

Levy, Avidgor, 'The officer corps in Sultan Mahmud II's new Ottoman army, 1826–39', *International Journal of Middle East Studies*, 2 (1971), 21–39

Lewis, Bernard, *The Emergence of Modern Turkey* (London and New York, 2nd edn, 1968)

Lewis, Bernard, *Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire* (Norman, Okla., 1963)

Lewis, Bernard, *The Jews of Islam* (London, 1984)

Lewis, Bernard, *The Muslim Discovery of Europe* (New York, 1982)

Lewis, Bernard, 'Ottoman observers of Ottoman decline', *Islamic Studies*, 1 (1962), 71–87

Lewis, Bernard, 'Some reflections on the decline of the Ottoman empire', *Studia Islamica*, Fas. IX (1958), 111–27

Lewis, Raphaela, *Everyday Life in Ottoman Turkey* (London and New York, 1971)

Llewellyn, Briony, *The Orient Observed: Images of the Middle East from the Searight Collection* (London, 1989)

Llewellyn, Briony, and Newton, Charles, *The People and Places of Constantinople: Watercolours by Amadeo Count Preziosi, 1816–1882* (London, 1985)

Loti, Pierre, *Aziyadé*, tr. Marjorie Laurie (London, 1927)

Lott, Emmeline, *The Governess in Egypt: Harem Life in Egypt and Constantinople* (London, 2 vols., 1865)

Lustful Turk, or Scenes in the Harem of an Eastern Potentate, Faithfully and Vividly Depicted in a series of letters from a young and beautiful English lady to her Cousin in England – The full particulars of her ravishment and of her complete abandonment to all the salacious Tastes of the Turks described with the zest and simplicity which always gives guarantee for its authenticity, The (London, 1985 edn)

Lyly, John, *Euphues, The Anatomy of Wit* (London, 1868 edn)

McCullagh, F., *The Fall of Abd ul Hamid* (London, 1910)

Macfarlane, Charles, *Constantinople in 1828: a Residence of Sixteen Months in the Turkish Capital and Provinces with an Account of the Present State of the Naval and Military Power and of the Resources of the Ottoman Empire* (London, 2 vols., 1829)

Macfarlane, Charles, *Turkey and its Destiny: The Results of Journeys Made in 1847 and 1848 to Examine into the State of that Country* (London, 2 vols., 1850)

Macgill, Thomas, *Travels in Turkey, Italy and Russia During the Years 1803, 1804, 1805, and 1806, with an Account of Some of the Greek Islands* (London, 2 vols., 1808)

McNeill, William, *Europe's Steppe Frontier, 1500–1800* (Chicago, 1964)

McNeill, William, *The Pursuit of Power* (Oxford, 1983)
Mantran, Robert, ed., *Histoire de l'empire ottoman* (Paris, 1989)
Mantran, Robert, *La Vie quotidienne à Istanbul au siècle de Soliman le Magnifique* (Paris, 1990)
Marcus, Steven, *The Other Victorians: a Study of Sexuality and Pornography in Mid-Nineteenth-Century England* (London, 1964)
Marsigli, Luigi Ferdinandino, *L'État militaire de l'empire ottoman* (Amsterdam, 2 parts, 1732; facsimile edn Graz, 1972)
Marx, Robert F., *The Battle of Lepanto, 1571* (Cleveland and New York, 1966)
Mas, Albert, *Les Turcs dans la littérature espagnole du Siècle d'Or* (Paris, 2 vols., 1967)
Mason, Archibald, *Remarks on the Sixth Vial and the Fall of the Turkish Empire* (Glasgow, 1827)
Melman, Billie, *Women's Orients: English Women and the Middle East* (Basingstoke, 1992)
Melville Jones, J. R., tr. and ed., *The Siege of Constantinople, 1453: Seven Contemporary Accounts* (Amsterdam, 1972)
Midhat, Ali Haydar, *The Life of Midhat Pasha* (London, 1903)
Military Costume of Turkey, The (London, n.d.)
Miller, Barnette, *Beyond the Sublime Porte: the Grand Seraglio of Constantinople* (New Haven, Conn., 1931)
Miller, William, *The Ottoman Empire and its Successors, 1801–1927* (London, 1966)
Millingen, Frederick, (Osman Bey), *Les Femmes en Turquie* (Paris, 1878)
Millingen, Frederick, (Osman Bey), *La Turquie sous la regne de Abdul Aziz* (Paris, 1869)
Moltke, Helmut von, *Briefe über Zustände und Begenbenheiten ... in Türkei aus den Jahren 1835 bis 1839* (Berlin, 1839)

Moneypenny, W. F., and Buckle, G. H., *The Life of Benjamin Disraeli, Earl of Beaconsfield* (London, 6 vols., 1910–20)
Montagu, Lady Mary Wortley, *The Complete Letters of Lady Mary Wortley Montagu: vol. 1, 1708–1720*, ed. Robert Halsband (Oxford, 1965)
Morley, John, *The Life of William Ewart Gladstone* (London, 2 vols., 1908)
Mundy, Peter, *The Travels of Peter Mundy in Europe and Asia, 1608–1667* (Cambridge, 2 vols., 1907)
Murphy, Dervla, *Embassy to Constantinople: the Travels of Lady Mary Wortley Montagu* (London, 1988)
Murray, John, *Handbook for Travellers in Turkey* (London, 1878 and 1893 edns)
Museum voor Volkenkunde, *Images of the Orient: Photography and Tourism, 1860–1900* (Amsterdam, 1986)
Nassibian, Akaby, *Britain and the Armenian Question, 1915–1923* (London and New York, 1984)
Necipoğlu, G., *Architecture, Ceremonial and Power: the Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries* (Boston, Mass., 1991)
Newton, Charles, 'Stratford Canning's pictures of Turkey' in *V & A Album No. 3* (London, 1984), pp. 76–83
Nouri, Ali, *Abdul Hamid in Karikatur: Intimes aus Yildiz Kiosk in Wort und Bild* (Constantinople, 1910)
Ochsenwald, W., *The Hijaz Railroad* (Charlottesville, NC, 1980)
Ohsson, I. M. D', *Tableau général de l'empire ottoman* (Paris, 7 vols., 1788–1824)
Osman Aga, *Leben und Abenteur des Dolmetschers Osman Aga: eine Türkische Autobiographie aus der Zeit der Grossen Krieg gegen Osterreich* (tr., Bonn, 1954)
Osmanoğlu, Aïché, *Avec mon père le sultan Abdulhamid de son palais à sa prison* (Paris, 1991)
Owen, Roger, *The Middle East in the World Economy, 1800–1914* (London and New York, 1981)

Pallis, Alexander, *In the Days of the Janissaries* (London, 1951)

Palmer, Alan, *The Banner of Battle: the Story of the Crimean War* (London, 1987)

Palmer, Alan, *The Decline and Fall of the Ottoman Empire* (London, 1992)

Pardoe, Julia, *The Beauties of the Bosphorus* (London, 4 vols., 1838)

Pardoe, Julia, *The City of the Sultans and Domestic Manners of the Turks in 1836* (London, 2 vols., 1837)

Parry, V. J., 'The Ottomans and the conquest of the Balkans' (unpublished paper delivered to the Past and Present conference, 1971)

Pears, Sir Edwin, *Forty Years in Constantinople* (London, 1916)

Penzer, Nicolas, *The Harem* (London, 1936)

Pereira, Michael, *Istanbul: Aspects of a City* (London, 1968)

Picturesque Representations of the Dress and Manner of the Turks (London, 1827)

Pierce, Joe E., *Life in a Turkish Village* (New York, 1964)

Polk, William R., and Chambers, Richard L., eds., *The Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century* (Chicago, 1968)

Pope, Alexander, *The Poems of Alexander Pope* (London, 1963)

Progress of Turkey by Eyewitnesses, The (London, n.d.)

Quataert, Dennis, *Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire, 1881–1908: Reactions to European Economic Penetration* (New York, 1983)

Reed, H. A., *The Destruction of the Janissaries by Mahmud II* (unpublished Ph.D. thesis, Princeton University, NJ, 1951)

Regla, Paul de, *La Turquie officielle: Constantinople, son gouvernement, ses habitants, son présent et avenir* (Geneva, 1891)

Regla, Paul de, *Les secrets de Yildiz* (Paris, 1897)
Rogers, J. M., ed., *The Topkapi Saray Museum – Textiles* (Boston, Mass., 1986)
Rogers, J. M., and Ward, R. M., *Suleyman the Magnifcent* (London, 1988)
Rogers, Mary Eliza, *Domestic Life in Palestine* (London, 1862)
Rose d'Amour (New York, 1978 edn)
Rouillard, Clarence Dana, *The Turk in French History, Thought and Literature, 1520–1660* (Paris, 1941)
Runciman, Steven, *Byzantine Civilisation* (London, 1933)
Runciman, Steven, *The Fall of Constantinople, 1453* (Cambridge, 1965)
Rustow, D. A., 'The army and the founding of the Turkish Republic', *World Politics*, XI (1949), 513–52
Ryan, Sir Andrew, *The Last of the Dragomans* (London, 1951)
Sade, Marquis de, *The One Hundred and Twenty days of Sodom* (London, 1989)
Said, Edward W., *Orientalism* (London, 1978)
St Clair, William, *That Greece Might Still be Free* (London, 1972)
Saliba, N. E., 'The achievements of Midhat Pasha as governor of the province of Syria, 1878–80', *International Journal of Middle East Studies* 9 (1978), 307–23
Scarce, Jennifer M., 'Turkish fashion in transition', *Costume: The Journal of the Costume History Society*, 14 (1980), 114–67
Scarce, Jennifer M., *Women's Costume in the Near and Middle East* (London, 1987)
Schama, Simon, *Two Rothschilds and the Land of Israel* (London, 1977)
Schlumberger, Gustave, *La prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453* (Paris, 1926)
Schulz, Muriel R., 'The semantic derogation of women', in B. Thorne and N. Henley, eds., *Language and Sex: Difference and Dominance* (Rowley, Mass., 1975)

Schwoebel, Robert, *The Shadow of the Crescent: the Renaissance Image of the Turk, 1453–1517* (Nieuwkoop, 1967)

Searight, Sarah, *The British in the Middle East* (London, 1969)

Senior, Nassau W., *A Journal Kept in Turkey and Greece in the Autumn of 1857 and the Beginning of 1858* (London, 1859)

Setton, Kenneth M., *Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century* (Philadelphia, 1991)

Setton, Kenneth M., *Western Hostility to Islam and Prophecies of Turkish Doom* (Philadelphia, 1992)

Shannon, Richard, *Gladstone and the Bulgarian Agitation, 1876* (London, 1963)

Shaw, Ezel Kural, 'The double veil: travelers' views of the Ottoman empire, sixteenth through eighteenth Centuries' in Ezel Kural Shaw and C.J. Heywood, *English and Continental Views of the Ottoman Empire, 1500–1800* (Los Angeles, 1972)

Shaw, Stanford J., *Between Old and New: the Ottoman Empire under Sultan Selim III, 1789–1807* (Cambridge, Mass., 1971)

Shaw, Stanford J., 'The population of Istanbul in the nineteenth century', *International Journal of Middle East Studies* 10 (1979), 265

Shaw, Stanford J., and Shaw, Ezel Kural, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey* (Cambridge, 2 vols., 1977)

Shay, Mary Lucille, *The Ottoman Empire from 1720–1734 as Revealed by the Dispatches of the Venetian Baili* (Urbana, Ill., 1944)

Sieverich, Gieron, and Budde, Heinrich, eds., *Europa und der Orient, 800–1900* (Berlin, 1989)

Slade, Adolphus, *Record of Travels in Turkey, Greece, etc. and of a Cruise in the Black Sea with the Captain Pasha in the Years 1828, 1829, 1830, 1831* (Philadelphia, 2 vols., 1833)

Smets, M., *Wien in und aus der Türken Bedrängnis, 1529–1683* (Vienna, 1893)
Smith, Albert, *A Month at Constantinople* (London, 1850)
Smith, C., *The Embassy of Sir William White at Constantinople, 1886–91* (London, 1957)
Smyth, Warington W., *A Year with the Turks, or Sketches of Travel in the European and Asiatic Dominions of the Sultan* (New York, 1854)
Some Notes on Turkey (London, 1867)
Spry, William, *Life on the Bosphorus: Doings in the City of the Sultan . . . Turkey Past and Present* (London, 1885)
Stoneman, Richard, *Across the Hellespont: a Literary Guide to Turkey* (London, 1987)
Stoye, John, *The Siege of Vienna* (London, 1964)
Sugar, Peter F., *South-Eastern Europe under Ottoman Rule* (Washington, DC, 1977)
'Sultan's Reverie: an Extract from the Pleasures of Cruelty', *The Pearl* 18 (1878), 617–25
Sumner, B. H., *Peter the Great and the Ottomans* (Oxford, 1949)
Sutton, Sir Robert, *The Dispatches of Sir Robert Sutton, Ambassador in Constantinople 1710–14*, ed. Akdes Nimet Kurat, (London, 1953)
Sykes, Mark, *Dar ul Islam* (London, 1904)
Thorne, B., and Henley, N., eds., *Language and Sex: Difference and Dominance* (Rowley, Mass., 1975)
Thornton, Lynne, *The Orientalists: Painters–Travellers, 1825–1908* (Paris, 1983)
Thornton, Lynne, *Women as Portrayed in Orientalist Painting* (Paris, 1983)
Thornton, Thomas, *The Present State of Turkey, or a Description . . . of the Ottoman Empire* (London, 2 vols., 1809)
Toledano, Ehud, *The Ottoman Slave Trade and its Suppression, 1840–1890* (Princeton, NJ, 1982)

Tott, Baron François de, *Memoires du Baron de Tott sur les Turcs et les Tartares* (Paris, 2 vols., 1785)
Tournefort, J. P. de, *Journey into the Levant* (tr., London, 3 vols., 1741)
Toynbee, Arnold J., and Kirkwood, Kenneth P., *Turkey* (London, 1926)
Tugay, Emine Foat, *Three Centuries: Family Chronicles of Turkey and Egypt* (London and New York, 1963)
Turkey in 1860 (London, 1861)
Turkey and Christendom: an Historical Sketch (London, 1853)
Turkey and Great Britain (London, 1849)
Turkish National Commission, for UNESCO, *Atatürk* (Ankara, 1981)
Turks' Vision of the Fall of Constantinople, The (London, 1877)
Ubicini, J. H., *Letters on Turkey* (tr., London, 2 vols., 1856)
Uras, Esat, *The Armenians in History and the Armenian Question* (Istanbul, 1988)
Urquhart, David, *The Spirit of the East, or Pictures of Eastern Travel* (London, 2 vols. in 1, 1839)
Vambéry, A., *Das Türkenvolk* (Leipzig, 1885)
Vambéry, A., *La Turquie d'aujourd'hui et d'avant quarante ans* (Paris, 1898)
Van Millingen, Alexander, *Byzantine Churches: their History and Architecture* (London, 1891)
Van Millingen, Alexander, *Byzantine Constantinople: the Walls of the City and Adjoining Historic Sites* (London, 1899)
Vaughan, Dorothy, *Europe and the Turk: a Pattern of Alliances, 1350–1700* (Liverpool, 1954)
Vigarello, George, *Le Propre et le sale: l'hygiène du corps depuis le Moyen Age* (Paris, 1985)
Vucinich, Wayne S., *The Ottoman Empire, its Record and Legacy* (Huntington, NY, 1979)

Walker, Warren S., and Uysal, Ahmet E., *More Tales Alive in Turkey* (Lubbock, Tex., 1992)
Walker, Warren S., and Uysal, Ahmet E., *Tales Alive in Turkey* (Lubbock, Tex., 1990)
Wallach, Jehuda C., *Anatomie eine Militärhilfe: die Preussich-Deutschen Militärmissionen in der Türkei* (Düsseldorf, 1976)
Walsh, Robert, *Constantinople and the Scenery of the Seven Churches of Asia Minor* (London, n.d.)
Walsh, Robert, *Narrative of a Journey from Constantinople to England* (London, 1828)
Walsh, Robert, *Narrative of a Residence at Constantinople* (London, 2 vols., 1836)
Ward, Robert E., and Ruston, Dankwaert A., eds., *Political Modernization in Japan and Turkey* (Princeton, NJ, 1964)
Washburn, G., *Fifty Years in Constantinople* (New York, 1909)
What is to be done with Turkey? (London, 1850)
White, W. W., *The Process of Change in the Ottoman Empire* (Chicago, 1937)
White, Charles, *Three Years in Constantinople, or Domestic Manners of the Turks in 1844* (London, 3 vols., 1845)
Young, Robert, *White Mythologies: Writing History and the West* (London and New York, 1990)
Zadeh Pasha, Kemal, *Histoire de la campaigne de Mohács*, tr. and ed. A. J. B. Pavet de Courteille (Paris, 1859)
Zamoyski, Adam, *The Polish Way: a Thousand-Year History of the Poles and Their Culture* (London, 1987)
Zygulski, Zdzislaw, Jr, *Ottoman Art in the Service of the Empire* (New York and London, 1992)

نبذة عن المؤلف

أندرو ويتكروفت Andrew Wheatcroft؛ تلقّى تعليمه في جامعتي كامبريدج ومدريد. وهو مؤلف الكثير من الكتب عن التاريخَين الحديث المبكّر والحديث، منها كتاب **آل هابسبورج** (1996)، وكتاب الكفار: **تاريخ الصراع بين المسيحية والإسلام** (2003) الذي أمضى في كتابته أكثر من سبعة عشر عاماً. ويعمل ويتكروفت حالياً مديراً لمركز نشر الدراسات بجامعة ستيرلينج بالمملكة المتحدة، وأستاذاً في قسم الدراسات الإنجليزية في الجامعة نفسها.

العثمانيون
تفكيك الصور

ليس هذا الكتاب تأريخاً عاماً للإمبراطورية العثمانية، ولا يتناول دهاليز السياسة العثمانية أو تعقيدات الدبلوماسية الدولية في القرون التي أعقبت سيطرة العثمانيين على القسطنطينية عام 1543، بل يدور الكتاب حول «صورة» العثمانيين والغموض الملاحظ الذي صبغ الفهم الغربي للعثمانيين على مدى القرون التي وُجدت فيها الإمبراطورية العثمانية، والذي هو مستمر حتى وقتنا الحاضر؛ إذ يبدو أن العلاقة بين تركيا الحديثة وأوروبا ماتزال أسيرة مخاض مواقف تلك القرون.

لقد انطوت صفحة الإمبراطوريات العظيمة، البريطانية والروسية والألمانية والنمساوية-المجرية التي لطالما ازدرت العثمانيين بوصفهم «رجل أوروبا المريض»، بيد أن العثمانيين عاشوا أطول منها جميعاً. واليوم، مايزال التأثير المنتشر «للثقافة العثمانية» حاضراً في جميع أنحاء الشرق الأوسط وفي أجزاء من أوروبا حتى يومنا هذا. فلا يمكن بجرة قلم أو من خلال إعادة رسم نظري للحدود على الخريطة إطفاء ثقافة دامت أربعمائة عام.

هذا الكتاب يركز على الحياة الداخلية للعالم العثماني بأعين غربية، وهو يسعى لتسليط الضوء على ثقافة لطالما تعرضت للتشويه والإهمال في العالم الغربي.


ISBN 978-9948-14-993-4